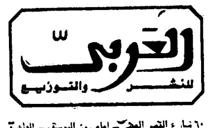
د. عبد الفتاح مقلد الغنيمي

الإسلام والعروبة في السودان

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



٦٠ شارع القصر العيني امام روز اليوسف - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهـــــداء

الى ابنى

أحمـــــد ومحمـــد

أقـدم لهمـا هـذا الانتاج العـلمى

لعـله يضىء الطريق أمامهما ليواصلا المسيرة العلميـة ..

دكتـور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

تصـــــدير

السودان توأم مصر وما بينهما انما هى روابط أزلية وليس حدودا سياسية أو مياه نهر النيل أو شمال الوادى وجنوبه ، انما يربط السودان بمصر صلة الرحم الواحدة والأسرة الواحدة حيث القبيلة الواحدة بعضها فى السودان والبعض الآخر فى مصر ، انها صلة دماء واحدة وأصول عرقية وتاريخية واحدة ومن هنا فان ما جمعه الله لا يفرقه بشر ذلك الرباط المقدس الذى يجمع السودانى مع أخيه المصرى لا يمكن أن تنفصم عراه رغم كل المحاولات والدسائس ورغم كل المحاولات القديمة والحديثة التى تحاك ضد الترابط المصرى السودانى ، فان كل هذه المحاولات لا شك فاشلة كل الفشل لأن صلة الرحم لا تفصمها المحاولات •

وهذا ما أشرت اليه من خلال تلك الدراسة عن الاسلام والعروبة فى السودان موضحا الدور المصرى الأخوى الثابت مع اخوة السودان منذ وطئت أنوار الاسلام ديار مصر والسودان فهل تكون تلك الدراسة تحـديدا وتوضـيحا لكل الذين يحـاولون النيـل من توأم مصر فى الجنوب ؟ ذلك لأن مصر ظلت دوما تعطى وتأخـذ ، وما أعطتـه مصر للسودان هى الفرشة العريضة التى قامت عليها حضارة السودان وثقافته العربية الاسلامية ، فهل فى ذلك منازع فى دور مصر التى هى ومازالت قبلة العالم وصرة المعمورة المسكونة وملتقى الشرق والغرب ومجمع الشمال والجنوب فكيف لا تكون صلاتها وثيقة أبد الدهر مع السودان •

ان مصر قدر السودان ، والسودان قدر مصر فهل ما جمعه القدر يحاول أن يبعده بشر ؟ ان كل الذين يطالعون هذه الدراسة يعرفون البعد الحقيقى للروابط التوأمية بين مصر والسودان •

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

« تمهيـــد »

السودان جسر العروبة والاسلام محبب الى كل مصرى وعربى ومسلم لمكانته ودوره العربى الاســلامى فى قلب القارة الافريقيــة ولـما يقوم به من دور فى محاولة صبغ الحياة العربية الاسلامية فوق ربوع أرضه ولعلاقاته بالدول الافريقية المجاورة •

ولقد كان السودان قريبـا منى فى دراستى الأكاديمية لدرجتى الماجستير والدكتوراة اذ احتل السودان وعلاقاته جزءا هاما فى هاتين الرسالتين ، ولما كان وجود المادة فى فحوى هاتين الرسالتين دافعا لى لأن أقوم بتلك الدراســة الا أن الظروف لم تكن مناســبة للمضى فى تفاصيل دراسة اسلامية عن الاسلام لا سيما أن هناك العــديد من المؤلفات والأبحاث حول ذلك الموضــوع ، لكن كل منها كان يعــالج الموضوع من زاوية معينة •

ولقد اطلعت على كتاب عن السودان ألفه أحد الاخوة السودانيين وطبع عام ١٩٧٥ بالخرطوم يقول فيه بالحرف الواحد : يجب ألا ننسى أن العروبة طارئة على السودان ، كمـا أن العرب قوم طارئون على هذه الديار •

ولقد كان ذلك دافعا لان أقدم تلك الدراسة التى اثبت من خلالها أن العروبة أصيلة كل الاصالة فى السودان بل هى قديمة قدم الانسان السودانى ، ذلك لأن الدراســات الاركيولوجيــة أثبتت أن العروبة فى السودان تعود الى القرن السابع قبل الميلاد وأن العروبة والاســلام قـد ازداد دورهما بظهـور أنوار الاســلام وشمول السودان بتلك الأنوار القرآنية التى لولا محاولات التبشــير الاستعمارى لما عانى السودان من مشكلة الجنوب التى لا تزال تشكل عقبة فى سبيل تقدم السودان وتطوره •

ومن هنا كانت تلك الدراسة لمحة عن الاسلام والعروبة فى تلك الديار التى يقــع عليها دور كبــير فى نشر العروبة والاســلام فى القارة الافريقية •

المقـــدمة

الحمد لله رب العالمين والصـلاة والســلام على خاتم الأنبيـاء والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه الى يوم الدين .. أما بعد

فتلك هى دراسة عن الاسلام والعروبة فى السودان نضعها بين يدى الاخوة القراء الذين يتابعون حركة انتشار المد الاسلامى فى أقطار الأرض المعمـورة لكى يقفوا على العـوامل التى ساعدت على ذلك الانتشار وما هى المعوقات التى حـدت ووقفت عقبة كداء فى سـبيل دخول ذلك التيار العربى الاسلامى الى أبعاده البعيدة .

كما أن تلك الدراسة عن السودان تقف عند الفترة التى قام فيها الوالى التركى محمد على بفتح السودان عام ١٨٢٠م . حيث كانت السلطنات الاسلامية تمارس دورها السياسى فى حكم السودان وقد قسمت تلك الدراسة الى سبعة أبواب :

تناولت فى الباب الأول : دراسة معابر الاسلام الى السودان . فتحـدثت عن معبر برزخ السويس وشبه جزيرة سيناء والبحر الأحمر وباب المندب ودور مصر باعتبارها نقطة انطلاق الى الجنوب وكذلك بلاد المغرب العربى حيث انطلاق القبائل العربية الى بلاد السودان .

وفى الباب الثـانى تحدثت عن الهجرات العربيـة الى السودان فتناولت دراسة حركة الهجرة العربية الى تلك المناطق قبل الاسلام ، وكيف كان فتح مصر منطلقا لكثافة حركة الهجرة العربية ، ثم كيف جاءت مرحلة الأحلاف العربية فى مصر بين القبـائل العربية لتفتح المجال على مصراعيه أمام تلك الهجرات العربية .

وفى الباب الثالث : تحدثت عن الفتح الاسلامى لمصر والعلاقات المصرية السودانية وكيف ســاعد ذلك على انتشار الاســلام وكثافة الهجرة العربية والدولة الطولونية والعلاقة مع السودان وكذلك الدولة الأخشيدية وأثرها فى بلاد النوبة وزيادة الصلة ، والخلافة الفاطمية وموقف العلاقة مع أهل النوبة ، ثم دور الأيوبيون فى بلاد النوبة ، وكذلك كان الفصل الأخير عن العصر المملوكى والنوبة الاسلامية .

وفى الباب الرابع تحدثت عن الممالك المسيحية وكيفية انتشــار المسيحية ، وتحدثت عن مملكة مقره فى العصر المسيحى وكيف انتشرت المسيحية بها ودور مصر فى ذلك وكذلك عن ســقوطها تحت الحكم الاســلامى وكذلك عن مملكة علوة وانتشـــار المسيحية بها والمذهب المسيحى السائد وكيف سقطت علوة وانتشر الاسلام بها .

وفى الباب الخامس ، تحدثت عن السلطنات والامارات الاسلامية التى قامت فى السودان وكيف كانت الامارية العمرية (زعامة شتقير) بداية تأسيس أول امارة عربية فى شمال السودان وكذلك تحدثت عن امارة بنى كنز العربيـــة وكيف كان دور الكنوز عبر تاريخ السودان وكيف تولوا الحكم الاسلامى فى دنقلة فى العصر المملوكى .

كذلك تحدثت عن سلطنة الفونج ودورها فى صبغ الحياة الاسلامية فى ذلك الجزء من السودان ، كذلك تحدثت عن مشيخة العبــدلاب ودورها فى مساندة الفونج وتدعيم نفوذهم وكيف ظهرت تلك المشيخات العربية واستطاعت أن تقوض البناء الســياسى لملكة علوة ، كذلك تحدثت عن سلطنة الفور الاسلامية وكيف لعبت دورا هاما فى تعريب السودان وخاصة فى تلك المناطق الغربية (دارفور وكردفان) ، كذلك تحدثت عن امارة تقلى وأثرها فى منطقة جبال النوبة وكردفان فى اثراء الحركة الاسلامية .

وكان الفصل السادس فتحدثت عن القبائل العربية فى السودان وركزت على معالجة أهم القبائل العربية التى نزحت الى تلك الديار وما قامت بــه من أدوار ، فتحــدثت عن الجعــليين وفروعهم وبطــونهم

وعشائرهم وقبـائلهم الصغيرة ، كذلك تحـدثت عن الاشراف الطالبين والحسنيين والجعافرة والبكريين والعمريين ، كذلك تحدثت عن قبائل جهينة وفروعها ، والهوارة وفروعهم وربيعة وفروعها ثم عن الهجرات الحـديثة فى القرن التاسع عشر مثل قبـائل الرشـايدة ، وعن بعض الهجرات العربية الأخرى •

وعالجت فى الباب السابع مآثر الثقـافة العربية الاسـلامية ، وتحدثت فى ذلك الباب عن الهجرات العربية ودورها فى الصبغة العربية الاسـلامية وعن الدور المصرى الاسـلامى ، ودور الحجاز فى اثراء الحركة الثقافية العربية الاسلامية ودور المغرب وبلاد غرب القـارة الافريقية فى اثراء الحركة الثقافية ودور جنوب الجزيرة ، ودور علماء الخـلافة العباسية فى بغـداد وكذلك عن دور المراكز الاسـلامية السودانية كسنار والفاشر والدامر ، ودور ديار الشايقية والجعـلين ودور المؤسسات الاسلامية كالمساجد والكتاتيب والخلاوى ، والمدارس ودور رجال القضـاء ورجال الدين والطرق الصـوفية وانتشارها فى السودان وكذلك الحديث عن الثقافة العربية الاسلامية وانتشارها فى جنوب السودان وكل أنحاء البلاد ، وعن الطرق الصوفية وقلة الانتاج العلمى الاسلامى •

وجاءت فى النهاية خاتمة ذلك البحث وقائمة المصادر والمراجع •

وانى لأرجو من الله العلى القـدير أن أكون قـد جانبت بعض الصواب فى معالجة ذلك الموضوع الذى اعترف أنه لا يخلو من الهفوات والنواقص لأن الكمال لله وحده سبحانه وتعـالى ولأن فوق كل ذى علم عليم •

والله ولى التوفيق ••

الملك فيصل — الهرم

٢٨ رجب ١٤٠٥ هـ — ١١ أبريل (نيسان) ١٩٨٥ م

دكتـور
عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الباب الأول

معابر الاسلام الى السودان

لقـد كانت جزيرة العرب دائما مستودعا بشريا ومبعثا لموجات بشرية هائلة فى تيارات متتالية مدى العصور والأجيال وقد تعاقبت موجات من الهجرات العربية من شـبه الجزيرة العربية مندفعة نحو الأقطار المجاورة حتى غمرت هذه الأقطار بالموجات البشرية المتلاحقة وقد كانت قارة افريقيـا من الأماكن التى هاجرت اليها واستقرت بها هجرات عربية منـذ أقدم العصور التاريخية ، بل وان تلك الهجرات ترجع الى عصور ما قبل التاريخ حيث وصلت بعض الهجرات العربية الى منطقة شرق افريقيا والى وادى النيل وشمال افريقيا ، ثم وصلت تلك الهجرات الى وسط القـارة حيث استقرت تلك القبائل بعـد أن انصهرت فى سكان تلك المنطقة أو بسطت نفوذها عليها ، بل أكثر من ذلك فانه من قديم الزمن كان العرب على صلة بوادى النيل ، وقد أنشأ العرب محطات تجارية هنـاك ومنهم من أقام وتزاوج مع السـكان المحليين .

ومن هنا فان الصلات العربية الافريقية صلات قديمة ممعنة فى القدم ، فقد بلغت هجرات العرب مداها فى عهد مملكتى معين وسـبأ قبل الميـلاد بسبعة قرون وكذلك نشطت حركة التجارة بين العـرب وافريقيا فى زمن البطالمة والرومان وتوالت هجراتهم نحو افريقيا من جنوب شرق الجزيرة خاصة بنى حمير فى القرنين السابقين للميلاد .

وقامت دولتا الحبشة واكسوم نتاجا لتلك الهجرات وهذه النماذج واستمر العرب المهاجرون يتجهون نحو قلب القارة وتابع بعضهم نهر العطبرة أحد روافد نهر النيل الى أرض البجة .

ففى القرن الأول الميلادى كتب أحد الرومان يعجب لكثرة السفن العربية على الساحل الشرقى لافريقيا ويشيد بقدرة العرب على العيش بين الأهلين حتى فى ذلك الزمان البعيد فيتزاوجون فتختلط الأنساب ولا يجد الخصام بينهم سبيلا وبين الأفارقة تجىء سفنهم من الجزيرة العربية ومن كل صوب وتقلع من الساحل الشرقى الافريقى .

وهكذا شهدت العصور الأولى من فجر التاريخ شـعوبا وبطونا عربية تنطلق من قلب شبه الجزيرة العربية فى اتجاهات مختلفة ومنها أفريقيـا ، أولئـك وهـؤلاء كانوا شـعوبا وقبائل سامية ، ولم يكن لقبيلة يومئذ أن تؤثر نفسها وكلهـا من أصل وأحد بصفة العروبة دون غيرها من أهل تلك الأمصار . فلم يكن معنى العروبة قد نبت بعد الى الوجود .

ولقد نتج عن انتقال العرب من شبه الجزيرة العربية الى القارة الأفريقية على شبه أفراد وجماعات منذ عصور ما قبـل التاريخ وعلى مر السنين والأجيال أن تزايدت المؤثرات العربية فى المناطق الأفريقية التى يسكنها العرب وعلى وجه الخصوص فى منطقة القرن الأفريقى ووادى النيل والشمال الأفريقى ، حتى أنه يمكن لنا أن نقول أنه عندما ظهر نور الاسلام فى شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى كانت هذه المناطق الإفريقية شبه عربية وقطعت فى طريق عروبتها منها شوطا طويلا عبر آلاف السنين وتجاوزت ما يمكن أن يطلق عليه المرحلة الاعدادية فى طريق العروبة أو ما قبل العروبة الصحيحة .

ومن هنا فان منطقة وادى النيـل شماله وجنوبه كانت مناطق شبه عربية قبل ظهور نور الاسلام بعدة قرون .

ولقد سلكت هذه القبائل العربية فى طريقها الى منطقة وادى النيل وشرق القارة الأفريقية عدة معابر وطرق مختلفة فى طريقها من أوطانها حتى استطاعت أن تصل الى وادى النيل وقلب القارة حيث تهيأت لهـا ظروف الاستقرار فى تلك المناطق وذلك بعـد أن وصلت من اتجاهات

ومناطق مختلفة ، ولكن فى النهاية مهما كان الطريق الذى سلكته فانها استطاعت الوصول الى ذلك الموقع الغنى بالأعشاب والمياه حيث طاب لها المقام .

وسنعرف هنا لبعض المعابر التى سلكتها القبائل العربية فى الطريق الى وادى النيل .

المعبر الأول — برزح السويس وشبه جزيرة سيناء :

لقد كان هذا الطريق معبرا يربط قارة آسـيا بأفريقيا فى جميع العصور والأزمنة الطويلة ، بل هو من أهم المعابر التى عبرتها الهجرات العربية الى أفريقيا وصولا الى مصر والسودان ومنها الى بقية الأجزاء فى القارة الأفريقية ، ذلك لأن سيناء لم تكن حائلا بين القبائل البدوية المنتشرة فى شمال شبه الجزيرة العربية ، ومن هنا كانت سيناء معبرا بين جنوب غرب إسيا وأفريقيا وكانت احدى ثلاث طرق رئيسية تأتى منها الهجرات العربية الى أفريقيا .

وتنقسم سيناء جغرافيا الى أربعـة أقسام من الساحل الشمالى الرملى الذى يمتد من بورسعيد الى فلسطين والذى يتوسطه ظهر كبير عبر سبحه البردويل ، ثم باقى النطـاق الثانى وهـو الجزء الشمالى المتسع الذى يحتوى على قباب بيضاوية . ويليه نطاق ثالث كبير يشمل هضبة العجمة والتيه وهى هضاب جيرية قليلة المطر والعشب هذا بينما النصف الجنوبى من سيناء يمثل كتلة من الجبال النارية تقطعها الأودية العميقة وتنتهى بحافات انكسارية الى خليجى العقبة والسويس مما جعل الانتقال فيها عسيرا رغم وفرة ماؤها وعشبها لارتفاعها .

وقد اتبعت الهجرات والحملات التى عبرت سيناء الى مصر اقليم الساحل الشمالى ، ذلك لأنه أوفر مطرا ، كما استطاعت الكثبان الرملية الاحتفاظ بماء المطر هذا ، وأن تسهل فى نموجها الحصول عليه على عمق بسيط ومن هنا جاء غنى منطقة الكثبان بالمـاء غنى نسبيا ومعظم عذوبة هذا المـاء كلما جاوزت العريش شرقا الى رفح .

ومن هنا ظل برزخ السويس هو الطريق الرئيسى الذى تدفقت عبره القبـائل العربية نحـو وادى النيـل ، غير أن دخـول العرب الى السودان قبل الاسلام ترتبت عليه آثار عميقة اذ انحصر وجودهم أغلب الظن فى الجزء الشرقى ولم يضيفوا شـيئا جديدا للحياة فى تلك المنطقـة لا من الناحيـة الثقافيـة ولا من حيث تغير الخصـائص الانثروبولوجية والأثنية على السكان المحليين •

ولكن كان لهذا المعبر أهمية بشرية لها خطورتها باعتباره الطريق البرى الوحيد الذى يربط بين شطرى الوطن العربى الاسلامى فى آسيا وأفريقيا ومن هذا الطريق غمرت القبائل العربية مصر وسودان وادى النيل ووصلت فى زحفها عن طريق هذه الطرق والمسالك الصحراوية الى الوصول الى وسط القارة •

وعلى هـذا فانه يمكن القول أن برزخ السويس يعتبر أهم طريق سلكته الجماعات البشرية المتتالية كما ورد ذلك فى القرآن الكريم وسفر التكوين ، حيث سـلكته هـذه الموجات البشرية فى فترات متقـاربة أو متباعدة تبعا للمصدر الذى ترجع اليـه كل جماعة وافـدة وحسب كثافتها المهاجرة أو قلتها • ولا شك أن هذه الهجرات والحركات البشرية من آسيا كان لهم أعظم الأثر فى تعمير أفريقيا •

كما أنه ليس ثمة شك أيضا فى أن الهجرات العربية السابقة على ظهور نور الاسلام قد مهدت الطريق لدخول الاسلام الى أفريقيا كما هيأت فتح العرب لمصر • والاتفاق السائد بين علماء الأجناس على أن هذه الهجرات القديمة جاءت عبر المعابر الثلاث والتى من أهمها معبر سيناء ثم استقرت فى مصر وفى السودان الشرقى ووسط القارة حيث حدثت هجرة الحميريين قبل المسيحية بحوالى قرنين من الزمان بعـد انهيار سد مأرب •

المعبر الثانى ــ البحر الأحمــر :

لم يكن البحر الأحمر يمثل عقبة أمام الاتصال بين الجزيرة العربية ووادى النيل ومنطقة شرق القارة حيث أن عبور كل جزء من أجزاءه لم يكن فى يوم من الأيام أمرا صعبا وكانت بلاد اليمن وما يليها الى الجنوب والشمال مصدرا لهجرات عديدة أثرت تأثيرا بالغا فى الهضبة الحبشية وأعالى النيل الأزرق والعطبرة وأرتيريا وسواحل السودان الشرقية وكانت المؤثرات السامية تتدفق من الجزء الجنوبى لجزيرة العرب أكثر من تدفقها من وسطه وذلك لوفرة سكان بلاد اليمن وما يليها الى الجنوب والشمال عددا .

ومن هنا كان للبحر الأحمر دور هام فى الربط بين قارتى آسيا وأفريقيا ذلك لأنه لم يكن منطقة عازلة بين القارتين ، بل كان دائما صلة وصل وحلقة اتصال عميقة منذ وجد الانسان على ظهر الأرض ، فقــد خرجت الهجرات البشرية من الجزيرة العربية عابرة ذلك البحــر الى أفريقيا .

وكان اقليم الحجاز على صلة قوية بالشــاطىء الأفريقى الغربى المقابل قبل ظهور الاسلام ، ومن هنا فان اقليم الحجاز اتصل اتصالا مباشرا بالجانب الأفريقى المقابل ، ومن هنا فان البحر الأحمر لم يكن حاجزا يمنع بين شواطئه الأسيوبية العربية وشواطئه الأفريقية ، فلم يكن من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة .

المعبر الثالث ــ معبر باب المندب :

لقد كان هذا المعبر ولا زال يمثل مصدر تيار هجرة بشرية منذ أقدم العصور حيث انتشر سكان الجنوب العربى على السواحل الشرقيــة للقارة الأفريقية ثم تجهوا شمالا وغربا بحيث استقرت منهم جماعات عربية فى بلاد الحبشة والسودان وتسربت أعداد كبيرة منهم بعد ذلك غربا وعليه فقد كان طريق باب المندب من أهم طرق الهجرة وكذلك أهم

طرق التبادل التجارى والحضارى قبل الاسلام حيث ترك عرب الجنوب فى الجانب الأفريقى أثرهم الحضارى والثقافى والعمرانى ذلك لأنه من المعروف تاريخيا أن عرب اليمن قد هاجروا الى الحبشة وهضبتها ونشروا فيها ثقافتهم العربية فى وقت يرجع الى عهد بعيد أيضا وفى الحق لقد كان نقطة الانطلاق فى تاريخ الحبشة تتصل اتصالا وثيقا بجنوب الجزيرة العربية ، اذ تدفق الساميون من هناك غزاة أحيانا وتجارا أحيانا على جبال الحبشة المنيعة وسهولها الواسعة وطورا مع الوقت حضارة أثيوبية فأضافوا عليها من حضارتهم سمات كثيرة ، وأقدم آثارهم المخطوطة نحتا ترجع الى القرن الرابع الميلادى وان كنا نرجع العلة الى قرون عديدة قبل ذلك ، واذا كان هذا التأثير العربى قد وصل حدود السودان كما نعرفه الآن • فهل وقف هذا التأثير عند تلك الحدود ، وهل كان مقصورا على القبائل اليمنية ذلك لأن من الصعب أن نتصور أن هذا التأثير لم يتناول غير الحبشة أو أن اليمن وحدها هى التى كانت مصدر لتلك الهجرات ، ان سكان الحجاز فى أوائل عهد الاسلام كانوا يعرفون الحبشة تمام المعرفة •

كما أن البحر الأحمر يضيق اتجهنا جنوبا حتى يكاد الشطان أن يلتقيا ومن المعروف جيولوجيا أن منطقة باب المندب وما فيها من جزر كانت أقرب بين الجانبين مسافة عما عليه الحال فى العصر الحاضر، لذا فان قيام علاقة وصلة بين اليمن والحبشة أمر طبيعى بل ان بعض الباحثين يذكر أن كلمة حبشة ومنها الأحباش يرجع أصلها الى قبيلة حبش العربية وهى أقوى القبائل العربية التى هاجرت من جنوب بلاد العرب فى الفترة ما بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد واستقرت فى افريقية ، ولم يأت القرن الرابع الميلادى حتى غلب اسم هذه القبيلة العربية على المنطقة التى استوطنت شمال الحبشة •

كما أن الباحثون قد اختلفوا فيما بينهم بشأن حجم الهجرات العربية الى الحبشة ومنها الى شرق السودان فقد اتفقوا جميعا على أن هناك هجرات عربية شملت أعدادا من التجار استقروا على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر فى منطقة الحبشة وبمرور الزمن تزايدت أعدادهم

وكونوا مراكز تجارية فى مناطــق متفرقة ، فتكونت مراكز حضــارية عربية ظلت لفترة طويلة على صلة بالوطن الأم وبمرور الزمن اختلط العرب بالوطنيين الأصليين • وقــد أدى قيام تلك الصلات القوية الى تقوية العلاقات بجنوب الجزيرة العربية •

ولم تقتصر صلات العرب بالحبشة قبل الاسلام الى المنــاطق القريبة من باب المندب بل ان هذه الصلات والعلاقات امتدت الى منطقة الحجاز حيث كانت الأراضى المجــاورة للحجاز غرب متجرا لقريش وقــد تبادل العرب وسكان تلك المناطق الكثير من المؤثرات اللغــوية والحضارية •

ومع ازدياد الهجرات العربية قبل الاسلام الى الحبشة فى عهد دولتى معين وسبأ حيث توغــل العرب غربا الى وادى النيل واستقر بعضهم فى أجزاء مختلفة من حوض النيل ثم تبعهم عدد من أقاربهم وأهليهم ، وتشير بعض الروايات الى قيام الحميريين بحملات عسكرية فى وادى النيل الأوســط وشمال أفريقيــا وان هــذه الحملات تركت جماعات استقرت فى بلاد النــوبة وأراضى البجة وشمال افريقيــا ويبدو أن هؤلاء الحميريين ورثوا حكم هذه البلاد نتيجة للمصاهرة التى تمت بينهم وبين الحكام فورثوا الملك طبقــا لنظام التــوريث بالأمومة الذى يورث ابن الأخت أو ابن البنت كمــا نقل الحميريون أسماء أجدادهم الى السودان مثل كوة ، دارو ، سبا •

ويرى بعض الباحثين أن اسم سوبا عاصمة مملكة علوة تحريف لكلمة سبأ وبهذا فانه يمكن القول أن عرب الجنوب كانوا هم العنصر الغالب على عرب السودان فيما قبل الاسلام •

ولهذا فأن هذا المعبر هو المدخل الذى دخلت منه أقدم الأجناس التى عمرت القارة منذ أقدم العصور ومكنت الجزر الواقعة فى مدخل البحر الأحمر من اجتياز ذلك المكان بسهولة حيث اتخذت هذه الجزر مراحل للهجرة وأكبر الظن أن المسافة بين قارة آســيا وأفريقيا كما

ذكرنا كانت أكثر تقاربا بين الشاطئين مما عليه هى الآن • وقد ساعد ذلك على سهولة الانتقال ومكن تلك القبائل من الانتشار وفى الدخول الى منطقة وسط السودان •

المعبر الرابع ـ المعبر المصرى الى السودان :

تشير الوثائق المصرية القديمة الى كثرة القوافل التجارية التى كانت تسير من مصر الى السودان وهى قوافل السير جنوبا وأصلت الى أيام الدولة الوسطى حتى كرمة وهناك ما يؤكد وصول مثل هـذه القوافل المستمرة الى كردفان وحدود أثيوبيا وشمال منطقة السدود والعربية التى ترعرت على حوض وادى النيل الشمالى أثر كبير على فى الجنوب من ناحية أخرى •

وهكذا كانت مصر وتجارتها منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد تتوغل بطريق النـوبة اما الى غرب السودان واما الى بحر المغزال واما فى النيل حيث يعيش الأقزام كما بدأت المعرفة والاتصال بشرق افريقيـة وربما جنوبها وهكذا فقد كان للحضارات المصرية والعربية التى ترعرعت على حوض وادى النيل الشمالىأثر كبير على الشعوب التى سكنت الجزء الشمالى من السودان ومن ثم لا نستغرب أن ملامح الحضـارة الأولى فى السودان كانت مصرية ، وأن معظم التغيير الثقافى والفكرى الذى طرأ على السودان عامة وبلاد النوبة خاصة كان مصريا وأن انتشار الأفكار والمعتقدات والطقوس الجديدة لم يكن أساسا نتيجة هجرة بشرية بل نتيجة اتصال طبيعى أو حتمى مما يتأتى من الصلات التجارية والفكرية بين الجيران ، ومما تجدر الاشارة اليه خاصة بعد نهاية العهد الفرعونى أن المؤثرات الخارجية لم تكن مصرية خالصة ، بل وفدت عن طريق مصر للسودان ، وقد توغلت القوافل التجارية منذ الدولة الأولى الى الجنوب وبازدهار هذه العلائق الخارجية توغل بعض المصريين وأثروا فى المنطقة الواقعة جنوبا تأثيرا حضاريا أكبر مما جعل بعض علماء الآثار يقررون أن حضـارة كرمة أقدم حضـارة سودانية نشـأت عن وجود رعايا مصريين بها •

ومن هنـــا ارتبط السودان بمصر منذ فجر التـــاريخ وكان هذا الارتباط وليد عوامل طبيعية واقتصادية واجتماعية وفى خلال عهدى الدولة المصرية الوسطى والحديثة صارت العلاقات بين شقى الوادى أكثر اتساعا وعمقا ، حيث أنه فى عهد الدولة الحديثة أصبحت مظاهر الحياة الحديثة السمة الغالبة على مجتمع النوبة وذلك بفضل جهـود المصريين فى هذا السبيل .

وقد لعب البحر الأحمر دوره كحلقة وصل بين مصر والسودان وبين شـــبه جزيرة العرب والعـــالم الافريقى أو بين افريقا شمال الصحراء وجنوبها بصرف النظر عن القناة التى كانت تصل بين النيل وخليج السويس فانه كانت هناك عدة طرق للقوافل تبدأ من ثنية قنا حيث يقترب النيل والمعمور أكثر ما يقرب البحر فضـــلا عن الأدوية الجافة وهذه الأودية ساهمت فى ايجاد علاقات مع افريقيا جنـوب الصحراء على غرار ما فعلت طرق سيناء فى ايجاد روابط بين شمال جزيرة العرب ومصر .

أما ما اتبع السودان جنوبا من هذه الطرق فلم يكن نتتبعه فى الغالب يسير مع مجرى النيل فالطريق المألوف من الشمال الى الجنوب هدفه نهر النيل جنوب أسوان عبر صحراء العطمور الى أبى حمد .

كذلك كانت الاتصـــالات من الوادى عبر أســـيوط عن طريق الواحات متجهة الى جنوب وغرب دارفور ، وقصة درب الأربعين من أسيوط الى السودان ضاربة فى القدم ، بل ان هذا الطريق بقى من بين الكثير من المسالك التجارية التى كانت تسير عبر الصحراء الغربية الى السودان ومنها الى قلب القارة الافريقية .

ومن هنا كانت مصر من الطرق الرئيسية ، بل هى الطريق الأكثر عبورا الى سودان وادى النيل وذلك كنتيجة حتمية للصلات التى تربط بينها حيث كان وادى النيل (مصر والسودان) .. مقرا لوصول الموجات البشرية العربية المتلاحقة عن طريق برزخ السويس حينا وعن طريق باب المندب والبحر الأحمر وشواطىء افريقيا حينا آخر .

والواقع أن تحديد الهجرات العربية وحصرها والتى دفعت بها بلاد العرب الى مصر ثم الى السودان فى العصر الفرعونى أمر يصعب دراسته فى هذا المجال الا عن طريق الذين تخصصوا فى ذلك المجال ، ولكن لا شك أن طريق سيناء ومصر الى السودان كان قنطرة ثابتة مفتوحة للهجرات العربية الى مصر ثم منها جنوبا الى السودان منذ القدم وأن هذه القنطرة تصل بين شمال بلاد العرب ووادى النيل .

وهكذا كانت هذه المعابر هى البوابات الكبيرة التى طرقتها وعبرتها القبائل العربية انطلاقا من الجزيرة العربية وصولا الى السودان وذلك فى الفترات السابقة والقديمة قبل ظهور الاسلام . ولم نشأ التوسع فى التاريخ لحركة الهجرات العربية الى تلك المناطق قبل ظهور الاسلام ، لأن ذلك قد يخرجنا من مجال ذلك البحث الذى هو الاسلام والعروبة فى السودان ، ولكن أشرنا الى هذه المعابر على اعتبار أنها المسالك التى سلكتها القبائل العربية الى سودان وادى النيل حتى كونت ما يمكن أن نطلق عليه مجتمعات شبه عربية قبل ظهور الاسلام وانتشاره فى تلك المناطق .

المعبر الخامس : الشمال الغربى

٥ ـ المعبر الغربى : اذا كانت الطرق الأربع أو المعابر السابقة قد ساهمت فى انتشار حركة القبائل العربية الى السودان الشرقى الا أن هذا الطريق الغربى أو الشمال الغربى قد ساهم بدور كبير وفعال فى اثراء حركة الهجرة العربية الى تلك المناطق من قلب القارة الافريقية ذلك لأن الطريق الشمالى الغربى أو الطريق الليبى قد وفدت منه جماعات عربية أخرى استطاعت أن تتجه عبر السهول والبرارى الواقعة بين اقليم النوبة واقليم تشاد نحو دارفور وذلك بعد أن ظهرت بمصر وبلاد المغرب العربى دول اسلامية مستقلة عن الخلافة العباسية .

ذلك لأن الكثرة العظمى من القبائل العربية نزلت الى تلك المناطق فى غرب السودان الى برنو وادای واستقروا بها بعضا من الوقت

ثم تحركوا شرقا الى كردمان ودارفور بل ان بعض قبائل البقـارة التى قدمت الى السودان تؤكد أن أجـدادهم جاءوا من تونس الى الأقطار الواقعة الى الغرب من دارفور بعـد أن أقاموا بها فترة من الزمن وتشبعوا بالحضارة المنتشرة بهـذا الاقليم ثم أخـذوا يهاجرون الى دارفور وكردفان •

وان هناك أعدادا كبيرة من القبـائل العربية هاجرت جنوبا من تونس والجزائر ومراكش بل وموريتانيا (شنقيط) الى أواسط أفريقيا فى القرون التى أعقبت الغزوات الهلالية لبلاد المغرب العربى ثم رحلوا بعد ذلك الى السودان ، بل قويت أواصر الصداقة والعلاقات الطيبة والقربى مما أدى الى ربط بلاد السودان الغربى عبر ذلك الطـريق الغربى الشمالى •

بل ان هذا الطريق كان معروفا لحجاج السودان الغربى منـذ أزمنة طويلة — وقد يكون ذلك الطريق أسـهل من استخدام طريق الساحل الشمالى طرابس ومصر ، بل أن الرحلة عبر ذلك الطـريق والطرق الأخرى القـادمة من الشمال الأفريقى ترجـع الى العصور القديمة وقد يكون لموقـع دارفـور وتعرض الاقليم لمختلف المؤثرات الهلالية أثر واضح فى التكوين البشرى للاقليم ، ذلك لأن الطريق قد سلكته أقوام استطاعت أن تخضع اقليم السودان (الغرب) للكثير من المؤثرات التى كان لها الأثر فى دارفور ان لم يكن فى كردفان •

بل أن هناك من يقول أن دارفور ترجـع فى الأصل الى العرب الذين قدموا من بلاد غرب القارة الافريقية ومن مراكش وتونس وليبيا وتغلبوا على القبائل التى تسكن الصحراء ونشروا نفوذهم وان هذه الموجات البشرية اندفعت عبر المسالك الصـحراوية الى يرفـو ثم الى دارفـور •

وبهذا فانه يمكن القول أن السودان الشرقى وخاصـة دارفـور وكردفان قد تكونت من أثر قدوم قبـائل عبروا الطـريق الشمالى

الشرقى • وهكذا شهد ذلك الطريق منذ فجر التاريخ شعوبا وبطونا تنطلق من الساحل الشمالى فى اتجاهات مختلفة استطاع منها البعض الوصول الى منطقة كردفان ودارفور ، ومن ثم فان الصحراء الكبرى وما كانت بهـا من مواقع متعـددة يتم من خلالها اختراق الصحراء وصولا الى سودان وادى النيـل والى الاقليم السودانى الغـربى وما وراءه •

ومن الواضح أيضا أن الجماعات العربية أو غيرها التى هاجرت الى السودان عبر ذلك الطريق لم تهاجر دفعة واحدة بل تم ذلك على فترات متقطعة وفى ظروف متعددة •

ومن هنا فقد ساهم ذلك المعبر الشمالى الغربى سواء أكان منطلقا من طرابلس ليبيا أو بقية بلاد المغرب العربى فى اتجاه الجنوب فى صبغ الأجزاء الغربيـة من السودان بالصبغـة العربية كما أن ذلك الطريق ساهم فى حركة الهجرة العربية اليه حيث قدمت العـديد من القبـائل عبر تلك المسارب الى تلك المناطق غرب النيل الأبيض واستقرت هناك ومن هنا ظهرت امارة الفور فى دارفور وكردفان والتى ساهمت كما ساهمت غيرها من القبـائل العربية فى طبع السودان بالطابع العربى الاسـلامى •

ويعتبر الطريق الليبى من الطرق التى وفدت منه جماعات عربية أخرى واتجهت عبر السهوب والبرارى الواقعة بين اقليم النوبة واقليم تشاد نحو دارفور وذلك بعد أن قامت فى كل من مصر وشمال أفريقيا دول اسلامية مستقلة عن الخلافة العباسية •

كذلك كان الأمر بالقياس الى العرب الذين نزحوا من الأندلس أثر سقوط آخر الممالك الاسـلامية (مملكة غرناطة عام ١٤٩٣ م) اذ اتجه بعض من هؤلاء الى شمال أفريقيا وواصـل البعض الآخر هجرته جنوبا نحو اقليم تشـاد ومنه الى الاقليم الغربى للسودان فى دارفـور •

ومن ثم كانت النتيجة الحتمية أن هذه القبائل العربية كان ينتهى بها المطاف الى الاندماج فى حياة السكان المحليين فى مناطق دارفور وكردفان واقليم غرب السودان •

الباب الثانى

الهجرات العربية الى السودان

لقد كانت العـديد من المناطق فى القرن الأفريقى ووادى النيـل والشمال الافريقى مناطق شبه عربية قبل ظهور الاسلام بل ان هذه المناطق قد قطعت المراحل الكبيرة فى طريق عروبتها عبر آلاف السنين ، بل انها قد تعربت لغة وجنسا ، ولكن العامل الحاسم فى عروبة هذه المناطق قد بد بظهور نور الاسلام وانتشاره فى أنحاء شـبه الجزيرة العربية ، ذلك لأنه كان لظهور الاسلام آثار عظيمة ونتائج باهرة فى تاريخ العرب والمسلمين ، فقد أمدت الرسالة الاسلامية السماوية الأمة العربية بسياج دينى وفكرى ساعدهم على خلق وحدة عبرت عن نفسها بانشاء خلافة عظيمة الشأن بل انه تحت لواء الاسلام وراية القرآن اندفعت الجموع العربية صوب أماكن لم تصلها الهجرات العربية التى كانت تهاجر من قبل والتى كانت تنساب عبر الحدود من وقت لآخر • ومن ثم خرجت من شـبه الجزيرة العربية موجات متتابعة من العرب المسلمين تدعو الى الدين الجـديد ، وكان من الطبيعى أن تتجه هذه الموجات بنشر الدين الجديد بين أبناء عمومتها واخوانها الذين سبقوا بالهجرة الى المناطق الأفريقية القريبة مثل وادى النيل على مر السنين بل ومبعنى آخر كان من الطبيعى أن تسلك هذه الموجات نفس الطرق التى سلكتها الهجرات العربية السابقة للاسلام بل وأن تتجه فى نفس الاتجاه الذى سبق أن سلكته الجماعات العربية •

وان كان من سمات المهاجر الباحث عن رغد العيش أن يستكين للأوضاع التى قد يجدها فى مهجره الجديد فان الموجات المتتابعة التى خرجب من شبه جزيرة العرب بعد ظهور الاسلام كانت مسلحة بالعقيدة

الاسلامية والايمان القوى ومدعمة بمدد روحى عظيم ، لذلك عملت هذه الموجات على تحرير المناطق الافريقية شبه العربية والتى كانت خاضعة للنفوذ الأجنبى وعلى الأخص الشمال الافريقى الذى كان خاضعا للنفوذ البيزنطى •

لذا كان ظهور نور السلام بداية لصفحة جديدة فى تاريخ الهجرات العربية الى السودان ولتاريخ العلاقات بين العرب والسودان ذلك لأن العرب المسلمين قد قاموا بالدور الايجابى فى هذه العلاقات •

ومن ثم كانت الهجرة الأولى للمسلمين عند ما تعرض المسلمون الأوائل لايذاء قريش دافعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى التفكير فى هجرة أصحابه الى الحبشة ، وكان ان خرج جعفر بن أبى طالب وصحبه ، ثم انتشر بعض العرب الى السودان •

وفى عصر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أن تحرر الشام من الحكم البيزنطى وقبل أن يدخل عمرو بن العاص مصر تعرف عرب غسان وخذام وعامله فى شمال سيناء ، ومع ذلك نرى مدى ارتباط مصر بشبه جزيرة العرب قبل الاسلام وما نتج عن هذا الارتباط من صبغ الشعب المصرى بالصبغة العربية من ناحية السلالة وما تتبع ذلك من تأثيرات عربية فى مختلف المجالات وعلى وجه الخصوص فى اللغة المصرية القديمة التى أثرت فى لغات النوبة القديمة •

ولعل ذلك ما يفسر سرعة تجاوب الشعب العربى المصرى مع الحركة العربية الاسلامية • وذلك لأنه مع الانتشار السريع للاسلام استمرت العلاقات الودية التى ربطت مصر بالعرب حتى ان المقوقس حاكم مصر أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية ردا على خطاب الرسول الى المقوقس يدعوه الى الاسلام • وكذلك أسلم بعض المصريين قبل أن ينجح عمرو بن العاص فى تحرير مصر من الحكم البيزنطى عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م •

ومنذ ذلك التاريخ انتقلت مصر بخطى سريعة من مرحلة ما قبل العروبة الصريحة الى مرحلة العروبة الصريحة وبخاصة فى اللغة والثقافة وبدأ تكوين كتلة عربية ثابتة على الأرض الافريقية تركت بصماتها واضحة فى السودان ، ذلك لأنه بعد تحرير مصر من السيطرة البيزنطية وانتشار الاسلام بها ، وما تبع ذلك من تدفق الهجرات العربية الى مصر والشمال الافريقى فانه أصبح أمام العرب منفذا جديدا الى السودان عند طريق باب المندب والبحر الأحمر •

ولقد اندفعت القبائل العربية نحو افريقيا وأحدثت تغيرات هامة فى وادى النيل وشمال افريقيا على وجه الخصوص مما أدى الى ارتباط تلك البقاع السياسى والفكرى والاجتماعى منذ ذلك الوقت ببقية الوطن العربى •

ومن هنا كانت مصر جسر العروبة والاسلام الى السودان بعد أن عبرتها القبائل العربية من الجزيرة العربية الى أفريقيا وأخذت تهبط أرض مصر الطيبة تحمل معها رسالتها الجديدة ولسانها العربى وتوالت وفادة القبائل العربية وتواترت هجرتهم لمصر ، بحيث أنه يمكن القول أن هذه الموجة العربية الكبرى التى جاءت مع الاسلام لم تكن كسابق الموجات العربية التى خرجت تنشد أرضا جديدة وتستبدل بقعة بأخرى ، مدفوعة برداءة الأحوال الاقتصادية أو كثافة السكان أو هربا من خطر مقبل ولكنها كانت موجات تحمل مفاهيم وقيما وأنماطا للحياة جديدة والقرآن الكريم ينادى فيهم « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » •

انها لم تكن موجات جزئية متقطعة كحال الهجرات العربية الأولى التى كانت تقتصر على جزء معين من وادى النيل أو ما بين النهرين أو على أطراف العراق والشام ولذلك كان أثرها عظيما على كل ما يسمى الآن بالوطن العربى حيث أضحت وحدة كاملة ، لقد قضت الموجات العربية العارمة على الحضارات السابقة والتى كانت تسود فى تلك

المنطقة وصهرتها فى بوتقـة واحدة مما أدى الى انحسار ثم اندثار اللغات القديمة تباعا والتى كان يتكلمها السكان هناك وأصبحت اللغة العربية لغة البلاد •

ولقـد كانت الهجرات العربية مع ظهور الاسـلام تختلف عن سابقتها قبل ظهور الدعوة الاسـلامية ذلك لأن الباحثين يربطون بين العـلاقات العربية والمناطـق العربية فى العصور القـديمة بالأحوال السياسية والطبيعية ، ذلك لأنه فى الفترات السخية بأمطارها فى شمال شبه جزيرة العرب تستقر الأحوال وتنتظم التجارة معها ، أما فى فترات الجفاف حين تضطرب الأحوال تصبح التجارة معها مستحيلة وفى كثير من الأحوال ارتبط الجفاف باغراء البدو على غزو مصر وخاصة من شماليها ، وكذلك عبـور البحر الأحمر والانتشـار فى أقاليم شرق السودان وكذلك فان العلاقات كانت تشـتد بالمدخل الجنوبى للبحر الأحمر سواء فى جنوب شبه جزيرة العرب أو شمالها ويبدو أن أزمة المناخ التى شهدتها شبه جزيرة العرب قبل الاسلام بلغت ذروتها فى القرن السادس قبل الميلاد • على أن هذا ليس معناه أن التوسع العربى فى العصور الأولى للاسلام يرجع الى الجفاف المناخى لأن الانتشار هنا مختلف ع نانتشار الكنعانيين والآراميين وغيرهما من الشعوب السامية • ولكن كانت هجرات القبائل فى ذلك الوقت انطلاقا لمبدأ نشر العقيدة الاسـلامية وتحرير الأراضى المحتلة من قبـل البيزنطيين والانسياح جنوبا الى أرض السودان •

ولقد كان ظهور نور الاسلام هو الذى أعطى تلك القبائل العربية المهاجرة السند الروحى الفكرى حيث تدفق العرب فى أعداد كبـيرة حتى وقفوا على أبواب النوبة والبجة ، وفى يسر وبسط وسهولة دام بعضه قرون انفتح المهاجرون العرب على المجموعات الوطنية من بجة ونوبة فعايشوها واختلطوا بهـا مصاهرة واستغلوا نظـام الوراثة عن طريق الأم حتى مكنوا لأنفسهم وتبوأ أبناءهم الوظائف القيادية فى مجتمعهم وعلى هذا فان سودان وادى النيل كان لاتصاله الوثيق بمصر أثرا كبيرا اذ دخلت المؤثرات الاسـلامية من مصر عبر بلاد النـوبة

وتركت بصماتها واضحة جلية فى تاريخ السودان وتطور ثقافته الاسلامية أثرا واضحا •

وثمة تشابه آخر هو أن القطرين تأثرا بهجرات بدوية تركت أثرا واضحا فى انتشار الاسلام فى كليهما ولقد لعبت الهجرت العربية فى سودان وادى النيل دورا كبيرا مماثلا للدور الذى لعبه الطوارق فى اسلام غرب افريقيا • ذلك لأن هذه الهجرات هى التى حملت الاسلام الى بلاد السودان وحملت الثقافة العربية وطبعت البلاد بالطابع العربى الاسلامى الذى لا يزال مستمرا حتى اليوم •

ودخلت هذه الهجرات الى السودان من بابين • الباب الأول هو الباب الشمالى الذى يفضى الى مجرى النيل متابعا النهر من جنوب أسوان الى كرسكو ثم مخترقا صحراء العتمور مباشرة الى أبى حمد ثم متابعا النهر مرة أخرى منتهيا الى الجنوب •

والباب الثانى الشرقى المنحدر من ساحل البحر الأحمر عبرته الهجرات صوب الغرب الى السودان الأوسط •

ومن هنا كانت مصر المنفذ الرئيسى الذى دخل منه الاسلام الى السودان ، ذلك لأنه ما ان انتشر الاسلام فى مصر حتى أخذ يتسرب الى السودان حتى غدا السودان الشمالى فيما بعد أمة اسلامية ترتبط بمصر بأعظم علاقة روحية وهذه العلاقة الروحية تختلف من حيث العمق والحيوية عن الوشائج الروحية التى ربطت البلدين فى سالف العصور • ذلك لأن نجاح الاسلام فى التسرب صوب الجنوب كان وقفا على حركة التيار الاسلامى الدافق ، وما يفسح المجال أمام الهجرات وما تحمله من ثقافات •

ومن هنا ذهبت جموع العرب والمسلمين من جنوب مصر الى السودان ، لأن بلاد السودان لم تكن بلادا مجهولة لهم ، حيث كان نهر النيل هو الطريق التجارى للعرب منذ عصور بعيدة على الرغم من

أن العرب المهاجرين لم يكن كلهم تجار • بل كان فيهم المتنقل سعيا وراء المراعى الخصبة والماء والكلأ والدعوة للاسلام ، ومن هنا وجدوا فى فجاج السودان المترامية الأطراف ما ينشرونه وهم فى ربوعه حيث وجدوا أمامهم كل متسع ، كما أن طبيعة السودان تشابه طبيعة بلادهم فى كل شىء وليس البحر الأحمر سوى كسر التوائى فى أرض واحدة شطر ما شطرين هما السودان ، وبلاد العرب ولذلك تشابها جوا وهضاب وفجاجا •

فمن المعلوم أن هناك جماعات من السبئيين منذ القرن الخامس قبل الميلاد قد نزحوا من جنوب بلاد العرب الى السواحل الغربية للبحر الأحمر واستقروا فى بادىء الأمر فى جزر هذا البحر فى سوقطرة ودهلك وغيرهما من الجزر ثم انتشروا على نطاق واسع على امتداد الشواطىء الشرقية للقارة الأفريقية ، ومن هنا أنشأوا طرق تتحرك عليها القوافل لكى يتمكنوا من تيسير الابل الى المناطق الداخلية ، وربما قد يكون هدفهم فى ذلك الوقت هدفا مزدوجا وهو توسيع دائرة نشاطهم التجارى بالاضافة الى محاولة التخلص من مناخ الساحل القاسى ولا تزال الى الآن أسماء بعض الأمكنة التى تقع بجوار مصوع وعصب ، شاهدة على تقدم السبئية نحو تلك المناطق الأفريقية الداخلية •

بالاضافة الى أنه يقال أن هناك قبائل عربية من بلى قد نزحت الى بلاد البجة قبل انتشار الاسلام وظهوره بفترة طويلة ، كما أن القرن السادس الميلادى قد شهد هجرة عربية واسعة الى أرض البجة قام بها بعض الحضارمة الى أرض البجة وقد امتزج هؤلاء الحضارمة وتصاهروا مع من سيقوم من قبائل بلى الى تلك المناطق •

ولقد كان هؤلاء الحضارمة والبلى زمن المسعودى من القبائل التى اعتنقت الاسلام بسرعة دون سائر البجاه ولا يزال حتى الوقت الحاضر يذكر البجاه اللغة العربية بقولهم « بلويت » أى أن اللغة العربية هى اللغة البلوية وذلك نسبة الى قبيلة بلى التى حملت اليهم العربية

فتمثلتها لغة البجاه وهى لغة حامية ومن ثم لم تستطع اللغة العربية أن تتغلب على اللغة البجوية نظرا لقلة النازحين من العرب والحضارمة فى تلك الفترة الى تلك الديار وذلك بالقياس الى القبائل البجوية الكثيرة المتشبعة والتى كانت تمثل النسبة الغالبة فى تلك المنطقة •

وبلى هذه قبيلة عظيمة عربية فيهـا بطون كثيرة ، وكما دخلوا السودان قبل الاسلام فانهم دخلوا أيضا مصر قبل الاسلام واستوطنوا جنوب صعيد مصر فى المنطقة الواقعة فيما بين القصير وقنا وكان دورهم يتركز فى الاعتماد عليهم فى نقـل التجارة الهندية •

ومهما يكن من أمر الهجرة العربية الى السودان فانه يمكن القول بأن العنصر السبئى وأعقابهم الذين جاءوا من بعدهم كانوا هم العنصر الغالب والأكبر من العرب فى الســودان فى العصور الجاهلية وقبـل انطلاق حركة الهجرة العربية على نطاق واسع •

ذلك لا سيما اذا عرفنا أن صلة الربط بين ساحلى البحر الأحمر وبلاد شرق القارة وبالذات مناطق البجاه حيث هجرات قبائل بلى والحضارمة لم تكن صعبة فى أى يوم من الأيام ، بل أن العبور من الساحل الى الساحل ولا سيما عن طريق باب المندب كان أمراً ميسورا وأكثر ســهولة •

ومن هنا فلابد أن ندرك تمام الادراك أن مضيق باب المندب كان أكثر ضيقا وعبورا مما عليه حاليا نظرا لأن تلك المسافة بين الساحلين كانت قريبة وكانت الجزر الواقعة بين الساحلين تزيد من سهولة حركة التنقل والترحال ، ومن هنـا كان ذلك المضــيق يتعبر المعبر الرئيسى والأساسى الذى عبرته القبائل السبائية الى بلاد السودان فى تلك العصور الجاهلية ، ذلك لأن المضيق كان متاخما لبلادهم فى اليمن وكانت بلادهم حينئذ مكتظة بأهلها ، يلم شتاتهم دول ذات نفوذ وقوة وازدهار ، وهى دولة سبأ العظمى ثم جاءت بعدها حمير لتواصل المسيرة •

ولكن عندما انهار سد مأرب وزال نفوذ تلك الدول ، فمن هنا اتجه السبئيون وأعقابهم الى شمال بلاد العرب فى حركة هجرة واسعة ، ومن ثم بعد ذلك جاءت الفتوح الاسلامية ، فنقلت جماعات كبيرة منهم الى أخصب بقاع الأرض فى مصر والشام والمغرب والأندلس والعراق وفارس وغيرها من البلاد الاسلامية .

ومن ثم فانه بعد انتشار الاسلام وانتشار حركة الهجرة السبائية شمالا الى الجزيرة العربية فانه يمكن القول أن طريق باب المندب قد يمكن اعتبـاره معبرا ثانويا بالنسبة لحركة الهجرة العربيـة الى بلاد السودان ، ذلك لأنه بانتشار الاسلام قد تفتحت معابر ومنافذ أخرى أمام الهجرة العربية الواسعة الى السودان حيث كان طريق وادى النيل من مصر هو المنفذ الأساسى لانتشار القبائل العربيـة الى سـودان وادى النيل .

وعلى الرغم من اعتبار معبر وادى النيل هو المعبر الأساسى فى حركة الهجرة العربية الى السودان الا أن هناك روايات سودانية لا تزال تردد أن كثيرا من القبائل العربية فى حركتها الانتشارية أو أن هناك أعداد كبيرة من تلك القبائل التى رحلت الى السودان قد نزحت اليه من شبه جزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر مباشرة الى الساحل المواجهه الحجاز مباشرة فى عصر الاسلام (طريق الحجاز) .

ولعل تلك الروايات السودانية انما أرادت بذلك أن تعبر عن نقاوة الأصول العربية التى هاجرت الى السودان مباشرة ومن هنا جاءت الى السودان من مهدها الأول مباشرة .

ولا يوجد أدنى خلاف فى حركة انتشار القبائل والهجرة العربية التى ملأت الأقطار العربية على اتساع رقعتها انما انبعثت فى حركتها من مهدها الأول وهو شـبه الجزيرة العربية سواء أكان من جنـوب الجزيرة أو من شمالها أو من وسط الجزيرة العربية .

واذا كان الرأى الذى يركز على طريق البحر الأحمر يركز على الحجاز ومدنه وموانيه المقابلة للساحل السودانى فان ذلك لا ينكر أنه طريقا للهجرة العربية الى السودان الا أنه لم يكن الطريق الرئيسى الذى سلكته الهجرة العربية الواسعة الى السودان •

لكن كل تلك الهجرات قد حـدثت من شـبه الجزيرة العربية وقد تكون سلكت عدة طرق للهجرة الى السودان وقد أشرت الى طرق الهجرات الرئيسية الاسـلامية الى السـودان ، ولكن نؤكد أن طريق البحر الأحمر لم يشهد هجرات عربية على نطـاق واسـع مثل الطرق الأخرى التى شاركت فى حركة الهجرة الى السودان •

ولقد استخدم وادى النيل كمعبر أساسى لحركة الهجرة للسودان منذ تلك الغزوة التى قام بها عبد الله بن سعد بن أبى سرج الى بلاد النوبة وبلغ دنقلة عام ٣١ هـ / ٦٥١ م وكتب عهد لأهل النوبة اشترط فيه عليهم حماية المسجد القديم الذى بناه المسلمون فى دنقلة وربما كان قد تم بناءه قبل هذه الغزوة بوقت كاف ، كذلك اشترط عليهم حماية التجار المسلمين وغيرهم من المسلمين الذين يتحركون فى حركة الهجرة الجماعية أو الفردية والذين يطرقون بلادهم •

وبذلك فقد وضع عبد الله بن سعد بن أبى سرج الأساس القوى الذى مهد الطريق سهلا وفسيحا لكى يحدث ما حدث من تغلغل العرب المسلمين فى حركة هجرة واسعة الى هذ ه البلاد •

كذلك فانه منذ عهد بنى أميـة أخذ العرب الساكنون فى أسوان وفى الجنوب يقومون بشراء بعض الأراضى والضياع من أهل النوبة ثم أخذوا يقومون باستثمار هذه الأراضى حتى تملكوا ضياعا كثيرة داخل أراضى النوبة فى المنطقة التى تسمى بمنطقة بلاد المريس والتى تنتهى عند الشلال الثانى تقريبا •

كذلك فانه عند ما زحف العباسيون على مصر للقضـاء على حكم بنى أمية فيها ، وقد التقى جيش العباسيين الزاحف بجيش الأمويين

بقيادة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية عند قرية أبو صـير فى الصعيد الأدنى بالقرب من الجيزة وأسفرت المعركة عن مقتل مروان وهروب أبنائه عبد الله وعبيد الله فى جماعة من أتباعهما تقدرها المصادر بما يقرب من أربعة الى خمسة آلاف فرد الى بلاد النوبة ، ثم لحقهما بعـد ذلك جمـاعة من أصحاب مروان بن محمد ، ومن ثم نزلت تلك الجماعات فى أرض المقرة حيث أول مملكة صادفتهم بعـد أن فارقـوا حدود مصر الجنوبية .

ولكن بنى أمية ومن معهم من المروانين بعد عبورهم الى النوبة اتجهوا شرقا حتى وصلوا الى أراضى البجة قرب سواحل البحر الأحمر بعد أن اضطروا الى ترك بلاد النوبة ولكنهم لقـوا مقاومة شـديدة من البجاة فتوقفوا يريدون الساحل ولقوا عنتا شـديدا وضـل بعضهم الطريق وبلغ بعضهم ميناء الباضع بعد جهد وعناء . ومن المحتمل أن يكون بعضا منهم قد عبر الى بلاد الحجاز .

وقد يكون بعضـا منهم قد حاول عبور البحر مرة أخرى بعـد فترة قصيرة الى الساحل الغربى . وقـد شاهد بعض الباحثين مقابر جمـاعية من الأمويين وعليها شواهد قبـور على طول الطريق الذى سلكوه متجهين الى الباضع وفى هذا الطريق فى منطقة خورنيب ويقع الواقعة على مسافة ٧٠ ميلا غربى سواكن ، وان تلك الشواهد يعود تاريخها الى ١٤٩ هـ / ٧٦٦ م .

ولقد تكاثر الوجود العربى من ربيعة ومضر وأعقاب سـبأ فى أرض المعدن بالنوبة ولا سيما منذ عهد المتوكل العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) .

ثم بدأت مرحلة خطيرة فى حركة الهجرة العربية الواسـعة الى بلاد السودان اثر ظهور مرحلة الأحلاف العربية بين القبائل فى مصر ، اذ أدى ذلك الى ظهور فترة واضحة فى تاريخ الهجرات العربية الى جنوب وادى النيل وان تلك الأحلاف العربية التى لجأت الى السودان

كانت هى حركة العمود الفقرى الأساسى الذى التفت حوله المجموعات العربية التى بذرت بذور العروبة والاسلام فى سودان وادى النيل .

ولقد ظلت تلك الأحلاف العربية التى تألفت فى مصر كما هى فى أحلافها بعـد هجرتها الى السودان محتفظة دائما بشـكلها وتنظيمها التى كانت عليها ، ذلك لأن الجماعات التى أتيح لها أن تهـاجر الى السودان فى فترة من فترات السلم والهـدوء فلم يصبهم من قسوة المعارك ما أصاب غيرهم من قبل بل لم يكن هناك ظروف تستدعيهم الى الفزع الى مهاجر جديدة ، فقد ظل هؤلاء يحتفظون فى السودان فترة من الزمن على تنظيمهم الذى كانوا عليه فى مصر . وهكذا كون هؤلاء القوم جماعات مستقرة ثابتة فى بلاد المريس وفى أرض المعدن ببلاد البجة منذ بداية المرحلة أو قبلها بقليل ، ذلك لأنه لم يطرأ عليهـا من عوامل التشتت والتفرق أى جـديد .

كذلك فان القبائل العربية لم تستطع أن تقاوم الوجود التركى فى مصر منذ عهد الخليفة المستنصر الذى أسقط العطاء عنهم ، فمن هنا فانهم ولوا وجهتهم للهجرة الجماعية الى السودان مولين وجوههم هربا فى كل سبيل حتى استطاعوا أن يبلغوا أرض السودان ، وقد استطاعوا الوصول الى أرض السودان على دفعات كبيرة غالبا ومن ثم تفرقوا فى أنحاء السودان الواسعة واندمجوا مع اخوانهم العرب ، ولكن تلك الأحلاف لم تكن جيدة التنظيم والترابط والتعاون مثلما كانت عليـه فى مصر .

ذلك لأن الجماعات العربيـة الكثيفة المهاجرة الى السودان قد لاقت العديد من العوائق الطبيعية والاجتماعية مما اضطرهم فى أحيان كثيرة الى التفرقة فى بقاع كثيرة وشتى فى أراضى السودان الواسعة .

ولعل حركة الهجرة العربية من الباب الشمالى الى السودان قد استمدت القـوة والحيوية من تيار العروبة المندفع من ينابيعه الدافقة فى مصر وهو ذلك التيار الذى اختلفت قوته بحسب ما كانت تواجهه

العروبة من ظروف فى مصر ، على أنها ــ مهما تختلف الظروف وتتباين فان تيار العروبة والاسلام لم ينقطع عن السودان بل ان حركة الدفع العربى استمرت تتغلغل فى السودان حتى أصبح جزء كبير منه عربيا جنسا ولغة ، ولقد كان المنفــذ الشمالى له الدور الكبير فى اكتشاف السودان لعروبته واسلامه ، ذلك لأن هذا المعبر قد تدفقت منه أغلبية القبــائل العربيــة التى استوطنت السودان ذلك لأن المعبر الشمالى اكتسب أهميته من موقع مصر الجغرافى ذلك الموقع الذى يجعلها وثيقة الصلة بالعناصر العربية ، ولقد يسر هذا الدور والاتصال لعبته شبه جزيرة سيناء فى هــذا الصدد .

ذلك لأن سيناء لم تكن مجرد معبر أو باب نفذت منه الهجرات العربية الى وادى النيل ، بل انها كانت فى الواقع جزء متمما لوادى النيل وقنطرة تربط بين آسيا وافريقيا ولعبت دورا هاما منــذ بداية التاريخ المصرى اذ كانت أحــد الطريقين الرئيسيين اللذين أتت منها الهجرات العربية الى وادى النيل .

ذلك لأن صحراء سيناء لم تكن تقف حائلا بين القبــائل العربية البدوية وبين تدفقها الى وادى النيل لا ســيما تلك القبائل العربية المنتشرة فى شمال الجزيرة العربيــة وفلسطين والأردن وبين هجراتها الى وادى النيل ، بل قلما توجد قبيلة عربية من قبائل بدو سيناء ليس لها قرابة وشيجة بقبيلة أو أكثر من قبائل تلك البلاد .

وكان ان أخذت القبائل العربية خلال العصور الاسلامية الأولى تعبر سيناء بشكل لم تعهده فى فترات التاريخ السابقة ومن ســيناء اختارت معظم هذه القبائل أن تدخل أرض مصر ، ومن هذا يتضح أن المدخل الشمالى طرقته القبائل العربية منذ القدم وازاء هذا الفيض العربى فى مصر الاسلامية ونتيجة لذلك أصــبح طريق وادى النيل الشمالى من أهم المعابر والشرايين التى سرى فيها الدم العربى والثقافة العربية الاســلامية لسودانوادى النيل ، اذا استثنينا تلك الهجرات العربية القليلة التى وصلت الى السودان رأســا عبر البحر الأحمر

سواء أكان ذلك قبل الاسلام أو فى زمن التوسع الاسلامى ، أم كانت هجرات عربية حديثة العهد ـ فى العصور الاسلامية المتأخرة فان تعريب السودان قد تم بصورة رئيسية عن طريق مصر ذلك لأن المنفذ الرئيسى لحركة الهجرة العربية فى تلك الهجرات المكثفة كان هو وادى النيل •

ذلك لأن من الثابت تاريخيا أن وصول هذه القبائل الى السودان قد تم عن طريق مصر ثم كان نجاحها فى الاستيطان بتلك المهاجر السودانية الجديدة والواسعة والخصبة ، قد ساعد على جذب مجموعات عربية أخرى قد جاءت عن طريق البحر الأحمر مباشرة ، غير أن هذه المجموعات الأخيرة التى قدمت عبر الساحل الشرقى للبحر الأحمر لم تكن بالكثرة والكثافة على تلك الصورة التى تصورها أصحاب تلك الروايات التى تعتبر البحر الأحمر معبرا رئيسيا للهجرات العربية الى السودان •

ذلك لأن استخدام العبور الأرضى أسهل كثيرا من العبور البحرى لا سيما أن العبور البحرى فى تلك العصور كانت تكتنفه الكثير من الصعوبات حيث كانت حركة النقلة أكثر صعوبة ذلك لأن العربى فى حركته الانتشارية كان يتحرك من خلال تحرك قبلى مع قبيلته وكان يحمل معه أسرته ومتاعه وابله وأغنامه ، ان ذلك لم يكن ميسورا فى العبور مباشرة من ساحل البحر الأحمر الشرقى الى الساحل الغربى حيث اقليم السودان •

وقد يكون العبور عبر باب المندب أكثر قبولا وموضوعية فى حركة التنقل والانتشار الى بلاد السودان أكثر من قبول فكرة البحر الأحمر لكن لا يعنى ذلك أن البحر الأحمر لم يكن له دور فى حركة الهجرة الى السودان لكن دوره لم يكن رئيسيا أو أساسيا فى حركة الانتشار العربى والتعريب فى السودان •

كذلك فان المسلمين الذين جازوا شبه جزيرة سيناء الى مصر للمرة الأولى كونوا المادة الأساسية أو العمود الفقرى الأساسى الذى

صاغ ذلك المجتمع العربى سواء أكان فى مصر أو السودان بعد ذلك .
ولعل تدفــق حركة هذه القبائل على مصر لا يقل شــأنا عن أى تطور ســياسى أو اجتمــاعى هام وقد انعكست تلك الآثار على المجتمــع السودانى .

وقد تسربت الجماعات العربية نحو السودان بصفة عامة وبيئاته البدوية بصفة خاصة من طرق شتى وأبواب متعددة فوفدت جماعات عربية من الباب الشرقى الأوسط عبر البحر الأحمر مباشرة من شبه الجزيرة العربية الى السواحل الغربية (رأى أبناء السودان) حيث كانت الصــلة بين السودان وشــبه الجزيرة العربية عبر هــذا المعبر متيسرة منــذ أزمان بعيدة وبعــد الفتوح الاسلامية ومن ذلك هجرة جماعات كبيرة من بنى كاهل (الكواهلة) الذين دخلوا السودان عن هذا الطريق بادئين حياتهم باحتلال الاقليم الساحلى أو جزء عظيم منه من سواكن الى غيداب حيث اختلطوا بالبجة وصاهروهم وقد استمر هذا الباب منفذا هاما لتدفق الجماعات العربية مباشرة من شبه الجزيرة العربية الى السودان حتى العصر الحديث .

حيث تحدثنا المراجع عن هجرة عربية حديثة لقبيلة الرشايدة عن طريق البحر الأحمر الى بلاد البجة وهؤلاء الرشايدة (سنشير اليهم فى الباب السادس عند الحديث عن القبائل العربية فى السودان) يمثلون احدى الهجرات العربية من الساحل الشرقى للبحر الأحمر (الجزيرة العربية) الى الســاحل الغربى (السودان) والراجح أن هجرتهم الواسعة الى السودان ترجع الى أبعد من القرن التاسع عشر الميلادى وقد نزلو من اقليم طــوكر الى حــدود أريتريا ثم انتقل البعض منهم فى الاتجاه الغربى الى السودان الى اقليم عطبرة .

الباب الثالث

الفتح الاسلامى لمصر والعلاقات مع السودان

فتح المسلمون مصر فى عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وانه لم يلبث أن انتشر الاسلام والمسلمون فى هذه البلاد حتى بلغ أقصى اقليم أسوان جنوبا ، ويرجع النجاح السريع الذى أحرزه الاسلام فى قلوب المصريين الى ما لقيه هؤلاء القوم من ترحيب الأهالى الذين كرهوا الحكم البيزنطى الذى حرره منهم أبناء عمومتهم الذين كانوا شبه عرب نظرا للهجرات العربية القديمة .

ومن هنا فان فتح مصر قد شهد تدفق العديد من القبائل العربية التى أحدثت أثرا بالغا فى وادى النيل ، ذلك لأنه فى عام ٢١ هـ/٦٤٢ م أرسل عمرو بن العاص عقبة بن نافع الفهرى الى بلاد النوبة على رأس جيش من المسلمين ، حيث كان يعـرف شمال السودان فى العصـور الوسطى بالنوبة ، حيث كان تيسير تلك الحملة بقيادة عقبة بن نافع بن الفهرى جنوبا لغزو بلاد شمال السودان (النـوبة) وفتحها باسم الاسلام ولتأمين حدود مصر الجنوبية .

ومن هنا فانه قبل أن نمضى فى مناقشة العوامل التى ساعدت على هجرة العرب الى السودان يحسن أن نعرض للأحوال والحالة للبلاد التى تقع جنوب أسوان والتى نسميها مجازا : السودان الشمالى ، وكان اكتمال عقد القرن السادس الميلادى قد شهد توغل المسيحية بين سكان مملكتى النوبة وعلوة التى كانت عاصمتها سوبا وبين قليل من البجة ممن كانوا يسكنون الأطراف فلما بدأت الفتوحات الاسـلامية

لمصر وغـيرها من بلاد الوطن العـربى ، كانت المسيحية قد ضربت بجذورها وصارت من مقومات النوبة الأساسية •

ولعل هذا يفسر لنا شيئا من الأسباب التى أدت الى الصدام بين النوبة والمسلمين فاتحى مصر بقيادة عمرو بن العاص فقد اغتاظ النوبة ربما فى فكرهم مما لحق باخوانهم فى الدين من هزيمة على يد المسلمين وأخذوا يتحرشون بالحدود المصرية ، ويبدو أن هذه الهجمات قد أخذت شكلا مزعجا مما حدا بالخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يأمر عمرو بن العاص واليه على مصر بغزو بلاد النوبة •

ولقـد كان للوجود العربى أثره فى بلاد السودان بحيث يمكن القول أن عرب جنوب الجزيرة العربية كانوا هم العنصر الغالب على عرب السودان فيما قبل الاسلام • وكان قد تمثل أول اتصال للعرب المسلمين فى مصر بشمال السودان مملكة المقـره فى فرقة الفرســان التى أرسلها عمرو بن العاص لتأمين طرق التجارة بين البلدين ومن ثم كان ذكر بلاد النوبة لأول مرة فى وثيقة عربية اسلامية فى عهد الأمان الذى أعطاه عمــرو بن العاص لأهل النوبة فجاء فيــه « ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، وجاء فيه وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعيشوا بكذا وكذا رأسا وكذا فرسا على ألا يغزوا ولا يمتعوا من تجارة صادرة ولا واردة » •

وذلك بعد أن كان قد التقى عقبة بالنوبة فى معركة ضارية أبدى فيها النوبيون مهارة فائقة فى رمى النبل ، ولم يتمكن عقبة نتيجة لذلك من فتح النوبة كما يبدو أن عمرو بن العاص رفض أن يصالحهم وأن ينهى الحرب معهم ، بعد أن كان العرب قد اتخذوا من مصر قاعدة لمزيد من الفتوحات والتوسع جنوبا وغربا ، حيث كانت الجيوش الاسلامية تخرج منها لتأمين حدودها وطرق تجارتها ، مثــل تلك الحملة السابق الاشارة اليها التى خرجت لفتح النوبة جنوبا •

ومن هنا كانت هذه الحملة بقيادة عقبة بن نافع الفهرى عام ٢١ هـ ــ ٦٤٢م هى بداية أول اتصال سودان وادى النيل بالفاتحين العرب عبر الباب الأول حيث بدأ الاتصال بالنوبة كما يذكر ابن عبد الحكم صاحب

كتاب فتوح مصر وأخبارها وكانت حكومة الفسطاط قد منحت النوبيين عهدا بالأمان ، ولكن ما ان غادر عمرو بن العاص مصر وخلفه عبد الله ابن سعد بن أبى سرج فى حكم مصر ، فان النوبيون قد نقضوا العهد بالأمان الذى أعطاه لهم عمرو بن العاص فما كان من عبد الله بن سعد ابن أبى سرج الا أن قام بغزو مملكة المقرة عام ٣١ هـ/٦٥٢ م حيث عاود العرب الكرة ثانية على بلاد النوبة ويبدو أن العرب قد استفادوا من سلبيات الحملة السابقة ومن الاخفاق الذى صادفته فى عهد عمرو بن العاص فأعد حملته أتم اعداد ، ومن هنا فانه يبدو أن ممالك النـوبة المسيحية لم تعد تملك القدرة على الوقوف فى وجه التيار الاسلامى الذى بدأ يتدفق من مصر عبر النوبة ويبدو أن هذا الباب قد بدأ ينفتح على مصراعيه لتدفق التيارات الاسلامية طليقة من كل قيد بعد أن كان المسلمون قد عرفوا أرض النوبة أو المقرة فى الشمال وأرض علوة فى الجنوب وكانوا يغشون بلاد النوبة مجتازين غير مقيمين وعلى هـذا عرف العرب تلك البـلاد معرفة اجتياز ومرور ، وكان هـذا الاجتياز والمرور لأغراض تجارية ، كذلك عرف العرب أرض البجة أو البجـاه وكانوا يقيمون على مقربة من غيداب على البحر الأحمر كما انتشروا فى بلاد النوبة وغيرها ولا سيما بين النيل النـوبى والبحر الأحمر فى الأراضى الممتدة من أسوان ودنقلة تقريباً ..

وكانت حملة عبد الله بن أبى سرج قد أوغلت فى بلاد النوبة جنوباً ومضت فى زحفها حتى وصلت الى مدينة دنقلة عاصمة البلاد وحاصرتها حصارا عنيفا ، حيث ضربت قلاعهم بالمنجنيق والذى لم يكن قد عرفه النوبيون من قبل ومن ثم دخل الرعب فى قلوبهم مما اضطر ملكهم « قليديوث » الى طلب الصلح، ومن ثم توقف الزحف الاسلامى الى هذا الحد واقتنع المسلمون بالمصالحة ثم عادوا أدراجهم ، بعد أن أملى المسلمون شروطهم على الملك وعقد معهم صلحا عرف باسم « البقط » ولربما يكون المسلمون قد مالوا الى قبول طلب الصلح الذى اقترحه ملك المقرة حيث كانوا بعيدون عن ديارهم وان كان ذلك لا ينفى أن المسلمين تحركوا بعيـدا عن دنقلة حتى أماكن أخرى وأنه ربما رأى أن المسلمين لم يقصدوا فتـح بلاد النوبة بل أرادوا أن يضعوا حد

لنقضهم الصلح الذى أبرم سابقا ومن هنا فان تلك الغزوة الثانية لم تقضى على سلطانهم قضاء تاما .

ومن هنا كانت هذه المعاهدة عبارة عن هدنة أمان أو معاهدة عدم اعتداء بتعبيرات العصر الحديث ، يلتزم بها الطرفان وتقوم على تبادل المنافع المشتركة والتجارية بين المسلمين والنوبيين ، ولعل اشتهار هذا العهد فى المصادر العربية باسم البقط التى تعنى مجموعة الالتزامات المتبادلة وما يتبعها من مدفوعات .

ومن هنا فأن هذا الصلح النهائى الذى أبرمه عبـد الله بن أبى سرج قد سبقه نوع من الاتفاق وليس صلحا ، لأن المسعودى يذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما فتح عمرو بن العاصر مصر ، كتب اليه لمحاربة النوبة فغزاهم المسلمون وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم حتى صرف عن مصر وولها عبد الله بن سعد بن أبى سرج ، ومن هذا يتضح أن عمرو بن العاص لم يجر صلحا مع النوبة وأن الذى أجرى الصلح هو عبد الله بن أبى سرج .

والذى اشترط عليهم الأمان وألا يحاربهم المسلمون وأن يدخل النوبة بلاد المسلمين مجتازين غير مقيمين فيها وعلى النوبة حفظ من نزل ببلادهم من المسلمين ، وهذا يعنى أن الاسلام قد تسرب منـذ فتح مصر الى تلك الأرجاء وغيرها من البنود الأخرى ، والتى منها أن يحفظ النوبيون المسجد الذى ابتناه المسلمون بدنقلة وكنسه واسراجه وتكريمه وهذا يعطى الدليل القوى أن الاسلام قد تسرب طوال العشرة سنوات التى مرت من ٢١ هـ الى ٣١ هـ ــ ٦٤٢ م / ٦٥٢ م وكذلك حماية التجاروغيرهم من المسلمين الذين يطوفون بلادهم .

ولعله يذكر أن مملكتى مقرة وعلوة قد كانتـا من العقبات التى وقفت فى سبيل الفتـح العربى الاسـلامى للسودان حيث أن هاتين المملكتين قد نظمتا المقاومة العنيدة التى صادفتها حملة عقبة بن نافـع من قبل عمرو بن العاص والتى صادفتها حملة عبد الله بن أبى سرج

رغم حصارها دنقلة ، ان الملوك السودانيون قد نظموا المقاومة وأوقعوا بالعرب من حصونهم ومعاقلهم الجبلية وكبدوهم خسائر فادحة واضطروهم الى الكف عن التقدم جنوبا لضم هذه الممالك الى ديار الاسلام ٠

ولعل عنف المقاومة هذا كان نابعا من طبيعة البلاد وأحوالها الجغرافية فكانت تضاريسها تتيح للملوك ولعناصر المقاومة أن تعتصم بمواقع حصينة وأن تختفى حينا وتعاود الظهور أحيانا من حيث لا يتوقع المهاجمون ظهورها ولعل هذا يفسر اخفاق التجريدات العسكرية التى كانت مصر تسيرها صوب الجنوب ثم ان أحوالها المناخية أضافت بعدا آخر ذلك لأن هذه الأحوال المناخية لا تكاد تختلف عن أحوالها التضاريسية ومظهرها العام الشدة والقحط وحاجة المهاجمين الى الزاد والمؤنة وما قاسوه فى سبيل ذلك من ألوان الشدة والبأس لذلك كانت الحملات المصرية سريعة خاطفة لم تستطع أن تمكث طويلا ولو طال مكوثها لحققت كل ما كانت تهدف الى تحقيقه من أهداف ٠

ومن هنا لم تكن هذه الحملات العربية الأولى تريد زحفا جادا نحو بلاد النوبة ، فعمرو بن العاص لم يكن يطمع فى أكثر من تأمين حدود مصر الجنوبية ، وتعقب بعض الفارين من الجنود أو القواد البيزنطيين ولعلها كانت حملة استكشافية تريد أن تستطلع الأحوال فى أقاصى الصعيد ٠

وكانت حملة عبد الله بن سعد بن أبى سرج مجرد رد على عدوان مسلح قام به أهل النوبة على حدود مصر الجنوبية ومن هنا فلا يستبعد أن يكون البيزنطيون وراء هذه الأحداث من الاعتداء النوبى على حدود مصر الجنوبية بعد أن حاولوا استرداد الاسكندرية عام ٢٥ هـ ولعلهم دفعوا ملوك النوبة الى مهاجمة مصر من الجنوب لشغل المسلمين عن مدافعة البيزنطيين عن الاسكندرية شمالا ٠

ومن هنا كان النوبيين بدورهم ليسوا أقل من العرب رغبة فى الاتفاق ، فقد كانت الكنيسة الأم لهم فى مصر فى قبضة العرب وكذلك

مسارب التجارة ومسالكها ومن ثم تبلورت كل هذه الرغبات المتبادلة فى معاهدة البقط الشهيرة السابق الاشارة اليها مع ملك مقرة النوبى .

وقد كان تعهـد النوبيون بالمحافظة على المسجد الذى ابتنـاه المسلمون فى دنقلة لا يهدموه ، ولكن على الجانب الآخر فانه فى مقابل حماية النوبيون للمسجد فقد ورد نص ينظم التعاون الدينى بين كنيسة النوبة وكنيسة الاسكندرية ووفود البطارقة والكهنة الى مصر أو رحيلهم الى النوبة لأن المعاهدة أخذ وعطاء وأنه ليس من المعقول أن يعطى أهل النوبة ولا يأخذون .

ولم تكن المعاهدة معاهدة تبعيـة يفرضها غالب على مغلوب ، فالروايات التاريخية تجمع على أن البقط ليس بجـزية ولا خراج ، الا أنها معاهدة مصالح مشتركة ، تأمين للنواحى الاقتصادية والدينية والتجارية وتشجيع التبادل التجارى وتنظيم طبيعى للعلاقات واقرار للسلام على الحدود المشتركة ، وهى نابعة من مصالح متبادلة ، لذلك ظلت سارية المفعول أكثر من ستمائة سنة وهى تحدد لنا انتشار الاسلام فى السودان الشمالى « النوبة » فلن يكون فتحا ، انما اذا قدر له أن يتسرب فليتسرب سليما فى بطء ومن غير عنف .

انتشار الاسلام : لقد كانت هذه المعاهدة بمثابة فتح الباب أمام المؤثرات الاسـلامية لتنفذ الى البـلاد فى هدوء وسـلام وطمأنينة وكيف لا وقد نفد الاسلام فى أقل من عشرة سنوات منذ الحملة الأولى عام ٢١ هـ ثم الى معاهدة البقط عام ٣١ هـ بدليل بناء المسلمين لمسجد لهم فى عاصمة شمال السودان « دنقلة » ولقد كان توقيع هذه المعاهدة بمثابة فتح جميع الأبواب أمام التيار الاسلامى ليعمر بلاد النوبة وليغير مصيرها الاجتماعى والدينى ويؤذن بنهـاية المسيحية ونهـاية مملكة مقرة منها .

ولقد كانت تلك المعاهدة بمثابة وضع الأسس لبناء المجتمع العربى الاسلامى فى المستقبل فى النوبة ، ذلك أنها ألزمت النوبيين بفتح بلادهم لكل وافد من المسلمين على ألا يقيم وكان ذلك ايذانا لانطلاق رجال

الدعوة الاسلامية للدعوة لدينهم بين النوبيين أثناء مرورهم بالنوبة وقد اتضح فيما بعد أن بعض المجموعات الاسلامية لم تتقيد بهـذا الشرط • ذلك لأن نتائج الحفر الأثرى الذى تم حديثا فى منطقة النوبة على أثر مشروع بناء السد العالى عام ١٩٦١ م تشير الى وجود قباب وقبور اسلامية ترجع الى القرنين العاشر والحادى عشر الميلادى وعثر على بعضها فى منطقة كلابشة وهى مؤرخة بتاريخ ٥٢٣ هـ كما عثر على البعض الآخر فى الدر وهى مؤرخة بعام ١٠٢٦ م هذا فضلا عن آلاف القبور العربية التى عثر عليها أيضا فى منطقة حلفا والشلال الثانى ، وترجع الى بداية القرن العاشر ومنتصف القرن الحادى عشر الميلادى •

وهـذا يدل على وجود جماعات مسلمة فى ذلك المجتمع المسيحى منذ فترة مبكرة من دخول الاسلام الى افريقيا ، وأن هـذه الجماعات قامت بدور الدعوة للاسلام فى هذه البلاد • كذلك فقد ذكر المسعودى أن بعض مسلمى أسوان اشتروا ضياعا كثيرة داخل أرض النوبة، ومن هنا فان الأمر لم يعـد فى حـاجة الى احتلالها أو ضمها للاراضى الاسلامية •

أما من ناحية البجه أو البجاوية فان المسلمين قد أبدوا عـدم أكترات بأمرهم على أثر غزوهم بلاد النـوبة عـام ٣١ هـ/٦٥٢ م بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح • بينما كان اهتمام المسـلمين بالنوبة بالغ الاهمية ، وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم « فتجمع له فى انصرافه على شاطىء النيل البجه فسأل عنهم فأخبر بمكانهم فهان عليه أمرهم فنفـذ وتركهم ولم يكن لهم عقـد ولا صلح ، وأول من صالحهم عبد الله بن الحبحاب •

على أن عـدم الاكتراث بهؤلاء القوم ، لم يكن من مصلحـة العرب فبعـد فترة من الزمن لا تتعـدى ثلاثة وسبعين عاما وجـد هؤلاء القوم فى أنفسهم الكفاءة ، مما دفعهم الى القيام بغارة على مصر عام ١٠٧هـ/٧٢٥م وعندئذ تنبه العرب الى خطورتهم ، اذ تذكر لنـا المصادر لأول مرة عن غارة قام بها هؤلاء البجه وهم سـكان الصحراء

ما بين النيل والبحر الاحمر على صعيد مصر ، والظاهر أن المسلمين ردوا هـذا الهجوم وصدوه ولكن محاولاتهم هـذه باءت بالفشل ، ذلك لان عبد الله بن الحبحاب السلولى قـد هزمهم وعقـد معهم أول معاهدة ظلت قائمة زهاء قرن من الزمان ، وكان من بين نصوصها ألا يقتلوا مسلما ولا ذميا ممن نزل ببلادهم وألا يأذوا عبيد المسلمين وأن يردوا من يقع فى أيديهم من هؤلاء العبيـد ، وعلى أن يبقى وكيلهم بريف مصر رهينة فى أيدى المسلمين .

ومن الواضح أن هـذه المعاهدة استهدفت تأمين صعيد مصر من غارات البجه ، كذلك فان هذا الصلح قد فتح الباب على مصراعيه مثلما فعل مع النوبة لتغلغل النفوذ الاسلامى فى بلاد البجه نتيجـة لالزامهم بعـدم التعرض لأى مسلم يجتاز بلادهم ، كذلك فان هذه المعاهدة تحمل نفس الروح التى سادت جو تنظيم العلاقات بين مصر والسودان فى سالف العصور ، هذا وان كانت اتفاقيات المسلمين مع النوبة والبجه اتصفت بوجود شرط جـديد هو الزام أهـل الجنوب باحترام المشاعر الدينية ، والسبب فى ذلك أن أهل الجنوب فى ذلك الوقت كانوا يدينون بالمسيحية .

ويبدو أن اتفاقية ابن الحبحاب لم توقف غارات البجه وتعديهم على صعيد مصر ، اذ تشير المراجع الى تعدى البجه على بعض الحجاج من قفط ، وقد تطور هـذا الحادث الى حرب متبادلة بين البجه وأهل قفط المصرية ، ويبدو أن هـذه المعاهدة أصبحت لا قيمة لها بالنسبة للبجه بمرور الزمن ، وبمعنى آخر أصبحت هـذه المعاهدة فى طى النسيان ، فبعـد قرن من الزمان تقريبا عاود البجه الاغارة على أسوان عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م بعـد اغارتهم على مدينة قفط وذلك بعد أن ظلت العلاقات ودية طوال قرن من الزمان حتى اذ كنا فى عهد المأمون العباسى جـدد البجه غاراتهم على أسوان ، وعند سماع الخليفة بالخبر أمر بتجريد حملة عليهم وعقـد لوائها لعبد الله بن الجهم عام ٨٤٦م/٢٣٢هـ ونتيجة لذلك أملى عليهم عقـدا جديدا جعل بموجبه بلاد البجه من حـد أسوان الى ما بين مصوع وباضع ملكا للخليفة وأن يكون كنون

ابن عبد العزيز رئيسهم هو وأهل بلده خاضعين لأمير المؤمنين وأن يحترم البجه الاسلام ولا يعينوا أحدا على المسلمين وألا يقتلوا مسلما أو ذميا أو عبدا فى أرض البجه أو فى مصر أو النوبة وعليهم تأمين حياة المسلمين المجتازين لبلادهم للتجارة أو الاقامة ، واذا ما دخل البجه صعيد مصر مجتازين أو تجار فلا يظهرون سلاحا ولا يدخلون المدائن والقرى ولا يهدموا المساجد التى أنشأها المسلمون وأن يدخل عمال أمين المؤمنين بلاد البجه لقبض صدقات من أسلم من البجه .

ويتضح من هذا العهد أن الاسلام شق طريقه الى أرض البجه كما شقها الى بلاد النوبة قبل هذا العهد لأن وجود المساجد والمسلمين الذين يدخل عمال المسلمين بلاد البجه لقبض صدقات من أسلم منهم دليل واضح على انتشار الاسلام على نطا قواسع سواء أكانوا عرب من الذين أقاموا هناك أو من البجه الذين اعتنقوا الدين الاسلامى نتيجة اختلاطهم بالعرب .

وقد كثرت أملاك المسلمين فى بلاد النوبة والبجه فى عهد دولة بنى أمية وبنى العباس وكان ملك النوبة قد استنجد بالخليفة المأمون حين دخل مصر عام (١٢٦ هـ ـ ٨٣١ م) على هؤلاء القوم المسلمين بأن أوفد وفدا الى الفسطاط ذكر عنه أن أناسا من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعا من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان وأنها ضياعة والقوم عبيد له ولا أملاك لهم وكان أن أحال المأمون هذه الشكوى الى حاكم أسوان ليبت فيها ولقد فصل فى الدعوى باقرار البيع لعدم اقرار البائسين بالرق ومن ثم توارث المسلمون الضياع ويشير ابن سليم الاسوانى (٩٧٠ م) الى أن المنطقة الممتدة من أسوان الى الشلال الثانى هى الجهة التى يتصرف فيها المسلمون ولهم فيها أملاك .

ولقد استمرت العلاقات الطيبة بين ممالك النوبة والدولة الاسلامية فى مصر وان كان يحدث من وقت لآخر ما يثير التواتر والاحتكاك بسبب امتناع النوبة عن دفع البقط المقرر ، كذلك حدث أن تعدلت هذه المعاهدة فى عهد الخليفة العباس المعتصم ، ذلك أن ملك النوبة

آنذاك — زكريا بن يحنس — قد أوفد ابنه لبغداد ليرفع عن والده عجرد عن دفع البقط سنويا، وكان ان صحب ابن الملك هذا معه فى هذه الرحلة ملك البجة أيضاً وعند وصولها لمقر الخليفة أكرم وفادتها وقرر المعتصم أن يكون دفع البقط كل ثلاث سنوات بدلا من كل سنة على أن يستمر المسلمون فى الوفاء بالتزاماتهم نحو النوبة وذلك بمنحهم الحبوب والثياب •

ولقد دفع الخليفة المعتصم الى ذلك للتخفيف عليهم كذلك لكون بلاد البجه كمعبر للحجاج المصريين ومن ثم حرص المسلمون على حماية سلامة الحجاج وأمنهم ، كذلك فانه يوجد ثمة شاهد على تغلغل النور الاسلامى فى هذه البلاد ومن ذلك ما ذكره ابن سليم الأسوانى قوله عن قيام اثنين من العرب بترجمة هذه المعاهدة الى لغة البجة ، ومعنى ذلك أن بعض المجموعات العربية المسلمة قد استقرت فى هذه البلاد لفترة طويلة واختلطت بأهلها الى درجة أنها ألمت بلغة التخاطب •

وكذلك فقد توطدت أركان العروبة والاسلام فى بلاد النوبة فبعد مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى بوصير بمصر اتجه أبناءه عبد الله وعبيد الله ومعهما ألفا وربما أربعة آلاف من أتباعهما الى بلاد النوبة بقصد الاقامة فيها حتى يتمكنوا من استرداد ملكهم على رواية اليعقوبى ، ويبدو أن ملك النوبة الذى استضافهم كان على علم بانتقال الأمر من بنى أمية الى بنى العباس فلم يتردد فى أن يطلب منهم الخروج من دياره ، ومن ثم قررا الذهاب الى الجزيرة بعد أن سلكوا طريقهم فى بلاد البجة ، وبالرغم من أن هؤلاء الهاربين السياسيين لم يستطيعوا البقاء فى بلاد النوبة الا أن الطريق الذى سلكوه شهد هجرات كثيرة فى القرون اللاحقة ، ومنذ العهد المبكر للاسلام أخذ العرب يتدفقون نحو السودان بأعداد كبيرة •

ومن هنا فان بلاد السودان قد شهدت اللاجئين السياسيين من العـرب كبنى أمية الذين فروا من وجه العباسيين الى بلاد النـوبة أو السودان واستقروا بأرض الجزيرة بعـد سقوط الدولة الأموية

(٣٢٠ هـ ــ ٧٥٠ م) • ويظهر أن العرب قد اتصلوا اتصالا وثيقا بالبجه فى القرن الثامن الميــلادى عن طريق البحر الأحمر أو عن طــريق وادى النيل وخاصة اقليم أسوان ، فوصلوا اليهم تجــار واجتازوا من مصر الى بلادهم حاجين وهاجروا الى مفاوز الذهب والزمرد كما يظهر أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم • فهذه كلها ظروف ومناسبات مهدت أول الأمر للعرب الاختلاط ببلاد النوبة والبجه وكانت من العوامل التى ساعدت على تعريب هاتين المنطقتين وكان للزواج بين العرب والنوبيين لـ هأثره فى اسلام الآخرين•

ومن هنا خضع البجة فى شرق السودان فى العهد العباسى للحكم الاسلامى أى بعد ثلاثمائة سنة من غزو عبــد بن أبى السرج للنوبة وأصبحت بذلك الأراضى الواقعة من جنوب أسوان الى جنوب دملل ودهلك ومصوع جزء من الدولة الاسلامية •

لقد دخلت بلاد النوبة بعض جماعات من العرب من قبائل بلى وجهنيه لغرض التجارة أو جذبتهم معادن الذهب أو المراعى عقب الفتح الاسلامى لمصر وبديهى أن يدخل البجة أو بعضا منهم دين الاسلام نتيجة اختلاطهم بهم كما أن فريقا من عرب هوازن عبرو البحر الأحمر والذين عرفوا فيما بعد بالحلانقة • وأقاموا فى بلاد البجة ثم رحلوا لاقليم التاكه وكسلا • كما أن بعضا من بنى أمية قد استقروا فى ميناء باضع ودلت الأبحاث الأثرية على وجود شواهد قبور اسلامية وعلى وجود مسجد فى « سنكات » يتضح أنها طريق الفارين من الأمويين •

وهناك بعض الروايات تقول ببقاء بعض أفراد ممن كانوا فى غزوة « ان الجهم » فى أرض البجه وربما نزحت بعض القبــائل من صعيد مصر وتوغلت فى الصحراء الشرقية تحت ضغط قبائل عربية أخرى • اذن فان بلاد البجة قد أصبحت مجالا حيويا لقبائل عربية مسلمة بعضها ذهب يدعو للاسلام وللجهاد فى ســبيل الله وبعضهم ذهب للتجارة وبعضهم جذبه معدن الذهب وبعضا منهم نزح تحت ضغط قبــائل أخرى وبعضهم تخلف بعد نجاح حملات تأديبية وبعضها عبر البحر

الأحمر واستقر على الساحل الغربى وبعضها تتبعت موارد الميــاه والعشب وبعضها توغل فى الصحراء ولجــأ الى البجه خوفا من سيف العباســين ٠

ولقد كان الاستقرار العربى الاسلامى وفقا للانتشار جنوبا فى السودان الأوسط أو ما يعرف باسم مملكة علوة ومن هنا أصبح الباب مفتوحا للاسلام والثقافة العربية للتوغل فى وسط السودان وحتى حدود الحبشة دون انتظار لسقوط مملكة المقرة المسيحية فى شمال السودان ، ومن هنا تدفقت الهجرات العربية الى سودان وادى النيل طوال العصور الوسطى ومن ذلك استقرت أعداد كبيرة من العرب فى تلك المناطق ، ثم كانت الحملات الحربية التى وجهها ولاة مصر الى أوطان البجة فرصة ليتعرف العرب على خصائص البيئة ولذا أثر بعض الذين اشتركوا فى هذه الحملات البقاء فى منطقة العلاقى بعد أن عاينوا التبر وآثار العمل فيه ٠ ولقد كانت شهرة وادى العلاقى بالذهب والزمرد سببا فى جذب جماعات من ربيعة وجهنيه عام ٢٣٨ هـ ـ ٨٣٧ م ٠

ثم كان الضغط السياسى والاقتصادى على العرب بمصر على أثر قيام الدولة العباسية بتعين ولاة من الأتراك ، ثم اسقاط العرب من ديوان الجند وقطع العطاء عنهم ، كان لهذا الضغط أثره فى هجرة الكثير من الجماعات العربية الى الجنوب ، وحانت الفرصة لهم عندما أعلن أحمد بن طولون عن اعداد حملة الى بلاد البجة فاشترك فيها كثير من العرب معظمهم من ربيعة وجهينة ويبدو أن هدف هذه الحملة كان الكشف عن مناطق جديدة لمعدن الذهب فى أوطان البجة والبحث عن أماكن ومهاجر جديدة تتسع لأولئك العرب الذين أرادوا أن يكونوا جاليات عربية فى النوبة السفلى « مملكة مقرة » ٠

وقد ظلت علاقة الدول الاسلامية بمصر ببلاد النوبة يغلب عليها طابع المسالمة وبذلك فقد أصبحت بلاد النــوبة من وجهــة نظر الدول الاسلامية فى مصر سوقا كبيرا أو منطقة نفوذ اسلامية وكانت العلاقة تجنح الى الهدوء والمسألة كما عملت ممالك النوبة على تنفيذ هــذه الاتفاقية ومد مصر بما تحتاجه ٠

وقد كان نقص هذه الاتفاقية في الغالب يجيء من ملوك النوبة الذين كانوا أحيانا يمتنعون عن الوفاء بهذه الشروط وكانت الدول الاسلامية فى مصر تضطر الى ارسال الحملات التأديبية واجبارهم على الوفاء بالعقد .

وبهذا يكون العرب قد اتصلوا بالنوبة والبجة اتصال مكان ومرور وانتقال جنوبا مما أتاح الفرصة أمام المسلمين للانطلاق جنوبا حتى الى مملكة علوة وما يقترب من مكان مدينة الخرطوم حاليا حيث العاصمة سوبا . ومن هنا فان الرحالة الفاطمى ابن سليم الأسوانى الذى زار المنطقة عام ٩٦٩م وجد أن كثيرا من العرب قد اختلطوا بالنوبة الى درجة أن عددا كبيرا منهم قد نشروا اللسان العربى ، ولم ينسوا اللسان العربى كما ذكر ذلك السودانى يوسف فضل حسن الذى حاول فى كتاباته أن يقلل من شأن العرب والعروبة والاسلام والمسلمين فى السودان فى تلك العصور .

ولكن المعاهدات والالتزامات التى كانت قد عقدت بين المسلمين والنوبة والبجه لم تجعلهم يكفون عن اثارة المتاعب على حدود مصر الجنوبية ولم تنتهى الفتن التى يقوم بها البجة ولذا لم لم تمضى عليهم بضع سنوات بعد عودتهم من بغداد . وجعل البقط كل ثلاث سنوات بدلاً من جعله يدفع سنويا ، ومع ذلك فقد امتنعوا عن دفع التزاماتهم من الخراج كنص المعاهدة وقاموا بثورة عارمة وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين العاملين بأرض المعدن ، ولم يكتفوا بذلك بل أغاروا على صعيد مصر كعادتهم ، فما كان من الخليفة العباسى المتوكل الا أن يأمر بتجريد حملة عليهم بقيادة محمد بن عبد الله القمى عام ٢٤١ هـ — ٨٥٤ م ، كما أمر المتوكل الوالى عنبسه بن اسحاق الضبى أن يمده بالرجال والمؤن ومن هنا فقد سار اليهم القمى بقوات يزيد عدداه عن ٢٠ ألف جندى (عشرين ألف جندى) وهناك فى أرض المعدن انضم اليهم العرب من ربيعة ومصر واليمن ، كما وافته المراكب بالمؤن عن طريق البحر الأحمر من ساحل القلزم الى ساحل عيذاب ، واستطاعت الحملة المصرية الاسلامية أن تهزم البجه وطلب ملكهم « على بابا » الصلح على أن بدفع الخراج عن المدة السابقة وهى أربع سنوات فصالحهم « القمى »

على أنه اشترط عليه أن يكأ بساط الخليفة العباسى فى مدينة « سرى من راى » ففعل على بابا وذهب الى هناك حيث كرمه الخليفة وقـــد تضمن هـذا الصلح تأكيد حق المسلمين فى العمل بمعادن الذهب .

ولقد نقل (على بابا) الى قومه ما شاهده من عظمة وقوة المسلمين فى عاصمتهم وأدركوا أنه لا قبل لهم بمعاداتهم ومقابلتهم ومن هنا تدفق مزيد من العرب على معادن الذهب واكتشفت مواطن أخرى من المنطقة وترك لهم أمر استغلال المناجم لأن البجه على ما يبدو لم تكن لهم خبرة بأمرها واكتفوا بمساكنة ومجاورة ومصاهرة العرب وربما زاد عدد من اعتنق الاسلام وبسطت الدولة الاسلامية نفوذها على المنطقة ومما زاد فى هجرة أعراب البادية فى مصر نحو أراضى البجـه سياسة الخليفة المعتصم نحو تجنيد الأتراك فى جيشه .

وذلك بعد أن ظل العرب طوال عهد الخلفاء الراشدين والعصر الأموى والحقب الأول من الدولة العباسية يكونون الطبقـة المصطفاه والطبقة المقاتلة والأستقراطية الحاكمة ، وكانوا يتسلمون رواتب سخية ويدفعون ضرائب بسيطة ويحافظون على مقدرتهم الحربية فانه حرم عليهم اقتناء الأراضى والاشتغال بالفلاحة.ومن ثم ظلوا يسكنون المدن ولكن فى أواخر الدولة الأموية بدأت الجماعات منهم تحترف الزراعة وتختلط بالمصريين ، ومن هنـا كان ذلك بداية للاستقرار وانتشـار الاسلام .

وقد استمر استمرار وفود العرب الى مصر لأسباب مختلفة منها كثرة تغير الولاة الذين اعتادوا على اصطحاب أفراد من قبائلهم يشدوا من أزرهم فى وظائفهم الجديدة وقد ذكر أن عدد من تبع بعض الولاة بلغ سـتة آلاف أو عشرة آلاف أو عشرين ألفـا . فاذا عرفنـا أن ثلاثة وثمانين واليا تعاقبوا على حكم مصر بين ولاية عمرو بن العاص الثانية وولاية عنبسه بن اسحاق الضبى آخر والى عربى حكم مصر تبين لنا العـدد الكبير من القبائل العربية التى استقرت فى مصر طوال تلك الفترة التى بدأت من ٢٠ هـ ـ ٦٤٠ م الى ٢٤١ هـ ـ ٨٥٤ م بالاضافة الى أن الأمويون شجعوا هجرة القبائل القيسية ليقللوا من نفوذ القبائل اليمنية ، وقد استقرت جماعات من هؤلاء فى مصر حيث مارست الزراعـة .

ومن ثم ساعد الانتشار الواسع والعديد للقبائل العربية سواء منها القيسية ، والسبائية الى النزوح جنــوبا الى السودان حتى الوصول الى منطقة أرض الجزيرة •

وبسقوط الدولة الأموية انتهت دولة العرب وقامت الدولة العباسية على تأيد الموالى من الفرس وبعض العرب ، وقــد اعتمــدت الدولة العباسية على الجند الخرسانى وهم فرع من الفرس والعرب ومن ثم قل اعتمادها على العرب وبذلك حرم العــرب من كثير من امتيازاتهم وهؤلاء فقدوا وظائفهم تدريجيا ومن ثم فى عهد الخليفــة المعتصم احتلها جنود الأتراك ، ومن ثم فان ذلك لم يعجب العرب وبدأت حركة الهجرة الواسعة الى أطراف الدولة الاسلامية حيث تحرك العرب بأعداد كبيرة صوب الجنوب حيث أرض البجة والنوبة وحيث السودان الأوسط ولقد كان قرار الخليفة العباسى المعتصم بالكتاب الى واليه بمصر يأمره بأن يسقط من فى ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم ففعل ذلك• ويعد هذا القرار نقطة تحول خطيرة فى تاريخ العرب فى مصر وتاريخ هجرتهم الى الجنوب فصهر تلك الناطق بالعنصر العربى ومن هنا كان قرار المعتصم بتجنيد الترك السبب المباشر بل العامل الأساسى الذى شجع الهجرة العربية الواسعة الى السودان ذلك لأنه كلما زادت هيمنة الأتراك على الحكومة والجيش فى مصر اضطر العرب الى الهجرة جنوبا نحو السودان ، بل أن تلك السياسة أدت الى هجرة بعضهم جنوبا فى الصحراء حيث استقرت قبائل قبلهم من أبناء عمومتهم واخوانهم • ولقد كان أسلوب العنف والشدة الذى أظهره الولاة الأتراك قبــل القبائل العربية وسجن الزعماء وفرض الغرامات من الأسباب الجوهرية التى دفعت بالأعداد الكبيرة بالانسياح نحو الجنوب والغرب مبتعدين عن هذا الجو المعادى للعروبة وكيف لا وهم أبناء الصحراء الذين اعتادوا على جو النقلة والترحال من الهجرة الى الافاق البعيدة حيث تبعهم البهــا بعض الأهل والعشيرة والذين استقروا هناك منذ فترة طويلة سابقة للاسلام •

وبذلك فقد شهد القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى هجرات عربية واسعة للسودان دفعتهم للدخول الى تلك السهول الواسعة من الشمال حيث اجتازوا مناطق النوبة الشمالية نزولا الى النوبة السفلى حيث مملكة علوة وانتشاراً فى المناطق الشرقية من السودان بالقرب من معادن الذهب وسواحل البحر الأحمر • وقد شجعهم الى تلك الهجرات تلك الأخبار التى سمعوها من التجار عن المراعى الشاسعة التى تقع جنوب النوبة •

ولقـد كانت المعاهـدة التى عقدت بين « عبد الله بن الجهنم » ورئيس البجة «كنون بن عبد العزيز» وهى فاتحة الباب لوصول القبائل العربية الى منطقة الجزيرة حيث التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض وتلك الأراضى الواسعة الشاسعة حيث استحدثت هذه المعاهدة السماح لتجول المسلمين واستقرارهم فى حرية تامة فى تلك المناطق وصولا الى أقصى المناطق الجنوبية ، كما أن الاشارة الى وجود المساجد فى تلك المناطق يدل دلالة قاطعـة على عروبة تلك المناطق منـذ فترة طويلة وانتشار الاسلام بين أهل السودان نظرا لوجود أعداد كبيرة من العرب فيهم • ومن هنا ساعدت على نشر الاسلام ، ثم أن اسم كنون بن عبد العزيز رئيس البجة دليل قوى على أن الرئيس هذا عربى أو أنه يحمل اسما عربيا ، كما أن قيام عربيان أحدهما من جدة والآخر من تريش بترجمة تلك المعاهدة الى اللغة البجاوية دليل حيوى على أن العرب عاشوا فى تلك الديار فترة طويلة قد تصل الى أكثر من ثلاثة أجيال حتى تمكنهم من تعلم واتقان اللغة البجاوية ، كذلك تدفق العرب بأعداد كبيرة بعـد أن أسقط الخليفة المعتصم الرواتب للعـرب من العوامل التى شجعت العرب للبحث جنـوبا عن مناطق وجود الذهب والزمرد فى أرض البجاه اضافة الى نشر الاسـلام والدعوة له بين سكان تلك المناطق الواقعة بين البحر الأحمر والنيل •

كثافة الهجرة العربية وانتشار الاسلام : لقد شهد القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى حركة هجرة اسلامية واسـعة النطاق فى اتجاه الجنوب ، ذلك لأن سياسة الدولة فى مصر لم تكن تغرى الكثير

من العرب بالبقاء فى مصر لا سيما بعـد أن أبطل الراتب ومن هنـا كانت هناك بعض الأسباب السياسية والاقتصادية هى الدافع لكثير من العرب ورعاياهم للتوغل فى السودان وكذلك للعمل فى مناجم التعدين فى الصحراء الشرقية والدعوة للاسـلام والاشتغال بالتجارة الهندية والقيام بنقل الحجاج عبر الصحراء الى ميناء عيذاب بعد أن تطور ذلك الميناء وغيره من الموانى المطلة على البحر الأحمر ٠

ولقد كان عامل الدعوة للاسـلام ونشر تلك الرسالة التى خرج العرب من شـبه الجزيرة العربية لنشرها من الأسباب القوية للتحرك الى الجنوب اضافة الى العامل التجارى حيث كان العرب أهل تجارة « رحلة الشتاء والصيف » من الأسباب القوية للتوغل جنوبا عبر أرض المقرة وعلوة اللتين كانتـا لا تزالان دولتان مسيحيتان ، وذلك خلال القرون الأولى للدعوة الاسلامية حيث كانوا يقومون بالأعمال التجارية اضـافة الى الدعوة لدين الله الخالد ، فكانوا يجلبون المواد الغذائية والثياب والخزف ويعودون بريش النعام والعاج والماشية حيث كانت هذه النشاطات تمثل جزء من هذا النشاط التجارى حيث تزايد الطلب فى العالم الاسلامى على منتجات تلك المناطق ، لا سيما أن العـامل التجارى كان يشد من أزر التسرب الاسلامى نحو الجنوب حيث كان التبادل التجارى من المواد التى تنظمها معاهدة البقط التى عقدت فى عام ٣١ هـ / ٦٥١ م بين صاحب دنقلة ووالى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرج ووضعت هذه المعـاهدة القواعد والأصول ، فقد اعترفت هذه المعاهدة بحرية المرور التجارى بين القطرين « على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيـه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين وعليكم حفظ من نزل ببلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم »

ومعنى هـذا أن تجار المسلمين ورجال الدعوة الاسلامية كانوا باستطاعتهم أن ينفذوا الى بلاد النوبة وأن يقيموا فيها متاجرين غير مستقرين وأن تؤمن أموالهم وأنفسهم ، وأن كان بعض العرب لم يلتزم بنصوص هذه الاتفاقية واستقر استقرار دائم بعد أن يتنقل من بلد الى آخر ٠

ويبدو أن تجار المسلمين من العرب كانوا قد بدءوا يدخلون النوبة ربما قبل ابرام المعاهدة فان هذه المعاهدة لم تكن تشريع للمستقبل بقدر ما تقرر حقيقة واقعة ، يدل على ذلك نصها على صيانة مساجد المسلمين والمحافظة عليها ومعنى هذا أن التجار المسلمين كان يسمح لهم بمزاولة شعائرهم الدينية فى حرية كاملة .

وكان هؤلاء التجار يخالطون أهل البلاد ويتحدثون اليهم ولا ننسى أن التجار المسلمين كانوا عادة من خير الدعاة الى الاسلام ومن هنـــا كان الهدف الدينى من أســـباب التحرك والانتشار جنوبا ، ومن هنـــا كانت أعداد التجار الوافدين على بلاد النوبة تتزايد ويتزايد نشاطهم التجارى والدينى كلما نمت العـــلاقات وتطورت بين البـــلدين ، هذه العـــلاقات التى تطورت وبلغت الغـــاية من النمو فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى .

بالاضافة الى أن كثافة انتشار الاســـلام بين أهل النوبة ، أن التجـــار النـــوبيون الذين كانوا يفـــدون من بلادهم الى مصر كانوا يشاهدون مظاهر الحضارة وحسن المعاملة من التجار المسلمين ومن هنا فانهم عند عودتهم كانوا يتحدثون عن أحوال تلك البـــلاد الحضارية والثقافية والدينية والمعمارية ويتأثرون بما يشاهدون من معالم الحضارة والرقى ، بل ان العديد من هؤلاء التجار كان يعود الى النوبة بعد أن يكون قد أعلن اسلامه فى مصر وأصبح داعيـــة للدين الخالد بين قومه عند عودته .

الدولة الطولونية والعلاقات مع السودان : عنـــد ما تسلم زمام السلطة فى مصر أحمد بن طـــولون فان فترة عصر الدولة الطـــولونية (٢٥٤ هـ — ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ — ٩٠٥ م) قـــد شـــهدت قيـــام الدولة الطولونية بتجهيز حملة حربية الى بلاد النوبة والبجة ، ذلك لأن حاجة مصر الى الرقيق كانت ماسة وبعد أن اشتد طلب مصر على الرقيق منذ أن درج الولاة على تجنيدهم فى جيش مصر الاســـلامية بعـــد أن تم الاستغناء عن القوات العربية فى عصر الخليفة المعتصم ، بعد أن أضحت الحاجة ماسة الى الجنود النوبيون والذين عين أربعين ألف جندى منهم فى جيشه .

وكان البجة قد قاموا بغارة مفاجئة على مصر بقيادة رجل أعور باغتوا المسلمين وهم يؤدون صلاة العيد ، فأنزلوا فيهم مقتلة عظيمة ونهبوا ما استطاعوا نهبه من المسلمين وعادوا الى بلادهم ، ويبدو من رواية البلوى ، أن تلك الحملة التى خرجت فى عهد أحمد بن طولون والتى قام بها « أبى عبد الرحمن العمرى » قد أعدها بمجهوده الشخصى وبدافع من نفسه ، حيث يقول البلوى « فخرج هذا العمرى غضبا لله عز وجل وللمسلمين فكمن لهم فى طريقهم حتى أقبلوا ، كعادتهم فكبسهم وقتل رئيسهم الأعور نفسه ، كما أن رواية العمرى يبدو منها أن أحمد ابن طولون هو الذى أرسله ، حيث يقول انى لم أخرج أبغى فسادا فى الأرض ، والدليل على ذلك قوله انى لم أوذ مسلما ولا معاهدا وانما خرجت فى طلب أعداء المسلمين حتى كفانا الله أمرهم » .

ولقد كان اتجاه العمرى الى اقليم شنقير جنوب العلاقى حيث خرجت اليه القبائل العربية الوافدة من الشام ومن بينها قبيلة سـعد العشيرة وقيس وعيلان ، بعد أن حصلوا من النوبيين على حق الاقامة الدائمة فى منطقة مريس ، اضافة الى اشتراك قبائل ربيعة وجهينة ، وقد قامت هذه الحملة بنشاط كبير فى بلاد النوبة .

ولحملة العمرى هذه عدة أغراض متعددة فلم يكن المقصود بهذه الحملة الصحراء الشرقية حيث البجاة فحسب ، بل انها شملت المناطق النيلية والتى كانت حملة واسعة النطاق ، لم يكن الغرض منها كشف مناطق المعـدن الجديدة كمـا حاول أن يؤكد ذلك بعض المؤرخين ، الا أن ما ذكرة العمرى عن نفسه انما خرجت فى طلب أعداء المسلمين حتى كفانا الله أمرهم ، كما أننا لا نبغى فسادا فى الأرض . ان اكتشاف معادن جديدة للذهب والمعادن كان من خطة الغزوة فى نجاحها كذلك كبح جماح البجاة وتأديب أهالى تلك البـلاد . وردا على غاراتهم المتكررة على مصر ومضايقتهم المستمرة للعرب النازحين والمقيمين فى تلك البلاد طلبا للمعادن ونشرا للدعوة الاسلامية ، ولذلك فاننا نجد أن العمرى بعد أن قضى على قوة البجاة وكسر شوكتهم ، اتجه غربا الى النيل فى « اقليم مريس » حيث طرد صاحب مريس ودمر مدنه وأسر الكثير من

سكان النوبة ثم تقدم جنــوبا وراء وادى العلاقى حتى وصل اقليم شنقير عند أعطاف النيل غربا قرب مملكة الأبواب حيث اكتشف مواقع جديدة لمعــدن الذهب وفطن أن تلك المنطقــة هى منطقــة الرياطاب والمناصير » حيث أقام قواعد جديدة للحصول على المياه للاستقرار بعد الاهتداء الى مواقع جديدة للتبر وتغلب على قوات « جورج الأول » ملك النوبة ثم تحرك شمالا عندما سمع بخروج بعض قبائل الشام عليه بعد أن أقاموا فى منطقة « ادندان » بالاتفــاق مع النوبيين واتسعت منطقة نفوذه حتى منطقة عيذاب شرقا وحدودها الشمالية أسوان وخشى ابن طولون على نفسه من اتساع نفوذ العمرى وأرسل جيشا لمحاربته فانهزمت جيوش ابن طولون أمام العمرى وتحرك شمالا حتى أدفــو ، الا أنه رأى الرجوع الى منطقة نفوذه فى المناجم وانشقت عليه قبيلة ربيعة وحاربته غير أنه هزمها ، ولقد كان العمرى يهدف الى اقامة امارة مستقلة عن ابن طولون فى تلك المنطقة الواسعة من جنوب أسوان ، بعد أن استقر فى منطقة بالقرب من معــدن لقبيلة مضر ، ثم فارقهم أثر خلاف على معدن الشنكة الذى يظن أنه بالقرب من أم نباردى أو وادى حمد قليب ، ولكن العمرى لم يجد ماء كافيا لعمليات التعدين فى ذلك المعدن فورد النيل ومنعة أهله منه شكا فى نواياه ، ولكن العمرى هاجم سكان شنقير وهى المنطقة الواقعة بين أبى حمد وبربر وسبا منهم أعدادا كثيرة باعهم فى أسواق مصر فكثر ماله وزاد سلطانه وأخذت القوافل ترد الى معسكره محملة بالغــذاء ولكن زعامته لم تدم طويلا ، اذ دخل فى حروب طويلة مع النوبة .

فقد اتهمه سعد العشيرة بممالاة عيــلان وأخيرا اضطر العمرى ليتجه شمالا وأن يعسكر بالقرب من أسوان وان كان ذلك بعد أن كان قــد بسط نفوذه على قبائل جهينه وربيعة وسعد العشيرة فعظم نفوذه واتسعت سلطته حتى ذكر أن ستين ألف جمل كانت تعمل فى حمل المؤن من أسوان لحلفاءه عدا العير التى كانت تأتى من عيذاب . وكان ابن طولون قد فكر فى الانتقام من العمرى ولكنه آثر السلامة بعد هزيمته الأولى أمام قوات العمرى .

ومن حسن حظ الطولونيون أن الحلف العربى الذى أنشأه العمرى فى أرض المعدن لم يدم طويلا نتيجة اختلاف تم بين الحلفاء والقبائل العربية ، والسبب المباشر لذلك أن « ابراهيم المخزومى » أخو العمرى من أمه قتلته جماعة من البجة فطلب من حلفائهم ربيعة أن تقتص حقه فرفضت وآثرت مضر الحياة بما عاداه بنو هلال وبنو تميم وأخـيرا تمكن العمرى فى جماعة من أنصاره أن ينتصر عليهم ولكنـه لم يعش طويلا اذ اغتاله غلامان مضربان •

ولا نبالغ اذا قلنا أن العمرى قد قارب النجاح عند ما أنشأ أول امارة عربية فى شمال السودان وضرب بنجاحه هذا مثـلا للكثير من العرب والراغبين فى الهجرة ايحذو حذوه • وقد ذكر اليعقوبى فى كتابه البلدان أنه بعـد موت العمرى بعشرين عاما ازداد النشـاط العربى والاسلامى فى أرض المعدن وقد شمل هذا النشاط التعـدين والدعوة الاسلامية والتجارة ونقل المؤن وبعد موت العمرى كان هناك خلف كثير من ربيعة وجهينه خاصة حـول أسوان وتنازعـوا على امتلاك معادن الذهب بالعلاقى غير أن الغلبة كانت لفريق من ربيعة شمال البجة حيث تزوجوا من بنات رؤسائهم •

وأبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى ، الذى سمى بالعمرى سنة الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث يقال انه من نسله ولد بالمدينة المنورة وجاء الى الفسطاط حيث عمل بتدريس الحديث ، ثم انتقل الى القيروان حيث وصلته أنبـاء اعتداء البجة على مسلمى مصر وقت صـلاة العيد فخرج غاضـبا لله عز وجل وللمسلمين يريد الانتقام من الذين أغاروا على ديار الاسـلام كما أن أنبـاء الذهب والتجارة فى مناجم النوبة الغنية جذبته فعاد الى مصر مسرعا واتجه الى وادى العلاقى حيث تحول من فقيه الى تاجر واجتمع اليه عدد كبير من العرب فقويت شوكته فصال وجال فى بلاد البجة والنوبة واتجهت اليه أنظار العرب وبذلك يكون العمرى رائدا من رواد الثقافة العربية الاسلامية فى تلك البلاد • فالعمرى اذن هو شخصية دينية فذة نشر بغزواته هذه فى أرض البجة والنوبة الاسلام والثقافة العربية الاسلامية

وازداد استقرار العرب فى المنطقتين وبالتالى زاد من فرصة الاختلاط بين سكان البـلاد الأصليين والعرب الوافدين ومن هنـا اختلط عرب ربيعة بالبجة ولا سيما « بالحداربة » ولا بد أن العرب أدركوا قيمة حق الوراثة عن طريق الأم فحرص رؤساء العرب على التزوج من بنـات البجة مما أدى الى انتقال الرئاسة فى أوطان البجة الى أيدى العرب ، واستطاع عرب ربيعة فى وادى العلاقى وضع نواة أول امارة اسلامية فى العـلاقى بزعامة ابن مروان بشر بن اسحاق ، وهى الامارة التى انتقل مقرها فيما بعد الى أسوان حيث يقيم فرع آخر لبنى ربيعـة وكان بنو ربيعة فى أسوان قد اختلطوا بالنوبيين وتزوجوا هم أيضا من بنات رؤساء النوبة واستفادوا كذلك من نظام الوراثة بالأمومة وكونوا طبقة حاكمة خضع لها النوبيين من أهل مريس « النوبة الشمالية » .

فالمسعودى حين زار مصر فى عام ٥١٦ هـ / ٩٤٠ م نجـد أنه يحدثنا عن اختلاط عرب ربيعة بالبجة فى منطقة المناجم وباتحاد الفريقين فغلبوا على من ناوأهم سواء كانوا فى النوبة أو غيرهم من السكان ، ويذكر أن أميرهم « أبا مروان بشر بن اسحاق بن ربيعة » يتحكم فى جيش قوامه ثلاثة آلاف فارس من ربيعة ومن حالفهم من العرب وثلاثين ألف من الحداربه ولعل أصلهم من حضرموت على الابل ، ويتضح لنـا من هذا الوصف أن دولة عربية صغيرة قامت فى تلك البلاد ويذكر لنا المسعودى وصـول الاسلام الى جزيرة سداكن حيث تقيم جمـاعة اعتنقت الاسلام تعرف « بالخاسة » وفى بلاد النوبة السفلى الموالية لأسوان يحدثنا المسـعودى عن جماعات من قبائل قطحان وربيعـة وقريش تقدموا من أسوان جنوبا حيث اشتروا أراضى من النوبة .

ومن كل هذا يتضح لنا أن هذه الهجرات العربية الى أسوان قد تمت فى ظروف مختلفة ، لم يكن طابعها العـام يتسم بالعمل السريع والمنظم ، مما ينتج عنه انقلاب فكرى واجتماعى ، بل أهم ما يميزها أنها كانت تتسرب سلميا واجتماعيا فرضته دوافع اجتماعية كالزواج والمصاهرة والاندماج ودوافع سياسية نظرا لتغير الأوضاع السياسية

فى البلاد العربية ودوافع اقتصادية بحثا عن معادن الذهب والتجارة فى منتجات تلك الأقاليم وقد تم ذلك فى بطء وسهولة وعلى مدى أجيال متعاقبة .

ولا بد أن هذه الهجرات كان ينتهى بها الأمر فى نهاية المطاف الى الاندماج فى حياة السكان المحليين الذين كانوا ينتمون الى عناصر متعددة كالحامية والزنجية ومثل هذا ينطبق على تلك الثقافة التى حملوها معهم الى مهاجرهم الجديدة فهى قد صارت مجموعة من الثقافات التى كانت منتشرة فى البيئات المحلية .

ولقد اتسعت أعمال العمرى حتى شملت دولته معظم أراضى النوبة السفلى من شنقير جنوبا الى أسوان شمالا ومن نهر النيل غربا حتى البحر الأحمر شرقا ومن هنا فقد أقام العمرى امارة عربية اسلامية فى بلاد النوبة تحت زعامته فى السودان .

ومما يدل على حسن نية العمرى وخروجه للدعوة الاسلامية ونشر ثقافة الاسلام فى تلك الربوع من الشمال أننا نجد أن الغلامان اللذان قتلا العمرى ، جاءا الى أحمد بن طولون والى مصر وزعما أنهما من غلمان العمرى فى أرض المعدن يحملان اليه رأس العمرى ، وذلك طلبا للحظوة اليه ، دعا أحمد بن طولون جماعة من أهل صعيد مصر ممن يعرفون العمرى معرفة جيدة للتحقق من أنها رأس العمرى فتبين بعد معاينتها أنها رأسه ، وعندئذ أحضر ابن طولون الغلامين وسألهما بقوله كان صاحبكما مسيئا اليكما قالا لا ، قال فكان يمنعكما رزقكما ، قالا : لا ، قال فركب بحضرتكما اثما استحللتما به قتله ، قالا : لا قال فلما قتلتماه ، قالا : لأنا أردنا بذلك الحظوة عند الأمير والقرب منه فقال . ذاك والله أبعد لكلما منى من الله عز وجل ، ثم أمر أحمد بن طولون بضرب عنقهما وصلب جثتيهما ، ثم أمر بغسل رأس العمرى وتطييبها ووضعها فى كفن ودفنها .

وهنا كانت حملة العمرى هى بداية الحملات العربية الواسعة والمتكررة على أوطان البجة واتاحة الفرصة للعرب كى يتعرفوا على

تلك البلاد وخصائص البيئية فيها فتدفقوا عيها بعد تلك الحملة ، حيث كانت حملة العمرى هى الاشارة الكبرى الواسعة لكى تفتح أبواب النوبة على مصراعيها أمام القبائل العربية الضاربة فى مصر لتتخذ سبيل النوبة مخرجا مما كانت تلاقيه من صعوبات فى مصر بعد أن انتشرت القبائل العربية على نطاق واسع فى شمال السودان وخاصة قبائل ربيعة وجهينه حيث تم وضع نواة أول امارة عربية اسلامية .

العلاقات فى عهد الأخشيديين : فى أواخر عهد الأخشيديين عندما بدأت الدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا (المغرب العربى) ترنو ببصرها نحو مصر وحين شعر النوبيون باضطراب الأحوال فى مصر وعدم استقرارها نشطوا فى غاراتهم فبدءوا بالواحة الخارجة عام ٥٣٧ هـ / ٩٥١ م وأعقبوها بغارة أخرى على أسوان عام ٥٤٢ هـ / ٩٥٦ م وكان على الدولة الأخشيدية أن ترد هذا العدوان فبعث أنور جورين الأخشيد محمد بن عبد الله الخازن بجيش عام ٥٤٣ هـ / ٩٥٧ م ولاقى النوبيين فى معركة فهزمهم فيها وتقدم نحو ابريم وسبى وغنم ورجع الى مصر ، وفى عهد كافور غزى النوبيون صعيد مصر مبتعدين شمالاً حتى دارفور ونتيجة ذلك أن مصر لم تفى بتعهداتها بشأن ما ورد فى معاهدة البقط من امداد النوبة بالثياب والحبوب اللازمة .

ولقد كان الدافع الى تحرك القوات المصرية الاسلامية الى بلاد النوبة شدة الحاجة الى النوبيين لتجنيدهم فى جيش الأخشيديين بعد أن وضحت الحاجة اليهم لا سيما فى عهد كافور الأخشيدى الذى ضاعف من أعدادهم فى الجيش المصرى ، ولقد كان هؤلاء الجنود يعتنقون الاسلام بمجرد تجنيدهم فى القوات المصرية وقد كان بعضهم يفضل الاقامة الدائمة فى مصر بعد تسريحهم من الخدمة العسكرية ولكن كان هناك كثيرون منهم يفضلون العودة الى بلادهم وأوطانهم لانفاق ما جمعوا من ثروات من جراء خدماتهم العسكرية ، يعودون وهم مسلمون متحضرون ، ذلك لأن أحسن ما كان يفعله الاسلام بالنوبى هو الارتفاع بمكانته الاجتماعية والاقتصادية ومن ثم فانه لا يستبعد أن يكون هؤلاء الجنود العائدون الى السودان الشمالى من أحسن الدعاة الى الاسلام

بين ذويهم حيث يكونوا قد تشبعوا بروح الاسلام سلوكا وعملا وقيما بعد مكوثهم فى مصر ولا سيما أن بعضهم كان يقوم بأداء فريضة الحج أثناء الخدمة أو عند الانتهاء منها ومن هنا يكون قد حسن اسلامه وسلوكه وأنهم كانوا يحثون بنى جلدتهم ومواطنيهم على استبدال السكنى بأرض النوبة الجرداء والرحيل الى مصر حيث وادى النيل والخصب والرحيل الى القاهرة للقيام بالأعمال العسكرية والسياسية •

وفى المقابل كانت هجرة بعض الأفراد والجماعات الفارة والهاربة من مصر لتغير الولاة والحكام وقد كان هؤلاء لا يجدون المأمن والمقر والأمان فى أرض النوبة الصعبة التى تحميها الجبال حيث كانوا يقيمون ويتزوجون من أهلها ومن ثم ينصهرون فى بيئتها المحلية •

اذا كان سقوط الدولة الأموية ثم سقوط الدولة العباسية فى مصر قد شهد فرار الكثير ين من بنى أمية وبنى العباس الا أن الهجرات لا شك قد تتابعت بعد ذلك أيام الطولونيين والأخشيديين والفاطميين حيث كان هؤلاء اللاجئين من صفوة القوم والأمراء والحكام الذين يشكلون عنصرا هاما من عناصر نشر الاسلام بين أهل تلك البلاد • ومن ثم بدأت الهجرات العربية تطرق أبواب النوبة وصولا الى السودان الأوسط ثم الانتشار فيه والتحرك جنوبا بعد حملة العمرى وتكوين امارة بنى ربيعة من بعده لا سيما أن العديد من القبائل العربية كانت تتحرك جنوب الصعيد متجهة نحو أسوان ، ذلك لأن منطقة أسوان وبلاد النوبة وشمال السودان بلاد تشبه الى حد كبير بلاد العرب فى ظروفها المناخية والطبيعية بعكس بيئة القطر المصرى التى لا تلائم طبيعة العربى البدوى • وانه مما لا شك فيه أن العديد من البطون العربية قد استهوتها المناطق الجنوبية من مصر فى القرنين الأول والثانى الهجرى مما جذبها للتحرك جنوبا حيث وصلت الى أطراف صعيد مصر ومن ثم نفذت الى القسم الشمالى والأوسط من بلاد السودان •

ومن ثم فان هذا التيار العربى قد ازداد اتجاها صوب الجنوب كما أصبحت أحوال مصر والعالم الاسلامى لا تشجع العرب على

الاقامة فى ظل الظروف والحكم المعادى لهم • لا سيما بعد أن تم اسقاط العطاء والاستعانة بعناصر من الفرس والأتراك والسودانيين فى الجيش ، وبعد أن رأت الدولة فى مصر العنصر العربى عنصرا لا تلين له قناة لاحتفاظه بمقوماته العسكرية حيث هو عنصر صعب العريكة لا تلين بسهولة وهو أميل للعصيان والتمرد •

ومن هنا كان القرن السادس الهجرى هو عصر ظهور العناصر العربية حيث أصبحت منطقة النوبة الشمالية (المريس) تكاد تكون عربية خالصة بعد أن تكاثرت أعداد الجاليات العربية •

ولقد كانت صلة مصر خلال عهد الأخشيديين بممالك النوبة المسيحية صلات حسنة بصفة عامة رغم بعض الاغارات التى كانت تعكر هذا الصفاء من حين لآخر ، وكمثال لهذه الاغارات ما حدث أواخر أيام الدولة الأخشيدية حين شن أهل النوبة ثلاث غارات على مصر فى الفترة من ٣٢٣ — ٣٥٨ هـ/٩٣٥ — ٩٦٩ م ، ولقد كانت الصعوبات الاقتصادية والسياسية التى واجهتها مصر فى هذه الفترة وعانت منها الكثير هى الأمر الذى شجع أهل الجنوب على الاغارة عليها كما أن هذه الصعوبات هى التى كررت هجوم الفاطميين على الدولة الأخشيدية هذا فضلا عما عانته مصر من مجاعات بسبب انخفاض الفيضان فى تلك الآونة •

ولكن مصر لم تقف مكتوفة الأيدى رغم الصعوبات التى تواجهها أمام هذه الاغارات من جنوب الوادى ، اذ تشير بعض المصادر الى أن جيشا مصريا توجه الى النوبة بقيادة محمد بن عبد الله الخازن وأجلى النوبيين من أسوان وأبعدهم الى (أبريم) ثم تمكن هذا الجيش من فتح مدينة أبريم واستولى عليها عام ٣٤٥ هـ / ٩٢٧ م • غير أن هذه الهزيمة لم تضع حدا لخطر النوبة اذ تجددت الاغارات مرة أخرى عام ٣٤٩ هـ / ٩٣١ م حينما هاجموا مدينة اخميم جنوب مصر ، وفى السنوات القليلة التى سبقت فتح مصر على يد الفاطميين لم تذكر المراجع شيئا ذى بال فيما يختص بعلاقة مصر بالنوبة •

وبمرور الزمن بدأ انتاج المناجم يقل شيئا فشيئا حتى توقف تماما فى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى ، بعد أن غطتها الرمال ولعل السبب فى تدهورها يرجع أولا لخوف أصحابها من هجمات البجة والأعراب ، كذلك فان الانتاج لم يكن يغطى النفقات ، ثم أخذ العاملون فى أرض المعدن يبحثون عن نشاط آخر متجهين الى الداخل جنوبا .

ومن هنا فان الهجرة العربية الى بلاد النوبة على أرض المعدن يتوقف على هذه المناطق الشمالية من النوبة بل توغلت جنوبا الى عاصمة مملكة (علوة) فى مدينة (سوبا) بل أكثر جنوبا . وقد وجدت آثار مدينةسكنيةء ربية عاشت لأكثر من قرن فى الفترة من (٨٢٠م — ٩٤١ م) فى (خور نبت) على بعد سبعين ميلا شمال شرق محطة (هيا) ومن المرجح أن سكانها كانوا يعملون بتربية الابل والاتجار فيها ، ولقد لعبت هذه الابل دورا هاما فى نقل الحجاج والبضائع بين الصعيد وموانى البحر الأحمر وفى أرض المعدن كما عثر فى بعض الأماكن فى النوبة السفلى والعليا ، على كثير من الكتابات العربية ، ويرجع تاريخ أقدمها الى تاريخ القرن الثالث الهجرى ، كما عثر على شواهد قبور تحمل أسماء عربية بتاريخ ٢١٧ هـ / ٨١٣ م وفى منطقة كلابشة عام ٣٢٧ هـ / ٩٢٧ م .

هذه العناصر العربية التى هاجرت الى تلك المناطق ثم أقامت على هذا النحو سرعان ما تركت أثرا واضحا فى تاريخ البلاد وحياة السكان وقد انصهرت مع أهل البلاد الأصليين واختلطت بهم وعاشرتهم وقد ترك هذا الاختلاط أكبر الأثر فى الوافدين وأهل البلاد على السواء ، فاننا نجد الوافدين تسربت فيهم الدماء النوبية وغلبت عليهم السمرة وعلى سلالتهم ، كذلك فان أهل البلاد المحليين خالطتهم الدماء العربية واعتنقوا الاسلام وتعلموا اللغة العربية .

هذا التطور من الاختلاط والذى له عظيم الأثر فى تاريخ البلاد ، تنهض الأبحاث الأثرية لتثبته اثباتا لا يدع مجالا للشك .

الخلافة الفاطمية والعلاقة مع النوبة

عند ما تم للفاطميين الاستيلاء على مصر عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م لم يتوان القائد جوهر الصقلى عن فتح باب العلاقات مع بلاد النوبة وذلك لأن الفاطميون كانوا يعملون على أن يتحقق لمصر الاسـلامية سيطرة سياسية على النـوبة المسيحية ، وذلك رغم دخول العـرب عاصمتها (دنقله) ، كما أن طموح النوبيين وغزواتهم المستمرة لمصر لم تنقطع وخاصة أن النوبيين كانوا قد توقفوا عن ارسال (البقط) المقرر منتهزين فترة الضعف التى انتابت مصر قبل الفتح الفاطمى لها ، ومن هنا أدرك الفاطميون منذ فتحهم لمصر أهمية العـلاقة بين مصر والنوبة وضرورة المبادرة باظهـار قوتهم وبفطنهم لملوك النوبة الذين دأبوا على مهاجمة مصر قبيل مجيئهم اليها ، ومن هنا جاء الفاطميون ولم تعجبهم السياسة التقليدية التى سار عليها ولاة مصر من قبـل العباسيين ومن سبقوهم من الولاة المسلمين تجاه النوبة ، ومن هنـا كان لزاما عليهم أن يتخذوا موقفا ايجابيا تجاه هذه البلاد ، وان كان من عاداتهم عدم التفكير فى الحرب الا فى حالة الضرورة القصوى .

وقد بدأ جوهر الصقلى وهو القائد الفاطمى الذى تم على يده فتح مصر ، العلاقات مع بلاد النوبة بارسال مبعوث الى الملك جورج الثانى (٣٥٨ ــ ٣٩٣ هـ / ٩٦٩ ــ ١٠٠٠ م) ملك النوبة حينئذ ، ومن حسن سياسة جوهر الصقلى وحنكته أن اختار مبعوثه من بين النوبيين المسلمين الذين كانوا على قدر كبير من المعرفة بأحـوال بلاد النـوبة بحكم اتصاله المباشر ، فضلا عن معرفته باللغة النوبية ، ذلك المبعوث هو (عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى) الذى كان يتكلم اللغة النوبية بطلاقة الى جانب اللغة العربية ، ويعتبر أبى سليم الأسوانى أول شخصية اسلامية مستنيرة تدخل بلاد النوبة على رأس بعثة سياسية دينية ويناظر أحد ملوكها من قبل أحد حكام مصر والذى يطالبه بدفع البقط الذى توقف دفعه منذ فترة ، كما تضمنت الرسالة التى حملهـا دعوة الملك جورج الثانى للدخول فى الاسلام ، وكانت أهميـة هـذه الرسالة دعوة حكام مصر لنشر الاسلام فى تلك البلاد المسيحية .

وقد أسفرت رحلة ابن سليم الأسوانى عن تحقيق بعض المهام التى بعث من أجلها ، اذ قبل ملك النوبة استئناف دفع البقط ، أما من ناحية دخوله الاسلام فقد رفض الملك الدخول فى دين الله الخالد ، واستمرت الكنيسة النوبية فى علاقتها بالكنيسة المصرية •

وقد اتسمت علاقة الفاطميين بالنوبة المسيحية بصورة عامة ، بالمسالمة وحسن الجوار ، اضافة الى أن ابن سليم الأسوانى بعد أن قضى فترة طويلة توغل جنوبا فى النوبة العليا (سوبا) عاصمة مملكة (علوه) ووجد بها رباطا خاصا به جماعة من المسلمين فاطمأن عليهم كما فعل فى النوبة السفلى ، ويبدو أن الفاطميين قد كلفوه بمهمته الى ملك النوبة السفلى ، ولم يكن يدرى علمهم أن النوبة تشتمل على بلاد النوبة السفلى والعليا ــ مقره ، وعلوه ــ وهذا ما كان شائعا بالفعل فى العصور الوسطى •

ومن المعالم البارزة فى علاقة الفاطميين بالنوبة ، قيام امارة عربية اسلامية قوية اتخذت من أسوان مركزا لها وكان لها دور هام فى علاقة مصر بالنوبة وقد اعترفت الخلافة الفاطمية بالقاهرة بالامارة العربية فى أسوان • وقد خلع الحاكم بأمر الله على أمير (ربيعة) لقب كنز الدولة فعرف بنى ربيعة فى أسوان والنوبة ببنى كنز ،وذلك حين استغاث الخليفة الحاكم بأمر الله بأبى المكارم هبة الله أمير ربيعة على أبو ركوة الذى هو الوليد بن هشام بن عبد الملك من بنى أمية وسمى أبو ركوة لأنه كان يحمل ركوة لوضوئه وكان أبو ركوة قد لجأ الى القيروان ثم قصد مصر ونزل فى طريقه ببرقة ، وحرض الناس على الثورة ضد ظلم الحاكم وقد تمكن الحاكم من هزيمته فاضطر أبو ركوة للفرار الى النوبة وقد أفلح أبو المكارم بن ربيعة فى القبض على أبو ركوة فى بداية القرن العاشر الميلادى ، ولذا كوفىء أبو المكارم بلقب كنز الدولة وتوارث أولاده هذا اللقب فعرفوا ببنى كنز •

واذا كانت بعض المصادر قد رددت أنباء احتكاكات طفيفة بين البلدين فى العصر الفاطمى ، فان معظمها أو كلها يرجع الى ما كان يقع

من خلافات فى بعض الأمور أو نتيجة سوء الفهم فى بعض الأحيان عندما يدخل ملوك النوبة صعيد مصر لزيارة بعض الكنائس القبطية ويقوم ولاة الصعيد بالتصدى لهذه الزيارة ، ولكن عندما كان يفهم الغرض من هذه المواكب والزيارة كان الولاة الفاطميون يرحبون بهؤلاء الملوك كما حدث ذلك مرة مع أحد هؤلاء الملوك .

ويعتبر عصر الفاطميين فى مصر (٣٥٨ - ٥٦٧هـ/٩٦٩ - ١١٧١م) عصر ود ومصالحة مع بلاد النوبة بصفة عامة سارت خلاله العلاقات مع البلدين على نحو طيب ، غير أن (النويرى) فى كتابه (نهاية الارب فى فنون العرب) يشير الى غزوة مصرية لبلاد النوبة قام بها ناصر الدولة الحسين بن حمدان فى عصر الخليفة المستنصر بالله فى عام ٤٥٩هـ/١٠٦٦م ولكن يبدو أن النويرى يقصد بقوله مطاردة ناصر الدين للنوبيين أثناء الفتنة التى احتدمت بين طوائف الجند الفاطميين فقد طاردهم ناصر الدولة الى صعيد مصر وذلك على أثر فرارهم بعد هزيمتهم على يد جند الأتراك .

ولكن فى عهد الخليفة المستنصر استغل الوزير الفاطمى بدر الدين الجمالى هذه العلاقات الطيبة فى العلاقات الدبلوماسية بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية حين فر الأمير كنز الدولة محمد أمير بنى كنز فى أسوان الى دنقلة عاصمة النوبة السفلى عام ٤٧٤ هـ/١٠٨١م . وذلك أثر حملة بدر الدين الجمالى على صعيد مصر ، فأرسل الى ملك النوبة باسم الخليفة أسقفا (رجل دين مسيحى) يصحبه الشريف الرفيع الملقب سيف الدولة ومعهما كتاب موصى عليه من البطريرك القبطى يطلب فيه تسليم كنز الدولة الفار الى عاصمته فأجاب ملك النوبة طلبه وأرسل كنز الدولة الى القاهرة يصحبه الرسولين .

ونتيجة لهذه العلاقات الطيبة طلب أمراء بنى كنز وساطة ملك النوبة لدى الخليفة المستنصر بالله ووزيره بدر الجمالى فقام ملك النوبة بالوساطة وأرسل هذا الملك معهم رسولا الى القاهرة الفاطمية استجابة لطلب هؤلاء الأمراء . فقبل بدر الدين الجمالى هذه الوساطة من ملك النوبة وسمح لهم بعودة نفوذهم بأسوان

ولقد ساءت العلاقات من جديد بين الفاطميين والنوبة نتيجة ازدياد نفوذ الوزراء فى عهد الخليفة العاضــد ، ولذا اســتغل ملوك النوبة الفرصة فى اقتناص فرصة ضعف مصر والاغارة عليها طالمــا لم يعــد لخلفائها من السلطة الا ظلها وكان أن جمع الملك النوبى جيشا مكونا من عشرة آلاف فارس وهاجم مدينة أسوان حيث أفنى كثيرا من المسلمين وكان ذلك فى عام ٥٥٦ هـ/١١٦١م • ولم يرد فى المصادر عما تم من الاجراءات العسكرية من جانب الفاطميين حيال هــذا الهجوم النوبى الغادر وكيف كان موقف الفاطميين منه •

ولقد أصبحت بلاد النوبة فى أواخر العصر الفاطمى ملجأ وملاذ لكبار رجال الدولة الفاطمية فرارا اليها من الأخطار التى تتهددهم •

وفى عصر العلاقات الفاطمية الطبية مع النوبة سيطر الفاطميون على التجارة الشرقية وكان ميناء القلزم (السويس) هــو الميناء الذى ترسل منه الحبوب الى الحجاز ولكنهم وجدوا أنها لا تصلح كميناء لذلك الغرض حيث أنهم وجدوا فى ميناء (عيذاب) ضالتهم حيث أنه أقرب الى الحجاز كذلك فهو أقرب الى اليمن من القلزم اضافة الى وجود حاكم قوى فى مدينة (قوص) يسهل حركة المرور والانتقال الى ميناء (عيذاب) ومن ثم قصر طول الرحلة بحريا التى كانت محفوفة بالمخاطر وفوق ذلك كان ميناء عيذاب لا يبعد كثيرا عن ميناء جدة •

ولقد كان انتقال الحجاج الى طريق عيــذاب فى أيام الخليفــة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ ــ ٤٨٧ هـ/١٣٠٥ ــ ١٠٩٤ م) الذى طال حكمه فرصة طيبة لانتشار الاسلام جنوبا حيث كان بعض الحجيج يفضل الاقامة فى عيــذاب عند عودته ومن ثم يتجه جنوبا الى أرض البجاه أو النوبة ، ولقد ظل طريق عيذاب هو طريق الحجاج الرئيسى لفترة تزيد عن قرنين انتهت فى فى عام (٦٤١هـ/١٣٦٨م) وفى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى أصبحت عيذاب من أهم الموانىء فى العالم الاسلامى وكانت ملتقى السفن التجارية من الهند واليمن وشرق أفريقيا وجدة ومنها تخرج القوافل تحت اشراف القبائل العربية ، والتى منها

قبائل تميم وبلى ، وقد ساعد استخدام ذلك الميناء على انتشار الاسلام فى السودان الشمالى وتسهيل حركة الانتقال فى تلك الأقاليم السودانية .

ولقد تأثرت الجماعات النوبية التى أسلمت بالتقاليد العربية وان كانت قد احتفظت ببعض تقاليدها القديمة وأضافت اليها بعض التأثيرات الجديدة ، فاذا مضى الوقت واشتد اسلامها تخلصت من التقاليد القديمة نهائيا متخذة تقاليد اسلامية صرفة ، ولقد اشتد تيار الهجرة العربية على نطاق واسع وسريع فى العصر الفاطمى نظرا لحسن العلاقات الطيبة بين القاهرة وبلاد النوبة.ولقد شهد عهد المستنصر بالله الفاطمى على وجه الخصوص هذا العداء المتبادل والعتيق بين حكومة مصر وبين البطون والعشائر الى بلاد النوبة يدفعها فى ذلك النجاح الذى حققه القبائل العربية البدوية النازحة الى الصعيد فادى ذلك الى اندفاع بعض المهاجرين الأولين وتحفزها أنباء النجاح والاستقرار الذى أحرزه اخوانهم فى الماضى وانطلاقهم بعيدا عن تضييق سلطات مصر واستبدادها ، مما كان دافعا لاشتداد تيار الهجرة الى النوبة ووضح نفوذهم فى صورة أقوى . ولقد ذكر ابن سليم الأسوانى الذى زار النوبة عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م أن المنطقة الممتدة من أسوان حتى الشلال الثالث يتصرف فيها المسلمون لا كتصرف المهاجرين الغرباء اللاجئين ، انما يتصرفون فيها تصرف الملاك وأصحاب الأراضى لا سيما وأنهم قد اشتروا بعض الضياع والأطيان منذ فترة طويلة .

كذلك فان اضطراب الأحوال السياسية فى بعض فترات العصر الفاطمى بين مصر والنوبة لم يكن ليقف حائلا دون انطلاق هذه الهجرات ذلك لأن تلك الهجرات لم تكن لتتأثر بالخلافات السياسية حيث كانت هذه هجرات قبائل وحركة سكان ، بل أكثر من ذلك فان ابن سليم الأسوانى رأى المسلمين متمتعين بكامل استقلالهم فى هذه المنطقة وقد اندمجوا فى حياة الناس وتعلموا لغتهم وفهموا عاداتهم وتقاليدهم .

ومن ذلك ما أشار اليه ابن سليم الأسوانى من أنه أثناء وجوده فى النوبة موفدا من قبل القائد جوهر الصقلى أن كان وجوده يوافق عيد

الأضحى المبارك عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م فقـام بمشاركة المسلمين فى الاحتفال بهذا العيد الاسلامى الكبير وطاف مع المسلمين فى مدينـة دنقلة بعد أن أدوا صلاة العيد فى الخلاء وذلك فى حرية تامة وكأنهم من أهل البلد وكانوا أثناء طوافهم بالمدينـة رافعين أعلاما فاطمية تحمل اسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وهم يضربون الطبول والبوقات وهذا خير دليل على أن المسلمين كانوا ينعمون بحرية تامة فى ممارسة عقيدتهم فاطمأن عليهم ابن سليم الأسوانى وتيقن أنهم نواة طيبـة لنشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية فى أقاليم النوبة •

كذلك فان العصر الفاطمى شـهد قيام الامارات العربية النوبية التى اتخذت من أسوان مركزا لها وامتد نفوذها جنـوبا حتى أرض مريس والراجح أن هذه الامارة العربية الاسلامية كونت طبقة حاكمة خضـع لها النوبيون من أهل مريس الذين زال عنهم السلطان الفعلى لملك النوبة المسيحى لا سيما بعد أن أصبح معظم رعيته من المسلمين •

وقـد توارث أنبـاء بنى ربيعـة لقب كنز الدولة الذى عرفوا به والذى منحه لهم الخليفة الفاطمى • وقد قصـدهم الشعراء والكتاب ومدحوهم • ولقـد كان أحد زعماء هذه الامارة من الرؤس المدبرة للمؤامرة التى قصد بها اعادة الخليفة الفاطمى الأمير داود بن العاضد كخليفة لمصر واعادة الخلافة الفاطميـة وهى المؤامرة التى اسـتطاع صلاح الدين الأيوبى قمعها وقتل زعيمها من بنى كنز وآلاف من أتباعه عام ١١٧٦ م •

ومع ذلك استعاد بنو كنز نفوذهم ومدوا سلطانهم على القسم الشمالى من بلاد النوبة وعملوا على اشاعة النفوذ الاسـلامى ونشر العقيدة الاسلامية فى البـلاد بل وتشجيع التيار الاسـلامى واستمر نفوذهم فى العصر المملوكى • وهذه الامارة العربية الاسلامية النوبية صورة واضحة للحياة العربية الاسـلامية التى كان المهاجرون العرب يحبونها فى مهجرهم الجديد •

والحقيقة فان المهاجرين العرب لم يكن جلهم من ربيعـة وحدها ولكن شاركت معها بعض القبائل العربية كما ذكرنا عند تحرك عبد الله العمرى فى حملته الى بلاد النوبة ومن هنا شاركتها العديد من القبائل التى سوف نشير اليها عند الحديث عن القبائل العربية بالسودان .

ولقـد كانت هذه الهجرات العربية تدخل بلاد النـوبة دون أن يشعر الملوك أدنى خطر منهم كما أن معـاهدة البقط كانت تعطى لهم حق المرور والعبور ومن هنا كانت هجراتهم هجرات مسالمة لا تعـدو جماعات بريئة تتلمس الاذن بالمقام وتخالط السكان ولا تسىء اليهم ولا تقلق بال الحاكمين ، بل انهم كانوا يتركونها وشأنها تمارس الرعى والاستقرار ولا يتعرضون لها بسوء وتتابع حيـاتها اليومية فى حرية تامة وهدوء واستقرار وطمأنينة .

وكانت بلاد النوبة متسع كبير تمتص هذه العناصر الاسـلامية الزائدة وتتشربها ولا يظهر نفوذ العرب أو تعلو كلمتهم الا حين تكثر أعدادهم وتضعف رقابة السلطة الحاكمة وتعجز عن كبح جماحهم .

« الأيوبيون وبلاد النوبة »

لم ترد أدنى اشارة الى العلاقات مع النوبة فى السنوات القليلة التى سبقت قيام الدولة الأيوبية ذلك لأنه ربما أن الأمور كانت تسير على الوضع السائد من قبل ولهذا كانت العلاقات بين بنى كنز وامارتهم فى أسوان والدولة الفاطمية هى المظهـر السائد لعـلاقات مصر مع الجنوب ، ذلك لأن العلاقات الطيبة والحالة الهادئة لم تدم طويلا فى عصر الدولة الأيوبيـة ذلك لأنه من عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م قامت مجموعتان من النوبيين بالهجوم على جنوب أسوان وقـد قام بهـذا الهجوم مجموعة من فلول الجيش الفاطمى من فرق السودان الذين فروا من القاهرة فى وجه صـلاح الدين الأيوبى بعد سقوط الدولة الفاطمية كذلك الجماعة الثانية فهم جماعة من النوبة ساعدوا فلول جيش الفاطميين فى السودان وساعدوهم وسـارا سويا نحو صـعيد مصر

وهاجما مدينة أسوان بعد حصارها مما اضطر كنز الدولة الى طلب العون من القاهرة •

وبناءة على طلب كنز الدولة جهز صلاح الدين حملة سارت الى أسوان ولكنها وجدت أن أهل النوبة والسودان قد غادروا المدينة فسارت الحملة فى أثرهم والتى كانت بقيادة « الشجاع البعلبكى » بعد أن انضمت اليه قوات من بنى كنز حيث التقى بالنوبة والسودان فى معركة حامية الوطيس قتل فيها عدد كبير من الجانبين ولكن ظل أهل النوبة مصدر خطر كبير على حدود مصر الجنوبية فى عصر الدولة الأيوبية •

وكان ذلك مما اضطر صلاح الدين أن يرسل حملة بقيادة أخاه « شمس الدين ثوران شاه » وسار هذا الى قلعة ابريم وحاصرها ثلاثة أيام ثم افتتحها وغنم جميع ما فيها وخلص جماعة من الأسر وكتب الى السلطان بذلك بعد أن رجع الى أسوان وقد حاولت الدولة الأيوبية احتلال بعض المواقع الاستراتيجية والهامة فى بلاد النوبة مثل قلعة ابريم ، بل ان ثوران شاه أقطع هذه القلعة لأحد رجاله « ابراهيم الكردى » وأرسل معه جماعة من الأكراد ظلوا يشنون الغارات على بلاد النوبة •

ويبدو أن محاولة صلاح الدين بسط نفوذ مصر السياسى على النوبة لم تقف على الناحية العسكرية بل تعدتها أيضا الى الناحية الاقتصادية التى تدعمها القوة الحربية ، ويبدو أن ملك النوبة قد أرهبته حملة توران شاه وما حدث بعدها من احتلال أجزاء من أراضيه فلم يبقى أمامه سوى طلب الصلح وقد أرسل ذلك الملك رسولا خاصا الى شمس الدولة توران شاه الذى كان موجودا بقوص وحمل اليه هذا الرسول طلب الصلح ولكن شقيق صلاح الدين صمم على تأديب ملك النوبة وارهابه حتى يكف عن عدوانه على حدود مصر وانه أعطى رسول ملك النوبة نشابا وقال له ما لك عندى جواب الا هذا •

ومهما يكن من أمر فان حملة صلاح الدين على النوبة لم تخرج عن أسبابها التقليدية لحرب النوبة وهى الرغبة فى تأمين حدود مصر

الجنوبية وأيضا فى صد غارات النوبة وافساح المجال للهجرات العربية حتى يتم طبع هذه البلاد بالطابع العربى الاسلامى ، ولقد كان احتلال شمس الدين توران شاه قلعة ابريم خير دليل على حسن خطة الدولة الأيوبية فى كسر حدة النوبة وتفضيلها المسالمة .

ولقد كانت الهجرات العربية متصلة الى النوبة غير متقطعة بل انها كانت تزداد فى فترات الأزمات بينهم وبين الحكام لا سيما عند ما يظهر هؤلاء عداوتهم الظاهرة للعرب فقد تسلم الأيوبيون لمقاليد الحكم فى مصر وظلت الصلة بين العرب والحكام كما كان عليها الحال السابق صلة فاترة بل شبه مقطوعة ، ذلك لأن العرب وقبائلهم وبطونهم لم يغفروا لحكام مصر الاستمرار فى ابعادهم عن السلطة والجيش ، فقد اعتمد الأيوبيون كغيرهم من حكام مصر السابقين على غير العناصر العربية اعتمدوا على الأكراد والديلم والأتراك ولم يستفيدوا من العرب الا نادرا ومن ثم عبر العرب عن استيائهم كلما أحسوا تراخيا وضعفا ظاهرا فى الدولة وقد ثاروا خمس ثورات تركزت كلها فى الصعيد .

اضافة الى دولة بنى كنز التى اتخذت مقرها أسوان قد ساعدت صلاح الدين فى حربه ضد الجند السودانيين ، الا أن صلاح الدين من جانبه كان يتهم بنى كنز بتشجيعهم للعلويين الفاطميين ، ومعنى هذا أنهم تعاونوا روحيا مع الفاطميين . بل أكثر من ذلك أن صلاح الدين عمل على ضرب بنى كنز فأقطع ذلك الاقليم لأحد أعوانه وهو ابراهيم الكردى وهذه دلالة واضحة بأنه لا يود لكنز الدولة السيطرة على ذلك الاقليم ، ولكن كنز الدولة ثار عليه وهجم بجيشه على والى صلاح الدين وقتله بل انه كانت هناك فى القاهرة حركة تذمر لاعادة الدولة الفاطمية . ويبدو أن كنز الدولة كان يعضدها ويساندها بل يساعها بالأموال والرجال . ولكن قضاء صلاح الدين على تلك الحركة قد مكنته من أن يرسل أخاه شمس الدين توران شاه ، ثم بعد ذلك يرسل أخاه العادل بجيش الى أسوان فهزم كنز الدولة وقتله وانكسر نفوذ الكنوز بعد هزيمتهم مما اضطرهم الى أن ينقلوا مركز

نشاطهم وحكمهم الى الجنوب حيث بلاد النوبة وذلك عام ٧٥٠ هـ/ ١١٧٤ م وتم اندماجهم مع سكانها ومن هنا كان اندماج بنى كنز فى النوبة مقـدمة للانتشار الاسـلامى السريع ، بل أكثر من ذلك فانهم شاركوا فى احداث مملكة النوبة المسيحية ثم مكنوا لأنفسهم فيمـا بمصاهرة البيت المـالك النوبى فى دنقـلة وادعى أميرهم كنز الدولة بحقه فى ملك النوبة عن طريق الوراثة للأم •

كذلك فان استغناء صـلاح الدين عن جند النـوبة واستبدالهم بعناصر موالية له من الأكراد والأتراك والديلم قد أدى الى نزوح هذه القـوات السـودانية التى خدمت فى الجيش المصرى طوال العصر الطولونى والأخشيدى والفاطمى الى بلادهم فى النـوبة مما ترك أثره الواضح والقوى والفعال فى انتشار الاسلام والعروبة على نطاق واسع حيث كانت تلك الأعداد من الكثرة بحيث أثرت فى كل المجتمع حتى امتد تأثيرها الى وسط السودان والى ما يعرف حاليا بمنطقة الجزيرة حيث مدينة سوبا •

كذلك كانت سيطرة الفاطميين كما سبق أن ذكرنا على ميناء غيداب واتخاذه الميناء الأفضل بدلا من ميناء قلزم السويس أن جعل الدولة النوبية المسيحية فى دنقلة بدون منـافذ مائية تطل منها على العـالم الخارجى مما جعل الدولة الاسلامية تسد عليها الطريق وخاصة الى الأماكن المسيحية المقدسة فى الشـام (فلسطين) وكذلك التجارة مع العالم الخارجى مما جعلها تقع تحت رحمة مصر والمسلمين ، فمينـاء السودان الوحيد « غيداب » تحت سيطرة المسلمين ، وكذلك فان تلك السيطرة الاسلامية جعلت العرب ينتشرون فى الصحراء الشرقية ، ومن هنا أحكم المسلمون الحصار عليهم وعزلهم عن العالم الخارجى فى عصر الدولة الأيوبية لا سيما بعد انحسار ظل الصليبيين عن فلسطين فى عهد صلاح الدين الأيوبى بعد انتصاره عليهم فى معركة حطين •

ولو أنه لم تظهر المصادر المعروفة فى ذلك الوقت كابن شـامه والنـويرى وابن خلدون وغيرهم من المصـادر وجود أية علاقات بين

الصليبيين فى فلسطين ودولة النوبة المسيحية فى السودان الا أنه يظن أن النوبيين كانوا على علم بالنزاع بين المسلمين والصليبيين خاصة تلك المحاولة التى قام بهـا أرناط فى البحر الأحمر • لكن عزلتهم فى ذلك النطاق الضيق وكثافة الوجود الاســلامى فى بلادهم قد حالت دون اتصالهم بالصليبيين فى الشام •

ولقد كان لتشجيع ولاة أسوان لزعماء القبائل العربية المهــاجرة الى بلاد النوبة بالهجرة الى تلك البلاد أن كثرت هــذه الهجرات اليها وازدادت كثافة فى العصر الأيوبى • حتى أصبح لها آثار بعيدة المدى لا على أسوان فحسب بل على اقليم مريس الذى أصبح منذ ذلك الحين منطقة نفوذ عربية اسلامية ، ويشير ابن سليم الأسوانى الى أن العرب قد كثروا فى مهجرهم الجديد بعــد رحلة العمرى وحملتــه الى تلك الأقاليم حيث لقيت دعوته للانتشار العربى الاسلامى قبولا لدى العديد من القبــائل العربية والتجار العــرب الذين يتمركزون فى أسوان ، ومما يذكر أنه خرج اليه رجل يدعى عثمان بن جنجلة التميمى فى ألف راحلة ومنذ ذلك الحين كثرت عمارة تلك المنطقة اذ سرعان ما اكتسب العرب وضعا اجتماعيا رفيعا بعد أن كونوا طبقة أرستقراطية حاكمة خضع لها النوبيين سكان النوبة السفلى ولا سيما بعد أن تحول معظمهم الى الاسلام •

على أن العصر الأيوبى قــد شهد رغم القضاء على نفوذ الدولة الكنزية أن أسوان قد ظلت مصــدر قلق للأيوبيين بصورة تفوق تلك العصور التى سبقت هذا العهد • وأن القلق من جانب النوبة قد شهد بعدا جديدا بقيام بنى كنز بمعاداة الدولة الأيوبية ، كذلك مما ضاعف من حدة التوتر فى أسوان تلك السياسة التى انتهجها الأيوبيون لابعاد العنصر السودانى من الجيش والتى أدت بدورها الى تركيز هــذه المجموعات من السودانيين فى النــوبة وصعيد مصر الأعلى تفــاديا للاضطهاد ولم يلبث أن صار هؤلاء السودانيين منذ دولة بنى كنز حتى بعد سقوطها كبرعون وسند لهذه الدولة ضد الأيوبين •

ولقد كان بنى كنز غير متعصبين أو مؤيدين لحكومة اسلامية معينة أو مذهب دينى أو سياسى بل كانت علاقتهم بأى دولة فى مصر تتحدد حسب نظرة كل دولة لسيادة بنى كنز على أقليم السودان ولكن تحرك بنى كنز الى الجنوب كان لصالح الوجود العربى الاسلامى ولانتشار الدعوة الاسلامية والثقافة العربية الاسلامية والذين أخذوا يبسطون سيادتهم على اقليم المريس تدريجيـا وفى نفس الوقت ظلوا يكررون المحاولات لاستعادة مكانتهم فى أسوان حتى استطاعوا أن يستردوها فيما بعد فى أعوام ٧٩٠ هـ / ١٣٨١ م ولكن حتى نهاية الدولة الأيوبية لم يقم بنى كنز بأى نشاط ذى أهمية داخل الأراضى المصرية ويبـدو أنهم خلال اقامتهم فى المريس اسـتفادوا من وجود المجموعات التى دخلت فى الاسـلام من القبـائل النوبية ومن اخوانهم العرب الذين سبقوهم فى الهجرة الى تلك المناطق وهى المجموعات التى دلت الأبحاث الأثرية على وجود أعداد كبيرة منهم كانت تقيم فى اقليم المريس • ومن ثم ازداد نفوذ بنى كنز •

وعند ما انتهت الدولة الأيوبية مصر فانه وضـح كل الوضوح أن علاقة مصر ببلاد النوبة لم يطرأ عليها أدنى تغيير جذرى ، ذلك لأن بنى كنز سيطروا على الجهة الجنوبية من حدود مصر الى النوبة •

ولكن يمكن القول بكل وضوح وجلاء أنه رغم النزاع الذى قام بين بنى كنز والدولة الأيوبية الا أن الأيوبيين فى مصر عملوا من جانبهم سواء بطريق مباشر أو غير مباشر على تقوية النفوذ الاسلامى فى بلاد النوبة بل تدعيمه بكل الوسائل سواء أكان ظاهريا عن طريق تشجيع هجرة القبـائل العربية أو تقـديم المساعدات لبعض القبائل العربية المهاجرة •

بل ان النشاط الاسلامى قد ازداد فى خلال فترة الحكم الأيوبى لمصر وانتشر الاسلام وصبغت المنطقة بالصبغة الاسلامية البحتة ولعل أبلغ دليل على انتشار الاسلام أنه عنـد ما أرسل السلطان المملوكى بيبرس حملته الى بلاد النـوبة عام ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م فان صاحب الجبل والذى هو حاكم اقليم المريس كان يحمل اسما عربيا اسلاميا

هو اسم « قمر الدولة » وهذا دليل واضح على أن نور الاسلام قد غير معالم كل هذه المنطقة الممتدة من جنوب السودان حتى حدود النوبة العليا التى كانت عاصمتها سوبا وبذلك فان كل السياسات الحكومية فى القاهرة سواء أرادت بطريق مباشر أو غير مباشر كانت تخدم قضـية نشر الاسلام والعروبة فى أقاليم النوبة سواء بهروب الولاة أو فرار المضطهدين أو نزوح القبائل العربية أو احكام الحصـار على النوبة المسيحية بحيث أصبحت النوبة دارا اسـلامية تشع بنور الاسـلام وتزهو بصوت القرآن الكريم .

العصر المملوكى والنوبة الاسلامية

فى عام ٦٢٩ هـ / ١٢٥٠ م شهدت مصر ميلاد عهد جديد ، ذلك عند ما بدأت دولة المماليك فى حكم مصر ولذا كان هذا العهـد بالغ الأهمية ليس فقط بالنسـبة لمصر فحسب ولكن للشرق الاسلامى كله فضـلا عن أهميته للعـالم ككل فى العصور الوسطى . لكن بالنسبة لسودان وادى النيل فقد شهد ذلك العصر تطورات كبيرة فى علاقة مصر بتلك البلاد وهذا أمر طبيعى لأن سودان وادى النيل يتأثر بكل تطور سياسى أو اجتماعى يحدث فى المجتمع المصرى .

وقد بدأت تلك الصـلات السودانية الشمالية مع مصر فى ذلك العصر المملوكى بوفد أرسله ملك النوبة « داود الأول » فى عام ٦٦٧ هـ — ١٢٦٨ م الى السلطان الظاهر بيبرس فى مصر وحمل الوفد رسالة من داود يؤكد فيها أنه تولى عرش النوبة بعد أن أسقط عنـه خاله المسلم « أبو العزم مرتشكار » الذى أصبح كفيفا ويبدو أن من مهام الوفد معرفة السياسة الجديدة التى تسير عليها دولة المماليك ازاء النوبة وكان رد السلطان بيبرس أنه يطالب بدفع البقط الذى توقف دفعه لمدة طويلة وان كان السلطان بيبرس مهتم فى ذلك الوقت بمحاربة الصليبيين والتتار والأرمن وقد كانت هذه الاستعدادات فرصة لداود الذى لم يكن راضيا عن دفع البقط لكى يشن هجوما على السودان وثغر عيذاب فى

عام ٦٧٥ هـ / ١٢٧٢ م اذ أغار وجيشه النوبى على هاتين المدينتين ونهب المتاجر وقتلوا عددا من سكانها بما فيهم القاضى والوالى وخربوا السواقى وأسروا عددا من سكانها وعند ما وصلوا بهم الى عاصمتهم دنقلة سخروهم فى بناء كنيسة ومن ذلك العدوان بدأت سلسلة متصلة الحلقات من النزاع وارسال الحملات بين النوبة والمماليك فى مصر •

ولقد كانت الحملة الصليبية التى كانت تهدف احتـلال الأراضى المقدسة الاسلامية فى الحجاز ونجاحها فى تحطيم ما وجدته من سفن فى ميناء عيذاب ، قد جعلت حكام المسلمين فى مصر يوجهون اهتمامهم لسلامة البحر الأحمر من خط الصليبيين وزيادة فى تأمين ميناء عيذاب اهتموا بميناء سواكن وهو مخرج تجارة ممالك النوبة المسيحية فى السودان وقد تعدى الاهتمام بسواكن الى الاتجاه جنوبا الى موقع مصوع وتعرض حاكم سواكن وحاكم جزر دهلك قباله مصوع لأموال من توفى فى بلادهم من المصريين وأهمـل صـاحب سـواكن احتجاج السلطان الظاهر بيبرس فما كان منه الا أن بعث بحملة تأديبية على سواكن فى عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٥ م وكانت النتيجة أن فر صـاحب سواكن واحتلتها الجيوش المصرية واستقرت بها حامية دائمة هناك وبهذا أصبح المنفذ البحرى الثانى بعد اعتذاب لأقاليم النوبة المسيحية تحت سيطرة الدولة الاسلامية فى مصر •

ومن هنا فان بعض المؤرخين يرى الأسباب الاقتصـادية التى دفعت بالنوبة وملكها بالاعتداء على ميناء عيذاب وأسوان وذلك بعد سـقوط سواكن فى يد مصر مما أدى الى احكام الحلقة والسـيطرة الاسلامية على البحر الأحمر وزيادة عزلة الممالك المسيحية عن العالم الخارجى ومما لا شك فيه أن سيطرة الحكام المصريين على مينـائى عيذاب وسواكن قد جعل هؤلاء الحكام النـوبيين المسيحيين يحسون بتهديد مصالحهم الاقتصـادية فى البحر الأحمر ذلك المعبر التجارى الحيوى •

ومن ناحية أخرى فان هناك بعض المؤرخين يرى أن أسباب هذه الحملة النوبية التى قام بها الملك « داود » تعود الى أسباب دينية بحتة وفى نظرهم أن داود شن هذه الغارة العنيفة تضافرا مع الصليبيين فى الشام • وأن ذلك الهجوم العنيف على عيذاب وأسوان كان بغرض التشفى من المسلمين ولعل ما يلقى الضوء على اهتمام النوبة المسيحية بالأراضى المقدسة ما تذكره بعض المصادر من أن هؤلاء المسيحيين كانوا يحجون الى بيت المقدس ويترددون على المدينة المقدسة •

ومهما يكن من أمر الحملة التى قادها داود على الأراضى المصرية فان السلطان بيبرس قد أولى الأمر اهتماما كبيرا اذ أنه بادر بارسال حملة بقيادة والى قوص عام ٦٧٦ هـ / ١٢٧٣ م الذى واصل تقدمه عبر الأراضى النوبية حتى وصل الى دنقلة عاصمة النوبة السفلى ، غير أنه لم يستطع أن يلقى القبض على داود لكنه عاد للقاهرة بعدد من الأسرى فيهم صاحب الجبل •

وكان « داود » قد تقهقر جنوبا داخل أراضى مملكة علوة حتى لا تناله يد القوات المصرية •

اضـــافة الى أن عرب مصر قدروا أن تغـير النظـام الأيوبى الى المملوكى قد كان بداية لصراع عنيف بين أغلبيـة العـرب الذين ظلوا على بداوتهم أو بين البـدو والحضر ، فقـد اعتـاد هـؤلاء كلما واتتهم الفرصة الهجوم على المجموعات المستقرة انتقاما من ظلم الحكام لهم واسقاط العطاء عنهم ، بل أن حنقهم قد ازداد بمـا روا هؤلاء الرقيق من الترك يسيطرون على مقاليد الأمور فى مصر ويضيقون الخناق عليهم وقد صدق حدس الأعراب فقد ظل المماليك يمثلون دور القوة المحتلة التى لم تتعاطف مع أهالى البلاد كثيرا بل ظل كثيرا منهم يجهلون العربية ، ومن هنا فاننـا نجد أنه مع بداية العصر المملوكى وبالتحديد عام ٦٥٥ هـ / ٢٥٣ م قد ثارت معظم القبائل العربية ببلاد الصعيد والوجه البحرى ومنعت الخراج وأعلن قائد الثورة الشريف حصن الدين ثغلب بن نجم الدين الجعفرى » نحن أصحاب البلاد ونحن

أحق بالملك من المماليك وتوافد مؤيدوه من كل صوب حتى بلغوا اثنى عشر ألف فارس وتجاوزت عدة الآخرين الاحصاء • واستطاع السلطان « أيبك » أن يسيطر على الموقف بعد أن هزم الثـوار العرب وأسر حصن الدين ومن هنا فان العرب بعد أن أصابتهم الهزيمة لم يجدوا أمامهم الا أن يسلكوا الطـريق الذى سلكه من سبقهم من اخوانهم العرب الى الاتجاه جنوبا حيث أرض السودان الخضراء فى مملكة علوة جنوب مملكة المقرة وأن ذلك الصراع قد ظل فترة طويلة حتى نهاية القرن الخامس عشر الميـلادى ، التاسع الهجرى ، وقد زاد ذلك من حركة الهجرة فى اتجاه الجنوب ومحاولة صبغ البلاد بالصبغة الاسلامية ونشر الثقافة العربية الاسلامية •

أما الهجرات العربية الى بلاد النـوبة السـفلى ومملكة المقرة المسيحية ، فكانت تحكمها نصوص معـاهدة البقط التى سمحت للعرب المسلمين باجتيازها دون الاقامة بها ورغم ذلك فقد تقدمت بعض القبائل والبطون والجماعات العربية من عرب قحطان وربيعة وقريش الذين سكنوا أسوان ، تقدموا جنـوبا من أسوان الى المنطقة الشمالية من مملكة المقرة المعروفة باسم المريس حيث اشتروا أراضى من الذوبيين استغلوها لصالحهم • ومن ثم تزايدت أعداد العرب بها مما يدل على ذلك نجاح العرب فى تأييد كنز الدولة فى تولى الحكم وتحديهم للسلطنة المملوكية فى مصر •

كذلك فانه منذ أوائل القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى لم يعد الشلال الثانى حدا لا يتعداه العرب الى الجنوب فقد اشتركت كثيرا من الجماعات العربية فى مصر فى الحملات التى أرسلها سلاطين المماليك الى النوبة على مدى نصف قرن من الزمان ، وفضلت بعض هذه الجماعات العربية البقاء فى بلاد النوبة عقب انسحاب القـوات المملوكية ومن هذه الجماعات بنى بكر ، وبنى عمر ، وبنى شيبان ، وبنى هلال وغيرهم الكثير من القبائل العربية • وقد كان تسرب العناصر العربية هذه الى بلاد النوبة سببا مباشرا فى انتشار الاسلام على نطاق واسع بين أهاليها •

ذلك لأن قيام هذه الدولة المملوكية كان ايذانا بتغيير السـياسة السلبية القديمة المهـادنة للنوبة ، وبداية لعهـد جديد من الاهتمام الايجابى بشئون النوبة ومن ثم بدأت العلاقات بين البلدين تتخذ المظهر العسكرى العنيف • وقد كان هذا المظهر العسكرى ايذاء ملوك النوبة الاهتمام بالحروب الصليبية بل انهم انغمسوا فى تلك المعركة الصليبية التى تشهد المماليك فى مصر بقاياها فى بلاد الشام •

وقد كان اشتراك النوبيين فى هـذه المعركة عن طريق التعرض للتجارة المملوكية التى تسلك الصحراء الشرقية فى طريقها الى مينائى عيذاب وسواكن هذه التجارة التى نمت وازدهرت فى العصر المملوكى •

وقـد كان ذلك التحـدى بالنسبة للمماليك من جانب النوبيين تحديا خطيرا أو اعترافا بما أصبح للتجارة الدولية من مكانة فى الحياة الاقتصـادية لمصر فى العصر المملوكى كما أن هذه العـلاقات اتخذت طابعا صليبيا •

ولقـد أدرك المماليك فى مصر ذلك الخطـر الصليبى الكامن فى الجنوب حيث النوبة ، وأدركوا احتمال طعن النوبيين لمصر من الخلف وفى الظهر وهى منصرفة الى دك ما تبـقى من قـلاع بقايا الصليبيين فى الشام •

ولذا نجـد أن الحمـلات المصرية المملوكية تتتابع فى عنف الى النوبة ، نجد أن السلطان بيبرس يقوم باستغلال الصراع الدائر فى البيت المالك النوبى على تولى عرش البلاد حين قدم الى القاهرة الأمير شكنده على بلاط السلطان بيبرس فى هـذا الوقت وهو أحد المطالبين بعرش مقرة وذلك بعد أن لجأ ذلك الشخص الى السلطان بيبرس ينشد مساعدته وعونه وتأييده فى العودة لعرش النوبة وقد كان ذلك تطورا هاما فى تاريخ العلاقات النوبية المصرية ، ذلك لأن هذا اللجوء السياسى الى مصر قد فتح الباب أمام حكام مصر لكى يتدخلوا فى شئون النوبة السياسية ، كذلك فانه من ناحية أخرى فان الصراع على العرش النوبى قد كفل لسـلاطين المماليك وجود عناصر محلية يعتمدون عليها فى مد نفوذهم السياسى الى تلك البلاد • وذلك بعد أن ادعى شكنده أن خاله

قد اغتصب الملك منه فجهز السلطان الظاهر بيبرس جيشا فى عام ٦٧٤ هـ - ١٢٧٦ م وسـار مع هذا الجيش الأمير شكنده وقد انضمت الى الجيش الاسلامى بعض قوات القبائل العربية فى صعيد مصر واتخذت الحملة طريقها الى الجنوب وان كان قدلقى بعض المقاومة عند مدينة الدر لكن الجيش المصرى المملوكى تمكن من اخضـاع هذه المقـاومة الصغيرة الأولى وتابع الجيش مسيرته واخترق قبـائل الشلال الثانى وسلم الأراضى التى أخضعها الجيش الاسلامى الى شكنده ليحكمها ، وعند ما اقتربت الحملة من دنقـلة خرج اليها داود وعشيرته غير أن النتيجة كانت هزيمة داود وجاء شـكنده الى دنقلة وتم تتويجه ملكا للنـوبة بنفوذ وسلطة الجيش المصرى المملوكى وقد كانت هذه بداية الحماية المملوكية الاسلامية المصرية على مملكة مقرة • اذ لم يحاول المماليك ضم البـلاد الى أملاكهم بل اكتفوا بأن يكون الجالس على العرش من اختيارهم بعد أن يرتبط معهم على عهد يقطعه على نفسه وعلى شعبه وانتهى الأمر بعقد اتفاقية جديدة تنظم العـلاقات بين البلدين • ولقد أصبح شكنده مرتبطا بيمين الطاعة والولاء لسلطان المماليك ونائبا عنه فى حكم مملكة المقرة وأن يرسل نصف ما يجمعه من المملكة للسلطان ومعه بعض الهـدايا وأن تسلم ممتلكات الملك داود ومن تبعه من أفراد للسلطان وأن يمنع شكنده الأعراب من الاستقرار فى بلاد النـوبة وقد يكون ذلك الشرط سببا فى تسرب الأعراب الى الجنوب حيث منطقة الجزيرة ومملكة علوة ، وأن يطلع شكنده السلطان على كل الأحوال •

وانه عنـد عودة الحملة المصرية الى مصر أخذت معها عددا من أمراء النوبة كضمان لوفاء النوبيين لهذه الشروط والظاهر أن أثر هذه الحملة المملوكية على مملكة مقرة المسيحية فى دنقلة كان لها صداها فى الجزء الشمالى من مملكة علوة والذى يعرف بالأبواب فى منطقة شندى أو شمالها فقد لجأ داود الى هذه المملكة المسيحية ولكن ملك الأبواب أبى أن يدخل فى صراع مع دولة المماليك فى مصر بسبب داود فقبض عليه وأرسله مقيدا الى القاهرة حيث اعتقل الى أن مات كما أن ملك الأبواب قـد فتح الباب أمام الهجرات العربية فى وسط السودان •

كذلك فان اشتراط المعاهدة مع شكنده على عدم السماح للعرب بالاستقرار فى بلاده بين لنا أن سياسة المماليك تجاه العرب جعلتهم لا يتركون فرصة أمامهم الا الهروب الى بلاد النوبة بل الى جنوب علوة حيث منطقة الأبواب ، كذلك فان المجاعات المتكررة وموجة الطاعون التى لازمت العهد المملوكى الأول شجعت كثيرا من العرب بالهروب الى بلاد النوبة خوفا من الهلاك وقد حدثت عدة هجرات بسبب انتشار الأمراض وقد كان لهذا الوباء والمجاعات أثر سيىء على الحالة الاقتصادية العامة وقد صاحب كل ذلك زيادة فى الضرائب لمواجهة زحف المغول ، ثم ان كثيرا من الأراضى الزراعية اقتطعت للمماليك فأصبح من يفلحها أسوأ حالا مما كان عليه من قبل وكل هذه الأسباب شجعت العرب على الهجرة الى السودان كما صاحب كثير منهم الحملات المملوكية التى غزت بلاد النوبة كما سبق أن ذكرنا .

وللحقيقة التاريخية أن الحملة المملوكية التى صاحبت الأمير شكنده قد حققت فى فتح بلاد النوبة فتحا حقيقيا وأن بلاد النوبة منذ تلك الحملة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م لم تعد بلاد مستقلة ، ومن ثم نجحت السياسة المصرية فى جعل النوبة تابعة للحكم المصرى ، ولقد ساعدت هذه السياسة على انتشار الاسلام على نطاق واسع بل ظهرت حركة الاستعراب فى كل أنحاء البلاد بصورة ظاهرة وواضحة والذى كان قد بدأ منذ فترة طويلة من الزمن فى بلاد النوبة كما أن هذه المعاهدة قد ساعدت على دخول الكثير من القبائل العربية مع الجيوش العربية الفاتحة واستقروا فى بلاد النوبة على غير ما أراد السلطان بيبرس وتزوجوا من أهلها ومن أسرها الحاكمة حتى ملكوا زمام الأمر فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى .

وبالرغم من العهود والمواثيق التى قطعها شكنده على نفسه بالعمل تحت راية المماليك الا أن السلطان بيبرس بعث الى دنقلة بعض طائفة الاسماعيلية لمراقبته حتى لا تحدثه نفسه بالتمرد على السلطة المملوكية فى القاهرة .

لقد كانت حملة السلطان بيبرس لاعادة شكنده الى عرش النوبة ذات طابع هو نفسه طابع الفتوح الاسلامية حتى أنه يمكن القول أن فتح النوبة قد تم فى تلك الحملة ، اذ نجد أن بعض المصادر تذكر أن الأمير « أمستقر الفارقانى » والأمير عز الدين الأفرم قائدا الحملة قد عرضا على النوبيين الاسلام أو القتال والجزية ، فاختاروا الجزية وبالتالى فقد أصبحوا أهل ذمة ونتيجة لفرض الجزية على النوبة أنشأ السلطان بيبرس ديوانا لخراج النوبة • اذ يشير المقريزى الى ذلك قائلا فرسم السلطان للصاحب بهاء الدين هنا أن يستخدم عمالا على ما يستخرج من النوبة من الخراج والجزية بدنقلة وأعمالها فعمل لذلك ديوان •

هذا بالاضافة الى حلف شكنده يمين الولاء ، فان هناك نسخة أعدت لكى يحلف عليها أهل النوبة يمين الولاء والتزموا بهذا الحلف باطاعة ملك النوبة نائب السلطان مادام كانت لسلطان مصر •

وقيل أن رجال الحملة دمروا المكان الذى كان داود قد استغل فيه أسرى عيذاب وأسوان لبنائه والذى سماه عيذاب وقد كان هذا المكان قد رسم على جدرانه بعض الصور التى تحكى عن قتل المسلمين وأسرهم على يد داود فى عيذاب وأسوان وأن هذا كان يدل على أن داود كان مسيحيا متعصبا حاقدا على المسلمين ومهما يكن فقد أزال المسلمون كل هذه الآثار بعد الانتصار على داود بعد أن قامت الحملة بفك أسرى عيذاب وأسوان التى غادرت دنقلة عام ٦٧٤هـ/١٢٧٦م مصطحبة معها عشرين أميرا من أمراء النوبة أخـذوا كرهائن لضمان وفاء النـوبة بالتزامتهم نحو مصر ، ويبدو أن دور هؤلاء الأمراء النوبيين المبعدين لم يقتصر على كونهم رهائن فحسب بل أن بعض سـلاطين المماليك فيما بعـد استفاد من وجـودهم بمصر فى تحويل مجريات الأحوال السياسية فى النوبة لمصلحة مصر والسلطة المملوكة بمعنى أنه كلما تمرد حاكم نوبى أرسلوا اليه أحد أولئك الأمراء بصحبة حملة لاقصائه وتثبيت الذى كان مع الحملة •

كذلك فان هذه الحملة قد نجحت نجاحا فائقا فى ازالة ذلك التيار الكثيف والحـاجز المنيـع الذى أقامه ملوك النـوبة المسيحيين بين

العرب المسلمين القادمين من الشمال يصبغ تلك البلاد بالصبغة العربية الاسلامية فأصـبح الجزء الشمالى من النوبة المسمى مقره أرضـا اسلامية خاضعة للنفوذ الاسلامى ٠

وهكذا نجح سـلاطين المماليك نتيجة لتلك الحملة فى ابراز قوة الدولة الاسلامية وهيبتها ليس فى مملكة النوبة الشمالية فحسب بل فى مملكة علوه المسيحية التى تقع الى الجنوب ٠ كذلك فان المصادر تشير الى وجود اسلامى واسع النطاق فى بلاد الأبواب ٠

ومات شكنده قتيلا ربما بيد بعض المتحمسين من قومه لدينهم المسيحى وقوميتهم واعتلى العرش من بعده أميرا من البيت المـالك يدعى « برك » عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م وهو العام الذى نسبوا فيه السلطان قلاوون عرش مصر ويبدو أن الملك النوبى برك أبرز نزعة نحو استقلال بلاده ٠ الأمر الذى أدى بالسلطان قلاوون الذى خلف بيبرس ألا يطمئن اليه فأمر بارسال حملة بقيادة الأمير نجر المسرورى المعروف بالقيادة وتمكنت هذه الحملة من القبض على الأمير برك وقتله وعندئذ خلفه أمير نوبى آخر يدعى « سمامون » ملكا على النوبة بنفس الشروط السابقة التى وقعها شكنده ٠

وكان الأمير قلاوون قد أرسل حملته عام ٦٨٨هـ/١٢٨٠م ثم تكررت الحملات أيام الناصر محمـد بن قلاوون أعوام ٧٠٥ هـ/١٢٨٧م ، ٧١٦هـ/١٢٩٤م ٠

وتذكر لنا المصادر أن الملك ادورد ملك الأبواب التى هى الجزء الشمالى من علوه أرسل سفراء حاملين الهدايا للسلطان قلاوون يشكون فيها من سوء معاملة سمامون ملك دنقلة ويحكمونه فى النزاع ويظهرون الولاء والطاعة للسلطان المملوكى ولكن سمامون من جانبه عندما علم بنبأ هذه السفارة الى القاهرة التى أرسلها ملك الأبواب فانه بادر من جانبه بارسال سفارة وهدايا للدفاع عن وجهة نظره ولقد رأى قلاوون حين اجتمع بالسفارتين أن يبعث بمندوبه للاقلمين للتحقيق ٠ فأرسل مبعوث لملك الأبواب والأجزاء الأخرى الصغيرة من مملكة علوة مع سفراء

الأبواب عند طريق ميناء عيذاب خشية التعرض لهم من قبل ملك دنقلة وبعث برسول آخر للملك دنقلة ونتيجة لهذا التحقيق اقتنع قلاوون بأن سمامون هو الجانب الظالم ، ولما زاد الأمر تعقيد أن مبعوث السلطان قلاوون الى ملك الأبواب قبض عليه جواسيس سمامون عند رجوعه وأردوا قتله الا أن حاشيته منعته من تنفيذ ذلك العمل خوفا من أن يخرب السلطان ديارهم وليس هناك شك فى أن المبعوث المصرى المملوكى عند عودته للقاهرة أبلغ السلطان قلاوون بذلك الحادث ، وقد أظهر سمامون عدم اخلاصه وولائه ويبدو أنه لم يرسل الجزية والقبط وأصبح على السلطان أن يبعث حملة تأديبية له بعد أن استبد بالأمر ورفض كل مطالب مصر فأرسل السلطان منصور قلاوون حملة كبيرة له عام ٧٠٥هـ/١٢٨٧م على أن يشترك فيها والى قوص الأمير عز الدين أيدمر ، وأخذ معه أفراد بعض القبائل العربية مثل أولاد أبى بكر ، وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان وأولاد الكنز وبنو هلال ، وسار فريق بقيادة الأمير علم الدين سنجر الخياط بالبر الغربى وقاد عز الدين أيدمر فريقا آخر بالبر الشرقى وقد كانت خطة سمامون هى أن يجعل جيش المماليك يتوغل داخل مملكته ويلاقيهم على أبواب دنقلة ومن هنا أمر صاحب الجبل بالانسحاب أمام القوات المصرية وحينما وصل أيدمر بجيشه على مشارف دنقلة خرج له سمامون بجيشه والتحم معه فى معركة انتهت بهزيمة سمامون وفراره الى الجنوب فتتبعه أيدمر الىمسافة خمسةعشر يوما دون أن يلحق به ووقعجريس صاحب الجبل فى الأسر ، وقامت القوات بتثبيت ابن أخت سمامون على العرش والافراج عن جريس بعد أن أعلن الولاء ، ورأى السلطان قلاوون أن يبقى أيدمر ليكون ضابطا سياسيا مقيما كمندوب سامى للسلطان وبعث بسعد الدين ابن أخت الملك داود الذى كان بالقاهرة ليكون مستشارا لأيدمر ورجع باقى الجيش لمصر •

ولكن سمامون استطاع أن يسترجع عرشه من الملك الجديد حتى أن الملك الجديد فر الى القاهرة ، ومن ثم أرسلت اليه حملة ثالثة عام ٧١٣ هـ / ١٢٨٩ م وعين ابن أخت داود ملكا على البلاد • ولكن سمامون انسحب دون الدخول فى قتال مع القوات المملوكية ، ولكنه عندما علم

بعودة القوات المصرية دخل دنقلة متخفيا وقتل الملك الجديد وتولى الحكم مرة ثالثة وكتب الى السلطان فى القاهرة يطلب العفو والصفح مع تعهده بدفع كل الالتزامات وقبل السلطان تأكيدات سمامون ولم يرسل اليه قوات لأن السلطان كان سيستعد لازالة آخر معاقل الصليبين فى عكا ولكن سمامون منع ارسال البقط ونقض عهده وأظهر استقلاله بعد سماعه بموت السلطان قلاوون ولم يرسل البقط عام ٧١٥هـ/١٢٩٨م ولكنه آثر الدبلوماسية اذ أرسل الى السلطان خليل بن قلاوون يعتذر عن التأخير فى دفع البقط ولكن السلطان خليل بن قلاوون اشترط أن تبقى والدته وبقية أهله كرهائن فى القاهرة بدار الضيافة .

ولكن السلطان خليل بن قلاوون ضاق به ذرعا فأرسل حملة اليه بقيادة عز الدين الأفرم وقد توغلت الحملة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما جنوبى دنقلة لا يعرف له أى اتجاه وأرسل السلطان خليل بن قلاوون بأمير نوبى ونصبه ملكا على النوبة بعد أن أعلن ولائه للسلطان وهذه الحملات المتكررة وخاصة الأخيرة زادت من اضطراب الأحوال فى بلاد النوبة .

وقد تسببت هذه الحملات المملوكية المتكررة فى رضوخ النوبيين لمشيئة المماليك وفرض السيادة المملوكية الفعلية على الجزء الشمالى من البلاد وما ترتب على ذلك من امتداد السيادة المصرية على جزء كبير من بلاد النوبة امتدادا فعليا بل أن الحملات المملوكية فى عهد السلطان قلاوون وولديه الناصر محمد وخليل كلها كانت للمحافظة على هذا الوضع المملوكى فى بلاد النوبة ولاخضاع ملوك دنقلة واعترافهم بالسيادة المصرية فى ذلك العصر .

ومن هنا كانت الحملات المصرية المتكررة لاخضاع سمامون وتأديبه، وكذلك صاحب النوبة كما جاء فى كتاب مسالك الابصار ما هو الا رعية من رعايا مصر يخطب فى بلاده لخليفة العصر وصاحب مصر وبذلك فقد ساهمت هذه الحملات المملوكية العديدة وعن طريق التدخل فى شئون دنقلة فى اضعاف هذه المملكة النوبية . وأنه اذا كان المماليك قد ساهموا فى اضعاف مملكة النوبة على هذا النحو بعد أن بسطوا سيطرتهم عليها

فانهم أسهموا أيضا فى دفع القبائل العربية الى الهجرة صوب الجنوب وعملوا على زيادة تيار الهجرة الى هذه البلاد ، ذلك لأن العرب لم يجدوا امامهم متنفسا لهم الا الاندفاع الى الجنوب مهاجرين وسرعان ما وجد المماليك فى العرب أعداء الأمس خير من يعينهم على اخضـاع ملوك النوبة • ومن هنا كان اشتراك العديد من القبائل العربية بكثرة هى أنه يذكر أن أحد الحملات المتجهة الى النوبة قد اشترك فيها حوالى أربعين ألفا من عربان الصعيد والوجه البحرى وهذا دليل حيوى على أن من اشترك من الأعراب كان كثيرا جدا ولقد كثر استخدامهم فى عصر السلطان بيبرس والسـلطان قلاوون وأولاده فى حملاتهم الى بلاد النوبة ، بل أكثر من ذلك فان بعض أفراد من هذه القبائل كانت لهم دراية تامة بمعرفة المسالك والدروب والمدقات الى الجنوب ، وكانوا يقدمون المؤن ووسائل المواصلات لأفراد القوات الغازية المتجه الى الجنوب بل أن هناك كثيرا من القبائل كانت تفضل البقاء فى الجنوب بعد انسحاب المماليك كما فعل بنو عمر وبنى شيبان ، بل أن المماليك كان سيرهم أن يبعثوا بالعرب فى غزواتهم الى بلاد النوبة وذلك تخلصا منهم بل أنهم كانوا يشجعونهم فى البقاء بعد انسحاب قوات المماليك وذلك اتقاء لشرهم •

وقد وجد ملوك النوبة أنفسهم بين خطرين عدوان المماليك المستمر والدائم والخطر الذى لم ينقطع من استمرار وصول الحملات المملوكية ثم هجوم القبائل العربية من الداخل ، هذه القبائل بعد أن كثرت أعدادها وانتشرت بطونها فى البلاد وانصهرت فى المجتمع وبعد أن صاهرت أغلب الأمراء صاحبة النفوذ والخطوة فى البلاد فانها خلعت رداء المسالمة الذى كانت عليه عند قدومها وتنمرت وبدأت تظهر نواياها فى ضرورة بسط نفوذها على البلاد •

ومن ثم فانه لم يكن بمقـدور وقـدرة هؤلاء الملوك النوبيين والمماليك يقفون لهم بالمرصـاد فى كل حركة معادية للوجود العـربى الاسلامى أو أو الخروج على الطاعة ، فانهم لم يستطيعوا أن يقهروا العرب عسكريا ويكبحـوا جماحهم فاضطروا الى مصانعتهم بالمصاهرة

ونتج عن ذلك أن أصبح الأبناء هذه القبائل الحق كل الحق فى وراثة عرش البلاد واعتلاه • وعن أن أصــبح طريق تلك المصــاهرة نسرب الاسلام الى صفوف الأسرة المــالكة نفسها •

وهكذا استمر تزايد النفوذ العــربى الاســلامى فى بلاد النوبة بمساعدة المماليك ، حتى أننا نجد أن ملك علوة فى عاصمته سويا قــد أصبح يدرك هذه الحقيقة الثانية ومن هنا بذل محاولاته ليتقرب من بلاط السلطنة فى القاهرة بعد أن رأى بعينه النفوذ العربى الاسلامى يزداد داخل بلاده وما حدث لسمامون من ارسال ثلاث حملات متواصلة ضده •

وتذكر المصادر أن ملك الأبواب بعث فى عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م بوفد الى سلطان مصر وحمل هذا الوفد هدايا للسلطان معبرا له عن ولاء ملك الأبواب (أحيانا تسمى علوة) له وخضوعه لمصر •

ولقــد وضحت الحقائق التاريخية حقيقة هامة هى أن سلاطين المماليك قد بدأوا يمدون مناطق نفوذهم تجاه مملكة علوة وذلك بالاتجاه صوب حوض النيل وبذلك فان سلاطين المماليك قد أخذوا يمارســون نشاطهم السياسى والحربى فى بلاد النوبة الجنوبية ولكن فى مناطــق تختلف عن المناطق التقليدية لنشاط حكام مصر السابقين فى النوبة ذلك أن بعض الحملات قد أخــذت تتوغل جنوب دنقلة عاصمة مقرة لمدة تزيد عن ثلاثة وثلاثين يوما حتى جاوزت علوة بمملكة الأبواب •

ومن هنا فانه رغم التطورات الداخلية فى بلاد النوبة ظلت على ولائها لسلاطين المماليك فى مصر حتى أثنــاء الظروف العســيرة التى واجهتها مصر أثناء حرب المغول والتتار والصليبيين •

وتاريخ العلاقات المصرية النوبية فى العصر المملوكى تاريخ طويل قد لا يتسع له المجال للعرض الطويل فى ذلك البحث ، ذلك لأن دور المماليك فى بلاد النوبة يحتاج الى عدة دراسات ، ولكن نكتفى بهــذا القدر ونصل الى فترة حكم السلطان الناصر محمد الذى أمر بارسال

حملة الى بلاد النوبة عام ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م حيث صحبت هذه الحملة لأول مرة أميرا نوبيا مسلما لتولى عرش البـلاد هو الأمير سيف الله عبد الله برشنمبو والذى كان أحد الأمراء النوبيين الذين كانوا يقيمون فى قصر الضيافة بالقاهرة والذين تربوا فى البلاط السلطانى وانه كان قـد اعتنق الاسلام وحسن اسلامه كما أشار الى ذلك القلقشندى . وكان السلطان قد أمر بأن يصحب هذا الأمير الحملة لكى يتوج ملكا على البلاد ، وان ارسال سيف الله عبد الله بهذه الصورة أصبح أمرا معتادا فى سياسـة المماليـك نحو النوبة اذ أصـبح هؤلاء السلاطين أصحاب القول الفصل فى كل ما يخص الأحوال السياسية فى بلاد النوبة وقد كان هذا الأمير هو حفيد الملك داود ، ولكن الملك كرنبيس الذى تولى العرش بعد مقتل الملك « ايساى » كان قد تنكر للسلطان ورفض دفع البقط والجزية المقررة مما أثار حفيظة السلطان المملوكى وأرسل الحملة وحفيد داود .

ولكن كرنبيس رفض الاعتراف بذلك الملك الجديد وبادر بارسال ابن أخته « كنز الدولة نصر » حفيد بنى كنز الى الأبواب السلطانية قائلا : اذا كان مولانا السلطان يقصد بأن يولى البلاد ملك مسلم فهذا مسلم وهو ابن أختى والملك ينقل اليه من بعدى .

ولكن السلطان رفض طلب كرنبيس خوفا من ازدياد نفوذ بنى كنز وأنصارهم وتوج الملك سيف الدولة عبد الله برشنمبو كأول ملك مسلم على بلاد النـوبة المسيحية عام ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م . وكان السلطان المملوكى الناصر محمد قد أمر باعتقال كنز الدولة ومنعه من العودة الى البلاد .

وكان كرنبيس قد فر الى ملك الأبواب عنـد ما علم بنبأ الحملة المصرية ولكن ملك الأبواب أرسله لتوه الى قائد الحملة الذى أخذه معه الى القاهرة عند انسحاب الحملة فأتى الى القاهرة عام ٧١٧ هـ / ١٣١٦ م ولقد أبرزت هذه الحملة ملامح تغير الوجه الحقيقى للأسرة الحاكمة المسيحية بأن أصبح يتربع على عرش البلاد ملكا مسلما يدين

بالولاء والطاعة لمصر العربية المسلمة التى دافعت عن الاسلام والعروبة واستطاعت بعد فترة طويلة من الزمن أن تغير وجه الحياة فى بلاد النوبة بعد أن تربع على عرش البلاد ملكا مسلما • كذلك فان الاسلام كان قد بدأ يثبت دعائمه وأركانه فى بلاد علوة لا سيما بعد رفض ملك تلك البلاد استضافة كرنبس وأخيه وتم القبض عليهما وارسالهما الى قائد الحملة مرضاة لسلطان مصر •

ويذكر أن الملك الجديد المسلم سيف الله عبد الله برشمنبو قد رفض أن يلبس تاج الملك الذى كان يلبسه الملوك السابقين له ويقال أن التاج كان يحمل علامة الصليب مما جعل سيف الله لا يقبل أن يلبسه ولكنه استطاع أن يحدث حدثا عظيما فى بلاده اذ اتخذ كنيسة دنقلة مسجدا للمسلمين بعد أن صلى به أول جمعة بعد توليه عرش البلاد •

ولكن عهد سيف الله لم يطل اذ ثار عليه النوبيين بايعاز من كنز الدولة الذى كان قد أفرج عنه السلطان وكان قد عاد الى دنقلة ، وعند ما علم أهل النوبة بعودته الى البلاد انضموا اليه ودخلوا تحت طاعته والتقى معه سيف الله عبد الله فى معركة ضارية قتل فيها عبد الله برشنمبو ومن ثم آل الحكم فى النوبة الى آل كنز الدولة •

ولكن السلطان المملوكى رفض الاعتراف بكنز الدولة ملكا على البلاد وقد يكون ذلك ردا لاحساسه بعمق نفوذ كنز الدولة حتى منطقة مقرة والذى يشكل خطرا على النفوذ المملوكى فى النوبة وربما كان الخطر أكثر ضررا من المناورات السياسية التى كان يقوم بها ملوك النوبة الذين كان يعينهم سلاطين المماليك •

اذ أن تولية حاكم عربى مثل كنز الدولة الذى ينحدر من قبيلة ربيعة العربية على عرش النوبة سيقوى من شوكة القبائل العربية فى هذه البلاد ومن ثم تستطيع هذه القبائل العربية المعادية للمالبك أن تمارس نشاطا معاديا لتلك السلطنة ، لهذا أصدر السلطان أمرا بالافراج عن الأمير أبرام شقيق الملك كرنبس وأرسله الى بلاد النوبة وأمره

بالقبض على كنز الدولة وارساله الى الأبواب السلطانية فى القـاهرة وعند ما وصل أبرام الى دنقلة استقبله كنز الدولة وتنازل له عن الحكم وصار فى خدمته ومن ثم تمكن أبرام من القبض على كنز الدولة وعزم على ارساله الى مصر ولكن أبرام توفى بعد القبض على كنز الدولة بثلاثة أيام الأمر الذى أنقـذ كنز الدولة وحيـاته من ارساله الى القاهرة .

ومن ثم فان كنز الدولة استطاع أن يتولى حكم النوبة وذلك فى عام ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م بعد حروب طويلة بينه وبين المماليك وبعد أن اجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم فملك البلاد حينئذ ولبس تاج الملك واشتغل بالملكة وضم اليه العرب واستعان بهم على من ناوأه من أبناء ملوك النوبة السابقين . ووفدت اليه القبائل العربية القاطنة فى هذه المنطقة .

ومن هنـا فان الدور الذى أخذت تقوم به القبـائل العربية فى سودان وادى النيل ليعد ظاهرة لها خطورتها وأهميتها فى حيـاة ذلك الاقليم . ولعـل هذا النشـاط الذى قام به كنز الدولة على مسرح السياسة المصرية النوبية قد قوبل بكثير من الاستياء والمعارضة من جانب سلطان مصر ومن ثم أرسل السلطان الناصر محمد حملة الى النوبة عام ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م ومعها الملك كرنبس الذى كان متحفظ عليه بالقاهرة واستطاعت الحملة أن تنصب ذلك الملك ثم عادت الحملة فى شعبان عام ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م بعد أن أمضت تسعة أشهر بالنوبة .

وبعد عودة الحملة الى القاهرة ظهر كنز الدولة وأقصى كرنبس عن العرش وتولى الحكم من جديد .

ويعتبر بعض المؤرخين أن هذه الحملة تعد نهاية المملكة النوبية المسيحية وأن ملوكها منـذ فترة طويلة قد أصبحوا ألعوبة فى أيدى القبائل العربية مثل جهينة وسائر القبائل العربية الأخرى التى أخذت تتوافد على السودان وتنتشر فى ربوعه وقد توغل الكثـير من هذه القبائل جنوبا حتى بلغ أجزاء من الحبشة وغرب السودان .

وهناك من يتعقد أن نهاية مملكة النوبة المسيحية تمت عام١٣٢٣م بتولى كنز الدولة عرش البلاد أو بتولى سيف الله عبد الله برشنمبو .

ومن هنا فان الاسلام أصبح الدين الرسمى للدولة وتم اعفـاء النوبة من الجزية حيث يقول القلقشندى انه بتعيين سيف الله عبد الله برشنمبو انقطعت الجزية عنهم بعد أن أسلم ملوكهم وقد رأى سلاطين المماليك عدم ضرورة أخذ الجزية عن دولة أصبح حكامها مسلمين ، وخاصة بعد أن أقبل النوبيون على الاسلام بأعداد كثيرة خاصة منذ زيادة حركة الهجرة العربية انى بلادهم ومهما يكن من أمر فان اضعاف مملكة النـوبة المسيحية تم أساسا على يد سـلاطين المماليك نتيجة لحملاتهم المتكررة .

وان مملكة علوة لم تتعـاون مـع مملكة المريس بل تعاونت مع سلاطين المماليك وذلك لكسب رضا سلاطين المماليك واتقاء شرهم ، بل ان مملكة علوة كانت تشن الحروب على مملكة مقرة وكذلك كان انقطاع صلتها بالعالم المسيحى الخارجى بصورة واضحة من أسباب انهيارها . اضافة الى كثرة الوجود العربى الاسلامى الذى غير الكثير من ملامح هذه المملكة .

وبالرغم من أن العلاقات المصرية المملوكة قـد ركدت فى القرن الثـامن الهجرى ، الرابع عشر الميـلادى ، الا أن السلطنة المملوكية استطاعت أن تلعب دورا عظيما فى الحياة السياسية والاجتماعية لبلاد النوبة ، اذ استطاعت مصر خلال تلك الحقبة أن تبسط سيادتها على بلاد النوبة معتمدة فى ذلك على القوة العسكرية الصائبة وبفضل ذلك صارت بلاد النوبة جزء من الكيان المصرى وليس أدل على ذلك من أن السلطان المنصور بن قلاوون اعتبر بلاد النوبة من الأقاليم المصرية وذلك حين قلد ولده الملك الصالح ولاية العهد وفى ذلك يقول القلقشندى يوليه سائر أقاليم الممالك وعسكرها وجندها وعربهـا بالديار المصرية وثغـورها وأقاليمهـا وبلادها وما احتـوت عليـه مملكـة النـوبة وما احتوت عليه .

ولقد قصد ملوك النوبة الأبواب السلطانية فى القاهرة يبتغون مرضاتها كما تقربوا اليها بالهـدايا القيمة كذلك تعاونوا معها ضـد خصومها وأعدائها وكان سلاطين المماليك يعاملون هؤلاء الملوك الوافدين عليهم وكذا سفاراتهم بكل احترام فيخلعون عليهم ويستجيبون لمطالبهم واستطاعت سلطنة المماليك بهذه الروح أن تفرض زعامتها عن جدارة على هذه البلاد • ولقد حفظ لنا ديوان الانشاء ببعض الرسائل التى كانت متبادلة بين بعض سلاطين المماليك ومجموعة من ملوك النـوبة وأن تلك الرسائل تعكس روح المودة والصداقة بدليل تلك الألقاب التى وردت فيها ومنها ألقاب صاحب دنقلة النائب الجليل المبجل الموقر ، الأسد الباسل •

وعند ما تولى عرش النوبة ملوك مسلمون أصبحت بعض ألقابهم كما ورد فى الرسائل تدل على الصبغة الاسلامية مثـل زين الأمراء والمجاهدين ، ويبدو أن ملك دنقلة كان يعتبر من الملوك الصغار وربما لموقع البلاد الاقتصادى والاجتماعى أثره فى ذلك •

وهذا عن سقوط مملكة مقرة منذ بداية الصراع الطويل معها منذ الحملة التى أرسلها عمرو بن العاص بقيادة عقبة بن نافع الفهرى عام ٢١ هـ / ٦٤١ م ثم توقيع معاهدة البقط بين عبد الله بن سعد بن أبى سرج عام ٣١ هـ / ٦٥١ م ومرورا بالـولاة الأمويين والطـولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك حتى تم تعيين أول ملك أو سلطان مسلم على ذلك الاقليم ، الذى يدعى سيف الله عبـد الله برشمبو عام ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م • ومن هنا يتبين الدور الذى لعبـه حكام مصر طوال عصورها المختلفة فى نشر الاسلام والعروبة والثقافة الاســلامية جنوب مصر وفيما يعرف بالنـوبة أو مملكة مقرة وكيف استطاعت القبائل العربية التى كانت تتخذ طريقها للانسياح الى الجنوب أن تساعد كل المســاعدة فى تغيير وجه الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية فى تلك المنطقة حتى تم صبغها بالطابع الاسلامى فى القرن السابع الهجرى ، الرابع عشر الميلادى • وبذلك يتبين لنا بجلاء أن الاسلام والعروبة أصيلين كل الاصالة فى ذلك الجزء من السودان

الشمالى بل ان تلك المناطق كانت تعتبر من الأماكن شبه العربية قبل انتشار الاســلام وخروج الهجرات العربية على نطاق واســع الى تلك الأقاليم .

ومن ذلك فان معاهــدة البقط التى تم توقيعها بعــد فتح مصر باحدى عشرة سنة تبين لنا بجلاء انتشار الاسلام فى تلك الأقاليم بدليل ورود نص بهذه الاتفاقية يدل على السماح للمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية والابقاء على المسجد الذى تم بناؤه فى العاصمة دنقلة وكنسه واضاءته والسهر على سلامته وهذا دليل قوى على أن الاسلام فى بلاد النوبة قديم قدم الدعوة الاسلامية منذ انتشارها فى الجزيرة العربية ، بل ان هناك أقوال تذكر أن الاسلام تسرب الى بلاد النوبة قبل فتــح مصر بدليل أنه وجدت المساجد فى النوبة وبالذات فى العاصمة دنقلة قبل عام ٣١ هـ وليس فى بلد من بلاد الأقاليم اذ كيف يسمح الملك النــوبى المسيحى باقامة هذا المسجد فى عاصمته وتعــلم به الدولة الاسلامية فى مصر الا بعــد أن تكون هناك رعيــة اسلامية قوية فى هذا الاقليم .

هذا عن مملكة مقرة أما مملكة علوة وسقوطها فى أيدى الاسلام وتغير الوجه السياسى والدينى لتلك الدولة فهذا ما سوف نوضحه فى الباب القادم عند الحــديث عن الممالك المسيحية فى النوبة وانتشار الاسلام بها .

الباب الرابع

« الممالك المسيحية وانتشار الاسلام »

لقد كان من جراء الغــزوة التى قام بها ملك أكسوم على مملكة مروى أن فقدت مروى استقلالها ومن ثم بدأت تظهر على الســاحة فى تلك المنطقة الممتدة جنوب مصر ثلاث ممالك لمعت أسماؤها فى حوض وادى النيل وذلك فى الفترة التى ظهرت فيها رسالة الدعوة الى الاسلام فى الجزيرة العربية ، فقد كانت هناك ولاية النوبا أو نوباديا ، أو أرض المريس التى تبدأ من الشلال الأول جنوب أسوان الى ما بعد الشلال الثانى وجنوب وادى حلف وقد كانت عاصمتها « ابريم » •

أما الولاية الثانية وهى تبدأ من جنوب بلدة عكاشة وتنتهى الى بلدة أبو حمد عند بلدة قرفى وهنــاك احتمال بأن تكون هذه الولاية الثانية التى أطلق عليها مقرة أو الماكورة ، قد امتدت الى الجنوب حتى بداية الحــدود مع مملكة علوة وتربط بين الاقليمين الأول والثــانى لغة واحدة •

أما الولاية الثالثة وهى ممثلة فى مملكة علوة والتى تبدأ من منطقة الأبواب « الكيوشية » الى حدود بحيرة الأرواح الجنوبية وهى التى تعرف اليوم باسم أرض الجزيرة وقد امتدت سيطرة علوة نحو الشمال بل ان هناك بعض المصادر تذكر أن الأبواب كانت بداية اقليم علوة من الشمال ولقد كانت عاصمتها مدينة « سوبا » على النيل الأزرق وكانت مقسمة الى قسمين كل قسم منها على ضفة من ضفتى النيل الأزرق وكانت نهايتها الجنوبية حتى بلدة قطنــة على النيل الأبيض جنــوب

الخرطوم الحاليـة وشرقا حتى حدود الحبشـة وغربا حتى دارفور وكردفان •

وقد انضمت الولاية الأولى مع الولاية الثانية وأصبحت عاصمتها دنقلة وذلك فيما بين عام ٦٥٠ م و ٦٥٢ م وتتألف كل من هاتين المملكتين من عدة ممالك صغيرة على رأس كل منها حاكم أو ملك صغير يعرف باسم نائب الملك الكبير • وقد كان أعظم هؤلاء الملوك الصغار بالنسبة لمملكة مقرة ما سماه العرب بصاحب الجبل ، بينما يسمى أعظم هؤلاء الولاة فى مملكة علوة باسم صاحب الأبواب •

ويلاحظ أن مملكة علوة كانت أغنى من مملكة مقرة من حيث اتساع أراضيها وخصوبة تربتها وكثرة أمطارها فضلا عن كثرة فروع نهر النيل وتشعبه بها •

ويرى المؤرخون أن المسيحية دخلت الى بلاد النوبة بأقسامها هذه من مصر منذ القرن الأول للميلاد وكان ذلك على يد بعض المصريين الذين آثروا الهجرة الى الجنوب هربا من مضطهديهم ونجاة بدينهم الجديد ، ثم أخذ تيار المسيحية يشتد بزيادة كثرة عدد المهاجرين المسيحيين من أهل مصر الذين فروا الى بلاد النوبة معتصمين بها فى موجات الاضطهاد والارهاب والتعذيب والذى تعرضت له المسيحية فى مصر والذى أدى الى خروج جماعات كبيرة من المصريين الى جنوب الشلال الأول بعيدا عن تناول يد الحكام الرومان • وقد نقل هؤلاء الهاربون الى جنـوب الشـلال الأول تعاليم المسيحية ثم بدأت التعاليم المسيحية تنتقل مع هؤلاء المسيحيين المصريين الحاملين لرسالة المسيحية الى المنطقة الواقعة جنوب الشـلال الثانى وقد بقى انتشـار المسيحية بطيئا لأن الحاكم أو الحكام لم يعتنقوا هذه الديانة الجديدة حتى يمكن أن يتبعه الشعب

وليس هناك شك أنه فى القرن الثالث الميلادى قد كان هناك بعض الأفراد من النـوبة قد اعتنقوا المسيحية ، غير أن عددهم فى القـرن الثالث لم يكن كثيرا وانه حتى القرن الخامس وبالتحديد عام ٤٥٢ م

كان البجاة والنوبيون لا زالوا على الوثنية وأن النوبيين والبجاة حافظوا على صلاتهم مع مصر وظلوا على وثنيتهم يحجون الى معبد ايزيس فى جزيرة فيلة كل عام حتى النصف الأول من القرن السادس الميلادى •

ولا شك أن المراكز المسيحية من أديرة وكنائس وتجمعات والتى ظهرت بالقرب من أوطان النوبيين فى القرن الرابع الميـلادى كان لها أثرها فى دخول بعض النوبيين فى المسيحية بل وعن التحاق بعضـهم بالأديرة المصرية التى نشأت فى بلادهم وعن تردد الرهبان والقساوسة المصريين الى النوبيين لمحاولة كسبهم للدين الجديد •

ولقد جاءت الى حوض وادى النيل جنوب الشلال الأول فى أوائل القرن السادس الميلادى بعثتان رسميتان للتبشير بالمسيحية احداهما يعقوبية أرسلتها الامبراطورة تودورا والثانية ملكانية أرسلها زوجها الامبراطور جنسنيان • وقد أصدرت الامبراطورة أوامرها المشـددة بضرورة دخول بعثتها الى النوبة قبل البعثة الملكانية ومن هنا دخلت بعثتها اليعقوبية الى مملكة النوبة السفلى بينما أرسلت البعثـة الملكانية الى مملكة المقرة •

ومن هنا كانت مملكة المقرة التى عاصمتها دنقلة ملكانية المذهب بينما كانت المنطقة جنوب الشلال الأول يعقوبية ومن هنا فان القرن السادس الميلادى قد شـهد انتصار المسيحية تماما وغلبتها على أهل النوبة شعبا وحكومة بسبب الجهود التى بذلها الامبراطور جستنيان والجهود الذى بذلها اليعاقبة •

ومن هنا جاءت المسيحية الى النوبة لكى تجد هناك مملكتين أحدهما علوة وعاصمتها سوبا فى الجنوب والثانية مقرة أو مريس وعاصمتها دنقلة فى الشمال •

مملكة المقرة (المريس) وعاصمتها دنقلة : دخلت المسيحية الى بلاد النوبة الشمالية فى عهد الملك « سلكو » وصارت هى الدين الرسمى

للدولة ولكن كان هناك عدد كبير سواء فى جنوب مصر أو فى بلاد النوبة أو فى الصحراء الشرقية لا زالوا على وثنيتهم مما شجع الملك سلكو بالقضاء على سلطة البجة ونشر المسيحية بينهم ومن هنا تنصر الكثير منهم وتبعوا كنيسة الاسكندرية على المذهب اليعقوبى • وقد أصبحت النوبة معقل المسيحية وخاصة بعد انتشار الاسلام فى مصر وصـار لكنيسة دنقلة التى عرفت بكنيسة « أسنوس » شأن عظيم فى أفريقيا وبالتالى أصبحت بلاد النوبة هى الواسطة والصلة الروحية بين الكنيسة القبطية فى مصر وكنيسة الحبشة •

وقد حول الملك « ابرنايم » ابن الملك سلكو معابد كلابشة ودكا ووادى السبوع وغيرها الى كنائس كما حول معبـد فيلة الى كنيسة واتجه النوبيون الى انشاء الأديرة • وقد ظلت دنقلة وكنيستها آمنة لمدة تزيد عن مائة عام تقريبا منذ أن أنشأها الملك سلكو حتى الفتـح الاسلامى لمصر عام ٢١ هـ / ٦٤١ م •

وهذه المملكة كما رأينا فى الفصل السابق هى التى وقفت فى سبيل الفتح العربى ونظمت هذه المقاومة العنيدة التى صادفتها حملة عقبة بن نافع الفهرى من قبل عمرو بن العاص والتى صادمتها حملة عبد الله بن سعد بن أبى سرح رغم حصارها دنقلة فقد نظم الملوك المقاومة وأوقعوا بالعـرب من حصونهم ومعاقلهم الجبليـة وكبدوهم خسـائر فادحة واضطروهم الى الكف عن التقدم والعودة من حيث جاءوا •

وهكذا فانه لم ينتهى القرن السادس الميلادى الا وكان هذا الجزء من بلاد النوبة الواقع بين الشلال الأول والثانى قد تحول للمسيحية ولقد كانت صعوبة المواصلات بين بلاد النوبة والدولة الرومانية بعـد انتشار الاسلام فى مصر من الأسباب التى جعلت مصر تصر على ارسال الأساقفة والقسس ورجال الدين لهذه البـلاد ، مما جعـل الكنيسة القبطية فى مصر ومذهبها السـيادة فى بلاد النـوبة ورفض المذهب الخلقدونى الذى كان سائدا فى مقرة من قبل •

ومن هنا فانه يمكن القـول أن السودانيين قـد اعتنقوا المذهبين اليعقوبى والملكانى ، الا أن الغلبة صارت فيما بعد للمذهب اليعقوبى وظل النوبيون يتلقون الهدى الروحى على يد القساوسة والرهبـان المصريين وقد كانت اللغـة القبطية المصرية تستخدم فى الطقـوس فى وقت متأخر .

ولا شك أن الحياة المستقرة فى تلك المملكة قد شـهدتها فى عصر المسيحية وما تبع ذلك من ازدهار لحيـاة الدين ، كل ذلك قد شجع الملوك الذين جمعوا بين السلطتين الدينية والسياسية على تحويل المعابد القديمة الى كنائس وتشييد الكتدرائيات كما حدث فى كتدرائية دنقـلة ثم ملئها بالزخارف والنقوش وبعض المشـاهد من الانجيل وصـور القديسين والتى تعكس من خلالها هذه الرسوم سمة قبطية كما يلاحظ وجود أثر فاطمى فى الزخارف التى صنعت فى الفترة الأخيرة .

وقد انضمت كل من مملكتى النوبة المسيحيتين « المقرة وعلوة » رغم وجود الخلافات المذهبية بينها بالحـدود الشمالية المجاورة لمصر دون الحدود الجنوبية ، بالاضافة الى مملكة المقرة أولت اهتماما كبيرا بولاية المريس أو صاحب الجبل وهى الأراضى المتصلة بمصر الاسلامية وتجعل لحاكمها الذى أطلق عليـه مؤرخو العرب اسم صاحب الجبل ومنحته الدولة فى دنقلة سلطات واسعة لكونه حارسا للحدود الشمالية.

كذلك فان عملية التبشير بالمسيحية فى النوبة اتبعت أبسط الصور لتلائم ظروف البيئة البدائية وثقافة السكان .

ومن هنا فقد زاد انتشار المسيحية ببلاد النـوبة حتى أصبحت عامة تقريبا بسبب هجرة الأقباط من مصر لبـلاد النوبة اثر الغـزو الفارسى لمصر واضطهاد طائفة الملكانيين الأقباط ، ولقد أدى الانتشار الواسـع والبطىء للمسيحية الى كثـرة الكنائس ، وقد بقيت بعض الكنائس الجديدة فى منطقة مثل أبريم ودنقلة وفرس وبوجين وغيرها من الأماكن ولكن بنى أغلب هذه الكنائس بالطين لذا آندثر معظمها .

وان كانت هناك بعض الآراء تذكر أن الدولة الرومانية هى التى قامت بأكبر مجهود لنشر المسيحية وذلك طوال عصر حكم الامبراطور جبسنيان ، الذى انتهز فرصة انتهاء الزمن المقرر فى اتفاقية الهدنة مع النوبة ومن ثم عمل على ابطال التقاليد والعادات الوثنية التى كانت تمارس فى المواسم النوبية منذ زيارته لمنطقة فيلة فأغلق المعابد وحولها الى كنائس ونقل التماثيل الى القسطنطينية وليس الملك « سلكو » ملك النـوبة هو الذى حول المعـابد الى كنائس أو ابنـه الذى تولى الحكم بعده .

لكن سلكو قد قام بحرب البجاه والبلمين الذين كانوا يسكنون فى المنطقة المتاخمة لهم من الشمال وأحرز عليهم انتصارات فى كلابشـة وناقه مما مكنه من نشر المسيحية .

وعلى هذا فانه ما ان ازدهرت المسيحية فى بلاد النوبة وغلبت على كثير من مظاهر الثقـافة السودانية بحيث صارت مظهرا من مظاهر القومية التى توحـد بين تلك الشعوب وظل هـذا الحال حتى أخذت النهضة العربية الاسلامية تعم بلاد الشرق الأخرى وانسابت فى مقرة واطمأن بصلته بداية عهد جديد فى سودان وادى النيل .

كما أنه ليس هناك أدنى شك فى أن المسيحية قد تسربت من مصر الى السودان وليس من الحبشـة التى كانت دائما فى حالة عداء مع مملكة مروى على أثر حملة عيزانا التى كانت سببا فى اسقاطها بحيث كان المصريون عاملا من عوامل تسرب المسيحية الى السودان والذين رفضوا الارتداد عن دينهم .

ولقد انتشر المذهب اليعقوبى فى مملكتى النوبابيا « المريس » وعلوة الجنوبية ، وأما الأرثوذكس الملكانية فقد أخذت به مملكة المقرة . وتذكر بعض المصادر أن المسيحية شملت أجزاء من بلاد السودان بعيدة عن النيـل وذلك مثل اقليم دارفور حيث وجدت مؤخرا آثار لمجتمع يسمى فى موضع « عين فرح بدارفور » وهذه الآثار بقايا مبانى بنيت على الطراز النوبى المسيحى .

ومهما يكن من أمر فقد ارتبطت المسيحية فى النـوبة بالكنيسة المصرية ويشير أبو صـالح الأرمنى الى أن ملوك النوبة المسيحيين عندما كانوا يغيرون على مصر ، انما كانوا يهدفون فى بعض هذه الغارات وليس كلها الى الانتقام للمسيحيين فى مصر وما يتعرضون له من معاملة ســيما فى عصر الحاكم بأمر الله الفاطمى والذى يقـال ان نوعا من الاضطهاد قد لحق بهم أو الضرر كما تشير الى ذلك المصادر المسيحية مثل أبو صالح الأرمنى ، كذلك فان أبو صالح نفسه يشير الى أن ابن ملك النوبة عند ما قدم الى مصر فى طريقه من بغداد ، بعد الرحلة التى كلفه بها والده لكى يقابل الخليفة العباسى فى أمر البقط لكى يجعله يدفع كل ثلاث سنوات بدلا من كل عام ، اتصال بالقساوسة المصريين وأمر والى مصر أن يضرب له الناقوس نظرا لعلو منزلته فيتجمع أصحابه للصلاة معه ولكى يقيموا القداس كما كان يفعل فى بلاده •

وعن مملكة المقرة يقول « أحمد بن سليم الأسوانى » أن ولاية المريس لها وال من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل وهو من أجل ولاتهم القريبة من أرض الاسلام ولقد كانت ولاية الجبل خط دفاعها الأول ولقد اهتمت به خشية مصر الاسلامية •

ولقـد كان الملك المنتخب من بين أفراد الأسرة المالكة لا يتولى العرش الا بعد اعتكاف فى الدير لفترة زمنية معينة يكسب خلالها طهارة وقداسة ومن هنا كانت رعاية الدولة للمسيحية حيث استطاع المسيحيون فى ظل تلك الرعاية الملكية أن يمارسوا عبادتهم فى حرية بل أزداد نشاط التبشير بالدين الجديد وقامت مؤسسات دينية يرأسها رجال الكنيسة ويبدو أن الكنيسة النوبية استخدمت فى مبدأ الأمر اللغة اليونانية فى أداء الطقوس الدينية ثم أخذت اللغـة القبطية تنتشر وتستخدم فى الكنائس ثم ترجمت الطقوس الدينية فيما بعد الى اللغة النوبية •

أما عن أثر الكنيسة النوبية فى تاريخ بلاد النوبة وعلاقاتها بمصر فيرجع الى العـلاقة بين الكنيسة المصرية والنوبية وقد كان أساقفة النوبة يرسلون لها من مصر • ولقد كان كثيرا ما كانت الظروف الداخلية

فى مصر تؤدى الى امتناع البطاركة عن ارسال مبعوثين مصريين لمدد طويلة فتظل الوظائف الدينية خالية ويظل الناس فترة طويلة لايمارسون الطقوس الدينية ، ذلك لأن بلاد النوبة لم يتخرج من بين أهليها فى هذه الفترة علماء متخصصون فى اللاهوت أو الفلسفة الدينية مستمدين تجاربهم من القديسين والشهداء كما فى مصر ، ومن هنا ظلت الكنيسة المصرية تعـامل الكنيسة النوبية كطفل صـغير وذلك لأن اعتنـاق النوبيين للمسيحية لم يكن عن عقيدة وفهم وتعمق ودراية .

على أنه مما يلاحظ أنه رغم اعتناق الشعب النوبى للمسيحية فقد بقيت بعض العادات والتقاليد الوثنية سائدة فى المجتمع النوبى والتى كانت أيام عبادة الأوثان ومن هنا فانه لم يصح اعتناقهم للمسيحية ، مما يدل على أن العقيدة الجديدة لم تتفاعل مع مشاعر الشعب بل انها فرضت على الناس فى سلوكهم فرضا ويمثل هذا اختلافا واضحا بين الظروف التى انتشرت فيها المسيحية فى مصر وفى ظروف انتشارها فى النوبة .

ولقد لاحظنا فى الفصل السابق العلاقات بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية خـلال فترة الحكم الاسـلامى فى مصر منذ الفتح الاسلامى فى عصر عمر بن الخطاب عام ٢١هـ/٦٤١م وفى تنصيب أول ملك نوبى مسلم يدعى سيف الله عبد الله ثم تولى بنو كنز شـئون حكم النوبة .

ومن هنا فان فترة ازدهار المسيحية فى النوبة كانت تنتشر فيما بين القرنين الحادى عشر والثـالث عشر حيث شـهد القرن الرابع عشر الميلادى ، الثامن الهجرى انهيار المملكتين النوبتين مقرة وعلوة .

هذا عن مملكة المقرةالتى كانت عاصمتها دنقلة ويمثلاقليم المريس الباب الشمالى لها مع مصر أما مملكة علوة فهى متناول هذا الحديث .

مملكة علوة :

عرفت هذه الملكة باسم علوة أو النوبة العليا وقد كانت عاصمتها سوبا أو السوبا التى تقع على نحو أربعــة عشر ميلا جنــوب شرق الخرطوم ومرجعه الاسم القديم الذى يشير الى بحيرة الأرواح • وقد أشار الادريسى فى وصفه لبلاد النوبة فذكر بلدة غلوة بالّغين بدلا من العين علوة ، وأن علوة فى موقعها بالقرب من الخرطوم قد انتقلت اليها ادارة الحكم بعد سقوط مملكة مروى بسبب هجوم ملك اكسوم • ونجد أن الوضع الاقليمى فى منطقة الجزيرة له تأثيره الواضح فى حيـــاة السكان وفى نظامهم الاجتماعى الذى ربط بينهم وبين الأرض مما أثر بدوره فى ظروفهم السياسية والدينية والاقتصادية ولقد كان ملوكها لهم كامل السلطات على رعاياهم وممتلكاتهم •

ولا يعلم بالضبط الوقت الذى دخلت فيه المسيحية هذه البلاد ويعتقد أنها دخلت فى نطاق ضيق منذ ظهورها فى مصر كما يعتقد أنها انتقلت مع بعض المصريين القدامى الذين كانوا قد لجأوا الى علوة وغيرها فرارا من الاضطهاد الرومانى ، وانتشرت المسيحية ورسالتها على نطاق واسع حتى نهاية القرن السادس الميــلادى وذلك حينما اعتنقها الملوك والزعماء • وبقيام علوة تنتهى المرحلة الأولى التى بدأت بانفصال الحكم من نباتا الى مروى ثم من مروى الى علوة •

ولقد كانت مملكة علوة عبارة عن مجموعة من الزعامات والرياسات• وقد جاء فى مخطوطة قلاوون أن مملكة علوة قد شملت عدة ولايات أو زعامات صغيرة •

١ ــ مملكة الأبواب وهى منطقة الكبوشية والواقعة بين شندى والعطبرة •

٢ ــ صــاحب بره ويذكرها اليعقوبى باره وهى الواقعــة على الشاطىء الأيسر لهــذا النيل جنوب العطبرة ونعرف الآن باسم قوزيرة وقــد كانت هذه أبروشية تابعة لمطرانية علوة المسيحية •

٣ ــ التاكه وهو الاقليم المعروف الآن باسم اقليم كسلا أو كسله.

٤ ــ اقليم كدرو وهذا الاقليم يتبع شمال مدينة الخرطوم ويطلق هذا الاسم على محطة سكك حديدية بالقرب من هذا المكان .

٥ ــ اقليم دنفعمو وقد ذكره صاحب مخطوطة قلاوون ولكن موقعها غير معروف ومن المحتمل أنها كانت واقعة شمال كدرو .

٦ ــ آرى : وتقع هذه المنطقة فى المكان الذى ينتهى شمالا بشندى كما يحتمل أن تكون آرى هذه هى المعروفة فى الوقت الحاضر باسم « الروبان » .

٧ ــ بقال : وهذا الاقليم واقع شمال شندى حيث يوجد فى الوقت الحاضر وادى يعرف باسم وادى بقال .

٨ ــ العنج أو الأنج : وهو اقليم واقع على الجانب الأيسر لنهر النيل جنوب غرب كدرو .

٩ ــ اقليم كرشه : وهى مملكة علوة وهذا اللفظ أصله كوش وأضيفت اليه الراء فى اللهجة المحلية وتغير الشين الى سين .

وتذكر المصادر أن كل هذه الولايات المختلفة كانت تضم عدد من الزعامات المحلية التى كانت تدين لصاحب علوة أو سوبا بالولاء والطاعة .

ويقول أبو صالح الأرمنى أنه كانت فى مملكة علوة أربعمائة كنيسة ودير وابراشية على جانبى النيل الأزرق وفى البطاح وقد ظل عدد كبير من هذه الكنائس قائما حتى القرن السادس عشر والراجح أنه لم يكن فى وسع النوبيين أن ينشئوا الكثير من الكنائس الجديدة ولذا فانهم لجأوا الى تحويل المعابد الوثنية الكثيرة الى كنائس بعد أن كتبوا عليها النصوص الدينية والكتابات المسيحية حيث لازالت الجدران الوثنية تبدو كما هى .

وفى الطريق من سواكن لكسلا توجد بقايا أحجار ومقابر ترجع للعهد المسيحى المبكر والطابع الغالب على الكنائس النوبية هو البساطة فى البناء ولعل هذا يرجع الى ضعف المستوى الفنى ٠

ويصف ابن سليم الأسوانى النوبة العليا (علوة) فيقول : أول والى فى بلاد علوة قرى من الشرق على شاطىء النيل تعرف بالأبواب ولهذه الناحية والى من قبل صاحب علوة والنيل يتشعب من هذه الناحية على سبعة أنهار ومنها نهر يأتى من ناحية الشرق كدر الماء يجف فى الصيف حتى يسكن بطنه ٠ ثم النيل الأبيض وهو نهر يأتى من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن ثم الأخضر وهو نيل يأتى من القبلة (أى الجنوب) مما يلى الشرق شديد الخضرة صافى اللون جيدا ٠ ويجتمع هذان النهران الأبيض والأخضر عند مدينة متملك بلد علوة هى على النيل الأزرق جنوبى الخرطوم بحرى بقليل ٠

وقد وصف ابن سليم الأسوانى مدينة سوبا العاصمة قائلا أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب والبساتين ومتملك أى حاكم علوة أكثر مالا من متملك مقره وأعظم جيشا وعنده من الخيل ما ليس عند المقرى وبلده أخصبوأوسع ٠ ودينهم النصرانية يعاقبه وأساقفتهم من قبل صاحب الاسكدرية كالنوبة السفلى ٠ ولغتهم الرومية يفسرونها بلسانهم وهى أقل فيها من النوبة السفلى ٠

والنظام السياسى لملكة علوة لم يكن يختلف فى تفصيله عما فى مملكة النوبة الشمالية وان كان ملك علوة يمتاز بجاه ونفوذ وأكبر جيشا وأكثر عددا لعل ذلك يرجع الى اتساع مملكته ٠ ويظهر ثراء مملكة علوة فى كثرة كنائسها وأديرتها ولا تزال بقايا هذه الكنائس والأديرة تشاهد على النيل الأزرق جنوبى الخرطوم بما يقرب من اثنى عشر ميلا ويرجح أنها بقايا مدينة سوبا العاصمة ٠

ولقد كان نشاط التبشير المسيحى فى بلاد السودان هو الذى عرفنا الكثير عن مملكة علوة وعاصمتها سوبا الشهيرة جنوبى الخرطوم بقليل

على الضفة الشرقية للنيل الأزرق ولها منطقة شمال الخرطوم تعرف بالأبواب •

وعندما دخل الاسلام مصر وبدأت الأحداث بين الجيوش الاسلامية فى مصر والنوبة الشمالية المعروفة بمقرة بدأ يذكر اسم الاقليم الشمالى لعلوة المعروف باسم الأبواب • وأن علوة هؤلاء كانوا يودون المصالحة والمسالمة مع مصر ولا يريدون الاصطدام بهذه الدولة الاسلامية فى مصر •

ويذكر ابن سليم الأسوانى الذى نقل عنه المقريزى قولا عن تلك المملكة وأشار الى وجود رباط بها فيه جماعة من المسلمين مما يدل على أن الاسلام قد تسرب الى مملكة علوة وبالذات فى عاصمتها سوبا التى كانت أكثر معبر الى ناحية الجنوب من اقليم الأبواب •

وقد وصف ابن سليم أن بعضهم يعترف بوحدانية الله ويتقربون اليه بالشمس والقمر والكواكب ومنهم لا يعرف الخالق ويعبد الشمس والنار ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة مما يدل على أنه حتى نهاية القرن العاشر الميلادى فانه كانت لازالت الوثنية منتشرة فى المجتمع العلوى والا ما كان ابن سليم الأسوانى قد أشار الى ذلك ، مما يدل على أن المسيحية لم تكن حتى القرن العاشر قــد ضربت بجذورها فى مجتمع النوبة العليا أو الجنوبية •

وكذلك فان اتساع رقعة علوة وهطول الأمطار فيها وتوافر المراعى والزراعة المطرية يجعلها من الناحية الزراعية والرعوية مجالا حيويا لحشود القبائل العربية المتدفقة من الشمال أى أن طبيعة أرض علوة الواسعة كانت تناسبهم أكثر من أرض مقره الضيقة ، وحتى الذين اعتنقوا المسيحية من أهل علوة لم يكن بالدرجة التى تصل الى حــد التعصب مثلما كان فى مملكة مقرة ، مما جعلهم لا يقاومون الزحف العربى الاسلامى المتدفق الذى بدأ يزحف على بلادهم بصورة واسعة لا سيما بعد توقيع معاهدة البقط التى أجازت للقبائل العربية المرور والاجتياز

غيرمقيمين عبر أراض النوبة السفلى أو أرض المريس مما يساعد على تدفع القبائل العربية الى الجنوب حيث أرض علوة الواسعة ، ومن هنا لم يشعر سكان النوبة العليا بالضيق أو المنافسة من جانب العرب الوافدين ولا سيما عرب البادية لأنهم يحتلون أماكن خالية أو شـبه خالية من السكان ولكن يتوفر فيها المـاء والمراعى •

وتذكر بعض المصادر أن المسيحية دخلت مملكة علوة فى القرن السادس الميلادى وذلك عندما أرسل ملك علوة عام ٥٧٨ م رسولا الى ملك النوبة السفلى (دنقلة) يطلب منه السماح للأسقف لونجنيوس بالسفر الى سوبا جنوبا وذلك ليعمدة هو وأهل دولته وأسرته ، فأرسل ملك النوبة تلك الرغبة الى الأسقف لونجنيوس وكان قد سافر الى مصر للمشاركة فى آنتخاب البطريك الجديد ، فاتجه لونجنيوس الى علوة مباشرة فى رحلة استغرقت مائتى يوم وصل فيها الى جبـال البحر الأحمر سبب المكائد التى أقامها فى طريقه ملك مقرة ولكن اتفاقيات ملك النوبة مع بدو البلمين القاطنين فى الصحراء الشرقية أعطته الأمان فى رحلته ومكنته من الوصول الى مملكة علوة • وفى المكان جنوبى الشلال الرابع التقى لونجنيوس برسول ملك علوة الذى أركبه النهر حتى مدينة سوبا وقام لونجنيوس بمهمته فى تنصير ملك سوبا ومن ذلك التاريخ أصبحت المسيحية الدين الرسمى لملكة علوة • وان كان القرن العاشر الميلادى عند زيارة ابن سليم الأسوانى لهذه المملكة يشير الى وجود رعية كثيرة لا تزال على الوثنية وتعبد الشمس والقمر والنار والبهائم •

ولقد تعرضت مملكة علوة للعديد من الضغوط من ناحية القبائل العربية المهاجرة ، ذلك لأن مجموعة قبائل الكواهلة قد انتشرت فى منطقة العطبرة والنيل الأزرق ونزلت شعبة منها حول النيل الأبيض وشعبة أخرى استوطنت كردفان ويكاد من المؤكد أن معظم قبائل الكواهلة دخلوا السودان من الشرق ووصلوا اليه من الجزيرة العربية مباشرة وبدوأ حياتهم بسكنى الاقليم الساحلى من سواكن وعيذاب ولقد كانت لهذه الهجرات الى بلاد النوبة العليـا واستقرار كثيرين من القبـائل العربية هذه البلاد سببا فى نشر الدعوة والتجارة فان كل هذه الأمور

سهلت الطريق لصبغ البلاد بالصبغة العربية الاسلامية ولقد أدت تلك الهجرة الى ضعف سلطة ملوك النوبة وقد أصبحوا لا يستطيعون حماية رعاياهم ومن هنا لابد من أن يسعى الشعب لمن يحميهم ويجيرهم من عدوان الأعداء الخارجين عن تلك المملكة وقد كانت القبائل العربيــة المستقرة بتلك النواحى الواسعة يحكم عاداتها وتقاليدها خير من يجير سكان النوبة حيث كانت قد حدثت مصاهرات كثيرة بين العرب والنوبيين الذين كانوا يرحبون بهذه المصاهرات التى تضمن لهم سندا قــويا وحماية فى وسط عوامل الضعف والفوضى التى اجتاحت البلاد ، ومن هنا فان ملوك النوبة فى ذلك الوقت لم يكن لديهم أى سبب يدعوهم لمنع هذه الهجرات العربية أو التدخل فى شئونها لا سيما أنها لم تكن تثير لديهم أدنى متاعب أو أية اضطرابات فى هذه المنطقة . أما الوافدين هؤلاء من القبائل العربية فقد عملوا من جانبهم على نشر الاسلام على نطاق واسع ومن هنا أدى تيار الهجرة الى بلاد النوبة الى نشر الاسلام فى هــذه البــلاد .

وفى العصر المملوكى فاننا نلاحظ أن النفوذ الاسلامى المصرى لم يقتصر على النوبة السفلى بل اننا نجد أن النفوذ الاسلامى المملوكى أصــبح قويا فى مملكة علوة حتى أن الملوك كانوا يتقربون للسلطان المملوكى بالهدايا . بعد أن تيقن ملك علوة من حقيقة القوة الاسلامية فى مصر .

ومن هنا نجد المصادر تذكر أن (ادورد) ملك الأبواب وأحيانا تسمى علوة بعث فى عام ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م بوفد الى السلطان قلاوون يعبر عن ولائه للسلطان المملوكى وخضوعه له كما نقل الوفد للسلطان شكوى الملك ادورد من سوء المعاملة من ملك دنقلة . ولقد بادر ملك دنقلة الملك سمامون بارسال وفــد الى السلطان قلاوون لشرح وجهــة نظره وهــذا دليل على تعمق قوة المماليك وسيطرتهم فى بلاد النوبة .

ولقد رأى الســلطان قلاوون حين اجتمع بالسفارتين أن يبعث بمندوبيه للاقليمين للتحقيق فى أسباب الخــلاف وكان السلطان يريد الحصول على معلومات أكثر دقة ، ولم تذكر المصادر التى تطرقت لاخبار

سفارات السلطان قلاوون الى كل من مقرة وعلوة ، النتائج التى توصلت اليها هذه السفارات فيما يختص بذلك النزاع الا أن سلوك سمامون تجاه ملك علوة يدل على أنه هو المعتدى ومن هنا كان قرار السلطان بارسال حملة الى النوبة السفلى (سمامون) لتأدبه بعد أن وضح أنه مصدر الفتن والمتاعب فى هذه البلاد • وأن ارسال هذه الحملة دليل على تصميم السلطان لازالة أسباب الفتنة ، بعد أن انتشر الاسلام على نطاق واسع لا سيما أن مملكة علوة كانت ترحب باقامة المسلمين فى أرضها وتسهيل كل العقبات وتساعدهم على الاستقرار والتنقل فى أنحاء المملكة حتى وصل المد الاسلامى الى دارفور بعد أن عبروا النيـــل الأبيض •

كما أن انتشار القبائل العربية فى السودان الأوســط وسقوط مملكة مقرة وقيام دولة اسلامية فى مقرة عام ١٣٢٣ م قد قطع الاتصال بين الكنيسة المسيحية فى العاصمة سوبا وكل الكنائس المنتشرة فى بلاد علوة وبين كنيسة الاسكندرية فى مصر ، وقد كان من أثر ذلك أن أهملت الطقوس الدينية وهجرت الكنائس وبدأت تنهار مبانيها وخاصة اذ علمنا أن مظمها كان من الطين اللبن •

ولقد تحت الرحالة البرتغالى « فرانسسكو الفارير » ، فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى فيصف لنا حالة الكنيسة المسيحية فى علوة وما آلت اليه أحوال هذه الكنيسة ، يقول التقرير ان أولئك النوبيون يجهلون دينهم كل الجهل فلا هم مسيحيون ولا هم بالمسلمين أو اليهود ، ولكن يقال ان أغلبهم كان على النصرانية ، غير أنهم فقدوا دينهم ولم تبق لهم عقيدة • وعند ما وصلوا الى تلك الحالة من الجهل بتعـــاليم المسيحية وتعاليم دينهم وبعد أن انقطع الاتصـــال بينهم وبين مصر لم يتمكنوا من الحصـــول على قساوسة لهم من الاســـكندرية لكى يعلموهم تعـــاليم الدين المسيحى لا سيما أنه لم يتخـــرج من بينهم قساوسة أو رهبان فانهم بعثوا الى النجاشى بالحبشة منذ عام ١٥٢٢ م لكى يرسل لهم بعض القساوسة لكى يرشدونهم الى دينهم ولكن نجاشى الحبشة لم يتمكن من ارسال ما طلبوه ولم يحقق لهم مطالبهم حين رد على ملكهم قائلا : أن يعتمد على بطريرك فى بلاد المسلمين فى ارسال

« القس الأكبر » فكيف يعطيهم من يتفضل به عليه غيره . وأضاف الفرانسكو فارير « انه منذ وفاة أسقف علوة من زمن بعيد لم يجدوا من يخلفه بسبب الحروب بين القبائل العربية والنوبة الشمالية . وبذلك تركت كنائسهم بدون رعاية ومن هنا فقد أهمل الدين ولم يعد للمسيحية الا أثر ضئيل بعد أن أهملت الصلوات والترانيم » .

وبالرغم من أن مملكة علوة استمرت نحو ألف سنة حاولت خلالها الاحتفاظ بعلاقات طيبة وودية مع مصر الاسلامية لا سيما فى العصر المملوكى الا أنه وجد من العوامل ما أدى الى تفككها وانحلالها وبالتالى زوال الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية فيها مما مهد السبيل لصبغ هذه المملكة بصبغة عربية اسلامية ، بعد أن اندفعت القبائل العربية من مصر والجزيرة العربية عبر السودان الشرقى الى تلك الأقاليم ثم اتجهوا صوب الغرب والجنوب واستقرت القبائل العربية فى مناطق متعددة بين النيل ونهر العطبرة بل وعبروا النيل الأزرق وبنى المهاجرون المسلمون المساجد فى العاصمة سوبا وقوى نفوذ هذه القبائل المهاجرة تدريجيا ، لا سيما أن هذه المملكة كانت قد وصلت الى درجة كبيرة من الضعف بسبب هجمات جيرانها عليها .

كذلك فاننا نجد أن « حنا السورى » الذى زار علوة فى أخريات أيامها هذه يذكر أن بها حوالى مائة وخمسين كنيسة (١٥٠) قديمة تحمل جدرانها صور السيد المسيح وغيرها من الزخارف المسيحية والتى منها السيدة العذراء ، فى حين نجد أن أبو صالح الأرمنى يذكر أنه كان بها حوالى أربعمائة كنيسة فان ذلك النقصان فى العدد الذى يصل الى حوالى مائتين وخمسين كنيسة يدل على اهمال الكنيسة وانتشار الاسلام وربما تكون هذه الكنائس قد تحولت الى مساجد أو تهدمت مما يدل دلالة قوية على انتشار النفوذ الاسلامى على نطاق واسع فى سوبا وغيرها من أقاليم مملكة علوة .

ولقد كان النزاع المستمر بين علوة وجيرانها فى دنقلة والحبشة والزغاوة من الأسباب القوية التى عجلت بانهاء هذه المملكة وانهاء

الوجود المسيحى النهائى بها ، كذلك كان للحروب القبلية التى وقعت فى المناطق المحيطة بها لا سيما من ناحية الشمال أثر كبير فى قطع العلاقات مع مصر ثم تضاعفت الصعوبة فى الصـلات بعد سقوط مملكة مقـرة اذ تعرض سكان علوة الى نوع من الانفصام الدينى والروحى فأصبحوا لا هم من الاسلام أو المسيحية أو اليهودية أو الوثنية •

سقوط مملكة علوة وانتشار الاسلام : لقد عرضنا لسقوط مملكة مقرة وكيف تأسس حكم اسلامى اقليمى لا قبلى حيث اختلط العرب بالنوبة وزالت تقاليد الملك والحكم التى كانت قائمة على أساس قبلى وكان شعب المقرة قد قبل الاسلام دينـا لكنهم أبقوا على الكثير من المظاهر الحضارية ومنها البقاء على لغتهم وتأقلم العرب الذين شاركوهم الديار • وقد كان اعتناق النـوبة للاسلام أن أخرجهم من العبـودية لملوكهم وساوى بينهم وبين اخوانهم العـرب فى المركز الاجتماعى • ولقد كان لتكاثر وجود العرب والقبائل العربية فى مملكة علوة أن أصبح عددهم يتغلب عدديا على السكان الأصليين ، ذلك لأن بعضهم قد عبر النيل الى كردفان كما أن البعض الآخر تابع شـاطىء النيل الغربى فوادى المقـدم أو وادى الملك حتى كردفان ودرافور فلما كثر عـدد المهاجرين قضوا على مملكة علوة • واعتنق شعب علوة الاسلام حيث لم يكن كل الشعب يعتنق المسيحية ومن كان على هذا الدين فقد جهله بعد أن أبطل ارسال الرهبان والقسس من مصر الى علوة بحيث صار الاسلام دين الجميع •

ولقد كانت قبيلة العبدلاب من القبائل العربية الهامة فى سودان وادى النيل والتى ساعدت على سقوط مملكة علوة والذين كانوا من عرب القواسمة الذين ينتمون الى قبيلة رفاعة العربية احدى المجموعات الجهنية • وسقوط مملكة علوة يدل على أن أعداد كبـيرة من العرب وبخاصة من جهينة التى ينسب اليها العبدلاب قد استقرت فى مملكة علوة المسيحية وأدى ذلك الى الانتشار الواسع للعرب والذى تم خلال عدة قرون وأن هذه المجموعات العربية استقرت على هيئة مجموعات متنوعة تحت سلطان ملك علوة فى بادىء الأمر ، ومن ثم كثر عددهم

فى منطقة السودان الأوسط وبخاصة فى مملكة علوة وخاصة من عـدة طرق والتى منها عبورهم من الشمال الى الجنوب من خلال مملكة مقرة الى مملكة علوة وأن انتشار العرب قد تعدى مقره الى علوة وفى ذلك يقول ابن خلدون : لقد تم انتشار اماء العرب من جهينة عن طريق مصر الى بلاد النوبة واستوطنوها وملكوها وملئوها بغيا وفسادا ، وذهب ملوك النوبة الى مدافعتهم فعجزوا ثم ساروا الى مصانعتهم بالمصاهرة فانقرض ملكهم وصـار لبعض أبنـاء جهينة من أمهاتهم ، على عادة الأعاجم فى تمليك الأخت أو ابن الأخت فترة ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم •

وهناك بعض الشواهد التاريخية تدل على استقرار العر ببكثرة فى مملكة علوة والتى منها تأسيسهم مدينـة تجارية هامة فى مدينـة أربجى عام ٨٨٠ هـ / ١٤٧٤ م على الشاطىء الغربى للنيل الأزرق قرب الحدود الجنوبية لملكة علوة وهذا دليل قاطع على انتشار العرب فى كل أنحاء مملكة علوة بدليل وصولهم الى أقصى الجنوب من المملكة فما بالنا بالمناطق الشمالية القريبة من مملكة مقرة والتى كانت أقرب الامارات الشمالية منها « اقليم الأبواب » على علاقات مـع سلاطين مصر •

ومن هنا فان استقرار القبائل العربية على نطاق واسع وخاصة خلال القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميـلادى يعطى الدليل القوى على أن سقوط مملكة علوة قد تم على أيدى القبـائل العربية سواء أكان عرب القواسم والتى منهم العبـدلات أو بمساعدة بعض القبـائل العربية الأخرى التى لا بد أنها شاركت فى انهـاء الوجود المسيحى للأسرة الحاكمة ومحاولة طبع هذه البـلاد بالطابع العربى الاسلامى وسواء شاركت فى ذلك قبائل الفونج أو غيرها •

ومن هنـا فان استيلاء العـرب على مملكة علوة المسيحية تم تدريجيا ، ذلك لأن مملكة علوة كما سبق أن أشرنا كانت تتكون من تسعة أقاليم كبيرة وكل اقليم يخضع لرئاسة محلية من زعماء القبائل •

وبذلك تكون القبـائل العربية قد نجحت فى وقت لم تحـدده المصادر فى تأسيس عدة ممالك ومشيخات اسلامية فى حوض النيـل الأوسط من الشلال الثالث حتى مدينـة اربجى وما بعدها بقليل الى الجنوب •

وهكذا كان القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى بداية النهـاية لملكة علوة المسيحية ، فقد كان لقيـام الممالك والمشيخات الاسلامية آثارها البعيدة فى تقويض دعائم الأسرة الحاكمة المسيحية وزعامتها فى البلاد لا سيما وقد بدأ مركز العاصمة سوبا يقل تدريجيا منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى وانه لم يأتى القرن السادس عشر الا وكانت هذه المدينة العاصمة قد أصبحت خرابا ولا توجد بها الا عدة مساكن من القش والخشب •

ومن هنا أصبح الحكم وراثيا فى بيوت شيخ القبيلة واختفى نظام الوراثة القديم القائم على الأمومة فضلا عن انتشار الاسلام بين أهالى تلك البلاد الذين وجدوا فى الاسلام ما يشبع حاجتهم الروحية بعد أن انقطعت علاقاتهم الدينية بكنيستهم المسيحية الكبرى فى الاسكندرية •

وهكذا كمـا سقطت مملكة مقرة الشمالية على أيدى القـوات المصرية الاسلامية المملوكية التى نصبت أول زعيم وملك مسلم ، هو سيف الله عبد الله برشمنو ثم جاءت ببنى كنز ليتولى الحكم فى دائرة الشريعة الاسلامية ، فان مملكة علوة قد لحقت بسابقتها مملكة مقرة فى الدخول فى العقيدة الاسلامية وانتشار الاسلام وقيام الممالك الاسلامية فى شمال سودان وادى النيل بعد أن تم صبغ المنطقة الواقعة جنوب الحدود المصرية حتى خط ١٣ شمالا بالصبغة الاسلامية •

ومن هنا ضرب الاسـلام والعروبة بجذورهما العميقة فى التربة السودانية بحيث صـار الاسـلام عقيـدة راسخة وقوية فى قلوب السودانيين والذين كانت العقيـدة الاسلامية سلاحهم فى مواجهـة التحديات على مر العصور •

الباب الخامس

السلطنات والامارات الاسلامية

اذا كان تكاثر تيار الهجرة العربية الى بلاد النـوبة والسودان الشمالي وحالة الفوضى التى كانت عليها المنطقة وصراعات الملوك حول السلطة وغزوات سلاطين مصر قد أسقطت الدولة المسيحية فى دنقلة فى القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى وان ذلك قـد فتح الباب على مصراعيه أمام القبـائل العربيـة لتتدفق جنـوبا فانهم أخـذوا يكونون بيئاتهم ومجتمعاتهم القبليـة حياة مستقرة ودائمة وانتشرت أحيـاء العرب فى النوبة واستوطنوها بعـد أن عجز ملوكها عن الدفاع عن سكانها • وهكذا سقطت مقرة فى دنقلة وبقيت دولة علوة فى سوبا تنتظر مصيرها المحتوم والقبائل العربية تتجما وتتوحد بعـد فترة زمنيـة تقرب من القرنين وتقيم تحالفا وتسقط الدولة المسيحية على يد هذا التحالف عام ١٥٠٤م ومن هنـا فان السودان قـد أضحى سياسيا وثقافيا وروحيا دولة اسلامية ساعدت الحضارة الاسلامية على طبعة بهذه الطبعة الروحيـة وأضحى السـودان يشهد قيادة دويلات عربية اسلامية •

الا أنه من الثابت علميا أنه قبل سقوط هاتين المملكتين فان هناك دويلات اسلامية قد ظهرت فى منطقة النوبة السفلى « المريس ودنقلة » وساهمت مساهمة فعالة فى اثراء الحركة الاسلامية والثقافية العربيـة الاسلامية ، ذلك لأن القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى قد شهد ظهور الملامح الاسلامية فى أرض المريس ، من أثر تلك الهجرات العربية التى أقامت على نحو ما من السرعة اماراتها الاسلامية بعد أن بسطت نفوذها على ذلك الاقليم من أرض النوبة الشمالية •

(أ) الامارة العمرية الاسلامية « زعامة شنقير »

القرن الثالث الهجرى (٢٥٥ هـ ــ ٨٦٨ م)

تستمد هذه الامارة الاسلامية اسمها من المجاهد الاسلامى الكبير أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى الذى ينتهى نسبه الى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب وكان اطلاق اسم العمرى نسبة الى عمر بن الخطاب • ولقد ولد بالمدينة المنورة ولا نعرف على وجه التحديد تاريخ مولده ، الا أنه قدم الى مدينة الفسطاط العاصمة المصرية عام ٢٤١ هـ / ٨٥٥ ــ ٨٥٦ م ولم يكن سنه فى ذلك الوقت قد تجاوز الثلاثين عاما ،وانه كان نابغا فى علم الحديث ومن هنا قام بتدريس الحديث فى مسجد عمرو بن العاص الذى كان يعتبر الجامعة الاسلامية فى مصر فى ذلك الوقت • وقد تحلق حوله الطلبة والعلماء يناقشونه المسائل الدينية الهامة التى كانوا يجدون ردا عليها عند العمرى •

ولكن العمرى رأى أن ينقل جهاده الاسلامى الى مدينة القيروان العاصمة الاسلامية فى المغرب الأوسط حيث رحل اليها ليواصل جهاده عن طريق العلم والتدريس ، لكنه عاد بعد فترة أدراجه الى مصر ليواصل جهاده بالفكر والعلم والقلم •

ولكن حدثت ظروف عسكرية فى مصر • ذلك أن البجاه سكان الصحراء الشرقية المجاورة للبحر الأحمر والقريبة من مصادر المعدن فى تلك المنطقة قد قاموا بهجوم مفاجىء على أهالى الصعيد حتى مدينة قوص وهم يؤدون صلاة العيد حيث كانت تلك الغارة المفاجئة بقيادة رجل بجاوى أعور وأنزلوا بالمسلمين والمصلين مقتلا عظيما تسبب فى خسائر فادحة حيث نهبوا كل ما استطاعوا نهبه من الأملاك والمتاع ثم عادوا أدراجهم الى بلادهم من حيث قدموا •

ومن هنا فقد أثارت هذه الفعلة الشنيعة بالمسلمين وهم يؤدون صلاة العيد ، العمرى على أن يترك الدرس والتدريس ويتحول الى

مجاهد وداعية اسلامى يستخدم السلاح للصد عن ديار الاسلام وحماية المسلمين • فكان أن قرر أن يقوم بغزو بلاد البجة والانتقام للمسلمين الذين قتلوا أو أسروا فى تلك الغارة المفاجئة •

وهناك أقوال تذكر أن الشيخ العمرى قام بتلك الغزوة الاسلامية المصرية الى حدود النوبة الشمالية بدافع من غيرته الاسلامية وحرصه على الدفاع عن ديار الاسلام •

وفى ذلك يقول المؤرخ أبو محمد عبد الله بن محمد البلوى : خرج العمرى غضبا لله عز وجل وللمسلمين من أثر هذه الفعلة الشنيعة فكمن للغزاة فى طريقهم حتى أقبلوا كعادتهم ومن ثم استطاع أن يقتل رئيسهم الأعور ومن معه من قوات غازية ، وكما يبدو ذلك من رواية العمرى عن نفسه للرسول الذى أرسله اليه أحمد بن طولون • حيث يقول : انى لم أخرج أبغى فسادا فى الأرض ، وانى لم أؤذ مسلماً ولا معاهدا وانما خرجت فى طلب أعداء المسلمين حتى كفانا الله شرهم•

وهناك روايات أخرى تذكر أن تلك الحملة قام بارسالها أحمد ابن طولون فى عهد أسرة حكم الطولونيين فى مصر (٢٥٤-٢٩٢ ﻫ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م) فنجد المقريزى يذكر أن أحمد بن طولون أرسل حملة حربية على النوبة والبجه بقيادة عبد الله بن عبد الحميد العمرى ، وسارت هذه الحملة فى عام ٢٥٤ﻫ/٨٦٨ م وقامت الحملة بنشاط كبير فى بلاد النوبة ، ولقد كانت الاحوال السياسية فى بلاد النوبة مشجعة الى حد كبير لهذه الغزوة العربية ، ذلك لان بعض المناطق فى بلاد النوبة لم تكن تتأثر بالنفوذ السياسى المباشر لهذه الممالك المسيحية ، ومن هذه المناطق ذلك الجزء الواقع جنوب الشلال الرابع ، والتى كون فيها الشيخ العمرى امارته العربية الاسلامية والتى غذاها بجيش عربى اسلامى فى القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى •

ويطلق على ذلك الاقليم الذى يقع جنوب الشلال الرابع اسم شنيقر وهو يطلق على المنطقة الواقعة بين جنوب شرق بلدة أبو حمـد وبين شمال محطة السكك الحديدية الحالية رقم ستة . أما الحـدود الشرقية والغربية فغير معروفة فى صورة واضحة ويعتقـد أن بلدة أبو حمد الواقعة على نهر النيل عند انحنائه نحو الغرب هى تقريبا فى حوالى منتصف اقليم شنيقر .

ويرجع اسم شنيقر الى الاصل النوبى شنقر ومعناه المعدن أو العملة واللفظ شنقر ينطق بضم الشين وسكون النون وضم القاف ولفظ شنيقر تصغير للفظ النوبى المشار اليه ، وهى تعنى الذهب .

وقـد كان ذلك الاقليم محط أنظار القدماء حيث عملوا فيه على استخراج الذهب والمعادن الاخرى كالزمرد ، وكانوا يرسلون الأسرى من الشمال الى هـذا الاقليم للعمل فى المناجم ، وما زالت الى اليوم آثار هؤلاء موجودة . وكانت تعرف المنطقة الصحراوية بين وادى حلفا وأبو حمـد باسم « عاتم تر » ومنها صار الاسم الحالى عطمور .

ويبدو أن انخفاض مستوى المياه الجوفية فى هـذا الاقليم كان السبب الاول فى ترك العمل للصعوبات التى نجمت عن عدم وجـود المياه الكافية للعمل على استغلال المناجم وكانت العمليات فى استغلال المناجم محدودة بسبب المياه القليلة ، وعلى الرغم من هذه الصعوبات فقـد اتجه انتباه العرب بعـد الاسلام الى العمل فى المناجم فى هذا الاقليم ، وكانت المياه العامل الاول لخلق المشكلات بين العاملين فى استغلال المناجم وبين النوبيين الموجودين على نهر النيل ، وبخاصة فى اقليم المقرة أو دنقلة . ونجـد هذه المشكلات الخاصة بالمياه من الاسباب التى أدت الى الاشتباك بين العر بوالنوبة ، حيث كان يتقاتل معهم المسلمين قتالا شديدا لرفض النوبيين السماح لهم بالمرور واتخاذ مورد على النيل لأخـذ المـاء اللازم لعمالهم فى المناجم .

ويتضحلنا ذلك من النص الذى كتبه المقريزى فى كتابه المقفى عن منطقة المعدن التى اختارها المجاهد الاسلامى العربى أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى، منتصف التاسع الميلادى •

حيث يقول المقريزى جاء العمرى الى مصر عام ٢٤٢هـ / ٨٥٥ــ ٨٥٦ م وكانت فيه على حد قوله أدوات من فقه وأدب وشعر ومعرفة بالنجوم والفلسفة ، وبلغه خبر المعــدن فذهب اليه لاستخراج التبر، وسار الى أسوان على سبيل التجارة ونزل بها وجالس شيوخهــا وجادلهم فى العلم ، ثم دخل أرض المعــدن ، ويبدو أن ذلك كان قبل قيامه بتلك الحملة عام ٢٥٥ هـ بوقت طويل ، وربما تكون قبل ذلك بخمس أو ست سنوات ، وقد يكون سابق سفره ومعرفته بتلك المنطقة من الدوافع القوية لقيامه بحملته على النوبة والبجة لقتل من هجموا على المصــلين المسلمين فى قوص يوم العيد ، أو قــد يكون رغبــة من أحمــد بن طولون أن يرسله على رأس تلك الحملة لمعرفته بأحوال تلك البلاد ومسالكها ودروبها وأحوال أهلها •

ولقــد كان لحملة العمرى عــدة أغراض متعددة ، فلم يكن المقصود بها قبائل البجاه فى الصحراء الشرقية فقط بل انها شملت أيضا المناطق النيلية ، وان كانت بعض المصادر ترجع تلك الحملة الى محاولة اكتشاف المعادن ، وفى ذلك تحاول ابعاد الحملة عن هدفها الرئيسى وهو الدعوة للاسلام ونشره بين البجاه والنوبيين وكذلك تأديب المعتدين على الأراضى المصرية ، كما أن نشر الاسلام كان هو الهدف الأساسى ، اذ كيف يتصور داعيــة اسلامى نــذر نفسه للتدريس فى الفسطاط والقيروان يترك العلم ويجاذف فى البحث عن المعادن فى صحراء جرداء على حين لم تذكر لنا المصادر أنه غادر الفسطاط الى القيراون بحثا عن المــال والا ما كان له أن يسافر غربا للتدريس فى مسجد القيراون •

كما أنه يمكن القول أن حركته الى الجنوب لتأسيس ولاية عربية اسلامية كانت لفتح باب الهجرة الى الجنوب أمام القبائل العربيــة

وكذلك تأديب العناصر الغاربة ردا على غاراتهم المتكررة على الديار المصرية ومضايقتهم المستمرة للعرب النازحين الى تلك المناطق للاستقرار والدعوة للاسلام والبحث عن المعادن .

وبعد أن قضى العمرى على البجة اتجه غربا الى النيل فى اقليم المريس حيث طرد صــاحب المريس ودمر مدنه وأسر الكثيرين من النوبيين ثم تقدم جنوبا وراء وادى العلاقى حتى وصل الى اقليم شنقير عند انعطاف النيل غربا قرب مملكة الأبواب حيث اكتشف مواقع جديدة لمعدن الذهب .

وكان قد اشترك معه فى تلك الحملة لتأسيس الولاية العربية أعداد كثيرة من العرب معظمهم من ربيعة وجهينة ويبدو أن هدف هذه الحملة كان الكشف عن مهاجر جديدة تتسع لهؤلاء العرب حتى يتمكن من تأسيس امارته ، وكان قد خرج معه عدد من القبائل الوافدة من الشام ومن بينها قبيلة (سعد العشيرة) و (قيس) وعيلان بعد أن حصلوا من النوبيين بعد هزيمتهم على حق الاقامة الدائمــة فى منطقة المريس ، بل ان العمرى نفسه كان يهدف الى اقامة امارة مستقلة تحت زعامته .

وكان العمرى قد نزل على جماعة من مضر وحدث خلال ذلك نزاع بين بنى مضر وبنى ربيعة بسبب مقتل رجــل من مضر فاجتمع الفريقان دون أن يدعى العمرى الى ذلك الاجتماع فغضب وترك موطنهم الذى فيما يبدو كان فى جبال البحر الأحمر فلحق به جماعة من القوم فامتنع عن الرجوع معهم ولم يقبل العودة الا بعد أن أعطوه عهــدا بألا يفعلوا عملا الا بأمره وأخذ العمرى على العرب من مضر وربيعة عقد بيعة فدخل بهؤلاء أرض المعدن وكانت أرض المعدن التى عمل فيها العمرى هى جنوب المنطقة المعروفة باسم (أم نبارى) الواقعة شمال شرق محطة السكة الحديدية رقم ستة الواقعة غربى طريق القوافل بين كرسكو وأبو حمد .

ونظر العمرى ذات يوم الى طير فقال هـذا من طيور الشطوط وأحسب أن النيل قريب منا ، وكانت مأخذ المياه منهم بعيدة فأرسل من رجاله بعضا الى ذلك المكان الذى جاء منه طير الشطوط ، وعاد اليه من يومه يقرب من المـاء وطلب من النوبة السماح له بمورد على النيـل فرفضوا وقبضوا على جماعته من العرب وقتلوا وأسروا من أصحابه ، فشق عليـه ذلك فجمع رجاله وحلفوا له فأمر باحضار آله المعادن فخربها وسار الى النوبة ونزل على موقع على الشاطىء الأيمن للنيل فى منطقة شنقير وقتل من النوبة مقتلة عظيمة وكثر السبى •

لكن ملك النوبة جورج الأول لم يسكت على ما صنعه العمرى وقومه من العرب من انتصار على النوبيين ، الذى اقتحم أرضه وقتل من قومه مقتلا عظيما وسبى العدد الأكثر فتصدى له لكن العمرى هزمه شر هزيمة ، وبذلك تمكن العمرى من هذه الأرض وتمكن من اقامة قواعد على النيل للحصول على المياه ، وقد اتسعت أعمال العمرى حتى شملت معظم أراضى النوبة السفلى من شنقير جنوبا حتى أسوان شمالا ومن نهر النيل غربا حتى البحر الأحمر شرقا •

ولعل فى توسيع دائرة نفوذه ما يوضح رغبة العمرى فى اقامة امارة عربية اســلامية تحت زعامته فى بلاد النوبة بعيـدا عن نفوذ أحمد بن طولون والطولونيين فى مصر •

ويشير المقريزى الى تلك الأحداث التى دارت بين جورج الأول ملك النوبة وبين العمرى والقوات العربية من أجل بسط النفوذ العربى الاسلامى فى تلك المناطق •

ولكن ازدياد نفوذ العمرى وتوطيد دعائم حكمه وزعامته قد جعل أحمد بن طولون يتوجس به خيفة من الانفصال والاستقلال عن مصر فبادر بارسال حملة الى العمرى بعد أن سمع عن عظمة سلطانه ونفوذه وقاد هذه الحملة القائد (شعبه بن حركان البابكى) ولكن حـديث

مصـــادمات بين العمرى والقبائل العربيـــة فى أرض المعـــدن ولكن شعبة بن حركان البابكى وقواته قد هزمت مما اضطره الى العودة الى مصر وقد قام أحمد بن طولون بتأنيبه حيث قام العمرى بالكتابة الى الأمير أحمد بن طولون ليعلمه بأن ما يهدف اليه من بسط النفوذ العربى على تلك المنطقة لا يضر بمصلحة مصر وأنه يعمل من أجل الاســـلام والمسلمين • ومن ثم فان ابن طولون قد نال احترام وثقة العمرى بعد أن أرسل له هذه الرسالة •

وقد قتل العمرى على يد غلامان من أتباعه لكن عند وصولهما الى مصر قام ابن طولون بضرب عنقيهما وصلب جثتهما ، ثم أمر بنقل رأس العمرى الى مكان قد حملاه اليه ووضعها فى كفن ودفنها •

ومن ثم كانت حملة العمرى وقيامه بتأسيس امارة عربية اسلامية فى منطقة شنقير بالقرب من الشلال الرابع قد فتحت أبواب الهجرة العربية الى بلاد النوبة على مصراعيها لكى تتخذ لها سبيلا ومخرجا كلما ضاقت بها أرض مصر لكى تتجه الى الجنوب •

ومن هنا فان تلك الامارة العربية الاسلامية العمرية التى لم يكتب لها الدوام طويلا ، لم يمضى على فصم عرى وحدتها بين القبائل العربية بضع سنوات قليلة حتى وفدت جماعات عربية معظمها من قبيلتى ربيعة وجهينة الى أرض المعدن لتنضم الى ما سبقها من القبائل العربية لكى تضع نواة أول امارة عربية تطول فترة حكمها فى تلك المنطقة وذلك تحت زعامة ربيعة التى أنشأها (بشر بن مروان) والتى عرفت بامارة بنى كنز وهى ما فشل فيها العمرى من قبل بسبب معاداة القبائل العربية أو بعضها على الأقل له •

وان كان العمرى قد بسط نفوذه على قبائل جهينه وربيعة وسعد العشيرة وعظم نفوذه واتسعت سلطته حتى ذكر أن ستين ألف جمل كانت تعمل فى حمل المؤن من أسوان للحلفائه من القبائل عدا العير التى

كانت تأتى من ميناء عيذاب ولقد كان من حسن حظ الطولونيين فى مصر أن الحلف العربى الاسلامى الذى أنشأه العمرى فى أرض شنقير لم يدم طويلا نتيجة اختلاف قد دب بين الحلفاء بسبب اتهام قبيلة سعد العشيرة بمالاه قيس عيلان • وقد أثرت مضر الحياد فى ذلك النزاع الذى شب بينه وبين قبيلة سعد العشيرة ولكن حلفاءه من ربيعة رفضت الوقوف معه بينما عداه بنو هلال وبنى تميم ولكن العمرى تمكن من الانتصار عليهم بمساعدة جماعة من أنصاره •

ولا نجافى الحقيقة فى القول أن العمرى قد قارب النجاح فى اقامة أول امارة عربية اسلامية فى شمال السودان وضرب بنجاحه هذا المثل لكل القبائل العربية لكى تتحرك جنوبا ولتحذو حذو العمرى فى الهجرة ومن هنا ازداد نفوذ السيطرة العربية فى أرض المعدن لكن اغتيال العمرى قد وضع حدا لقيام الامارة العربية لا سيما أن ابراهيم المخروقى أخو العمرى من أمه قد قتله جماعة من البجاة مما لم يجعل هناك من شخصية قوية تحاول أن تحل معه فى قيادة وزعامة تلك القبائل العربية التى استقرت وطاب لها المقام فى ذلك الاقليم من شمال السودان •

ولقد كانت هناك بعض الأحـداث التى دارت على أرض النوبة الشمالية قد أقنعت العمرى بأن الوقت مناسب لامتداد النفوذ العربى فى المنطقة الوسطى أو الجنوبية من بلاد المقرة ولقد كان الدافع الذى حرك العمرى لكى يهاجم النوبيين والوصول الى تلك المناطق من مملكة المقرة هو محاولة خلق امارة عربيــة فى تلك الجهـات وأن العمرى وطموحاته كانت تؤهله للتفكير فى مثل هذه الامارة وأن الواقع يثبت أن نجاح العمرى الوقى فى تحقيق قيام الامارة العربية قد ساعدته عليه عدة عوامل تاريخية واقتصادية وسياسية فى مملكة المقرة مما جعلت تحقيق هذه الأهداف ممكنا •

وخلاصة القول أن أهداف العمرى لم تكن مجرد محاولات لوقف اعتداءات البجة والنوبة أو لاكتشاف مناجم جديدة ولكن جوهر الاهداف

هو الدعوة للاسلام واقامة دولة عربية وفتح الباب أمام الهجرة للقبائل العربية •

لكى تطبع المناطق الشمالية من السودان بالطابع العربى الاسلامى وأن نجاح العمرى كان الحافز الأمثل للهجرات العربيــة الكثيرة لكى تنطلق الى الجنوب فى شكل جماعات كبيرة مهاجرة للبحث عن أوطان جديدة فى أرض النوبة بعد أن أخذ تيار الهجرة المتجهة صوب الجنوب يزداد عمقا وبعدا جديدا خاصة وأن الأحوال فى مصر لم تكن تشجع العرب على الاستمرار والاستقرار فى تلك الأقاليم فلم يكن أمامهم سوى الاتجاه صوب الجنوب ومن ثم عملوا على زيادة تيار الهجرة العربية الى هذه البلاد • ومن هنا فانه يبين لنا أن الهجرات العربية هى صاحبة الفصل الأول فى انتشار الاسلام والعروبة فى بلاد النوبة •

ولقد كان انتشار الاسلام والعروبة ظاهرة بطيئة فى تلك البيئة النوبية واستغرقت وقتا طويلا منذ حمـلات عمرو بن العـاص بقيادة عقبة بن نافع الفهرى ثم عبد الله بن سعد أبى سرح ومن بعـده تلك الحملة التى قادها العمـرى والتى أعقبت حملة القمى وبعـد أن استطاعت تلك الحملة العربية بقيادة العمرى أن تؤثر فى اثراء الحركة العربية الانتشارية وما ترتب عليها بعد ذلك من هجرات عربية لم تكن فتحا عسكريا بعد أن غلب عليها طابع الهجرات العربية السلمية اللهم فيما خلا تلك الحملات التى كانت تقوم بارسالها الدول المتعاقبة التى كانت تحكم مصر كالدولة الأموية والفاطمية والملوكية التى كان لهـا الفضل كل الفضل فى انتشار الاسلام على نطاق واسع فى مملكة مقرة •

ومن هنا كانت رحلة العمرى واستقراره فى منطقة شنقير وقيام ما يعرف بالامارة العربية الاسلامية هى الفاتحة لكى تحـذو حذوة القبائل العربية وتتحرك فى اتجاه نشر الاسلام •

٢ ـ امارة بنى كنز العربية ٣٣٢ ـ ٥٧٠ هـ

لقد اشتد تيار الهجرة العربية نحو الجنوب فى العصر الفاطمى ، حيث شهد عهد الخليفة المستنصر على وجه الخصوص عداء متبادل بين حكومة مصر وبين العرب البدو النازحين الى الصعيد ، فاندفعت بعض البطون الى بلاد النوبة يدفعها الحماس الدينى لنشر الاسلام بين سكان بلاد النوبة ويدفعها الطموح والنجاح الذى حققه المهاجرون الأولون وتحفزها أنبـاء النجاح والاستقرار الذى أحرزه اخوانهم من أبناء القبائل العربية الذين سبقوهم للهجرة الى تلك الديار وانطلاقهم فى حرية بعيدا عن تضييق النطاق الذى فرضته عليهم سلطات الحكومة فى مصر واستبدادها بهم .

ومن ثم ازداد ضغط القبائل العربية على منطقة المريس من بلاد النوبة الشمالية ووضح نفوذهم حتى أنه ليمكن القول أن القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى قد أصبحت فيه المنطقة الممتدة من أسوان حتى الشلال الثالث يتصرف فيها المسلمون لا كتصرف المهاجرين الغرباء اللاجئين من مصر انما يتصرف هؤلاء العربان من القبائل تصرف الملاك وأصحاب البلاد والأراضى الواسعة .

ومن هنا فان اضطراب الظروف السياسية وسوء العلاقات بين مصر والنوبة وتعدد الحملات التأديبية ضد النوبة لم تحل دون تكرار هذه الهجرات العربية الواسـعة ، ومن هنـا فان المسلمين أصبحوا متمتعين بكامل استقلالهم فى هذه المنطقة وقد اندمجوا فى حياة الناس وتعلموا لغتهم وفهموا كل أمور حياتهم ومن ثم نشروا لسانهم العربى وقرآنهم الكريم وعقيدتهم الاسلامية الغراء .

ومن هنا فقد شهد العصر الفاطمى فى مصر قيام امارة عربية نوبية اتخذت من أسوان عاصمة لهـا وامتد نفوذها جنـوبا حتى أرض المريس .

هذه الامارة أسسها عرب ربيعة بزعامة أبى مروان بشر بن اسحاق، والذين أطلق عليهم الكنوز وهم من ربيعة بن نزار بن سعد بن عدنان ، وكان ينزلون اليمامة وقدموا مصر فى خلافة المتوكل على الله عام ٢٤٤هـ فى أعداد كثيرة وانتشروا فى النواحى ونزلت طائفة منهم بأعالى صعيد مصر وسكنوا بيوت الشعر فى براريها الجنوبية وأوديتها وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية فى كل وقت حتى خربوها •

فقامت ربيعة فى منعهم من ذلك حتى كفوهم ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب بالعلاقى فكثرت أموالهم واتسعوا فى أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة واقتطعوا قرية تعرف (بالنحامس) وحفروا بها الآبار وترأس عليهم اسحق بن بشر مدة ثم خالف على بعض أهله وكانت عيذاب التى يونس من ربيعة وملوكها عند قدومهم من اليمامة فجرى بينهم وبين بنى بشر حروب انهزموا فيها ومضوا من عيذاب الى الحجاز ثم وقعت حروب بين بنى بشر قتل فيها اسحاق بن بشر هذا • فأحضروا اليهم من بلبيس بمصر الشيخ أبا عبد الله محمد بن على بن محمد بن يوسف المعروف بأبى يزيد ابن اسحاق بن ابراهيم بن مسروق وهو ابن عم اسحاق بن بشر المقتول• والى مسروقة هذا ينسب كنز الدولة حامى أسوان وأنشأ مكانه المعروف بساقية سفيان ولم يزل رئيسا على ربيعة حتى مات فقام برياستهم بعده ولدة أبو المكارم هبة الله بن الشيخ عبد الله على ويعرف بالأهوج المطاع •

وهو الذى ظفر بأبى ركوة وسبق الاشارة اليه • والخارج على الحاكم بأمر الله وقبض عليه فأكرمه الحاكم اكراما عظيما ولقبه كنز الدولة وهو أول من لقب من بنى ربيعة أو بنى مسروق بهذا اللقب منهم ولاتزال الامارة فيهم ولكنهم يعرفون بكنز الدولة حتى كان آخرهم كنز الدولة فقتله الملك العادل أبو بكر بن أيوب شقيق صلاح الدين الأيوبى فى سابع صفر عام ٥٧٠هـ سبعين وخمسمائة عندما خالف على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وجمع لحربه وقتل أخاه أبا الهيجاء

السمين وكان قتله بمدينة طود بعد حروب كثيرة هذا ما ذكره المقريزى فى كتابه « البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب » عن بنى كنز من ربيعة والراجح أن هذه العشيرة كونت طبقة حاكمة خضع لها النوبيين من أهل المريس الذين زال عنهم السلطان الفعلى لملك النوبة المسيحى لا سيما بعد أن تحول معظمهم الى الاسلام وبعد أن تزوجوا من بنات رؤساء النوبة وقد اعترفت الدولة الفاطمية بهذه الامارة العربية النوبية بعد أن قبضوا على أبى ركوة الخارج على الدولة الفاطمية وهو يلوز بالفرار من مصر ناحية الجنوب ونجح أبو المكارم فى القبض على أبى ركوة فكوفىء بلقب كنز الدولة .

وكانت هـذه الدولة التى أنشأها عرب ربيعة أو الكنوز دويلة اسلامية امتد نفوذها من أســوان وجنوبا الى بلاد النوبة ومنطقــة المريس . وشرقا الصــحراء والبحر الأحمر ، وكان النزاع السابق الاشارة اليه بين بطون ربيعة فى العلاقى وعيذاب قد أدى الى قتل مؤسس هذه الامارة ومن ثم ازداد ارتباط العر ببالنوبيين وبذلك تكونت طبقة حاكمة فى النوبة السفلى أزالت النفوذ المسيحى .

ولقد كان انتقال الزعامة اليهم عن طريق نظام الوراثة وعن طريق الأم ، ومن هنا استطاعت ربيعة أن تضع نواة أول امارة عربية اسلامية فى تلك البلاد . وفى ذلك يقول اليعقوبى أن زعيمهم كان يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة . وكان قتل الزعيم اسحاق بن بشر سببا فى نشوب القتال بين بنى بشر أنفسهم مما جعلهم أن يحتكموا لحضور ابن مسروق من بلبيس بمصر لكى يتولى الزعامة خلفا لابن عمه ومن ثم انتقل مركزهم الى أسوان حيث كان يقيم فرعهم الثالث وأصبح هذا الأمير يعرف منذ ذلك الوقت باسم أمير أسوان .

وقد كانت هذه الامارة العربية الاسلامية التى شــملت جزء من أعالى مصر وبلاد النوبة والبجة تنعم وتزدهر الى أن كانت الدولة

الفاطمية فى مصر • ومن هنـا دخلت فى طورها الذهبى • ذلك لأن الفاطميين لما فتحوا مصر وجدوا هـذه الامارة العربية الاسلامية المزدهرة قائمة على الحدود المصرية النوبية ، فلم يتعرضوا لها بل تركوها وشأنها واعترفوا بها فبسطت سلطانها على بعض أقاليم الصعيد الأعلى وربما بلغت حدودها جنوب مدينة قوص التى كانت عاصمة اقليم الصعيد الجنوبى منذ بداية العصر الفاطمى وظلت حتى القرن التاسع عشر الميلادى حيث كانت سوقا تجـاريا هامة يرد اليها التجار من جميع الأجناس فضلا عن ورود الحجاج فى موسم الحج • اضافة الى الجزء الشمالى من اقليم المريس كان يخضع لنفوذ بنى كنز الذين لازالت ذرية منهم منتشرة الى اليوم فى مختلف أنحاء صعيد مصر وبلاد النوبة خاصة اقليم المريس حيث لا تزال لهم تقاليدهم العربية •

العلاقات مع الخلافة الفاطمية :

لقد كان اعتراف الخلافة الفاطمية بدويلة بنى كنز قبل القبض على أبى ركوة تعود الى أن تلك الدويلة الاسلامية كانت امتداد للانتشار الاسلامى جنوبا ذلك لأن هذه الامارة العربية الاسلامية الواقعة على جزء كبير من مملكة النوبة المسيحية وعلى حدود مصر الجنوبية تكون بمثابة خط فاصل بين مصر الاسلامية وبين مملكة النوبة المسيحية بل أنها بمثابة خط دفاعهم الأول فانها تقيهم شر هجمات وغارات النوبيين والبجة التى لم يكن الفاطميون فى غفلة عنها منذ أن وطأت أقدامهم أرض مصر وكذلك لانصراف الخلافة الفاطمية بنشر نفوذها فى الشرق الاسلامى والعمل على محاربة الخلافة العباسية •

اضافة الى أن هذه الامارة العربية الاسلامية حدت من غارات البجة على مصر منذ قيامها ، بدليل أننا لم نسمع عن غارة نوبية أو غارة بجاوية قام بها هؤلاء القوم طوال العصر الفاطمى ، كما أننا لم نسمع عن غارات أو هجمات يقودها ملوك النوبة أو رعاياهم وهى الغارات التى كانوا قد اعتادوا أن يقوموا بها كلما شعروا بضعف مصر الا فى نهاية

العصر الفاطمى بعد أن تمزقت الدولة الفاطمية وأصبح شأن الخلفاء فيها ضعيفا .

وقد أطلق على هذه الامارة ، امارة أرض المعدن ، أو امارة منطقة العلاقى . حيث تحتل هذه الامارة المنطقة التى عرفت بأرض المعدن الرقعة الأرضية الواسعة التى تحدها أسوان شمالا وشرقا البحر الأحمر وغربا مجرى النيل فى جنوب وادى حلفا الى أسوان أما الحد الجنوبى فغير مدون تماما بسبب أنه لم تكن له حدود ثابتة بسبب تزاحم الجماعات العربية على استغلال المعدن وهنا كاحتمال أن الخط الجنوبى الذى يحد اقليم المعدن فى منطقة العلاقى يبدأ من منطقة وادى حلفا ويتجه جنوبا شرقيا الى مرسى عروس الواقعة على خط عرض ٢٠ شمالا أو الى جنوب ذلك الخط ، وشملت هذه المنطقة عدة موانى على البحر الأحمر فى مقدمتها عيذاب وصنجة وقد جاء عن طريق هذه الموانى وغيرها عدد كبير من المجموعات العربية التى عبرت البحر الأحمر من الجزيرة العربية الى ساحل البحر الأحمر الغربى فى فى طريقها الى مواطن جديدة .

وتؤكد الحقائق التاريخيـــة التى يحاول بعض الكتاب المعاصرين المعادين للعروبة والاسلام انكارها والتقليل منها أن هناك مجموعات من العرب قد جاءت الى منطقة أرض المعدن فى فترات تاريخية سابقة للدعوة الاسلامية وقد كان أشد هذه الهجرة العربية تلك الهجرات التى تدفقت فى القرن السادس الميلادى وقبل ظهور أنوار الدعوة الاسلامية وقــد ضمت هذه المجموعات بطونا من حمير من جنوب غرب الجزيرة العربية وسكن هؤلاء فى أول الأمر منطقة غتبارى ويحتمل أن يكون موطنهم قد امتد بعد ذلك الى سنكات واركوبت ويعتقد أن قبائل البجة التى سكنت فيها جماعات من بنى حمير قد كانت فى حالة من الفوضى بسبب أنهم قد أصيبوا بهزيمة منكرة أنزلها بهم الملك النوبى (سيلكو) الذى كان أول ملك فى النوبة يعتنق المسيحية والذى طردهم من حوض وادى النيل جنوبى الشلال الأول ، ودخل هؤلاء البجاة الى الصحراء وعادوا الى حياة المرعى والبداوة وتحطمت قوتهم الحربية وتحولوا الى الحروب الداخلية بين القبائل .

وقد كان دخول بنى حمير فى هذه الفترة من القلاقل الداخلية فلم يتعرض لهم البجاة بسوء ، بل استطاع هؤلاء العرب الوافدون البقاء فى عيش وسلام مع البجاة واستطاع هؤلاء الوافدون مصاهرة البجاة ومن هنا لا يصح رأى من ينادى بأن العروبة طارئة على السودان •

وعن هذا الطريق وصل أبناؤهم الى ولاية الحكم قبل قدوم القبائل العربية من الشمال بعد فتح مصر عام ٢١هـ/٦٤١م حيث كانت زعامة الحكم كما هو معروف تنتقل الى ابن البنت أو ابن الأخت وتكونت مع الزمن طبقة أرستقراطية جديدة أباؤهم من العرب وأمهاتهم من البجاة•

وكما سبق أن ذكرنا كانت ربيعة من أكثر المجموعات العربية التى جاءت الى مصر وهاجرت جنوبا الى النوبة فى القرن الثالث الهجرى الثامن الميلادى • وانتقلت جماعاتها بين مختلف النواحى حيث استقروا وتكونت منهم مجموعات محلية سكنت فى منطقتى النوبة وأسوان • وكان من الطبيعى لانتشار الدعوة للاسلام بالاضافة الى أنه من الطبيعى أن تستهويهم الرغبة فى الحصول على المعدن قد خلت منهم جماعات مع مجموعات القبائل العربية القحطانية والجهنية وغيرها الى أرض البجاة•

وأنه منذ ظهور الزعامة العربية لبنى ربيعة أيام أبو مروان بشر ابن اسحاق قد اشتد ساعدها بمصاهرة البجاة بعد أن استطاعت طرد بنى يونس أبناء أعمامهم الذين هم فرع من ربيعة أيضا من ميناء عيذاب ومن ثم اضطر بنى يونس الى العودة الى الحجاز عبر الطريق الذى جاءوا منه •

وأن قوتهم كما أشار ابن حوقل قد ازدادت بعد ذلك الانتصار وبعد المصاهرة مع البجاة ومن ثم فقد صارت لهم اليد الطولى فى تلك المنطقة وعلى كل القبائل العربية والنوبية والبجاوية •

وقال ابن حوقل أن العربى بنواحى أسوان كان يلقب كنز الدولة أما أصل لفظ كنز الدولة فلا يرجع الى أصل عربى بل يرجع الى أصل مصرى قديم فى اللغة المصرية القديمة « الهيروغليفية » حيث أننا نجد أن

هذا اللفظ فى صورته الحقيقية هو « تاكنز » وكان يطلق على جزيرة جنوب الشلال الأول ومعنى هذا اللفظ أرض رماه الحدق ، أو بمعنى أدق حملة الأقواس • وهناك آراء تذكر أن لقب كنز الدولة له دلالة على ما تكلفته الدولة الفاطمية من نفقات كثيرة فى هذه الفتنة التى حدثت من أجل القضاء على أبى ركوة ، فيقال أن الأكياس الى خرجت مع القائد (فضل) للقاء أبى ركوة زنتها خمسة وعشرين قنطارا ، وأن جملة ما أنفق فى القضاء على هذه الفتنة ألف ألف دينارا ، فلما وضع حد لهذه الفتنة بالقبض على أبى ركوة وفر عليهم مبالغ طائلة • اعتبروا أبا المكارم هبة الله أنه هو الذى وفر عليهم هذه المبالغ فضلا عما كانت تحويه امارة كنز الدولة من معادن كثيرة وثمينة مثل الذهب والزمرد امتلأت منها خزائن الفاطميين فكان لقب كنز الدولة اسم على مسمى •

وقد بقيت عشيرة كنز الدولة فى منطقة أرض المعدن الشمالية وكان مركز زعامتها مدينة أسوان وكثرت بطونها وانتشرت فى أرض البجاة واستمرت على هذا الحال وتطورت حياة أفرادها فى مختلف المناطق التى سكنوها الى أن تولى صلاح الدين الوزارة فى مصر فى أواخر العهد الفاطمى ، حيث حدثت حركة تمرد قام بها الجنود السود الذين كانوا فى جيش الخليفة الفاطمى فجرد عليهم صلاح الدين حملة تحت امرة (شجاع الدين البعلبكى) فى عا م١١٧٢م ولجأ الجنود من المتمردين الى صـــعيد مصر واشترك كنز الدولة ورجاله مع شـــجاع الدين فى قتالهم •

ولقد كان منح اللقب كنز الدولة الذى صار ولايزال علما على سلالة ربيعة باقليم المريس فعرف ربيعـــة ببنى كنز وعرفت امارتهم بامارة بنى كنز وأصبح صاحب اللقب منذ ذلك الوقت يعرف بصاحب أسوان •

ويقول ابن سليم الأسوانى لقد غلب أولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها وبنو بدنقلة جامع يأوى اليه الغرباء ومن ذلك يفهم أن لقب كنز الدولة سابق على عصر الحاكم بأمر الله الذى منح لأبا المكارم هبة

الله وربما تكون هذه الفقرة السابقة اضافة من المقريزى وأن معناها الأول الذى يربطها باللغة المصرية القديمة هو الأصح • وأن المقريزى لم ينقل هذا القول عن ابن سليم الأسوانى بدليل عدم ورود هذا اللقب عن بنى ربيعة فى المصادر الأخرى المعاصرة لتلك الفترة وربما قصد المقريزى بذلك سيطرة بنى كنز على النوبة منذ عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م على أثر تقوية العلاقات أثر سقوط المملكة النوبية الشمالية على يد المليك •

ولقد أثر القبض على أبى ركوة فى تقوية أواصر العلاقات والصلة بين بنى كنز والدولة الفاطمية وازداد نفوذ بنى كنز واتسعت امارتهم حتى شملت المناطق الواقعة من قوص شـمالا الى بلدة كرسكو باقليم مريس جنوبا ، شاملة بذلك وادى العلاقى بالصحراء الشرقية وزادت ثروتهم وجاههم وزودهم الفاطميون بالأسلحة اللازمة والجنود للدفاع عن ثغر أسوان •

وقد شاهد ناصر خسرو حين مر بثغر أسوان فى عصر الخليفة المنتصر بالله ، العمليات العسكرية الضخمة التى أعدت للدفاع عن المدينة فيشير الى وجود جيش دائم من أجل الحفاظ على المدينة من الهجمات النوبية بحيث يستعصى على الجيش النوبى الاغارة عليها أو اقتحامها فيقول : ومدينة أسوان محصنة جدا لا يستطيع أحد أن يقصدها من النوبة وبها جيش دائم للمحافظة عليها •

وخلال الفترة من ٣٩٥ ــ ٤٦٦هـ/١٠٠٦ ــ ١٠٧٣م • لم تذكر المصادر شيئا عن العلاقات بين بنى كنز والفاطميين وربما يرجع ذلك الى حسن العلاقات بين الطرفين ، كذلك فانه يبدو أن بنى كنز خلال الفترة المذكورة كانوا على وفاق تام مع مملكة النوبة المسيحية بدليل أننا لم نسمع عن أى صراع بين الطرفين ويبدو أنهم نجحوا فى ارضاء الفاطميين وأيضا ملوك النوبة المسيحيين •

ولقد كان انشغال الفاطميين بالأحداث الداخلية فى مصر مشجعا لبنى كنز لتوسيع نطاق نفوذهم فى الصعيد الأعلى ففى عام ٤٤٦هـ/١٠٧٣م انتهز أمير بنى كنز الملقب بكنز الدولة محمد ضعف الدولة الفاطمية فى أعقاب الشدة المستنصرية (٤٥٧ – ٤٦٤هـ/١٠٦٣ – ١٠٧٣م) وأعلن استقلال امارته عن الفاطميين ، لكن ذلك الاستقلال لم يدم طويلا أذ أن قدوم بدر الدين الجمالى فى نفس العام الى القاهرة كان ايذانا بعودة الأمور الى نصابها فى ممتلكات الفاطميين •

وقـد استطاع بدر الدين الجمالى أن يهزم كنز الدولة فى عام ٤٦٩هـ/١٠٧٦م حيث أسرع كنز الدولة بالفـرار الى أســوان ولكن بدر الدين الجمالى تابع كنز الدولةفى فراره فى جنوب أسوان عنـد الشلال الأول • وفر كنز الدولة الى دنقلة عاصمة مملكة المقرة ولكن بدر الدين الجمالى أرسل فى أثر الأمير كنز الدولة محمد اللاجىء الى ملك دنقلة باسم الخليفـة المستنصر بالله رســولا هو الشريف الرفيع سيف الدولة يطلب فيه تسليم كنز الدولة محمد فأجاب الملك النوبى طلب القائد الفاطمى طبقا لنص معاهدة البقط فعاد به الى القاهرة حيث شنقه بدر الدين الجمالى •

وبذلك استطاع الفاطميون استعادة نفوذهم على صــعيد مصر واخضاع مدينة أسوان عاصمة بنى كنز وربما لأول مرة تدخل فيهــا المدينة فى حوزة الفاطميين •

على أن اعدام كنز الدولة محمد أمير بنى كنز لا يعنى انتهاء نفوذ الكنوز نهائيا فى أسوان فما لبث أن تدخل ملك النوبة بما له من علاقة حسنة لدى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى لاستعادة نفوذ بنى كنز بأسوان وأجيب طلب ملك النوبة وعين سعد الدين ساروكين القاسمى شقيق كنز الدولة محمد أميرا على أسوان عام ٤٧٤هـ/١٠٨١م • وبذلك عاد نفوذ بنى كنز على أسوان من جديد ، أقوى مما كان ومن ثم عادت العلاقات الطيبة مرة ثانية بين الفاطميين وبنى كنز بدليل اشتراك بنى

كنز فى الحملة الفاطمية ضد الصلبيين عام ٤٩٣ – ٤٩٤هـ/١٠٩٩ – ١١٠٠م. وذلك فى عصر الخليفة المستعلى بالله ووزيره الأفضل ابن بدر الدين الجمالى . وقد قتل كنز الدولة نفسه فى هذه المحلة .

ولقد بلغت قوة بنى كنز وثراءهم بأسوان واقليم المريس الذروة فى القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى وانتشر نفوذهم على نطاق واسع حتى شمل معظم أقاليم الصعيد الأعلى ولقد كان انشغال الفاطميون بما هو أهم من بنى كنز والنوبة فى الجنوب كظهور الفرنج والقوى الصليبية حيث استولى الفرنج على كثير من بلاد الشا م.

ولقد كان لثقة الفاطميين فى بنى كنز ما جعلهم يبسطون نفوذهم الواسع فى تلك المنطقة الواسعة لدرجة أنه عندما علم آل كنز بنبأ سقوط الدولة الفاطمية بأنهم وجدوا الثقة فى أنفسهم للمشاركة فى الأحداث الأخيرة لتثبيت أركان امارته ، فقد وقف أول الأمر بجانب صلاح الدين الأيوبى ضد الدولة الفاطمية وعاونه فى القضاء على ملوك النوبيين الفارين الى صعيد مصر على أثر هزيمتهم من صلاح الدين .

ولكنه عاد فانقلب على صلاح الدين عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م للاطاحة بحكمه واعادة الأمير داد ابن الخليفة العاضد الملقب بالحامد بالله . ولقد كان الدافع لاشتراك بنى كنز فى معاداة صلاح الدين احساسهم بالخطر عندما أقطع الأمير شمس الدولة توارن شاه شقيق صلاح الدين قلعة ابريم لأحد أمرائه وهو ابراهيم الكردى ثم أقطع الصعيد الأعلى أثر عودته من حملته كقدم الأكراد الأسدية أبى الهيجاء السمين . فقام كنز الدولة بثورة عارمة ضد بنى أيوب وجمع جيشا ضخما من العرب والنوبيين وكل أنصار الفاطميين وسار بهم قاصدا القاهرة لاعادة الدولة الفاطمية واستطاع كنز الدولة هزيمة الجيش الأيوبى المرابط بصعيد مصر وقتل شقيق الحاكم الأيوبى . وقد شارك كنز الدولة بعض الأمراء المعادين للدولة الأيوبية .

ولكن الدولة الأيوبيــة لم تسكت على عدوان بنى كنز وحلفائهم اذ أنه بعد زمن ليس بطويل حاول صلاح الدين القضـــاء على زعامة بنى كنز لأنه لم يعد لديه شك فى ولائهم بعـد تلك الحملة فأرســل صلاح الدين أخاه لقمع حركة كنز الدولة فهزمت جنود كنز الدولة وأسر زعيمها وقتل •

وقد كانت النهاية لزعيم عشيرة بنى ربيعة والكنوز ، أن ترك أهله وأتباعه موطنهم فى أسوان وما حولها ودخل أنصاره الى اقليم النوبة الواقع جنوب الشلال الثانى وهو المعروف بأرض المريس وتمكن هؤلاء من ربط العلاقات بين النوبة وعشيرة بنى ربيعة ومن هنا اندمج بنو كنز فى النوبة وشاركوا فى أحداث مملكة النوبة المسيحية واستطاعوا أن يمكنوا لأنفسهم فى هذه الديار وبسطوا نفوذهم على السكان •

وفى العهد المملوكى قام السلطان المملوكى الناصر محمد بارسال حملة الى بلاد النوبة عام ٧١٠هـ/١٣١٥م • وصحب هذه الحملة أحد الأمراء النوبيين الذى كان يقيم فى بيت الضيافة فى القاهرة • وقــد أسلم وحسن اسلامه • وكان لمـا ترامت أنبــاء الحملة الى مسامع كرتنبس الملك النوبى أصابه الذعر ولاذ بالفرار حيث لم تنجح الحملة فى القضاء عليه • وكان الملك الجديد هو سيف الله عبد الله برشمبو ، وعندما علم كنز الدولة وهو ابن أخت الملك كرتنبس الهارب طالب بأن يجلس على عرش المملكة حيث تقاليد النوبيين بأن ينتقل الملك الى ابن الأخت وأيده خاله كرتنبس فى ذلك المطلب وأوصى عليه لدى السلطان الناصر بن قلاوون وأرســله لتوه الى القــاهرة وكان كنز الدولة هذا يسمى شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن كنز وسأله شموله بالأنعام السلطانية فى توليه الملك وجاء فى رسالته أيضا أنه اذا كان يقصد مولانا السلطان بأن يولى أمور البلاد فى النوبة لمسلم فهذا هو مسلم وابن أختى والملك ينتقل اليــه من بعــدى ، وبذلك فان كنز الدولة يستوى على عبد الله برشمبو فى الاســلام ويزيد عليه أنه ابن أخت الملك وهو مسلم لا سيما وأن نية السلطان المملوكى كانت تتجه الى تعيين ملك مسلم •

غير أن السلطان أصر على تثبيت عبد الله برشمبو • وكان كنز الدولة لمـا وصل الى البلاط السلطانى بهذه الرسالة والى السلطان الذى لم يستجب للطلب ، ليس هذا فحسب بل أنه أمر باعتقاله ومنعه من العودة الى بلاده النوبة ، أما خاله كرتنبس فيروى أن ملك الأبواب قبض عليه وسلمه لجنود السلطان وهكذا تربع على عرش مقرة المسيحية أول ملك مسلم هو سيف الله عبد الله برشمبو •

ولمـا لم يستقم الحال فى البلاد لعبد الله برشمبو ولم يعترف به النوبيين وثاروا عليه ، غير أن نهايته كانت على يد كنز الدولة الذى كان السلطان قد اعتقله ثم أفرج عنه من الاعتقال فى القاهرة ومن ثم عاد الى دنقلة • والذى لم يكن راضيا على تعيين عبد الله برشمبو لأنه يرى فى نفسه الأحقية حيث أنه من ســلالة أمراء من المسلمين وزيادة على ذاك ابن أخت الملك كرتنبس وكان أن وصل الى مدينة الدر ، وعندما علموا النوبيين بمقدمه رحبوا به وفرحوا بذلك وانضموا اليه ودخلوا تحت رعايته وطاعته واستقبلوه أحسن استقبال فى الدر التى هى أول بلاد النوبة ثم سار الى دنقلة والتقى بعبـد الله برشمبو فى معركة ضارية قتل فيها برشمبو ومن ثم آل الحكم الى كنز الدولة حيث نادى به النوبيون ملكا على البلاد • وذلك فى شوال ٧١٧هـ/ ١٣١٧م •

وبعد أن توج كنز الدولة على البلاد امتنع عن لبس التاج والذى تقول فيه روايات أنه كان يحمل شارة الصليب ومن هنا لا يحق ولا يجوز شرعا أن يلبس ملك مسلم تاج عليه رسوم مسيحية ، وهناك آراء تقول أن خاله كرتنبس الذى كان معتقلا فى القاهرة يعتبر هو صاحب الحق الشرعى فى ذلك التاج ، ومع أن كنز الدولة رفض لبس التاج الا أنه مضى فى ممارسة مهام حكمه للبلاد كملك عليها •

وما كان السلطان الناصر أن يعترف بهذا الملك الذى وصل اليه كنز الدولة بدون تأييد الدولة المملوكية ، حيث أن الســلطان رفض

الاعتراف بكنز الدولة ، الذى رأى فيه السلطان أنه يشكل خطرا على النفوذ المملوكى فى النوبة ، ذلك لأن تولية حاكم عربى مثل كنز الدولة الذى ينحدر من قبيلة ربيعة العربية على عرش النوبة سيقوى من شوكة القبائل العربية فى هذه البلاد ومن ثم تستطيع هذه القبائل العربية الناقمة على سلطنة االمماليك فى القاهرة أن تمارس نشاطا معاديا لتلك السلطنة لا سيما أن القبائل العربية ترى فى نفسها أحقية حكم مصر بدلا من هؤلاء المماليك الأتراك ومن كل الأجناس • لهذا أصدر السلطان أمرا بالافراج عن ابرام أخو كرنبيس وخال كنز الدولة وأرسله الى النوبة وأمره بأن يقبض على كنز الدولة ابن أخته بعد أن وعده باطلاق سراح أخوه كرنبيس واعادته للعرش •

وفى دنقلة خرج كنز الدولة طائعا وتنازل له عن الحكم وصار فى خدمته وذلك لجمع شمل النوبيين وحثهم على طاعة خاله ابرام ولكن ابرام تمكن خلال هذه الجولة من القبض على ابن أخته وأرسله مقيدا الى القاهرة وقبل أن يغادر كنز الدولة بلاد النوبة بعد أن كان قد غادر دنقلة بمسافة قليلة فى طريقه للقاهرة مات ابرام وهنا التف النوبيون مرة أخرى حول كنز الدولة ولبس هذه المرة التاج ومارس حقوقه •

ولكن ذلك لم يرضى سلاطين المماليك فى مصر حيث أنهم لازالوا يخشون سطوة الكنوز ، ذلك لأن كنز الدولة قد أصبح يستعين بالقبائل العربية القاطنة فى هذه المنطقة وملكوه عليهم واستقل بالملكة وضم اليه العرب المحيطين بالبلاد والمقيمين بداخلها واستعان بهم على كل من يقف فى طريقه ويعارضه •

ومن هنا فان ذلك الدور الذى أخذتتقوم به القبائل العربية بزعامة ربيعة والكنوز فى ذلك الاقليم من سودان وادى النيل ليعد ظاهرة لها أهميتها فى مجرى الأحداث فى تلك المنطقة ومحاولة صبغ البلاد بالصبغة العربية الاسلامية ومن هنا قوبلت تلك الوحدة العربيــة حول الكنوز بالاستياء والمعارضة من جانب سلطان مصر ، الذى أرسل حملة الى بلاد النوبة بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢٢هـ/١٣٢٣م

واستطاعت هذه الحملة أن تقوم بتنصيب الملك السابق كرنبيس مرة أخرى على عرش النوبة ثم عادت الحملة الى القاهرة فى شعبان عام ٧٢٤هـ/١٣٢٤م بعد أن أمضت تسعة أشهر بالنوبة وكان كنز الدولة قد هرب من دنقلة جنوبا • ولكن عرش النوبة كان قائما على أسس واهية ، حيث ظهر كنز الدولة من جديد واستطاع أن يعفى خاله كرنبيس عن العرش بمجرد مغادرة الحملة لمدينة دنقلة •

وبهذا تولى كنز الدولة عرش البلاد للمرة الثانية عام ٧٢٤هـ/١٣٢٤م • ومن ذلك التاريخ قل ذكر بلاد النوبة فى المصادر العربية الا من اشارات عابرة • حيث تولى بنى كنز العرب حكم هذه البلاد • وخلاصة القول أنه بسقوط مملكة مقرة المسيحية وتولى الحكم لأسرة بنى كنز العربية من ربيعة فى القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى فقد انهار السد الذى كان يحول دون دخول العرب على نطاق واسع الى سودان وادى النيل حيث اندفعت أعداد كبيرة من العرب الى الجنوب دون رقيب عن طريق الوادى واندفعت أعداد أخرى نحو الجنوب عن طريق الصحراء الشرقية حيث نشروا الاسلام واستمروا فى الزحف جنوبا حتى بلغوا أرض البطانة ثم الجزيرة ، بل أكثر من ذلك أخذت القبائل العربية بعد استيلاء بنى ربيعة متمثلين فى أسرة الكنوز ، الذى كان كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن كنز أول السلاطين العرب الذى يحكم المنطقة من أسوان حتى حدود ملك الأبواب أو سلطان الأبواب من قبل ملك علوة تتجه الى الجنوب حيث أن كثيرا من القبائل العربية قد أخذت تتجه جنوبا حتى بلغت أجزاء من الحبشة وغرب السودان • وذلك بعــد أن أصبح الدين الاســلامى هو الدين الرسمى للبلاد ومن هنا انقطعت الجزية عن النوبة وأصبح سلطان بنى كنز مستقلا عن الدولة المملوكية خاصة بعد ازدياد الهجرة العربية الى المملكة الاسلامية الجديدة فى بلاد النوبة •

ومن ثم ازداد نشاط بنى كنز فى منطقة أسوان وعيذاب والواحات وأن كنز الدولة استنجد بنى معبد من العرب الذين عاونوه فى ادارة شئون المملكة بعــد أن تولى عمه مدينة الدر بتلك البلاد واتفق الاثنان على

أن يكون ذلك الملك نائبا لعمه الذى أصبح الملك المعترف به على بلاد النوبة وبعد ذلك استطاع بنى كنز الانقلاب على حلفائهم من بنى معبد الذين ساعدوهم فى أول الأمر •

وان كانت السلطة فى القاهرة قد أرسلت حملة فى عام ٧٦٧هـ/١٣٦٦م أى بعد تدعم أسرة الكنوز للحكم بأكثر من أربعـة وعشرين عاما • غير أن الكنوز أعلنوا ولاءهم للحملة والانضواء تحت لواء الجيش المملوكى وعند ادفو انضم اليه كل بنى كنز طائعين حيث خلع عليهم الأمير قائد الحملة وبالغ فى اكرامهم واتجهت الحملة لمساعدة بنى كنز من الحصار الذى كانت تفرضه عليهم قبيلة « بنو عكرمة العربية » حيث التحمت مع بنى عكرمة المقيمين هناك فقتلت منهم عددا كبيرا •

وقد كانت هذه آخر حملة مملوكية الى النوبة عام ٧٦٧هـ/١٣٦٦م حيث صارت القوى العربية والقبائل العربية التى هاجرت من مصر الى السودان بقيادة وزعامة بنى كنز تتحكم فى مصير تلك المنطقة •

وكان ملك بنى كنز قد قرر أن يتخذ من مدينة الدر مقرا له بدلا من دنقلة التى خربتها الحروب وللخوف من عرب بنى معبد الذين كانوا يريدون الاستيلاء على عرش البلاد لو استمر فى دنقلة •

ومن هنا استطاع بنى ربيعة أن يقيموا سلطنة اسلامية عربية قامت على أكتافها منارة الاسلام والثقافة العربية الاسلامية التى أخذت تمتد الى الجنوب لتطبع السودان بالطابع العربى الاسلامى •

وبانتشار العرب فى السودان اكتسب السودان العربى النسب العربى والدم العربى واللغة العربية والثقافة الاسلامية العربية فقد كانت هذه القبائل العربية أداة لنشر الاسلام وثقافته فى أرجاء سودان وادى النيل فيما بين البحر الأحمر شرقا وبحيرة تشاد غربا ومن حدود مصر شمالا حتى خط عرض ٢٣ شمال خط الاستواء جنوبا •

٣ — سلطنة الفونج الاســلامية

٩١٠ — ١١٢٨هـ/١٥٠٤ — ١٨٣١م

اذا كان القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى قد شهد ما يمكن أن نطلق عليه امارة العمرى فى منطقة شنقير ومحاولات اقامة ولايات اسلامية فى السودان الشمالى ، الا أن القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى قد شهد قيام امارة بنى كنز فى المنطقة الواقعة من أسوان شمالا وربما من قوص فى صعيد مصر الأعلى فى منطقة المريس من بلاد النوبة السفلى ثم كيف استطاعوا عن طريق المصاهرة أن يستولو على مقاليد الحكم فى النوبة وأن يقام نظام حكم عربى اسلامى ساعدت حركة القبائل العربية وانتشارها الواسع السريع بعد اسقاط العطاء للقبائل العربية على اقامته مما اضطرها الى الهجرة جنوبا وغربا بعيدا عن اضطهاد الحكام الغير عرب والذين تولوا حكم مصر منذ العصر الطولونى والاستغناء عن الجند العرب ونهاية بالعصر المملوكى .

الا أن كل هذه العوامل قد ساعدت على نشر الاسلام والعروبة فى هذه المناطق الوعرة ومن ثم كان تشجيع هجرة القبائل العربية من العوامل الهامة التى ساعدت أيضا على ظهور سلطنة اسلامية ثالثة تعرف باسم سلطنة الفونج .

ومما لا يدع مجالا للشك فى أن تزايد أعداد القبائل العربية فى مملكة علوة المسيحية وعاصمتها سوبا على مر السنين وبصفة خاصة بعد الفتح العربى الاسلامى لمصر فى منتصف القرن السابع الميلادى ٢١هـ/٦٤١م وكذلك الأوضاع السياسية السائدة فى مملكة علوة . فضلا عن نظام الوراثة السائدة فى بلاد النوبة والمصاهرات التى تمت بين ملوك علوة وبين قبيلة جهينة العربية والتى كانت تحتم طبقا لتوريث ابن الأخت أو ابن البنت بأن ذلك كان يحتم انتقال ملك علوة الى العرب الذين أسسوا مشيخة العبدلاب فى وقت سابق على ظهور الفونج فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، السادس عشر الميلادى .

ولقد كان قيام الامارات العربية الاسلامية فى السودان يمثل ظاهرة ازدهار للاسلام وانتشار حضارى أسلامى عربى وأن البلاد قد بدأت تتجه للحياة الاسلامية العربية بعد أن بدأ الطابع العربى بصبغ البلاد بتلك الصبغة الروحية الاسلامية • ولقد كان قيام تلك الامارات الاسلامية يدل دلالة واضحة على أن النشاط الاسلامى لم يكن وقفا على العنصر العربى الخالص انما أسهم فيه فريق من أهل البلاد الأصليين بعد أن أسلموا وحسن اسلامهم وقاموا فى تاريخ الاسلام فى السودان بدور لا يقل عن دور العرب ، والذى كان لاعتناقها لرسالة الاسلام أثرها فى قيـام تلك الامارات وتوسعها على حسـاب الممالك الوثنية أو المسيحية التى كانت تشهدها منطقة السودان مما أعطى جوا اسلاميا خالصا يتمثل فى ظهور الحركة الاسلامية التى انبعثت من سنار والتى أدت الى ظهور امارة الفونج والتى تعتبر حدثا بارزا فى تاريخ السودان فى مستهل القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى •

أصل أسرة الفونج :

لقد كان موضوع أصل البيت الحاكم فى سنار والذى تولى الحكم فى حوض النيل الأزرق فى القرن الثامن الهجرى ، السادس عشر الميلادى مادة للنقاش الطويل والبعيد والذى تعددت فيه الآراء ولكن فيما يبدو أن هذا الحوار العلمى الذى دار حول أصول أسرة الفونج لم يستطع أن يصل الى نظرية ثابتة ومؤكدة • فبعض الآراء تعود بالأصل الأسرى للبيت السلطانى فى سنار الى أصول قبيلة الشلك الزنجية والبعض الآخر يعود بهم الى أصول جاءت من الغرب من بلاد السودان العربى حيث سلطنة برنو الاسلامية ، وهناك فريق يرى أنهم قد جاءوا أصلا من اقليم واقع بين أرتيريا وأثيوبيا دون أن يبين هل أصلهم زنجى أم حامى أم عربى •

وسوف نحاول هنا فى هذه الدراسة أن نعرض للجوانب المختلفة والآراء المتعددة حول أصول ذلك البيت المسلم الفونجى • واذا تتبعنا القول الذى يقول أن الفونج جاءوا من أرتيريا فاننا نرى أن هذا البيت

الفونجي قد أمضى فترة من ازمان يمارس سلطانه فى المنطقة الجنوبية الغربية من أرتيريا وذلك قبل انتقاله الى حوض النيل الأزرق واتخاذه من بلدة سنار عاصمة له • وهناك اعتقاد أن انتقال السلطنة الى حوض النيل الأزرق يرجع الى ضغط الحروب والقلاقل التى كانت سائدة فى أثيوبيا فى تلك الفترة والتى أخذت تمتد الى المنطقة الشمالية ، أى أن تلك الظروف قد هددت المنطقة التى كانت تحتلها السلطنة فى جنوب غرب أريتريا ويبدو أن السلطنة التى تولاها آل الفونج قد قامت فى أرتيريا فى وقت يرجح أن يكون قد بدأ من القرن الرابع عشر الميلادى ، الثامن الهجرى أو قبله بقليل • ومن هنا يرجح النسب العربى الآموى • ذلك لأن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية الذى قتل فى مصر قد قام أبنائه عبد االه و عبيد الله ومعهما ألفان وربما أربعة آلاف من الأتباع بالتحرك جنوبا الى بلاد النوبة عام ١٣٢هـ/٧٥٠م حيث أن ملك النوبة رفض استضافتهم ومن ثم فقد تحركو الى بلاد البجاة واستطاع أحدهم واسمه عبد الله أن يعبر البحر الأحمر عائدا الى بلاد العرب ومعه أربعين أو خمسين من أتباعه ، أما عبيد الله بن مروان بن محمد وأتباعه بقية الأربعة آلاف فقد انتشروا فى المناطق الجنوبية من البجاة وقـد يكون وصولهم قد تم الى أريتريا وهناك كونوا طبقة أرستقراطية حاكمة استطاعت أن تتحرك غربا فى القرن الثامن الهجرى،الرابع عشر الميلادى بعد أن اختلطوا وتناسبوا وتصاهروا مع سكان المنطقة ومن هنا ربما جاء أحفادهم الى منطقة سنار حيث ساعدوا على اسقاط مملكة علوة المسيحية ومن المحتمل أن يكونوا قد عقدوا اتفاقا سابقا مع زعيم عرب العبدلاب الذى كان يسيطر على الطرق التجارية بين حوض وادى النيل والأقاليم المتاضمة وقد اتخذ له هذا الزعيم العربى بلدة قرى Qerri الواقعة شمال خانق السبلوقة مباشرة بين الخرطوم وشندى عاصمة له ، وبموجب هذا الاتفاق فيما يبدو أن السلطان قد بسط سيطرته على المنطقة من حوض النيل الأزرق التى تبدأ من جنوب سوبا وتضم أرض البطانة وما حواليها وحوض النيل الأزرق الجنوبى ويفترض أن هذا قد تم الوصول اليه بعد خروج ملك علوة من هجرته نحو الغرب حيث اتخذ له من بلدة كوتشه الواغلة التى كانت محطة للقوافل عاصمة له والتى كانت تقع شمال كردفان •

واقد عرفت العاصمة التى اتخذها آل الفونج فى أريتريا باسم « لامول » أو كما تعرف محليا باسم « ململ » كما وردت فى بعض المصادر باسم لول وربما كان هذا المكان على حوض النيل الأزرق وأن جد الفونج قد جاء الى « لامول » التى تقع فى الأريتريا حوالى القرن الرابع عشر الميلادى •

ولكن هناك من أشار الى أنهم عرب من جنوب شرق الجزيرة العربية وليسو من بنى أمية وذلك فى بحث نشر عن الفونج عام ١٩٥٧م ان وصول آل الفونج قد جاء الى منطقة الساحل الأفريقى الشرقى من موطنهم الأول فى وادى شامل فى عمان وأخذوا يتنقلون شمالا حتى أنهم سيطروا على المنطقة الواقعة بين سواكن وبربرة كذلك فقد أشار المسعودى فى كتابه التنبيه والأشراف عن هروب جماعة من الآمويين الى بلاد النوبة حيث اجتمعوا بملك النوبة « دنقلة » وأن هؤلاء اللاجئين الذين جاء من نسلهم الأمويون الذين كونوا البيت الذى حكم سنار فى الوقت الذى تذكر فيه المراجع أن نزول الأمويين فى ساحل شرق آفريقيا فى السنوات الأولى من ولايتهم للخلافة الأموية وذلك بسبب مطاردتهم لأعدائهم الذين هربوا الى تلك الجهات •

وهنا نجد هناك صلة تربط بين هذه الهجرة الأموية عن طريق النيل وبين وجود مقابر عربية فى شرق السودان فى منطقة تمتد من ميناء باضع وفى خونبت ، فان ذلك يرجع الى وجود جاليات عربية كبيرة العدد اشتغلت بالتجارة والمعدن وكان بينهم أمويون وهناك أيضا مقابر تمتد من الدناقل الى خور بركة وترجع للفونج والمؤكد فى الكثير من المصادر عن شرق أفريقيا أن الأمويين قد جاءوا الى ســاحل الزنج وأنهم اتخذوا عاصمة لهم فى جزيرة لامو وأنهم قــد أقاموا مدنا ساحلية عديدة للتجارة فى سن الفيل والتوابل والمعدن وغير ذلك •

ويعتقد أن تحركات هذا البيت من موطنه الى الشاطىء الأفريقى الشرقى الى المناطق الأرتيرية كان لنفس الظروف التى تدفع بالهجرات العربية للرحيل الى تلك المناطق •

ويبادر الى الذهن سؤال تغير لون البشرة وميلها الى السواد الداكن هى أنه بمرور الزمن منذ سقوط الدولة الأموية الى حين قيام دولة الفونج الى نحو ٧٥٠ سنة فلابد من زواج هؤلاء الأمراء الفاربين بالأفريقيات أثر فى ألوانهم وطباعهم وتقاليدهم وجعل بعض الباحثين يشكون فى ذلك النسب العربى الأموى أو العربى القادم من جنوب شرق الجزيرة العربية .

ولقد كان جيمس بروس الانجليزى الأسكتلندى هو أول من نسب الفونج الى الشلك وذلك لمحاولة قتل الروح العربية والاسلامية فى تلك المنطقة من القارة الأفريقية ولكنه ينافى ذلك تلك الحروب الطويلة التى كان يقوم بها الفونج مع ملوك الشلك الذين ادعى بروس أن الفونج منهم وكذلك قتالهم مع النوبة ومن هنا فان أقوال جيمس بروس لم يكن يتحرى فيها الدقة العلمية .

وهناك اعترافات سودانيــة تعترف أن الفونج هم جماعة من البدو السود (بعض العرب الذين اكتسبوا السواد من طوال بقائهم فى السودان فترة طويلة) والذين اشتهروا بتربية البقر ، ويقول المؤرخ (يوسف فضل) من السودان أن هذه الجماعات من الفونج لا يعرف وقت نشأتها ولكن من المتواتر أنها وفدت من أعالى النيل الأزرق من ناحيــة أرتيريا وأقامت مملكتها فى عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م وذلك بعــد أن تعاونوا مع قبائل العبدلات العربية الذين انفردوا بالسلطة بعد أن استطاعوا اسقاط مملكة سوبا ، وبعد أن اختط الفونج سنار استطاعوا أن يتعاونوا مع العبدلات ورعاياهم من العرب والقبــائل المستعربة وغيرهم من الوطنين حتى الشلال الثالث كما اتسعت رقعة مملكة الفونج حتى شــملت أجزاء كبيرة من بلاد البجة وكردفان وظلت حدودهم الجنوبية حول خط عرض ٢٢ شمالا ومن ذلك الحين صار العبدلاب يحكمون من قرى الجزء الواقع شمال اربجى بمعاونة زعماء القبائل نيابة عن الفونج .

وقد حقق التحالف الذى تم بين العبدلاب والفونج عن القضاء على مملكة علوة المسيحية قضاءا تاما واعلاء كلمة الاسلام فى سودان وادى النيـل ، والدولة الفونجة لم تولد فجأة ولا يمكن أن تكون قد استولدها ذلك الحدث بسقوط علوة عام ١٥٠٤م • فقد كانت تلك الدولة فى ذلك الوقت قوة نامية ناضجة شاركت فى ازالة دولة علوة التى كانت ذات سلطان وشاركت العرب فى هذا الحدث البارز فى تاريخ السودان • ومن هنا فان الحقائق تؤكد أن ظهور الفونج كقوة سياسية وعسكرية قد حدث قبل ذلك التاريخ بوقت طويل •

والذى تؤكده الأحداث أن أرض سنار والنيل الأزرق لم تشهد نفوذا للفونج قبل القرن الثالث عشر الميلاد ، السابع الهجرى ، ومن ذلك أن رسول السلطان قلاوون الذى أرسل لتحرى الدقة فى النزاع الذى نشب بين ملك مقرة وعلوة وزار منطقة الجزيرة فى أواخر القرن السابع الهجرى ، لم يعرض لآية قبيلة أو أية أسرة أو امارة تحمل اسم الفونج •

ومن هنا فانه يمكن القول أن ظهور الفونج قد تم بعد انتهاء القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ويرجع ظهورهم بعد الأحداث التى قضت على مملكة دنقلة وتسرب العرب الى بلاد علوة على نطاق واسع •

وعلى هذا فان مشكلة المكان الذى قدم منه هؤلاء القوم لازالت تلح علينا لمحاولة وضع حد لها وكذلك لأصولهم العرقية فالرأى بالقول أنهم من الشلوك رأى لا يجانب الصواب كما ذكر جيمس بروس ، ذلك لأن ادعاء بروس بأن الفونج من الشلك قد أوقعه فى خطأ لغوى ذلك لأن كلمة الفنج فى لغة الشلوك معناها الوافدون الغرباء واشتقاقها من كلمة بون Bown فى لغة الشلك أو من كلمة فون Fon فى لغـة النوير أو من كلمة بونج Bony ومسألة احلال وابدال الباء بالفـاء البونج ، الفونج ، أو احلال حرف محل الآخر أمر مألوف فى كل لغات

العالم وهو أكثر شيوعا فى لغة النوبة والشلوك خصوصا ابدالهم الباء بالفاء وعلى هذا يكون رأى جيمس بروس لم يجانبه الصواب فى ارجاع أصولهم العرقية الى الشلوك لكن من حيث اشتقاقها اللغوى فهو صحيح ذلك لأن الفونج قوم غرباء وفدوا على هذه المنطقة من ناحية الشرق أو الجنوب الشرقى •

كذلك فان استخدام الفونج لعناصر من الشلك والنوير أو عناصر نيلونية أخرى فى جيشهم قد يكون أمرا مألوفا فى كثير من الجيوش فى الاستعانة بعناصر أخرى لا سيما بعد أن بسط الفونج نفوذهم على تلك المناطق فلماذا اذن لا يجند الفونج تلك الأقوام النيلونية لا سيما وأن تلك الأقوام قريبة من ديارهم ومواطنهم ؟

ومن هنا فان الاعتراف بأنهم بدو سـود يؤكد صـلة نسبهم العربى •

لكن هنا لرأى آخر يرجح أصل الفونج الى قوم أو جنس جاءوا من الغرب من جنوب غرب بحيرة تشاد حيث سلطنة برنو الاسلامية ويقول بذلك الرأى أركل Arkel وكذلك بالمر Palmer • ومن ذلك القول أن سلطنة برنو هى الموطن الأصلى للفونج ذلك لأن سلطنة برنو كانت فى المراكز الاسلامية التى كان لها الفضل الأكبر فى سنار ودارفور ذلك لأنه لم تكن هناك عوائق تحول دون تحرك القبائل من الغرب فى الوصول الى سنار وشمال الحبشة •

وفى روايات أهالى السودان الوطنية أن سلطنة سنار التى أقامها الفونج والتى قضى عليها الأتراك عام ١٨٢١ هذه السلطنة من سلالة سلطان من سلاطين برنو هو السلطان عثمان بن قاضى الذى هرب من برنو أثناء حرب داخلية نشبت بين أمراء الأسرة الحاكمة حول ولاية العرش عام ١٤٨٦م • وعلى ذلك يمكن القول أن سلطنة الفونج تكونت على أيدى ماى عثمان بن قاضى أو أحد أفراد ذريته اذ كان أول ملوك الفونج الذى له سمعة واسعة هو عماره دونقس كما تقول الروايات السودانية

فان عماره هذا هو أحد أفراد ذرية ماى عثمان ، لا سيما واذا عرفنا أن لفظ عمارة يتردد كثيرا فى أسماء ملوك برنو • وأن هناك أفواجا من البرنويين قدموا من الغـرب مع الحاكم المطرود من بلاده ونزلوا أول الأمر على النيل الأبيض فى مكان سكنه قوم من الشلك وأصـبح لهم نفـوذ بين هؤلاء القوم ومن ثم جندوهم فى جيوشهم ثم حاولوا تثبيت أقدامهم بين نصارى سوبا وأسسوا مدينة سنار • ثم زحفوا بعد ذلك على مملكة علوة المسيحية بالتحالف مع العرب العبدلاب وأسروا ملكها •

كذلك فان لفظ الفونج يرتبط بلفظ فون Fune وهو أحـد سلاطينهم الذين حكموا برنو ، وأن المعنى اللفظى لكلمة فون تعنى اللثام الذى يلبسه الطوارق فى السودان ، وأن هذه الفئة الزاحفة من برنو على مملكة سوبا المسيحية انما جاءت من الطريق الغربى الكبير فى الصحراء وأنها ربما استطاعت أن تحصل على أسلحة من تونس واستطاع ملك برنو المخلوع بهذه الأسلحة والضوضاء والدخان الذى تحدثه فى أيدى القليل من جنوده أن يبسط سلطانه حيثما يريد وحيثما يبعث بهم الى المناطق التى يسيطر عليها وأن تكون لهذا السلطان الغلبة وأن يحكم هذه الديار وينشر الاسلام بين ربوعها •

وقد يكون ذلك الرأى ضعيف أيضا وان كان ذلك الرأى يأخذ فى الروايات المحلية السودانية والتى تذكر أن السلطان البرنوى تحالف أو استعان بالشلك فى صراعه مع العبدلاب ضد اربجى • كذلك تفترض تلك الآراء أن أهل برنو من أصل عربى حسبما كان يدعى ذلك أسلاف أجدادهم ممن حكموا كانم وبرنو •

ولكن رغم كل هذه الآراء أجد نفسى أميل الى الآخر بالرأى القائل بأن أصولهم العرقية من أصل عربى أموى لا سيما بعـد أن أثبتت الحقائق التاريخية أن أبناء مروان محمد آخر خلفاء بنى أمية والذى قتل فى بوصير بصعيد مصر قد قدما الى ملك النوبة ثم تركاه بعـد

فترة وأن عبد الله بن مروان قد وصل الى الحجاز ومعه أربعين أو خمسين شخصا بينما بقى أخوه عبد الله ومعه أكثر القوات •

ومن هنا ظل الفونج حكام سنار أنفسهم يطمئنون الى أصلهم العربى الأموى مع الاعتراف باختلاط أسلافهم عبر القرون بالأفريقيين والذى يؤكده سواد ألوانهم وتأقلمهم بالبيئة وهذا ينطبق على غيرهم من القبائل العربية فى السودان فصلة نسبهم بالأمويين صلة صحيحة لا سيما وأن الكثير من القبائل الأفريقية التى ادعت النسب العربى كانت تحاول دائما ادعاء نسبها بآل البيت سواء العباسيين أو الهاشميين أو العلويين أو غيرهم من بنى هاشم •

دور العبدلاب فى حكم الفونج :

لقد كان لزوال مملكة علوة المسيحية أثره فى اتساع المجال أمام القبائل العربية لتنتشر جنوبا فى كثيرا من أجزاء السودان ، ذلك لأنه كما فتحت النوبة السفلى على أيدى العرب المسلمين زاد عدد المهاجرين ومنهم العرب الى بلاد النوبة العليا حتى ملؤها وكان أكثرهم من جهينة وبنى العباس ومن ثم تسنى لهم انشاء حكومات عربية على النيل ومما يؤكد أن العرب واستمرارهم فى مملكة علوة كان قبل وصول الفونج بفترة طويلة ذلك لتأسيسهم مدينة تجارية هامة هى مدينة « اربجى » عام ٨٨٠هـ/١٤٧٤م على الشاطىء الغربى للنيل الأزرق قرب الحدود الجنوبية لملكة علوة وليس هناك أدنى شك فى أن العرب هم الذين أنشأوا هذه المدينة ومن ذلك فان الدلالة اللفظية التى يتكون منها اسم « اربجى » يعنى فى اللغة النوبية بلد العرب ولقد كان لتأسيس هذه المدينة أهمية خاصة وأن موقعها قرب الحدود الجنوبية لملكة علوة يدل على أن العرب عرفوا معظم أراضى مملكة علوة وأنهم استمروا فترة فى أرض البجة وبلاد العلاقى ثم تركوها الى أرض علوة ، ولقد كانت هناك مجموعة عوامل ساعدت الى هجرة أغلبهم الى داخل السودان حتى بلغوا أرض البطانة ثم الجزيرة ومن هنا فان الشواهد التاريخية تدل

على استمرار العرب لفترة طويلة فى أرض مملكة علوة وسواء تم سقوطها على يد عرب القواسمة الذين منهم العبدلات وحدهم أو بمعاونة الفونج فان الكيان الاسلامى قد ظهر على نطاق واسع بعد ذلك •

ذلك لأن الروايات السودانية المحلية المتداولة تذكر أنه تم تحالف ولابد أن يكون بين طرفين من أصل واحد أو أن هناك روابط تربط بينها وهو الهدف الواحد بين عماره دونفس زعيم الفونج وعبد الله جماع زعيم العبدلاب وباتحادهما وتحالفهما القوى تم القضاء والانتصار على العنج وضربوا مدينة سوبا وقيل أن عبد الله العبدلابى أصبح وكيلا أو نائبا لعماره فى الجزء الشمالى من المملكة وقيام مشيخة العبدلاب العربية ولكن يبدو أن استيلاء العرب قبل تحالفهم مع الفونج على مملكة علوة لم يتم فى صورة نهائية وسريعة بل تم بشكل تدريجى ذلك لأن علوة كانت تتألف من ممالك صغيرة وتم للعرب الاستيلاء قبل اسقاط ملك سوبا على هذه الممالك الصغيرة التى انتقل سلطانها الى أبناء جهينة وغيرهم من أبناء القبائل العربية الأخرى التى استمرت فى جهات متعددة من علوة •

ومن ذلك فان اتخاذ العرب لمدينة اربجى قبل سقوط سوبا وأنها كانت عاصمة العبدلاب قبل قيام مدينة « قروى » فان ذلك يعنى أن يكون العرب قد نجحوا قبل القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى فى تأسيس عدة ممالك ومشيخات عربية اسلامية فى حوض النيل الأوسط من الشلال الثالث الى مدينة اربجى وما بعدها بقليل الى الجنوب •

ومن هنا فان الشيخ عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة قام بدور كبير فى قيام مشيخة العبدلاب وسقوط علوة كما أنه ساعد على ظهور قوة الفونج كقوة أساسية فى تلك المنطقة بعد تحالفه معه وكان استعانة الفونج بالشلك فى النزاع فيما بعد مع العبدلاب هو الذى أضعف قوة العبدلاب ورضائهم بأن يكون زعيمهم نائب عن السلطان عماره دونقس • ومن هنا كانت الروابط والصلات القوية والوشائج

المتينة التى جمعت وربطت بين عبد الله جماع والذى أخذ اسم جماع من قدرته على جمع القبائل العربية تحت زعامته وقيادته وبين عماره أو عميره دونقس ، ذلك لأن العرب من المتآلف عنهم أنهم يطمئنون الى قيام تعاون فيما بينهم ، فكيف يكون قد تم تحالف بين عماره اذ كان من الشــلوى أو بين عماره اذ كان حفيــد ملوك برنو البــربر ؟ ، ومن هنا فلا يدع مجالا للشك فى أن الفونج قبائل عربية أموية تصاهرت مع القبائل المحلية وكان منها الجيل الذى أسقط علوة بالتعاون مع عرب القواسمة •

ومن هنا فان كل الآراء التى ذكرها أركل أو بالمر أو جيمس بروس أو غيرهم من الذين تناولوا الأصول العرقية للفونج أو من ســار على نهجهم من رجال التاريخ المعاصرين لا تمت للحقيقة بصلة والموضوع لا يتسع المجال هنا لشرحه شرحا طويلا ، ذلك لأن هذا المجال قــد يدخلنا فى دراسات أركولوجية وأنثربولوجية نحن بعيدين عنها فى هذا البحث ذلك لأن انحدارهم من الشرق فى المنطة الممتدة من النيل شرقا الى البحر الأحمر غربا أمر طبيعى بحكم الصلات العميقة الجذور بين هذه المناطق النيلية وبين المناطق الشرقية القريبة من الجزيرة العربية ، ومن هنا فان الفونج انحدروا من الشرق من المنطقة التى تقوم على المداخل بين حوض النيل وأثيوبيا أو جاءوا من مصر من الشمال عقب مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية هو الرأى المقبول والسليم والذى يمكن الأخذ به •

وأن هناك امارة عربية اسلامية قد قامت فى هذه المنطقة الشرقية والتى كانت عاصمتها كما ذكرت سابقا فى اقليم لملم ، وأن منطقة نفوذها كانت تتسع غربا حتى تصل الى أطراف الجزيرة ومن ثم تم التحالف بين هذه الامارة العربية الاسلامية النامية وبين العرب الذين نزحوا وتكاثروا فى مملكة علوة ووصل نفوذهم فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى التاسع الهجرى الى درجة بالغة من القوة • ولقد كان هذا التحالف الذى تم قبل تحالف عبد الله جماع وعماره دونقس من أجل ضرورات اسلامية فهو تحالف للجهاد فى سبيل الاسلام وفى سبيل نشر الثقافة العربية حيث

اضطرت هذه الامارات والمشيخات الى الاتجاه صوب الجنوب والاتصال بالسلطان عماره دونقس والذى كان مسيطرا على تجارة ذلك القطاع الذى كان مركز تجمع التجارة وانطلاقها صوب الشرق •

وقد تم القضاء على مملكة علوة فى عام ٩١٠ هـ/١٥٠٤/١٥٠٥ م • ولكن ظل الأمراء فى عاصمتهم القديمة حتى ديسمبر ١٥٢١م/٩٢٧هـ •

ولكن عماره دونقس قد اضطر الى أن ينقل مقر حكمه الى مدينة سنار عام ١٥٣٤ م/٣٩٤٠ هـ وهى السنة التى قتل فيها المجاهد الاسلامى أحمد القرين الذى كان يقاتل ملوك الحبشة المسيحيين بعد أن بدأ نشاط الحركة الاسلامية فى ذلك الجزء الشرقى يقل تدريجيا بتدخل البرتغاليين بجانب الأحباش المسيحيين — ولكن ليس معنى هذا أن مدينة سنار قد نشأت فى القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى ذلك لأن نشأتها وتطورها كان قد تم قبل ذلك بوقت طويل لكن اتخاذها عاصمة قد تم فى ذلك الوقت •

ومن الثابت أن عمارة دونقيس وحلفاءوه من العرب قد شاركوا مشاركة فعالة فى حركة الجهاد الاسلامى التى كانت تدور فى تلك المنطقة من القارة الأفريقية وبالذات فى المنطقة الواقعة شرق النيل الأزرق ، حين حارب قبائل البلو فى المنطقة الشمالية القريبة لأثيوبيا ، ذلك لأن روايات السودانيين المتواترة المحلية تذكر أنه قد حدث قتال وصراع بين الفونج بزعامة عماره دونقس وبين قبائل البلو الافريقية وذلك فى السنوات العشر الأولى من القرن السادس عشر الميلادى • وقد خرج منها أمراء الفونج وحلفائهم من العرب منتصرين كما انتصروا من قبل على مملكة سوبا كما أن بعض الروايات تذكر أن عماره دونقس قد اتصل بالعثمانيين الذين بسطوا نفوذهم على سواكن عام ١٥١٧م وذلك قبل رحيله الى سنار عام ١٥٣٤ — ١٥٤٣م والتى كانت هناك ظروف سياسية أملت على الفونج هذا الانتقال التى منها قرب هؤلاء السلاطين من مناطق النفوذ الجديدة حيث كان سلطانهم قد امتد على وادى النيل

من الشلال الثالث وكان الوضـــع الســـائد يقتضى منهم الانتقال الى عاصمتهم الجديدة سنار •

فى حين أن حلفاؤهم العبدلاب قد ظلوا فى مدينتهم قرى والتى كانت تقع على بعد أربعين ميلا شمال مدينة الخرطوم الحالية حيث بلغت قرى أوج مجدها وقوتها فى عهد الشيخ عجيب المنجلك الذى تميز عصره بالفتوحات وقد قتل الشيخ عجيب فى موقعة كركوج عام ١٦٠٤م وحملت جثته الى مدينة قرى ودفن فيها •

وفى عام ١٧٩٠ ترك الشيخ عجيب الثالث شيخ قرى عاصـــمة أجداده وانتقل جنوبا ليتخذ من مدينة حلفاية الملوك عاصمة له • وقد ظلت حلفاية عاصمة العبدلاب حتى مجىء الترك عام ١٨٢١م • ومنذ عهد هذا الشيخ عجيب الثانى ازداد التباعد بين العبدلاب والفونج ولم تكن بينهم الا علاقات اسمية • وان كان الشـــيخ ناصر الأمين شـــيخ العبدلاب قد سلم للقوات المصرية التركية عام ١٨٢١م دون مقاومة ثم ما لبث أن مات بعد قليل وقد كانت عاصمة الفونج فى سنار ، حيث كانت سلطنة الفونج خالصة للفونج والعرب ولا يعرف فى تاريخهم أن الزنوج كانوا يستوطنون أى بقعة شما لالنيل ، مما ينفى صلة الشلك الفونج • واذا صح أن الشلك كانوا فى تاريخهم القديم يمتدون الى الشمال فلابد أن يكون ذلك قبل قيام هذه الدولة العربية الاسلامية وأن من المشكوك فيه أنهم كانوا يمتدون شـــمالا حتى مكان مدينـــة الخرطوم •

كذلك فانه يمكن القول أن اتخاذ الفونج لهذا الاسم قد أطلق عليهم بعـــد انتصارهم عام ٩١٠هـ/١٥٠٥م وامتداد نفوذهم على ســـنار وما جاورها جنوبا وأن الشلك أطلقوا عليهم هذا الاسم باعتبارهم وافدين فأصبح علما عليهم وذلك بعـــد أن حالف عرب القواسمة عرب الفونج وأن ثمة مصاهرة تمت بين البيتين العربيين وأن تلك الصلة قد استمرت حتى عجيب الثالث من ســـلالة القواسمة وبين ذرية عماره دونقس •

وأن الفونج كانوا أرستقراطية عربية ذات نسب أموى نزلت المنطقة الشرقية ونشرت الاسلام وتآلفت حولها القلوب بحكم هـذا النسب الأموى العربى ثم اختلطت هذه الأرستقراطية بالعناصر المحلية عن طريق المصاهرة وقد بدا دور الازدهار فى هذه السلطنة الاسلامية بعد الانتصارات المتلاحقة فى معركة الجهاد الاسلامى والانتصارات على البدو فى الشرق والانتصارات على المسيحية فى حوض النيل وانتقال العاصمة الى سنار • وقد نتج عن تحالفهم مع عبد الله جماع وعرب القواسمة أن امتد نفوذهم الاسمى حتى دنقلة فى الشمال وذلك بعد أن امتد نفوذ العبدلاب فى مشيخة القرى التى امتد سلطانها الحقيقى من اربجى فى الجنوب حتى دنقلة فى الشمال وأصبحت كل تلك القبائل العربية وغيرها من السكان المحليين يدينون بالولاء لمشـــايخ قرى • ويعترف هؤلاء بالسلطان الاسمى لسلاطين الفونج فى سنار •

هذه التبعية الاسمية مظهرها تعاون سلاطين سنار مع شيوخ قرى من العبدلاب فى بادىء الأمر واحتفاظ هؤلاء المشايخ العرب باستقلالهم وحق التصرف فى أملاكهم بما يكفل التعاون مع السلطنة السنارية •

ولقد قامت السلطنة السنارية الفونجية فى حوض النيل الأزرق فى فترة زمنية عصيبة وذلك بسبب عوامل خارجية أكثر منها من عوامل داخلية ففى السنوات التى كانت فيها السلطنة تمارس سلطاتها فى جنوب غرب أرتيريا وذلك فى نهـاية القـرن الخامس عشر وأوائل القـرن السادس عشر الميلادى وكان هناك صراع وتنافس بين المجموعات القبلية ولذلك تأثرت تلك المنطقة الشمالية الغربية بالصراع الدائر بين الامام أحمد القرين والنجاشى ومن هنا كان الرحيل الى سنار ومن ثم فقد امتد نفوذ هذه السلطنة على الزعامات التى كانت قائمة فى الشمال فى الشلال الثالث • وقد كان سلطان الفونج لا يتدخل فى شئون المشيخات الداخلية كما لا يتدخل فى علاقات الزعامات المتحالفة الا بارسال جنودها ووضع مواردها تحت امرة السلطان فى حالة الحرب •

ولقد كان اسلطان سنار وكلاء فى القاهرة وأسيوط وبعض المدن الأخرى مثل اسنا ودروا وأسوان للقيام بالشئون التجارية الخاصة بالقوافل والتى كان للسلطان نصيب وافر من مالها كما كان للسلطان علاقات وصلات وثيقة بالباشا التركى فى موانى البحر الأحمر وسواكن ومصوع كما كانت له علاقات خارجية مع اليمن التى كانت يستورد منها السيوف والدروع ومع الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى كما كانت للسلطنة علاقات مــع المغرب الأقصى عن طريق القوافل عبر كردفان ودارفور وعن الطريق المباشر بعيدا عن دارفور فيما بعد ذلك عندما اشتد التنافس بين الفور وسنار ٠

وقد مضى نفوذ سلطان الفونج فى طريقه نحو الامتداد ، فقد مد الفونج نفوذهم الى فازوغلى على النيل الأزرق بل أخضــعوا الشلك وحاربوهم ومثلوا بهم ٠ وانفسح نفوذهم ممتدا الى جبال تقلى وجنوب كردفان واستمر توسع الدولة طيلة القرن الثامن عشر وذلك بعد أن استعانت الدولة فى جيشها بالشلك والهمج وحلفائها من العرب فى القضاء على أمراء المسبعات أقرباء سلاطين الفور فى دارفور ٠

ومن ث مبدأت امبراطورية الفونج فى آخر هذا القرن ممتدة على هذه الرقعة الواسعة الممتدة من أرض السودان من البحر الأحمر حتى كردفان غرب ومن الشلال الثالث حتى فازدغلى جنوبا وخضع لها كل سكان تلك المنطقة الواقعة تحت نفوذهم ٠

ولكنه مما يؤسف له أن تاريخ السلطنة السنارية (الفونج) الذى وصل الينا لم يدون الا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى أو قبل ذلك بقليل وكان الاعتماد على الروايات المتداولة التى كانت تنقصــها الأصول التاريخية ، ومن هنا فان ما كتب عن تاريخ تلك السلطنة اقتصر فقط على ذكر اسم السلطان وتاريخ ولايته للحكم وتاريخ اعتزاله ولكن لم توضــح لنا الأسس التى قامت عليها السلطنة وقلاقاتها الداخلية والخارجية ، فالسلطنة فى سنواتها الأولى حكمها أبناء السلطان عماره

دونقس مؤسس البيت الفونجى فى عاصمته سنار فى حوض النيل الأزرق. والذى ورد ذكره فى الوثيقة التى حصل عليها الرحالة الاسكتلندى جيمس بروس من سنار عاصمة مملكة الفونج عند زيارته لها فى عام ١٧٧٢ م وتتكون هذه الوثيقة المحفوظة حاليا بمكتبة بودليان باكسفورد من ست صفحات وتبدأ الصفحة الأولى بالبسملة ثم تاريخ ملوك الدولة الفونجية بمدينة سنار المحروسة المحمية بعد المملكة النوبية أو من نزل بسنار السلطان عماره بن عدلان عام تسعة ماية وعشر سنين من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفى عام تسع مائة وأربعين سنة وملكه ثلاثون عاما ثم ملك بعده ... وهو عبارة عن نبذة مختصرة عن تسلسل ملوك الفونج ولا يعرف مؤلف هذه النبذة الموجزة عن تاريخ مملكة الفونج .

وقد عثر على نقوش من مملكة الفونج تشير هـذه النقوش فى سطريها الأول والثانى أن هذه النقارة التى وجدت فى حوزة الملك نصر حفيد السلطان بادى الثانى حفيد عماره دونقس ، أن هذه النقارة هى نقارة السلطان عمارة ابن السلطان عدلان وهو السلطان الذى أسس بيت الفونج فى سنار ، وذكر أن والده اسمه السلطان عدلان وهـذا يشير الى أن هذا البيت كانت له سلطنة وكان سلطانه السلطان عدلان . وأن هذا التأسيس قد حدث فى زمن سـابق لولاية السـلطان عماره المعروف بدونقس فى أرتيريا ويحتمل أن تكون ولاية عدلان هذا والد عماره قد كانت فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى وقد يعنى أن جدهم الكبير لم يكن سلطانا وأنه جاء من لول التى كانت عاصمتهم فى أرتيريا بعد أن استقر بها وذلك فى زمن لا يعدو القرن الثالث عشر الميلادى أو القرن الرابع عشر كذلك فانه بالنظر الى نقارة السلطان عماره ابن السلطان عدلان نجد الارتباط يكاد يكون وثيقا بين هـذه الحقائق التاريخية التى تؤكد أن السلطنة انتقلت فعلا الى حوض النيل الأزرق فى القرن السادس عشر الميلادى ، العاشر الهجرى وأنها كانت تسيطر على منطقة النيل الأزرق منذ القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى .

وقد اتخذ السلطان عماره عميد البيت السنارى لنفسه لقب دونقس وان كان لا يوجد لدينا علم بأن والده عدلان قد اتخذ هذا اللقب أم لا أو اتخذه غيره من السلاطين وأن هذا اللقب اللفظى يرجع الى اللغة الأمهرية الحبشية فنجد أن دو هى تحريف لجان Djan ونقس عندهم تعنى عظيم أو كبير ولفظ نقس بكسر النون وضم القاف أصلها نجاشى Negus ومعنى هذا النجاشى العظيم • وأن اتخاذه هذا اللقب انما يعنى أنه جعل سلطاته فى مستوى أعلى من مستوى النجاشى ملك الحبشة وأن فى لقبه هذا تحديا للنجاشى •

والسلطنة فى سنواتها الأولى التى جاوزت القـرنين من الزمان قد حكمها سلاطين من أبناء السلطان عماره مؤسس البيت السنارى فى عاصمته فى حوض النيل الأزرق •

وقد تولى حكم مملكة الفونج بعد وفاة عماره ثلاثة سلاطين لم تهتم المصـادر بذكرهم لأنهم لم يقوموا بأية أعمـال تستحق الذكر أو التنويه ، لكن عندما تربع على الملك السلطان « دكين ود نايل » عام ١٥٦٩م ذلك لأنه من المعروف أن السلطان عماره دونقس توفى عام ٩٤٠ هـ/١٥٣٥ م فان المصادر ذكرته ـ ولذا فان الثلاثة سلاطين شغلوا الفترة من ١٥٣٥ — ١٥٦٩ م أى ٣٤ أربعة وثلاثين عاما •

ولقد كانت الأعمال التى قام بها السلطان دكين ود نايل ، يوجد منها ما يستحق الذكر فيقال عنه هو من أفخر ملوك الفونج فقد رتب الدواوين وجعل لها قوانين لا يتعداها أحد من جميع أهل مملكته وجعل لكل جهد من جهات مملكته رئيسا معلوما الى أن توفاه الله عام ١٩٨٥ هـ •

ثم تتابع بعده عدة سلاطين لم يسترعوا انتباه الذين أرخوا لهذه السلطنة الفونجية حتى جاء ذكر السلطان عدلان وادبى عام ١٦١١ م والذى أحدث نهضة دينية اسلامية • ولقد كانت أهم الأحداث فى عصره أن سلطنة العبـدلاب فى قرى قد بلغت أوج مجدها وقوتها ذلك حيث خرج الشيخ عجيب المنجلك زعيم القواسمة على الفونج وتقاتل معهم

فى طريق كركوج عام ١٦٠٤ حيث قتل الشيخ عجيب فى تلك المعركة وحملت جثته الى قرى ودفن بها وتولى المشيخة بعده عدلان العجبيل أكبر أبناء عجيب المنجلك شيخا على قرى ولقد كان خروج عجيب من تحالفه مع الفونج دليل على المكانة العظيمة التى وصل اليها والنفوذ الذى بسطه على كل الأراضى التى تقع تحت أمرته مباشرة وهى تضم قبائل عربية تعتز بأصولها وتمتاز بوعيها السياسى اذ قورنت ببقية أنحاء السودان •

ولكن رغم انتصار الفونج على الشيخ عجيب الا أنهم خلعوا ابنه عدلان وتولى بعده بادى سيد القوم عام ١٦١١م • واستعادوا نفوذهم وسيطرتهم على الأقاليم الشمالية التى حاول الشيخ عجيب أن يحرمهم منها حتى دنقلة لكنهم أكدوا سيادتهم على نقطة الجمارك فى دنقلة وحصلوا نصيب الدولة من جمارك سواكن •

ثم تولى بعد بادى سيد القوم رباط الذى شهد عهده الحروب مع الحبشة وذلك لأن ملك الحبشة أراد أن يعامل بادى كتابع له •

ولكن جاء بادى أبو ذقن عام ١٦٤٥م والذى غزا النيل الأبيض وفتك بسكانه المعروفين بالشلك وغزا هناك تقلى الواقعة غرب النيل الأبيض بنحو مرحلتين ثم غزا مشارف جبال النوبة حتى بلغ قصر ملك تقلى الحصين وجعله تابعا لمملكة سنار ورجع بسبايا جبال النوبة حيث أسكنها فى قرى حول سنار شرق وغرب النيل الأزرق •

وقد احتفظ بادى جامعا بسنار وقصرا للحكومة به أبواب عديدة كل منها مخصص لدخول أحد كبار الدولة وقد عرف بادى أبو دقن بتدينه واكرامه لأهل العلم والدين ومن عادته أن بعث بهدايا الى علماء الأزهر وبعد نهاية حكم الملك أونسه عام ١٧١٩ م بقى العرش شاغرا لأكثر من عام من أبريل ١٧١٩ - يونيو ١٧٢٠م وانتقل الحكم بعد ذلك الى بيت عين شمس الذى يمت للبيت السنارى بصلة الرحم وانتزع الهمج الذين تولوا الوزارة الحكم من أولئك السلاطين •

وقد استطاع السلطان محمد أبو الكيلك الانتصار على مناطق قريبة من سلاطين الفور فى دارفور ، لكن الامبراطورية الفونجية قد شهدت فى أواخر القرن الثامن عوامل الفرقة والانحلال فقد بدأت عرى التحالف الوثيق بين الفونج والقواسمة تتصدع حينما رغب شيوخ قرى فى الاستقلال حيث استطاعوا الاستقلال عام ١٧٧٠م وفى عام ١٧٩٠م انتقل القواسمة الى عاصمتهم الجديدة « حلفاية الملوك » بعد تركهم لمدينة قرى • حيث ازداد استقلالهم منذ ذلك الانتقال •

بل أكثر من ذلك فقد استطاعت قبـائل الشايقية أن تخرج على نفوذ العبدلاب • وذلك بأن دارت حربا طويلة بين الشايقية والشـيخ الأمين ود عجيب شيخ العبدلاب وزعيم المشيخات العربية • وكان نفوذ الفور حكام دارفور قد امتد الى قبائل الشايقية والذى قويت به شوكة الشايقية ومن ثم حاولوا الانفصال عن الحلف السنارى • الأمر الذى دفع الشيخ الأمين الى انتهاز الفرصة المناسـبة للاشتباك مع الشايقية للحد من نفوذ الفور واضعاف الشايقية ومن ثم زحف الشيخ الأمين ود عجيب برجاله الى دار الشايقية وعسكر على شاطىء النيل أمام جزيرة « دلقة » ولكن الشيخ عثمان سيد دار الشايقية استطاع الانتصار على العبدلاب •

وقد حدث بعد وفاة السلطان بادى أبودقن أن تولى السلطنة أونسه ابن ناصر بن رباط ، ولكن هناك روايات تؤكد أن هناك سلطانا قد حكم بعد بادى هو « عدلان بن محمد » ثم تولى بعده أونسه ابن بادى الأحمر الذى خرج الفونج عن طاعته وطالبوا بعزله وأقاموا ملكا آخر اسمه « أوكل » ونادوا بعزله ولكن بادى الأحمر تمكن من اخماد حركتهم وهناك أقوال تقول بأنه عزل عام ١٧١٩م • وفى عهده اشتد التنافس التجارى بين سنار والفور فى كردفان مما جعـل الفور يستطيعون أن يتحكموا فى الطرق التجارية أكثر من حكام سنار •

ولم تكن للمصاهرة التى تمت فى عهد السلطان رباط بن بادى سيد القوم • آثار من تحقيق حدة التوتر بين سلاطين سنار وسلاطين الفور

وان كان نظام الحكم فى البلدين يهدف الى نشر الرسالة الاسلامية بين الشعوب وحكام الأقاليم فيها يدينون بالولاء الكامل للزعيم ، ومن هنا فقد تأثرت امارة تقلى التى خضعت لنفوذ سنار بحكم موقعها التجارى بالمنافسة الشديدة بين سنار والفور أو لما كان الفـور حكام دارفور أشد بأسا وأقوى نفوذا من حكام سنار فان تقلى اتجهت نحو تحسين علاقاتها مع الفور الأمر الذى أغضب مجموعة الحلف السنارى .

ولقد كان للعلاقات الخاصة بين الشايقية والفور أثرها فى تقوية مركز الشايقية أنفسهم حيث استطاعوا شق عصا الطاعة على العبدلاب وكذلك الفونج حكام سنار ومن ثم دخلوا فى حرب مع العبدلاب .

ولقد كان انتقال الحكم من الفونج أحفاد عماره دونقس الذى تولى عام ١٥٠٥م حتى عهد السلطان أونسه بن السلطان بادى الأحمر عام ١٧١٩م أن تولى العرش بيت عين شمس الذين كانوا وزراء للفونج وبذلك فان حكم أسرة الفونج قد استمر من ١٥٠٥م – ١٧١٩م أى أكثر من قرنين من الزمان . ثم استمر حكم بيت عين الشمس من ١٧٢٠م حتى منتصف ١٨٢١م عند قدوم القوات المصرية فى عهد محمد على حاكم مصر من قبل الوالى التركى ومن هنا يطلق السودانيون على تلك الغزوة الغزوة التركية .

وقد سادت الفوضى فى سـنار بعـد أن بدأ نفوذ دارفور فى الصعود ويؤثر على مجريات الأحداث فى السودان . حتى أنه ليمكن القول أن الفترة من ١٧٨٧م الى منتصف ١٨٢١م أى خلال أربعة وثلاثين عاما تولى حكم سلطنة سنار تسعة ملوك بدءا من السلطان أوكل الذى ولاه الشيخ ناصر . ثم بعد أوكل تولى نوار ثم بارى ، ثم رانفى ، ثم بادى وقد حكم ثمانية وعشرين عاما من الأربعة وثلاثين عاما . ومن هذا يتبين لنا مدى ما أصاب البلاد من الانحلال والفوضى وما سادها من انحلال وتعطل لمرافق المياه وما ساد من قلق وفزع كثرت معه هجرة القبائل وبخاصة المنطقة الوسطى من السودان وهى التى تشمل أرض

الجزيرة والبطانة وقد كانت هذه الحالة فرصة سانحة لازدياد نفـوذ رجال الدين والفقهاء وسيطرتهم على عامة الشعب •

وقد ظل هؤلاء الملوك ضعاف يستبد بهم وزراءهم وقوادهم من الهمج (بيت عين شمس) حتى ابتلعهم الفتح المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ذلك لأنه بينما كانت الأمور تسير من سيىء الى أسوأ تغيرت الأحوال فى مصر باختفاء الحكم المملوكى وهرب جمـاعة منهم الى شـمال السـودان محاولين تثبيت أقدامهم واقامة حكومة يسيطرون بها على البلاد فزاد بذلك الظلم والتدهور مما دفع الزعماء فى مختلف نواحى الحياة الى الهجرة الى مصر مرة ثانية ومنهم من سافر الى الحجاز حيث التقوا بمحمد على (خلال حرب الوهابيين) وقد طلب هؤلاء منه المعونة لوضع حد للقلاقل والحروب المحلية بعد أن توقفت الحياة الاقتصادية وخيم على البلاد شبح الخراب والدمار الذى تركت بصماتها على الحياة فى بلاد السودان •

ولقد كان لقيام السلطنة الفونجية فى سنار وتحالفهم مع عرب القواسمة أثر بعيد المدى فى النشاط الاسلامى فى سودان وادى النيل ومدى تعميق نفوذهم الاسلامى ومدى دفعهم للحركة الاســلامية ومساهمتهم فى تشجيع الثقافة العربية الاسلامية •

ذلك لأن قيام الأسرة الفونجية قد أدى الى نشر الثقافة العربية فى أرجاء السودان فيما بين ساحل البحر الأحمر شرقا حتى منطقة تشاد غربا ومن هنا ارتبط سودان وادى النيل كدولة كبرى اسلامية فى القارة الأفريقية بالكتل العربية الأفريقية فى الساحل الشرقى لأفريقيا ومصر والمغرب العربى كما ارتبط بعلاقات متنوعة مع أنحاء العالم العربى ومثل السودان حلقة الوصل بين العروبة بمعناها العام الأصيل وبين باقى الدول الأفريقية سواء من النواحى الاقتصـادية أم النواحى الثقافية •

واتصل السودان ببلاد الحجاز اتصالا أملته العلاقات الدينية والثقافية والاقتصادية والعلمية ، ثم رحل الســودانيين الى الأراضى المقدسة لتأدية فريضة الحج ، كذلك وفد على السودان بعض علماء الحجاز وأقاموا بالسودان • وهكذا امتدت الكتلة العربية الثانية على الأرض الأفريقية فى وادى النيل وفى قلب القارة الأفريقية لتكون معبرا روحيا وحضاريا اسلاميا للصلات والعلاقات الودية بين العرب وبين الأفارقة المجاورين سواء فى النواحى الثقافية والروحية والاجتماعية ولتضع الأساس القوى الذى تحركت عليه العروبة والاسلام فى سودان وادى النيل •

ولقد كان لظهور سلطنة الفونج الاسلامية وغيرها من السلطنات الاسلامية الكبرى أثره الكبير فى اتاحة الفرصة للعلماء وأصحاب الدعوة الاسلامية للتوافد عليها ، اذ كانت هناك زيارات متكررة كان يقوم بها علماء مصر وبغداد والمغرب ، كمـا توافد كثير من الســودانيين الى الأزهر لاستكمال تعليمهم •

ومن هنا ظهرت دولة الفونج منذ فجرها الأول قبل انتقالها الى سنار عام ١٥٣٤م فى مظهر اسلامى عميق واضح فقد شهدت حياتهــا الأولى مساهمة فى حركة الجهاد الاســلامى فكانت مشاركتهم لعرب القواسمة العبدلاب وغيرهم من القبائل العربية فى القضاء على مملكة علوة المسيحية مساهمة فى الجهاد وفى سبيل الاسلام ذلك لأن القضاء على مملكة علوة فى سوبا كان أكبر مساهمة فى ســبيل الجهاد من أجل نشر الاسلام بعد أن تبعها القضاء على مملكة مقرة فى دنقلة ، ذلك لأن ســقوط هاتين المملكتين المسيحيتين كان بمثابة فتح البــاب على مصراعيه أمام انتشار الاسلام والثقافة العربية الاسلامية فى قلب القارة الأفريقية •

ومن هنا فانه يمكن القول أنه لولا وقوف القبائل العربية فى صف واحد واجتماعهم على كلمة عبد الله جماع شيخ القواسمة لمساعدة

عمارة دونقس لما تحقق النصر الاسلامى الواسع ولما تمكن المسلمون من احراز هذه الانتصارات الاسلامية •

دور الفونج فى حركة الجهاد الاسلامى :

لقد سبق أن عرفنا أنه كيف ساهم أسلاف عماره بن عدلان دونقس فى حركة الجهاد الاسلامى فى شرق القارة الأفريقية وكيف جاهدوا فى عاصمتهم لملم • فى سبيل توطيد دعائم الاسلام وساهموا فى حركة الجهاد الاسلامى التى قادها المجاهد الاسلامى أحمد القرين فى جهاده ضد ملوك الحبشة المسيحيين الذين كانت المساعدات البرتغالية من الأسباب الجوهرية والأساسية فى ترجيح كفتهم على الجانب الاسلامى ذلك لأن أسرة الفونج لم تكن تقبل أن تقف بمعزل عن الأحداث الجارية على الأرض الحبشية والتى كانت تدور رحاها فى ذلك المكان من شرق القارة الأفريقية ، كما أن انتقالهم الى سنار العاصمة بعد تحالفهم مع العرب كان دفعا قويا لكى يساهموا فى نشر الاسلام بين الوثنيين داخل السودان نفسه ولا سيما فى نشر الاسلام فى كثير من مناطق جبال النوبة ، كما حاربوا الشلك أنفسهم لأجل نشر الاسلام بينهم ، بل أنهم شاركوا مرة أخرى فى حركة الجهاد الاسلامى ضد الأحباش فى القرن الثامن عشر كما شاركوا فيه من قبل فى القرن السادس عشر ، كما أنهم اتصلوا بالمسلمين سلاطين مصر لأجل تحقيق تلك الأهداف الاسلامية • وكان قتالهم للأحباش عام ١٧٤٤م فى عهد سلطان الفونج بادى الرابع أبو شلوخ •

وقد حقق المسلمون فى السودان بقيادة الفونج انتصارا حاسما على الأحباش حيث كانت جيوش الفونج بقيادة الأمير ودسمار ود عجيب شيخ قرى • وكان شيخ أمير الفرسان محمد أبو اللكيلك كبير الهمج ، وكان لهذا النصر دوى هائل فى العالم الاسلامى المعاصر حيث بلغت أخبار هذه الانتصارات مصر والشام والحجاز وتونس والهند والقسطنطينية عاصمة الخلافة الاسلامية •

وقد دارت هذه المعركة الجديدة التى تعرف بالحرب الحبشية الثانيـة فى أبريل ١٧٧٤م • حيث بدأ الأحباش فى عهـد الامبراطور أياسوس يغيرون على حدود سلطنة سنار ، ولكن اغارة الأحباش شجعت الامبراطور نفسه بالاغارة على سنار حيث سار على رأس جيش كبير وكانت أوامره صارمة وواضحة وهى حرق القرى وقتل الناس وأخذ الغنائم من الكماشية والابل والغنم • وقد استمر الجيش يسير فى أرض سنار ثمانية أيام محققا أوامر النجاشى •

وقد ثبت العرب المؤيدون لحكومة سنار ولكن الأحباش تغلبوا عليهم فى النهاية وسار جزء كبير من جيش الحبشة فى طريقه حتى وصل النيل الأزرق فى اتجاه سنار من الناحية الشرقية وسارت بقية الجيش الى شرق الدنور وعندما رأت سنار هذه القوات عملت على تنفيذ خطة محاصرة الجيش الحبشى حيث تمكن الجيش الاسلامى السنارى من محاصرة جيش الأحباش فى مثلث بين النيل الأزرق والدنور واستطاع دحره ، وعندما وصل الخبر الى بقية الجيش الحبشى الذى كان يقوده الامبراطور أياسوس نفسه رأى أنه لا سبيل الى انقاذ الجيش المحصور ومن ثم قرر التراجع الى بلادهم •

وتغدو بعض المصادر أن خطة محاصرة جيش الأحباش كانت من تفكير أحد أمراء أسرة الفور حكام دارفور والذى كان لاجئا سياسيا عند سلطان سنار •

ومن هنـا نرى أن الفونج ومن حالفهم من العرب قـد أسهموا بنشاط كبير وواسع فى نشر الاسلام متوسلين بالجهاد المسلح فى صد الأحباش ونشر الاسلام بين الوثنيين ، وانما استعانوا كذلك بالوسائل السلمية ، فعملوا على تنشيط الدعوة الاسلامية حيث رغبوا فى الدين الاسلامى ونشر تعليمه ومساعدة الكتاتيب وارسال البعثات الى الأزهر وتشجيعهم لعلماء ورجال الدين ورجال الطرق الصوفية وكل من له شأن برفع اسم الاسلام عاليا فى وسط القارة الأفريقية •

وقد شجعوا قدوم العلماء من البلاد الاسلامية المجاورة والقريبة ومن هنا ساهموا فى اثراء تلك الحركة الاسلامية الكبرى دعاة وافدون من خارج السودان وكذلك دعاة وطنيون من أبناء السودان حيث يتميز عصر السلطان بادى أبو دقن بالنشاط الاسلامى الواسع .

ولقد كان كان لذلك النشاط الاسـلامى الواسـع والانتصارات العسكرية التى حققوها على الأحباش أن اتصلوا بالقوى الاسـلامية المعاصرة اتصالا دينيا وثقافيا .

ولقـد كانت الوحـدة السياسية بين الفونج والعبـدلاب عرب القواسمة وغيرهم من القبائل العربية من الأسباب الجوهرية التى مهدت الطريق لنشر الدين الاسلامى والثقافة العربية الاسلامية بطريقة أعمق وأشمل عما كان عليه الحال من قبل ذلك لأنه عند قيام سلطنة الفونج كان انتشار الدعوة الاسلامية ونشاط الدعاة لا يعدو الا أن يكون نشاطا محدودا وفى مرحلته الأولى ، فقد اهتم رجال الدعوة الاسلامية وجلهم من البدو والتجار وممن تنقصهم الثقافة العربية العميقة بالاسـلام لكسب المسيحيين والوثنيين الى جانب الاسلام ولكنهم لم يعملوا على تعميق المفاهيم الاسلامية .

ولكن كان تدفق العرب فى أعداد هائلة حيث استطاعوا أن يصبغوا البـلاد بلغتهم وثقافتهم وأعتنق الوطنيون الدين الاسـلامى وتمثلوا الأنساب العربية وتقمصوا كثيرا من التقاليد العربية ولقد كان قيام مملكة الفونج (١٥٠٤ ــ ١٨٢١م) والفور (١٦٥٠ ــ ١٨٧٤م) الاسلاميتين ميلادا حقيقيا لغلبة العقيـدة الاسلامية وانتشارها للثقافة العربيـة الاسلامية .

ومن هنا فان قيام سلطنة الفونج فى وسط السودان الشـمالى وامتدادها جنوبا حتى خط ٢٢ جنوبا بداية حقيقية وطفرة قوية فى حركة المد الاسلامى على نطاق واسع ، ذلك لأن بذور الدعوة الاسلامية قـد وصلت الى السودان فى عهد مبكر قد يكون هو عهد الفتح الاسلامى

لمصر ٢١ م/٦٤١م وقد يكون سابقا على ذلك بفترة قصيرة حيث لم يمنع ذلك من قدوم بعض المسلمين عبر البحر الأحمر فى عصر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أو فى عصر الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ، ذلك لأن اتفاقية البقط قد نصت على أن يقوم رجال مملكة مقرة فى دنقلة بالمحافظة على المسجد الذى تم بناءه فى عاصمة بلادهم وليس فى مدينة بعيدة أو قريبة من العاصمة اذ كيف يتصور أن يكون هذا المسجد قد أقيم قبل عام ٣١ هـ/٦٥١ م الا اذا كانت هناك رعية اسلامية كبيرة وليست أعداد قليلة •

المهم أن قيام سلطنة الفونج قد كان من الأسـباب القوية التى دفعت حركة الاسلام وانتشاره على نطاق واسـع وتسربه جنوبا فى السودان حتى دخوله الى أراضى مديرية خط الاستواء حيث الحدود الجنوبية للسودان • حيث كان قيام تلك السلطنة ايذانا لعصر جديد فى سبيل الدعوة الاسلامية الى تلك المنـاطق حيث وفـد رجال الدعوة الاسلامية من مصر والحجاز والعراق والشام والمغرب والأندلس ومن شتى أنحاء العالم الاسلامى لكى يدعو لدين الواحد القهار فى ظل الأمن والطمأنينة التى نشرتهما دولة الفونج فى السودان •

كما شاركت فى ذلك البناء الاسلامى القوى والراسخ دولة الفور التى اتخذت من الفاشر عاصمة لها لكى تمارس نشاطها الدينى الواسع فى أطراف السودان الغربى للمشاركة فى اثراء الحركة الاسلامية التى بداية تتخذ من السودان معقلا اسلاميا تنطلق منه للدعوة للاسلام بين القبائل العربية المنتشرة جنوب وشرق وغرب السودان حيث الأقاليم الاستوائية الواسعة وحيث بعمل رجال الدعوة الاسلامية من السودانيين أنفسهم واخوانهم أبناء الاسلام فى الأقطار الأخرى لبناء ذلك الوطن الاسلامى القوى فى قلب القارة الأفريقية •

٤ ــ سلطنة الفور الاسلامية (دارفور)

٨٤٨ هـ/١٤٤٥م

يكتسب اقليم دارفور أهميته فى سيطرته على مناطق واسعة تتخللها بعض المرتفعات حيث تنتشر فيها المراعى ، ومن هنا كانت خطورته لموقعه على طريق القوافل التى ربطت بين الشمال والجنوب والشرق والغرب •

ولما كان حديثنا فى ذلك البحث ينصب على الفترة الاسلامية منذ ظهور أنوار الدعوة الاسلامية فلابد أن يكون ذلك الحديث منصب على فترة انتشار الاسلام على نطاق واسع فى ذلك الاقليم وكيف ظهرت تلك السلطنة الاسلامية فى ذلك الجزء من سودان وادى النيل ؟ وكيف ساهمت فى نشر الاسلام والعروبة فى ذلك الجزء من القارة الأفريقية ؟ •

فقد كانت تلك السلطنة التى قامت كما تتصور بعض الروايات فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى لتكون حلقة فى سلسلة حلقات الزعامات والمشيخات والامارات التى بدأت تظهر وتمارس نفوذها فى حوض وادى النيل الأوسط •

وتذكر المصادر فى تاريخ سابق للقرن الثانى عشر الميلادى ، السادس الهجرى ، كيف بدأت تظهر على مسرح الأحداث السياسية فى ذلك الجزء من السودان ولاية اسلامية أسسها شعب أسود دخل بلاد دارفور هو شعب الداجو أو الدجون وذلك فى صدر الاسلام •

وربما كانت تلك الولاية تخضع لحكم ملك علوة المسيحى الذى كان يعين حكام ذلك الاقليم من العرب المسلمين الذين سكنوا اقليم القاش منذ القرن الأول الهجرى ، السابع الميلاد • ومن ثم عمل هؤلاء العرب فى أرض المعدن بعد أن دخل العرب من المسلمين فى هدوء وسلام الى تلك الأقاليم •

ومن ثم أخذت تلك الهجرات العربية تتطور من قيام مشيخات قبلية وانتهت بسلطنة تزعمت المجموعات القبلية ومن هنا كانت سلطنة الفور تمارس سلطانها على اقليم معين وتمتد سلطاتها على الزعامات التى يتكون منها الاقليم • ومن ذلك فان سلطنة الفـور كانت تختلف عن مملكة الفونج من حيث النظم السياسية والادارية •

وقد دخل ذلك الاقليم فى القـرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى عنصر مغربى من تونس يتمثل فى شعب التنجور وقد يكون هؤلاء المغاربة قد تركوا بلادهم هربا من الغزوة الهلاليـة الكثيفة فى شمال أفريقيا •

وعلى ذلك فان الفترة التى تلت نهاية القرن الثامن الهجرى الى منتصف القرن التاسع الهجرى • قد كانت فترة تكون الزعامات العربية فى مجتمع دارفور التى استطاعت أن تمسك زمام الحكم على الاقليم بأكمله فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى الى القرن السابع عشر كما تذكر ذلك بعض الروايات حيث أن ذلك الرأى حقيقى ولا يتمشى مع طبيعة الدور الذى أخذ العرب يقومون به منذ فترة طويلة كما يقول ياقوت الحموى حيث أخذ المسلمون يتحكمون فى زمام التجارة وحركة القوافل منذ زمن بعيد •

والواضح أن منطقة دارفور كانت ميدانا تقابلت فيه الهجرات العربية وغيرهما كما تقابلت طرق القوافل التى كانت تأتى من أماكن عديدة من القارة الأفريقية ، كما أنهـا كانت ملجأ وموطنا للأسرات الحاكمة التى خرجت من حوض وادى النيل الأوسـط • ويبـدو أن الهجرات التى جاءت الى دارفور من الشمال والشمال الغربى قد شملت مجموعات كبيرة من حوض وادى النيل الأدنى أى من مصر العليا حيث يكون قد خرجت قبائل عربية من وطنها فى شمال أسوان ثم هاجرو الى دارفور بصفة خاصة والى اقليم السودان بصفة عامة •

وأن الداجو الذين حكموا دارفور فى القرن الثامن عشر الميلادى وجاءوا قبل شعب التنجور ، قد جاءوا من الشمال وهناك احتمال أنهم خرجوا من منطقة الواحات المصرية .

أمام التنجور الذين جاءوا من تونس فقـد اخترقوا بلاد بونو ووادای حتى وصلوا الى دارفور ومن ثم فانه سرعان ما سيطر هؤلاء المهاجرون على بلاد دارفور واختلطوا بالسكان الأصليين ونتج عن ذلك الاختلاط بين شعب التنجور وشعب الداجو شعب يسمى شعب الفور وأن هناك علاقة تقليدية ثابتة بين التنجور وشعب سلطنة الفور حيث أن السلطان الأول الذى قام بالحكم كان مسلما تقيا متمسكا بكل التعاليم الاسلامية وقد ولد من أم تنجورية وأن أباه عربيا قد جاء من الشمال من تونس بعد خلاف وكان من أثر زواجه من احدى بنات البيت المالك من التنجور أن انتقل الحكم الى ابنه بحكم وراثة ابن البنت دون الابن للحكم .

وقد نشر التنجور سلطانهم على منطقة واداى فى الغرب وحاولوا نشر الاسلام فى هذه المنطقة حيث كان الاسلام قد دخل معهم عند قدومهم من تونس . وقد كان ظهور تلك السلطنة بمثل دخول الاسلام والثقافة العربية الاسلامية الى السودان من منفذ آخر غير المنافذ الأخرى وهو المنفذ الغربى . حيث كان انتشار الاسلام فى ذلك الجزء الغربى من سودان وادى النيل يبشر بقيام هذه السلطنة القديمة التى ترجع فى أصل قيامها الى القبائل العربية التى وفدت الى تلك المنطقة من مصر وتونس ومراكش حيث استطاعت هذه القبائل العربية أن تتغلب على القبائل التى كانت تسكن الصحراء ونشروا نفوذهم عليها بعد أن تحالفهم فيما بينهم وامتزجوا بها وأنشأوا دولة الفور التى كان الاسلام قد تسرب اليها منذ فترة طويلة قبل ظهورها كقوة سياسية ومؤثرة فى تلك المنطقة حيث ساهم الاسلام فى انصهار تلك القبائل التى كانت تقطن تلك الديار مثل شعب الداجو الذين هاجروا الى دارفور من منطقة جبال النوبا الواقعة غرب النيـل الأبيض . وبسطوا نفوذهم على المنطقـة الوسطى والجنوبية من دارفور واستطاع هذا الشعب أن يؤسس سلطنة محلية .

ولكن كان على دارفور بحكم سوقها واتصالها بالعديد من الأطراف والتى منها بلاد المغرب عبر المسالك والدروب الصحراوية التى تنحدر اليها من الشمال من طرابلس الى الجنوب ، أن قدم كما سبق الاشارة شعب التنجور Tunguri •

الأصول العرقية لشعب التنجور :

حاول بعض المؤرخين الأوربيين أمثـال بالمر وترمنجهام ارجاع النسب لذلك الشعب التنجورى الى النسب العربى مستندين الى روايات قد جمعت من بعض سكان هذه المناطق والتى منها واداى والتى نسب ذلك الشعب البربرى الى هجرة القبائل العربية والتى تذكر أن هناك هجرات عربيــة تدفقت الى دارفور وواداى نتيجة لتطور الأحداث فى منطقة المغرب العربى أثر الغزوة الهلالية العربية التى أدت الى هجرة بعض القبــائل التى ربما لم يكن لها دور على مسرح الأحداث فى بلاد المغرب •

ويرجح بعض البــاحثين أن الموجات التى اندفعت فى القــرن الثانى عشر والثالث عشر (السادس ، السابع الهجرى) من المغرب انما هم من البربر المعروفين بالتنجور والذين اندفعوا للجنوب تحت ضغط القبائل الهلالية واندمجوا فى العناصر الموجودة أصلا فى هــذه الجهات وصاهروهم وكان شعب الفونج والذى كان سبب دخول الاسلام لهذه البلاد مع شعب البربر الوافدين •

ذلك لأن هجرة القبائل الهلالية الغاربة المنتصرة كانت تندفع من بلاد المغرب منحدرة فى الطريق من مصر شرقا الى الغرب فى غارات متصلة ولم نرى أنها اندفعت نحو الجنوب ، انما الذين اندفعوا للهجرة نحو الجنوب هم من العناصر المستضعفة التى لم تقو على الوقوف فى وجه هذا التيار العربى الوافد وهذه العناصر أغلبها ان لم يكن كلهــا من البربر وأن هذه القبائل تنسب اليها قبائل البولالا التى عاشت وكونت

دولة حول بحيرة فترى جنوب شرق بحيرة تشاد وان كان هؤلاد قد ادعوا النسب العربى حيث عاشوا فى وادأى ومعهم قبائل البديات وغيرهم من القبائل الأخــرى • وأن هؤلاء التنجور يمثلون اندفاعة من هــذه الاندفاعات •

وقد يجد المرء نفسه فى شك مما أورده بعض الباحثين المعاصرين ، ذلك لأن هجرة القبائل العربية الى بلاد المغرب قد تمت منذ القرن الأول الهجرى وعقب قيام العرب بغزو هــذه البلاد فى القرن الأول الهجرى ومن ثم وجدت قبائل عربية خالصة استقرت فى هذه المناطق وأن الغزوة الهلالية التى تمت فى القرن الثالث عشر الميلادى ، الثامن الهجرى ، انما كانت غزوة عربية هلالية متأخرة ومن هنا فانه يمكن القول أن قبائل التنجور التى هاجرت من تونس قد تكون قبائل عربية لم تقدر على مواجهة الغزوة الهلالية ومن هنا فقــد أثرت الســلامة والاتجاه الى الجنوب حيث طاب لها المقام فى دارفور والاختلاط بشعب الداجو الذى سكن هذه المنطقة بعد أن خالطته هذه الشعوب الوافدة العناصر السابقة لها فى المقام فى هذه المناطق •

أما القول بأن التنجور من القبــائل البربرية المهاجرة فان ذلك الموضوع فى أمس الحاجة الى رجال الاركبولوجى والانثربولوجيا حيث أنه من نتيجة هذه الدراسات يمكن تحــديد العنصر هــل هو بربرى أم عربى ؟ •

لكن ما يمكن قوله فى ذلك المضمار أن تلك العناصر المهاجرة من التنجور كانت قبائل مسلمة هاجرت وحملت معها اسلامها العميق الى تلك المناطق •

بداية ظهور السلطنة :

لقــد كان أول هؤلاء الســلاطين المولدين من الداجو والتنجور السلطان أحمد المقعور الذى نسب الى شعب التنجور هو ثمرة الاختلاط بين الجنسين • وقد استطاع أحمد المقعور ، الذى يذكر بالمز أن لقب

المقعور ينسب الى شعب التنجور أن يدخل عدة اصـلاحات حكومية وكانت له خبرة ودراية بأساليب الحكم حيت لقيت هذه الاصلاحات قبولا من الأهالى لا سيما أنه استطاع بسياسته الرشيدة جذب قلوبهم لا سيما بعد أن وزع الأراضى بين الفقراء وقوى فى نفوسهم شعورا بالرضا والطمأنينة لم يعهدوه من قبل •

ولقد كان السلطان أحمد المقعور أول سلاطين دافور من المسلمين وان كان ذلك لا يمنع أن الاسلام قد انتشر منذ فترة قبل توليه عرش البلاد ، لكن الاسلام كان قد دخل على نطاق واسع مع قبائل التنجور المهاجرة ومن هنا كان ظهور تلك السلطنة بصورة أوضح يتوقف على عمق التيار الاسلامى وعلى صبغ البلاد بالصبغة الاسلامية القوية التى رسخت تعاليم الاســلام فى قلوب شعب الفـور • ذلك الشعب الذى ربما يكون جامعا لدماء عربية ودماء الداجور ، وربما دماء بربرية ودماء الداجور حيث أن الأصل العرقى لشعب الفور لم يقطع فيه نسب واضح وصريح وان كان حكام الفور قد ادعوا النسب العربى الى بنى العباس ابن عبد المطلب بن هاشم لكن عندما نتقدم تاريخيا حتى نصــل الى السلطان سليمان سولون المؤسس الحقيقى لســلطنة دارفور الفورية نجد أنه يذكر النسب العربى صراحة • ومن هنا ربما يصــح النسب العربى دون البربرى •

وقد اقترنت اصلاحات أحمد المقعور هذا وأولاده من بعده بنشاط ملحوظ فى نشر الدعوة الاسلامية ، ولكن النشاط الاسلامى على نطاق واسع لم يبدأ حقا الا بجهود أحد سلاطينها وهو السلطان سليمان سولون •

سليمان سولون :

استطاع هذا السلطان العربى بلغة الفور أن يحدث نقلة عامة فى تاريخ السودان حيث كان توليــه عرش البــلاد نقطة هامة فى كثرة الهجرات العربيــة الى دارفور والذين قــدموا اليهــا منحدرين من

وادى النيل وهى نفس الموجات العربيـة التى اندفعت نحو الجنوب وأسهمت فى تأسيس دولة الفونج بمساعدة عرب القواسمة نجد أن هناك موجات عربية أخرى اندفعت نحو الغرب فى اتجاه دارفور تحمل الدماء العربية والدين الاسلامى الى تلك الأقاليم حيث استطاعت تلك القبائل العربيـة أن تفعل فى دارفور مثلما فعلت فى الأقاليم الأخرى التى بسطت نفوذها عليها بعد أن اختلطوا بالسكان المحليين وأصهروا سلاطين الفور مثل أصهارهم لملوك النوبة فى مقرة من قبل ومن هنا كان النسب عربيا صرفا فى بلاد دارفور وهذا يبطل الدعاوى بالقول بأن سلاطين الفور شعب تكون من البربر والداجو والتنجور .

ولقد كان سليمان سولون قد استعان بالقبائل العربية الوافدة فى اخضاع القبائل والسكان الخارجين على سلاطين الفور وحكمهم والذين كانوا يعيشون فى جبـال مرة أو المنـاطق المحيطة بها ومن ثم انتشر الاسلام على نطاق واسع وطبعت البلاد بالطابع الاسلامى وتم توحيد كل عناصر سلطنته السكانية تحت لوائه الاسلامى .

كذلك استطاع أن يعيد بناء الدولة على أسس قوية ، بعد أن وحد القبائل وأسس أسرة بسطت نفوذها على دارفور وكردفان ، استطاعت هـذه الأسرة أن تدعم الاسـلام والعروبة وتعمل على نشرهما فى كل المناطق الخاضعة لها .

وفى القرن الثامن عشر الميلادى حفرت تلك الأسرة الفورية سلسلة من الآبار الارتوازية تمتد ما بين الفاشر ومرتفعات كاجاة وكان لهذه الآبار أثر كبير فى تسهيل طرق التجارة وفى ربط دارفور بمراكز الاسلام الشرقية والشمالية الغربية والتى تدفق منها الاسلام الى منطقة دارفور وقد بلغت دارفور فى هذه الفترة أوج عظمتها وقد عملت تلك الأسرة على تدعيم ورسوخ الاسلام وتنشيط الحركة الاسلامية ومن هنا عملوا على تشجيع وصـول الفقهاء من الشرق ومصر وبلاد المغرب العربى والأندلس الى بلادهم لتعليم القوم أصول دينهم الاسلامى الحنيف ، حيث بدأ العرب يلعبون دورا بارزا وفعالا ومؤثر كل التأثير فى تاريخ هذه البلاد .

ومن هنا فان الدور الاسلامى الكبير الذى قام به سليمان سولون والذى نرجح الآخـذ بالقول الذى ذكر أنه حكم فى الفترة ٨٤٨ — ٨٨٠ هـ/١٤٤٥ — ١٤٧٦ م دون غيرها من الروايات الأخرى لا يختلف عن الدور الذى قام به عمارة دونقس ٩١٠هـ/١٠٥٥م من حيث تنشيط حركة الدعوة الاسلامية والعمل على نشر الاسلام بين القبائل الوثنية كذلك العمـــل على تعميق المفاهيم الاســلامية • ومن هنا برزت تلك السلطنة كقوة اسلامية عربية وامارة حضارية فى سماء الحياة العربية الاسلامية فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى ، وليس القرن السابع عشر أو السادس كمـا حاولت أن تصـــور ذلك بعض الأبحاث •

ذلك لأن الموجات العربيـــة الاســـلامية كانت تتدفع فى القرن الرابع عشر والخامس عشر الى القرن السادس عشر أو السابع عشر كما حاول أن يصـــور ذلك من جاءوا بالروايات الشـــفوية من بعض رجالات وعلماء دارفور ومن هنا صارت تلك البلاد بلاد اسلامية ، حيث وفدت عناصر اسلامية متعلمة ومثقفة ثقافة اسلامية عميقة من برنو وباجرمى ، بل كان تشجيع الحركة التجارية من الأسباب الجوهرية التى حفزت العلماء على القـدوم الى دارفور صـــحبة القوافل القـــادمة ومصاحبتها ، ومن هنا أخذ الناس يدخلون فى دين الاســـلام أفواجا كثيرة بسبب اتصالهم بالتجارة والتجار والعلماء والأئمة ورجال الدين والفقهاء •

ويذكر أرنولد توماس فى كتابه الدعوة الى الاسلام أن الاسلام لم ترسخ أقدامه ولم يبشر به على نطاق واسع وتصبح هناك رعيـــة اسلامية كثيفة فى البلاد الواقعة من كردفان شرقا وبحيرة تشاد غربا مثل دارفور ووادای وباجرمى الا فى القرن الثامن الهجرى ، السادس عشر الميلادى •

بل انه تأكيدا لتلك الروح الاسلامية التى وضحت صورتها فان سلاطين الفور انتسبوا الى البيت العربى الشريف الى سلالة بنى العباس

حيث اتخذ أحفاد سليمان سولون هذا النسب العربى القرشى الشريف كما انتسب من قبلهم أو معهم الفونج الى النسب العربى الأموى ، وقد يكون النسب الفورى للأسرة العباسية دليل بحث على أن أم السلطان سليمان قد تكون من القبائل العربية الجعلية التى انتشرت فى دارفور والتى انتسبت بدورها الى بنى العباس •

ومن هنا نرى أن أسرة الفور حاكمة دارفور وعاصمتها الفاشر قد اتخذت لنفسها نسبا عربيا قرشيا حتى سميت آل العباس • وقد أدى ذلك الانساب الى البيت الهاشمى الى نشر الدعوة الاسلامية بين سكان سلطنتهم والعمل على تشجيع تلك الحركة الاسلامية •

وهناك قصة متواترة نرجع بأصول الفور حكام تلك السلطنة الى سلالة بنى العباس فيقال أن شقيقين من العباسين كانا ممن هاجرا الى تلك المنطقة بعد زوال سلطان العباسيين عام ٦٥٦ هـ وحدث بينهما خلاف ففر أحدهما الى جبال مرة فى دارفور وتزوج من ابنة الملك الزنجى الذى كان يحكم فى هذه المنطقة وأنه أنجب من هذه المصاهرة ابنا هو سليمان سولون الذى خلف جده الزنجى والذى يعتبر المؤسس الحقيقى لهذه السلطنة الاسلامية •

كما أن السلطنة بعد ظهورها بهذا المظهر الاسلامى بدأت تتخلص من طابعها المحلى وتؤكد ذاتها كقوة دينية وسياسية كبرى فى السودان وذلك منذ القرن السابع عشر وما بعده ومن هنا بدأت تمارس نفوذها وتبسط سيادتها على الأقاليم القريبة منها وكان ان بسطت نفوذها على كردفان حيث ضمت الى السلطنة الفورية •

وقد جاءت عدة روايات عن الأسرة الحاكمة للسلطنة الفورية وان اتفقت كل تلك الروايات على أن السلطان سليمان سولون كان هو أول سلطان تظهر السلطنة به كقوة كبرى والذى حكم البلاد منذ عام ٨٤٨هـ حتى ٨٨٠هـ وقد كان عدد الزعماء أو رؤساء المشيخات أو الحكام المحليين الخاضعين للسلطنة سبعة وعشرين حاكما وشيخا وأميرا وملكا لا يوجد

من بينهم الا سبعة لا زالوا على الوثنية أثناء فترة حكمه فقط أما العشرون امارة فقد كان كل حكامها من المسلمين • وتضيف تلك الرواية الأولى الى هذه السلطات السبعة والعشرين التى كان يحكمها سليمان سولون • فانه كانت توجد هناك داخل سلطنته أو تخضع لنفوذه بعض القبائل العربية التى كان السلطان يستنفر بها لكى تنجده عند قيامه بالغزوات أو عند تعرضه لخطر خارجى •

وهذه الرواية ذكرها نعوم شقير عند حديثه عن بيت آل الفور فى سلطنة دارفور • ونحن نميل الى الآخذ بهذا التاريخ لتولى السلطنة لما فيه من دلالة مبكرة لانتشار الاسلام وقيام السلطنات الاسلامية فى ذلك الجزء من سودان وادى النيل ، اذ أنه ليس من المعقول أن يتأخر ظهور تلك السلطنة بمظهرها الاسلامى وتولى قيادة مسلمة لهذه البلاد حتى القرن السابع عشر الميلادى ، الحادى عشر الهجرى ذلك لأن منطقة دارفور كانت محاطة بقبائل وامارات وسلطنات اسلامية منها الفونج فى الشرق ووداى وباجرمى فى الغرب اضافة الى مملكة البولالا الذين ادعوا النسب العربى لسيف بن ذى يزن حول بحيرة فترى • وسلاطين كانم فى نجيمى وسلاطين البرنو •

اذا كان الاسلام قد اعتنقه سلاطين الكانم منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، الخامس الهجرى ونجد أن أول سلاطين كانم الذى اعتنق الاسلام هو السلطان أومى جلى والذى حكم (٤٧٩ – ٤٩٠هـ/١٠٨٥ – ١٠٩٧ م) فكيف تأخر اعتناق سلاطين الفور للاسلام حتى عام ١٠٥٠ هـ فى حين أنها قريبة لمصادر الدعوة الاسلامية فى مصر وليبيا وتونس وبقية بلاد المغرب العربى •

ان القول بأن سلاطين الفور المسلمين (سليمان سولون) قد تولى السلطنة عام ٨٤٨هـ هذا القول الذى يجانب الصواب ومن هنا فان تلك الرواية الأولى هى التى نأخذ بها نظرا لمطابقتها للواقع الاسلامى المحيط بدارفور •

وان كانت الرواية الثانية بجدول أنساب وتولى أسرة الفور قد نقلها التونسى فى كتابه تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان وهى أقدم كثيرا من رواية نعوم شقير الا أنها قد لا تكون مصــادرها صحيحة وأنها غير مؤكدة ، وعلى هذا نكتفى بذكر الرواية الأولى التى جاء بها ذكر سلاطين الفور كما يلى :

اسم السلطان	تاريخ تولى الحكم بالهجرى	تاريخ تولى الحكم بالميلادى
١ ـ سليمان الأول سولون	٨٤٨ ـ ٨٨٠	١٤٤٠ ـ ١٤٧٦
٢ ـ عمر بن سليمان	٨٨٠ ـ ٨٩٧	١٤٧٦ ـ ١٤٩٢
٣ ـ عبد الرحمن الرشيد	٨٩٧ ـ ٩١٦	١٤٩٢ ـ ١٥١١

وقد تم فى عهد ذلك السلطان اتخاذ مدينة الفاشر عاصمة سياسية للبلاد وذلك لموقعها على طريق القوافل ومركزها الممتاز كمنطقة تجارية هامة على طريق درب الأربعين مع مصر .

٤ ـ محمود الفضل بن عبد الرحمن	٩١٦ ـ ٩٣٢	١٥١١ ـ ١٥٢٦
٥ ـ محمد بن محمود	٩٣٢ ـ ٩٥٧	١٥٢٦ ـ ١٥٥١
٦ ـ دليل بن محمــد	٩٥٧ ـ ٩٦٧	١٥٥١ ـ ١٥٦٠
٧ ـ شرف بن دليل	٩٦٧ ـ ٩٩١	١٥٦٠ ـ ١٥٨٤
٨ ـ أحمد بن شرف	٩٩١ ـ ١٠٠١	١٥٨٤ ـ ١٥٩٣
٩ ـ ادريس بن أحمد	١٠٠١ ـ ١٠١٣	١٥٩٣ ـ ١٦٠٥
١٠ ـ صالح بن ادريس	١٠١٣ ـ ١٠٣٥	١٦٠٥ ـ ١٦٢٧
١١ ـ منصور بن صالح	١٠٣٥ ـ ١٠٤٨	١٦٢٧ ـ ١٦٣٩

اسم السلطان	تاريخ تولى الحكم بالهجرى	تاريخ تولى الحكم بالميلادى
١٢ ــ السلطان شوش	١٠٤٨ ــ ١٠٦٨	١٦٣٩ ــ ١٦٥٨
١٣ ــ السلطان ناصر	١٠٦٨ ــ ١٠٨٠	١٦٥٨ ــ ١٦٧٠
١٤ ــ السلطان توم	١٠٨٠ ــ ١٠٩٤	١٦٧٠ ــ ١٦٨٣
١٥ ــ السلطان كورد	١٠٩٤ ــ ١١٠٦	١٦٨٣ ــ ١٦٩٥
١٦ ــ سليمان الثانى بن كورد	١١٠٦ ــ ١١٢٧	١٦٩٥ ــ ١٧١٥
١٧ ــ موسى بن سليمان	١١٢٧ ــ ١١٣٨	١٧١٥ ــ ١٧٢٦
١٨ ــ أحمد أبو بكر بن موسى	١١٣٨ ــ ١٣٥٨	١٧٢٦ ــ ١٧٤٦
١٩ ــ محمد دروه بن أحمد	١١٥٨ ــ ١١٦٩	١٧٤٦ ــ ١٧٥٧
٢٠ ــ عمر دليل بن محمد	١١٦٩ ــ ١١٧٦	١٧٥٧ ــ ١٧٦٤
٢١ ــ أبو القاسم بن أحمد	١١٧٦ ــ ١١٨٠	١٧٦٤ ــ ١٧٦٨
٢٢ ــ محمد تيراب بن أحمد	١١٨٠ ــ ١٢٠٢	١٧٦٨ ــ ١٧٨٧
٢٣ ــ عبد الرحمن الرشيد بن أحمد	١٢٠٢ ــ ١٢١٧	١٧٨٧ ــ ١٨٠٢
٢٤ ــ محمد الفضل بن عبد الرحمن	١٢١٧ ــ ١٢٥٤	١٨٠٢ ــ ١٨٣٩
٢٥ ــ ابراهيم بن محمد بن الفضل	١٢٥٤ ــ ١٢٨٨	١٨٣٩ ــ ١٨٧٣
٢٦ ــ الثورة المهدية	١٢٩٧ ــ ١٣١١	١٨٨٤ ــ ١٨٩٨
٢٧ ــ على بن دينار	١٣١٢ ــ ١٣٣٠	١٨٩٨ ــ ١٩١٦

أما عن دخول تلك الأسرة الفورية الى دارفور قد دخلت الى تلك المنطقة سلميا وسرعان ما اندمجوا مع السكان المحليين وتصاهروا مع الأسرات التى كانت تحكم بخاصة وعلى هـذا الطريق أو ذاك انتقل الحكم الى أبناء المسلمين ومن الطبيعى أن هذا التطور بانتقال الحكم الى يد العـرب لم يأخـذ أكثر من جيلين أى حوالى الخمسين عاما ، لو فرضنا جدلا أن العرب قد وصلوا الى المنطقة الغربيـة من الاقليم الأوسط لحوض وادى النيل فى منتصف القرن الثامن الميلادى حيث أخذت جماعاتهم فى التجمع فى مراكز التجارة أو تأسيس رباطات لهم والتجمع فى مراكز التجـارة • واذا ربطنـا هذه التجمعات بحركات التطور العربى فى حوض وادى النيل الأوسط والأدنى فى تلك الفترة التى أسهمت بهجرات كبيرة حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، السابع الهجرى ، نجد أن جماعات من صعيد مصر الأعلى قد جاءت الى اقليم الفور فى ذلك الوقت ودلائل ذلك واضحة وبخاصة فى مجموعات المعاليا والمحاميد والزيادية ويعتقد أن أصـولهم ترجع الى مجموعات تسكن حتى اليوم فى المنطقة الشمالية من مركز ادفو ويبدو أن تلك الغزوة قد حدثت فى فتـرة ولاية السلطان محمد حسين بن محمد الفضـل (١٨٣٩–١٨٧٤ م / ١٢٥٤–١٢٨٨ م) وقد تم اعادة زعيم هذه الجماعة الى مصر • وأرسل له الوالى المصرى محمد سعيد باشا الهدايا بهذه المناسبة •

وقد ظلت تلك السلطنة ثلاثة قرون يتوارثها سلاطينها صاغرا عن كابر ، وكان السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن يعاصر محمد على وعندما فتحت جيوش مصر بقيادة الدفتردار كردفان كان من المتوقع متابعة الفتح فى دارفور غير أن حوادث الملك نمر فى شندى وحرقة للأمير اسماعيل بن محمد على ومن معه وما أعقبها من اضطرابات أخذت كل وقت ومجهود الدفتردار ولم تتمكن جيوش محمـد على من فتحها وفى عام ١٢٥٢هـ • وفى عهد خورشيد باشا وصل الى الخرطوم أبو مدين أخو السلطان محمد الفضل يلتمس الاذن المصرى بالسفر الى مصر لمقابلة الجناب العالى ثم يذهب الى الحج وقد استفسر خورشيد باشا

عند قوة دارفور واتفق معه أن تفتح الحكومة المصرية الاقليم وينصب أبو مدين بن عبد الرحمن الرشيد سلطانا عليها خاضعا للحكومة .

وقد حدثت صراعات بين سلطنة دارفور وسلطنة واداى فى عهد السلطان يعقوب عروس بن السلطان عبد الكريم مؤسس سلطنة واداى استطاع فيها يعقوب أن يهزم قوات دارفور وأن يقتل السلطان موسى ابن سليمان الذى حكم (١١٢٧ — ١١٣٨هـ/١٧١٥ — ١٧٢٦م) ولكن فى عهد السلطان أبى القاسم بن أحمد ١١٧٦ — ١١٨٠هـ/١٧٦٤ — ١٧٦٨م استطاع هذا السلطان أن يهزم قوات واداى .

ولقد كان كان السلطان سليمان سولون هو الخلف الثالث للأمير المسى كورد الذى استطاع أن يؤسس سلطنة دارفور .

وقد بلغت دارفور أقصى أتساع لها فى عهد عهد السلطان محمد تيراب بن أحمد (١١٨٠ — ١٢٠٢ هـ — ١٧٦٨ — ١٧٨٧ م) اذ استطاع ذلك السلطان أن يوقع هزيمة قاسية بجيش العبدلاب وكان على استعداد لعبور النيل الأبيض منطلقا الى سنار الا أنه اكتفى بذلك الانتصار وقد بلغت الدولة أقصى اتساع لها فقد كان حدها من الشمال بئر النطرون فى الصحراء الكبرى على درب الأربعين ومن الجنوب بحر الغزال ومن الشرق نهر النيل ومن الغرب واداى وقد بلغت أقصى اتساع لها فى عهد سلطانها عبد الرحمن الرشيد بن أحمد (١٢٠٢ — ١٢١٧ هـ — ١٧٨٧ — ١٨٠٢ م) فقد انتقل الى عاصمته الفاشر واتصل بالسلطان العثمانى فى القسطنطينية واعترف بسيادته ومنح لقب الرشيد .

وخلت السلطنة من أى أثر من آثار العزلة وبدأت تمارس علاقاتها التجارية والسياسية والثقافية مع العديد من البلاد الاسلامية وكان هذا الاتصال اتصالا وثيقا ولذا فقد امتد نفوذ السلطنة الى واداى فى عهد محمد الفضل الذى هزم سلطان واداى وحمله أسيرا الى الفاشر .

ولو قدر لهذه السلطنة أن تمارس نفوذها السياسى لتوسعت أكثر ولاستطاعت أن تنتزع كردفان وغيرها من المناطق المجاورة حيث

كانت تمتلك جيشا استخدم الأسلحة الحديثة ، لكن التوسع المصرى فى السودان وانتزاعه دارفور فى آخر عام ١٨٧٥ هـ فى عهد السلطان ابراهيم بن محمد بن حسن بن الفضل الذى قتله الزبير باشا • وبذلك قضى على البقية الباقية من نفوذ هذه السلطنة •

وقد اتصــل سلاطين هــذه السلطنة بالحجاز عن طريق الحج وشجعوا علماء الحجاز ورجال الطرق الصوفية على الرحيل الى عاصمتهم الفاشر ، كما توطدت صلاتهم بالمغرب الاسلامى ووجد بها كثير من علماء الاسلام الذين ترجع أصولهم الى المغرب والأندلس •

كما أن صلتهم رغم الحروب مع العبدلاب لم تنقطع بسنار عاصمة الفونج فقد كانت هذه السلطنة تستعين بفقهاء سنار بل ان سلطانهم الأكبر « سليمان سولون » قد شجع فقهاء سنار على النزوح الى بلاده وقد ظهرت هذه الروح الاسلامية واضحة فى معاملتهم لرجال العلم وفى احترامهم واحاطتهم بالرعاية والتكريم •

وقد كان للعلماء الصالحين ورجال الطرق الصوفية نفوذا كبيرا لدى سلاطين الفور فلم يكن يرد لهم طلب اذا ما توسطوا فى أمر من الأمور ومن استجار بهم فهو آمن من غضب السلطان وتمتع الصوفية أيضــا فى ظل سليمان سولون بسلطان كبير ، بل كان لبعضهم سلطات زمنية وروحية •

هذا فضــلا عن تشجيع الحركة العلمية بكافة السبل وانشــاء المســاجد واســتقدام العلماء والاغداق عليهم واحاطتهم بنوع من الرعاية والتكريم •

وقد اتصلت سلطنة الفور بمصر اتصالا وثيقا من جميع النواحى السياسية والثقافية والاقتصــادية ، بل ان سلاطين البــلاد شجعوا العديد من طلابهم الذين أتموا حفظ القرآن الكريم على الرحيل الى مصر طلبا للعلم حيث الأزهر الشريف مقصد الطلاب والعلماء كمــا أنشىء لهم رواق خاص سمى بهم هو رواق دارفور كما أن هناك رواق خاص بالسنارية أبناء سلطنة الفونج • ولا يستبعد أن يكون بعض علماء مصر من رجال الأزهر الشريف قد شدوا الرحال الى دارفورد لا سيما

من الذين اجتذبتهم دارفور ووصلوا اليها فى عهد السلطان عبد الرحمن أن طريق الرحلة عبر درب الأربعين كان مستمرا ومن ذلك اشارة التونسى فى كتابه تشحيذ الأذهان .. ، بأن الشـيخ حسنين عمارى الأزهرى الملقب بالرشيد حيث تابع الشيخ رسالته العلمية فى التدريس بالمسجد الكبير فى الفاشر . كما أن سلاطين البلاد اتصلوا بالأمصار الاسلامية الأخرى .

كذلك فان من آيات حرصهم على هذه الروح الاسلامية اشتراكهم فى ارسال صرة الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث كان المحمل المصرى يخرج بكسوة الكعبة وغيرها مما تحتاجه مكة المكرمة والمدينة المنورة ومعه الريش والسن وغيره من خيرات بلاد دارفور ثم تباع هذه السلع وترسل أثمانها فى صرة الى الحجاز مع ركب الحجاج المصريين .

وقد كان حرص سلاطين البلاد على اكساب حكمهم صفة شرعية اسلامية اذ اتصلوا بالخليفة العثمانى فى الاستانة حيث أرسل السلطان « عبد الرحمن بن أحمد أبو بكر بن موسى » هدية كبيرة من العـاج وريش النعام الى الخليفة وتلقى منه كتابا يخلع عليه فيه لقب الرشيد ومن هنـا لقب عبد الرحمن الرشيد وهو الذى انتقل بعرش أجداده الى مدينة الفاشر حيث أصبحت مقر السلطنة .

كما كان هؤلاء السلاطين رغم ندرة أخبارهم واختلاف الروايات فى ذكر توليهم السلطنة وتوارثهم ينتهجون نهجا اسلاميا حيث يسيرون فى حكم بلادهم من منطلق العدل ويلتزمون بالكتاب والسنة .

ولقد كان من التقاليد المتعارف عليها فى سلطنة دارفور عند توليه سلطنة البـلاد أن السلطان الجديد لا يكون الا من البيت السلطانى المالك أى من سلالة السلاطين الذين حكموا البـلاد كما أنه لا يتولى عرش البلاد أى أجنبى حتى ولو كان شريفا قرشيا وتحقق نسبه .

ولقد كان النهج الاسلامى هو طريقهم منذ تولية العرش للسلطان سليمان سولون الأول ثم بعده ابنه عمر الثانى بن سليمان فقد كان هذان السلطانان من أشد السلاطين محافظة على الكتاب والسـنة .

ويروى أنه بعد توليته سلطنة البـلاد بثلاثة أيام خرج الى مجلس خاصته وسألهم أن يولوا أحد أعمامه فى مكانه وذلك لأن التقاليـد المتوارثة ان الملك المختار لولاية العرش عليـه أن يحتجز فى بيته لمدة سبعة أيام ولا تصدر منه خلال هذه الفترة أية أوامر فى أية صورة من الصور وعليه بطبيعة الحال أن لا يحضر مجلس القضاء وأن لا يقبـل أى دعوة وقد حافظت السلاطين على هذه العادة ، عادة الاعتكاف لسبعة أيام قبل ولاية العرش •

ومن ذلك نرى أن السلطان عمر قد خرج فى الثلاثة أيام الأولى وسأل مجلس خاصته الذى كان لا يجوز حضوره قبل أسبوع أن يولوا أحد أعمامه فى مكانه سلطنة البلاد وذلك على حد قوله لأن طاقية الملك ثقيلة • وذلك لالتزامه بالكتاب والسنة والسير على النهج الاسـلامى واقامة العدل فى البلاد وقد كان السلطان عبد الرحمن الرشيد لا يقل فى نهجه الاسلامى عن هؤلاء السلاطين ، بالاضافة الى أنه قد خرق عادة السبعة أيام التى كان يعتكف فيها السلطان فى بيته لأن هذه العادة ترجع الى عهود ما قبل الاسلام ، وانها تهدف الى قدسية السلطان وأن بقاءه فى الاعتكاف لهذه الفترة تهدف الى تصفيته روحانيا قبل ممارسته للحكم ، ويقوم السلطان بالخروج للرعية فى اليوم الثامن من توليـه عرش السلطنة ويمر فى موكب بالعاصمة وبعـد جلوسه على العرش تدخل اليه الشكاوى ويصدر الأحكام •

وقد عمل سلاطين الفور على تشجيع العلم والعلماء وتقديم الهدايا لهم حرصا على نشر العلم الاسلامى والعلوم الاسلامية فى بلادهم • ويروى التونسى كيف أن عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور لما ظهر حكمه وعدله وحبه للعلم والعماء وأهل الفضل من رجال الدين والطرق الصوفية وفد على بلاده الأشراف والعلماء من شتى أنحاء العـالم الاسـلامى من بلاد الفـولانى وامارة بونو ، وسوكوتو وامارات الهوسا ، كانوا ، وكشينا ، ومن مكة المكرمة وغيرها من البلاد الأخرى •

وقد كان اتصال أهالى دارفور بالغرب مع واداى وباجرمى وبرنو وكانو وامارة البولالا أكثر من اتصالهم بالشرق • وقد ظلت دارفور

حتى الفتح المصرى للسودان القوة الاسلامية الكبرى فى السودان وقد حاول سلاطين دارفور الاحتفاظ باستقلالهم أمام الفتح المصرى وغيره والتزموا سياسة الدفاع عن بلادهم بدليل أنها لم تسقط تحت ضربات الجيش المصرى الا فى عام ١٨٧٥ م فى حين تم فتح السودان ١٨٢١ م أى ظلت تجاور الحكم المصرى ما يقرب من أربعة وخمسين عاما ولكن أمرهم انتهى بالخضوع للحكم المصرى حيث تقدم الزبير باشا من بحر الغزال الى دارفور وقتل السلطان ابراهيم بن محمد آخر سلاطينهم حيث حمل الباقون من أمرائها وأسرتها الحاكمة السابقة الى مصر حيث سكنوا بها فى منطقة سوق السلاح وقررت لهم الحكومة المصرية معاشا . والحقيقة أن سلطنة دارفور تجمع عناصر عربية وعناصر زنجية وتتمثل فيها تقاليد مختلفة بعضها عربى وبعضها يتصل بالتقاليد الزنجية السابقة .

لكن مع كل هذا كان العلماء يعقدون حلقات الدرس والعلم ويقومون بشرح وتفسير الآيات القرآنية وعلوم الحديث والفقه وغيرها من العلوم الاسلامية حيث كان يفد اليهم الناس ليتفقهوا فى أمور دينهم وليعوا كل ما يطلب منهم أداءه قبل ذلك الدين الحنيف كما ذكر التونسى (ان السلطان عبد الرحمن الرشيد قد طلب من والده الشيخ التونسى الذى كان من بين الوافدين على السلطنة والذى تكاثر عليه القوم حيث وفد اليه أكابرهم وطلبوا منه قراءة مختصر خليل ، فقرأ لهم ربع العبادات .

وقد كان الفقيه فى دارفور له منزلة تلى منزلة رجال السلطان ، كما أن الرحالة « بروان » الذى زار دارفور ذكر أن العلماء كانوا يتمتعون بمنزلة كبيرة عند السلطان عبد الرحمن الرشيد .

ومن هنا فقد ساهمت سلطنة دارفور كما ساهمت سلطنة الفونج وامارة الكنوز ومن قبلهما امارة العمرى فى القرن الثالث الهجرى فى اثراء الحركة الاسلامية وفى طبع البلاد بالطابع العربى وفى نقل السودان تلك النقلة الاسلامية العربية بانتشار العقيدة الاسلامية واللسان العربى وبذلك قدر للسودان أن يقوم بدوره العربى والاسلامى فى وسط القارة الافريقية انطلاقا من حق الأخوة الاسلامية .

٦ ــ امارة تقلى الاسلامية

اذا كانت السلطنات الاسلامية السابق الاشارة اليها قد ساهمت مساهمة فعالة فى نشر الاسلام والعروبة فى ربوع السودان وصــبغه بالصبغة العربية الاسلامية الا أن هناك امارة أخرى شاركت الامارات والسلطات السابقة صــبغ السودان بالصبغة العربية الاسلامية ، تلك هى سلطنة تقلى التى شهد القرن الثانى عشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى ظهورها كقوة سياسية كبرى تحاول أن تحتل مكانها بين أكبر قوتين اسلاميتين فى السودان فهى تتوسط سلطنة الفونج التى عاصمتها سنار من ناحية الشرق وسلطنة الفور التى عاصمتها الفاشر فى الغرب ومن هنا حاولت تلك السلطنة أن تحتل مكانتها فى وسط الصراع الدائر بين كل من الفاشر وسنار •

وتقع تلك السلطنة الاسلامية فى المنطقة الواقعــة غرب النيــل الأبيض وجنوب كردفان وهى عبارة عن منطقة جبلية لكن تتخللها الوديان الخصبة التى تساعد على الاستقرار والاقامة الدائمة فى تلك الوديان وسكانها يغلب عليهم العنصر العربى الذى اختلط وانصــهر مع بعض السكان المحليين لكن العنصر العربى الوافد استطاع أن يبسط نفوذه على تلك المنطقة ومن هنــا ظهرت ســلطنة تقلى بمظهــرها العــربى الاسلامى •

وتشير الروايات المتواترة أنه فى أوائل القرن الثامن عشر الهجرى قد شهدت منطقة تقلى وفود بعض القبــائل العربية والتى كانت من قبائل الجعلين العربية والتى هى عبــارة عن مجموعة عدنانية الأصل ،

بل هى من أكثر القبائل العربية نفـوذا وأكثر عددا فى السودان وهى تنسب الى جد أكبر اسمه ابراهيم وقد لقبت بالجعل وتنسبه الروايات التاريخية المتواترة الى سعد بن فضل بن عبد الله بن العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا يطلق عليها أحيانا فى السودان اسم المجموعة العباسية بدلا من المجموعة الجعلية ٠

وقد استطاع أحد أبناء الأسرة الجعلية أو العباسية والذى تطلق عليه المصادر « محمد الجعل » الوصول الى تقلى والاستقرار بها فترة من الزمن ثم تقرب الى حاكم تلك المملكة بعد أن ترك قبيلته التى كانت تقطن على النيل قرب مصب نهر العطبرة أن يستقر فى تلك المنطقة وأن يتزوج ابنة زعيم تقلى وأن يقوم بالعديد من الاصلاحات والأعمال التى بهرت الملك والشعب وقد أنجب ذلك الزواج ولد تطلق عليه المصـادر « أبو جريدة » وقد كان لهذا الابن وراثة العرش الشرعى نظرا لتوريث ابن البنت فى تلك المناطق ٠

ومن هنا ورث أبو جريدة عرش تقلى عن جده ٠ ومن هنا يعتبر أبو جريدة المؤسس الفعلى للأسرة الجعليـة الحاكمة والمسيطرة على مجريات الأمور فى سلطنة تقلى منذ تولى مقاليد الأمور فى البلاد والتى ظل أحفاده يتوارثون عرش البلاد حتى بداية القرن العشرين الميلادى ٠

ولا يعرف على وجه التحديد الزمن الحقيقى أو الأعوام الحقيقية التى تولى فيها السلطان أبو جريدة بن محمد الجعلى مقاليد الأمور فى البـلاد لكن المتعارف عليـه أن الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادى كان فترة توليته العرش ٠ ولقد عمل أبو جريدة على ظهـور السلطنة بالمظهر الاسلامى حيث كان الدين الاسلامى قد نشر لوائه على نطاق واسع بين أفراد سلطنة تقلى نظرا للاستقرار المكثف للقبـائل العربية المهاجرة من الشمال والغرب ومن الشرق حيث كانت تلك المنطقة منطقة التقاء القبائل المهاجرة من الأطراف المختلفة ٠

ومن هنا نجده يولى اهتماما خاصا ببناء المساجد فعمل على بنــاء العديد منها لا سيما فى مركز السلطنة ولقد كان الدور الاسلامى الذى قام به أحد الزهاد الجعليين واستقراره فى تلال تقلى عام ١٥٣٠ م هو الأثر الأكبر فى جذب قلوب السكان لما امتاز به من ورع وزهد وتقوى ومن هنا كثر أنصاره وأشياعه وأقبل الناس حوله يتلقون بركاته ومن ثم لم يلبث أن ازداد نفوذه ومصاهرة مع حاكم الاقليم وكان ثمرة تلك المصاهرة ذلك الابن جيلى أبو جريدة الذى قدر له أن يتولى سلطنة تقلى الاسلامية وأن يكون السلطان المسلم منذ عام ١٥٧٠ م .

ومن ثم عمل على امتداد نفوذ السلطنة الى الاقليم الشرقى من جبال النوبة فى كردفان وتذكر المصادر أن الذين تولوا عرش السلطنة بعد أبو جريدة هذا قد بلغوا تسعة عشر سلطانا وقد حافظت هــذه السلطنة على استقلالها حتى الفتح المصرى للسودان .

ولقد لعبت سلطنة تقلى دورا كبيرا فى الميدان الاجتماعى والثقافى فى الســودان ، ذلك لأن وسيلتها لنشر الاســلام لم تكن بالدعوة التبشيرية والترحال لدعوة الناس الى الدخول فى دين الله أفواجا ، بل كان انتشار الاسلام يتسم بالوسيلة الاجتماعية والتسرب السلمى عن طريق المصاهرة الى الشعوب المحلية ثم اندماج هذه الشعوب فى الدماء العربية الوافدة ثم اندماج هذه القبائل فى الحياة القبلية الجديدة .

ولقد كانت النتيجة الحتمية لهذا الاندماج الاجتماعى اعتناق جيــل المولدين دين الآباء ودين القبيــلة صاحبة النفــوذ ثم ازداد التيار الاسلامى عمقا بمضى الزمن .

ولقد لعب الجعليون الذين ينتمى اليهم الشيخ محمــد الجعلى والد جيلى أبو جريدة ، دورا هاما فى تطور الحركة الاسلامية فى تقلى

وغيرها من المناطق العديدة فى السودان ، اذا كانت سياسة الاندماج فى القبائل السودانية من أهم عوامل نشرهم للاسلام .

ذلك لأن كبير القبيلة الجعليـة ابراهيم كان يدخل فى قبيلته من ليس منها ولعل هذا يفسر لنا النمو المطرد لهذه القبائل الجعلية حتى أصبحت شعبا كبيرا يتألف من عدة قبائل وفيرة العدد .

ومن هنا لعبت سلطنة تقلى دورا هاما فى نشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية حيث أن هذه الولاية الاسلامية التى لعبت دورها فى الحياة الاسلامية والسياسية فى السودان تقع بجبال تقلى جنوب خور أبوجبل وحدها الجنوبى حوالى خط عرض شمال ١١ أما حدودها الشرقية والغربية فليست معروفة أو بالأحرى هى حدود غير واضحة المعالم ولم تكن حدود ثابتة وتشتمل تلك الزعامة التقلية عددا من التلال الصخرية التى يطلق عليها محليا « جبال » ويقدر ارتفاع هـذه المجموعة من الصخور بحوالى خمسة آلاف قدم عن سطح البحر وتنحدر الجبال من الناحية الغربية فى أرض مستوية السطح أما فى الشرق فانحدارها أقل مما هو عليه فى الغرب .

وتكاد تكون مجموعة التـلال هضبة غير متساوية فى الارتفاع وتعرف بالجبال الشمالية الشرقية ويبلغ ارتفاعها حوالى ثلاثة آلاف قدم وتبـلغ مساحة المنطقة التى يطلق عليها أساسا سلطنة تقلى نحو الأربعين ميلا مربعـا ، وتضم الجبـال التى تقوم عليهـا فى الوقت الحاضر الجلال ، القرى ، الهوى ، تاس ، جولوبا .

وقد قامت فى تقلى منذ حوالى أربعة قرون أو يزيد قليلا زعامة دينية اسلامية تولاها أحد رجال الدين الذين دخلوا المنطقة من حوض وادى النيل الأوسط واستطاع هذا الفقيه تكوين أسرة حاكمة عن طريق

زواج الفقيه من بنت الحاكم المحلى فانتقل بذلك الحكم الى ولده بحكم التقاليد المرعية فى الحكم لأبناء البنت أو أبناء الأخت •

وعرف الحاكم الأول لهذه الأسرة التى دانت بالاسلام باسم « قيلى » أبو جريدة وقيلى هذا لفظ نوبى معناه الأحمر فيكون اسمه الأحمر صاحب أبو جريدة وتولى الحكم بعده حوالى التسعة عشر سلطانا أو ملكا دون انقطاع وامتدت سيطرة بعض الملوك الى ما وراء خور أبو جبل شمالا وتالودى جنوبا واعترف لهم بالسلطان عدد من القبائل العربية التى دخلت الولاية ، وتقول الروايات المحلية ، أن الفقيه محمــد الجعلى وهو والد قيــلى أبو جريدة قد جاء الى الاقليم من الشمال فى حوالى ١٥٣٠م ومن المحتمل أن يكون هذا الفقيه محمــد الجعلى قد جاء مع مجموعة من الفقهاء للدعوة للرسالة الاسلامية فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وكان أقوى من زملائه الآخرين حيث تزوج من البيت الحاكم فانتقــل بذلك الحكم الى ابنــه قيلى أبو جريدة الذى أسس الأسرة الحاكمة والمعروف أن الفقيه محمــد الجعلى قد اتخذ مركزه للدعوة الى التعاليم الاسلامية فى المكان الذى يعرف الآن بجلال ، قرى ، الهوى ، والكيرايا ، ولمــا أنس فيه الحاكم المحلى من خلق حسن زوجه من ابنته التى أنجبت أبو جريدة ، وبعد قليل مات الزعيم الذى كان يعرف باسم كيركير •

وقد اهتم هؤلاء الزعماء من أسرة تقلى أبو جريدة بالدعوة الى الدين الاسلامى وتعاليمه وجاء الى بلدهم عدد من الصوفية أمثــال حسن ود حسونة ، تاج الدين البهارى ، اللذان جاءا الى جبال تقلى فى القرن السابع عشر الميلادى •

واستطاع سلاطين تقلى وزعمائها العمل عل ىنشر سطوتهم على مناطق بعيدة وسكنت بلادهم جماعات كبيرة من التجار العرب الذين اشتغلوا بجانب تجارتهم بالدعوة الاسلامية اضافة الى رجال الدين

الاسلامى الذين قاموا بدورهم خير قيام كما منح رجال الدين مناطق معينة لكل واحد منهم لكى يقوم بالدعوة للدين الاسلامى بين الوثنيين من سكان الجبال .

واشتد نفوذ تقلى وزادت سطوتها لدرجة نها وصلت الى مرحلة استطاع فيها قبول اللاجئين الفارين من سلطنة سـنار ومنحهم حق اللجوء السـياسى والتكفل بحمايتهم وامتدت سيطرة سلطان تقلى فى حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى الى جميع الجبال الشمالية والشرقية وبلغت تقلى مركزا له شأنه .

ولما كانت هـذه الزعامة التقلية فى موقع هام بالنسـبة لسلطنة سنار وسلطنة الفور ، بعـد أن بدأت سلطنة الفور فى ذلك الوقت فى الدخول فى منافسة سلطنة سنار والتحكم فى الطرق التجارية ومحاولة اجتذاب التجارة الى أسواقها فى الفاشر وغيرها من المدن الكبرى بها ، فلذلك لجأ سلطان سـنار الى مصـاهرة سلطان تقلى السلطان قيلى أبو قرون الذى حكم فى الفتـرة من ١٦٤٠ الى ١٦٦٨ م وقد تزوج هذا السلطان الأميرة عجايب أم شيلة بنت السلطان رباط ، وقد جاءت هذه الأميرة الى تقلى فى حاشية كبيرة وأقامت مسكنها فى « بلولا » وقد أنجبت للسلطان قيلى أبو قرون ولدين وصل كل منهما الى العرش ، وقد عاشت الأميرة السنارية عصرا طويلا ولعبت دورا هاما فى سياسة تلك السلطنة حيث بدأت السياسة الخارجيـة تتجه بخاصية التعـاون والترابط مع سلطنة الفونج فى سنار .

وقد أظهر سلاطين تقلى الكبرياء ، بسبب ما وصلت اليه زعامتهم من قوة فصاروا يجبون ضرائب عالية من التجار الذين يمرون عبر اقليمهم ، كما كان ينهب تجارتهم ويسىء معاملتهم وقد حدث ذلك مع صديق سلطان سنار بادى أبو دقن وربما كان شريك له فى التجـارة ولـما علم السلطان بصلة ذلك التاجر بسلطان سنار تحدى السلطان

السنارى وقال أن سلطان سنار لا يستطيع الوصول الى هذه الجبال غير أن السلطان السنارى تولى قيادة جيشه بنفسه واستطاع الدخول الى مقر قيادة سلطان تقلى واستطاع الوصول الى جبال تقلى وحاصر سلطانها لكن الحرب انتهت بالصلح على أن يدفع سلطان تقلى جزية سنوية بسنار .

وكان هذا الاتفـاق قد دفع الفور الى تحويل طريق تجارتهم مع حوض وادى النيل الأوسط نحو منطقة الشايقية ومنهـا الى البحر الأحمر أو الى الشمال وبقى هذا الطريق مستخدما حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى .

وهكذا بقيت سلطنة تقلى تابعة لسلطنة سنار تدفع لهـا الجزية سنويا ولكن سلاطين تقلى مع اعترافهم بتبعيتهم لسـنار استطاعوا الدخول فى صلات ودية مع سـلاطين الفور ، الأمر الذى جعل سنار تنظر الى تقلى بعين الرضا والراحة وصارت تقلى تمارس أعمالها كدولة مستقلة فكانت ترسل المحمل الى الحجاز ولم تعارض سنار فى ذلك .

ويعتبر السلطان السـابع محمد بن تقلى أبو قرون وهو الابن الأكبر لوالده من أقوى سلاطين البيت الحاكم ، واستطاع أن يؤسس عاصمته فى مدينة (سى) التى بقيت عاصمة البيت الحاكم فترة من الزمن زادت على مائتى عام ، وبعد وفاته تولى شقيقه عمر أبو زنتر الحكم وكان سلطانا جبارا رهيبا ووصف بأقبح الأعمال ، وكان بذلك أول سلطان يحكم تقلى وهذه صفات لم يسبقه اليها أحد من سلاطين تقلى الذين سبقوه فى الحكم .

ورأت أمه وهى عجوز ضرورة الخلاص منـه ونقل السلطة الى حفيـدها اسماعيل بن السلطان محمد السلطان السـابع ، وتقـول الروايات انها وضعت سكينة حادة فى طبق الغذاء ولما وجد السلطان عمر هذه السكينة استشاط غضبا وفى ثورته هذه قتل حوالى ثلاثين من رفاقه وأثارت هـذه المذبحة غضب الشعب فطرد عمر وأتبـاعه من

السلطنة وأعلن اسماعيل سلطانا لتقلى خلفا لعمه عمر ، ولكن السلطان عمر طلب من سلطان سنار نجدته كما نصحته أمه وفى نفس الوقت أرسلت هى بنفسـها كتابا سريا الى سلطان سـنار تطلب منه فيـه ألا يساعد ابنها عمر وأن يقتله اذا أمكن ذلك ، وكان عمر قد وصل هو وأتباعه الى سنار وأكرمه السلطان بادى الأحمر وكان فى ذلك الوقت قد حدثت ثورة فى احدى أقاليم سلطنة سـنار قام بها أحد المشايخ فطلب منه السلطان بادى الأحمر أن يقود حملة لتأديب الثـوار وذلك الشيخ ، اعتقادا منه أن عمر سوف يقتل فى هذه الحملة وبذلك تنتهى مشكلته ولكن عمر قبل على مضض قيـادة هذه الحملة التى كان عليها أن تقطع الصحراء لمسافة طويلة واستطاع عمر أن يتغلب على الثوار وكان النصر حليفه وبعد ذلك أعطاه السلطان بادى الأحمر الهـدايا الكثير ووعده بالمسـاعدة اللازمة لعودته لعرش تقلى ، غير أنه دبر مؤامرة لاغراقه فى النيل الأبيض أثنـاء انتقاله الى تقلى وتم اغراق القارب الدى كان يقله الى بلاده فمات عمر غرقا ورفقاؤه ونجا شخصان من أتباعه نقلا الخبر الى تقلى ، وتمكن « اسماعيل بن محمد بن قبلى أبو قرون » من الحكم بعد أن حكم فترة طويلة فى البلاد ، وخلفه على عرش السلطنة ابنـه أبو بكر بن اسماعيل الذى كان حسن السـيرة وازدادت فى عهده قوة تقلى وامتد نفوذها الى مناطق متعددة وبعـد وفاة أبو بكر حاول أخوه المريد ولاية العـرش ، غـير أن الجيش والمستشارين الخاصين للسلطنة والسلطان نادوا بولاية العـرش لابن أبو بكر وهو عمر وقبل عجيلون شقيق السلطان أبو بكر الوصاية على العرش حتى يتسلمه عمر ، وكان عجيلون هذا رجلا عاقلا وله شخصية محترمة واستطاع فى هذه الظروف الصعبة من السير بالأعمال فى أمانة وتعقل وعمل على زواج عمر واسناد العرش اليه وتخلى عن الوصاية .

وتسكن هذا الاقليم مجموعات متعـددة من أجناس مختلفة لها لغاتها الخاصـة بها وتشمل مجموعة متعـددة من القرى التى يطلق عليها النوبا .

وهذه السلطنة فى أمس الحاجة الى دراسة واسعة ومتعمقة تبين لنا أوجه النشاط والنظم والعلاقات التى كانت بين سلطنة تقلى وغيرها من السلطنات الاسلامية السودانية المعاصرة ، كما تلقى الضوء على دورها فى نشر الاسلام وثقافته العربية الاسلامية فى أنحاء السودان وعلاقاتها مع البلاد العربية الاسلامية • وعن دورها فى ارساء دعائم العروبة والاسلام فى ربوع السودان •

ونورد هنا قائمة سلاطين تقلى الذين حكموا تلك السلطنة منذ أن قدم اليها الفقيه مجمد الجعلى مؤسس السلطنة الاسلامية حيث تزوج ابنة حاكمها السابق كير كير وأنجبت منه الفقيه محمد أبو جريدة ابن محمد الجعلى مؤسس أسرة جعل فى سلطنة تقلى •

١ – محمد أبو جريدة أو محمد قيلى أبو جريدة بن محمد الجعلى ٩٦٢ – ٩٨٨ هـ – ١٥٦٠ – ١٥٨٥ م •

٢ – سبع بن قيلى أبو جريدة ٩٨٨ – ١٠٠٠هـ – ١٥٨٥ – ١٥٩٧ م •

٣ – قيلى عمارة بن سبع أبو جريدة ١٠٠٠ – ١٠٢٩هـ – ١٥٩٧ – ١٦٢٥ م •

٤ – عمر أبو شحيرة بن سبع ١٠٢٩ – ١٠٣٠ هـ – ١٩٢٥ – ١٦٢٦ م •

٥ – قيلى عوض الله بن قيلى عمارة ١٠٣٠ – ١٠٤٥ هـ – ١٦٢٦ – ١٦٤٠ م •

٦ – قيلى أبو قرون بن قيلى عوض الله ١٠٤٥ – ١٠٧٣ هـ – ١٦٤٠ – ١٦٦٨ م •

٧ – محمد بن قيلى أبو قرون ١٠٧٣ – ١١٧ هـ – ١٦٦٨ – ١٧٠٢ م •

٨ – عمر أبو زنتر بن قيلى أبو قرون ١١١٧ – ١١٢٠ هـ – ١٧٠٢ – ١٧٠٥ م •

٩ ـ اسماعيل بن محمد ١١٢٠ ـ ١١٩٣ هـ ـ ١٧٠٥ ـ ١٧٧٣ م .

١٠ ـ أبو بكر بن اسماعيل ١١٩٣ ـ ١٢٣٥ هـ ـ ١٧٧٣ ـ ١٨١٤ م .

١١ ـ عمر بن أبو بكر ١٢٣٥ ـ ١٢٤٨ هـ ـ ١٨١٤ ـ ١٨٢٧ م .

١٢ ـ أحمد بن أبو بكر ١٢٤٨ ـ ١٢٧٤ هـ ـ ١٨٢٧ ـ ١٨٤٣ م .

١٣ ـ المريد بن اسماعيل ١٢٧٤ ـ ١٢٧٥ هـ ـ ١٨٤٣ ـ ١٨٤٤ م .

١٤ ـ ناصر بن أبو بكر ١٢٧٥ ـ ١٢٩١ هـ ـ ١٨٤٤ ـ ١٨٥٩ م .

١٥ ـ آدم ديالو بن عمر ١٢٩١ ـ ١٣١٧ هـ ـ ١٨٥٩ ـ ١٨٨٤ م .

١٦ ـ على أبو زنيب بن آدم ١٣١٧ ـ ١٣٢٤ هـ ـ ١٨٨٥ ـ ١٨٩٢ م

١٧ ـ قيلى بن آدم ١٣٢٤ ـ ١٣٤٨ هـ ـ ١٨٩٢ ـ ١٩١٦ م .

١٨ ـ أبو بكر بن قيلى ١٣٤٨ ـ ١٣٥٥ هـ ـ ١٩١٦ ـ ١٩٢١ م .

١٩ ـ آدم النيل بن قيلى ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٢١ م .

هؤلاء سلاطين تقلى الذين حكموها منذ منتصف القرن السادس الميلادى حتى الربع الأول من القرن العشرين الميلادى والذين عملوا ما يقرب من أربعة قرون متواصلة فى حكم البـلاد فى سلسلة أسرة الجعليين الذين عملوا على نشر الاسـلام والثقافة العربية الاسلامية التى ساهم هؤلاء السلاطين مع غيرهم من سلاطين الامارات والمشيخات والسلطنات الأخرى على نشر العروبة والاسلام فى السودان ادراكا منهم لما لهذه الرسالة الخالدة من دور فى رقى البشرية ومحاولة الأخذ بيدها الى مدارج العلم والترقى والحضارة وصولا لمفاهيم انسانية خالدة ومن هنا كان دور سلاطين تقلى فى ارسـال المحمل سنويا الى بلاد الحجاز بل انها كانت تشارك مع المحمل الذى يخرج من القـاهرة وكانت تدفع بعض تكاليف كسوة الكعبة الشريفة ، اضافة الى ارسال العديد من أبنائها للدراسة فى جامع الأزهر والعودة بعـد ذلك الى بلادهم لكن يساهموا فى اثراء الحركة العلمية الاسلامية كما أن هؤلاء

السلاطين من أسرة أبو جريدة الجعلى قد عملوا على تشجيع الحركة العلمية الاسلامية ، ومن هنا سعى اليهم العلماء من مختلف الأقطار العربية والاسلامية لكى يقوموا بدورهم فى نشر الدعوة الاسلامية فى تلك البقـاع من أرض السودان ، وذلك لمـا كانوا يجدونه من تشجيع وعطاء ومن مكانة ومنزلة لدى سلاطين تقلى الذين عملوا جهدهم على جذب رجال الدين والدعوة الاسلامية الى امارتهم لكى يعملوا ما وسعهم العمل على تعميق المفاهيم الاسلامية لدى شعب هذه الامارة وترسيخ العقيدة الاسلامية فى نفوس شعبها والأخذ بيد الوثنيين من أهلها الى عقيدة الاســلام فى المدن الكبيرة والعشـائر وفى غيرها من القرى والتجمعات العشـائرية البدوية وذلك للعمل على نشر الاســلام بين شـعبة وادخال الناس فى ذلك الدين الخالد ، كذلك العمل على تشجيع المسلمين من مختلف البلاد العربية والاسلامية على الهجرة والاستقرار فى بلاده بالاضـافة الى عمله على تشجيع الحركة التجارية ومساعدة حركة القـوافل وتأمين الطرق بين بلاده ومختلف البـلاد الاسلامية والعربية •

فقد شجع السلطان أبو جريدة بن محمد جعلى وأحفـاده من سلاطين البلاد وغيرهم من الامارات والسلطنات الاسلامية الأخرى فى السودان على قدوم العلماء والفقهاء ورجال الطرق الصوفية من مصر والحجاز والمغرب وذلك لكى يساهموا مساهمة فعالة فى نشر العقيدة الاسلامية وتعميق مفاهيمها الاســلامية على أسس علمية سليمة بين مواطنيهم •

ومن هنا يمكن اعتبار أن الميلاد الحقيقى للثقافة العربية الاسلامية فى السودان قـد ولدت بقيـام سلطنة تقلى وغـيرها من السلطنات الأخرى • ذلك لأنه لا غرابة فى أن يولى ســلاطين هذه الســلطنات وجوههم شطر الشرق الاســلامى ونحو المغرب الاســلامى مشجعين قدوم العلماء والفقهاء ورجال الدين ورجال الطرق الصوفية وانه بنهاية القرن الثامن عشر عم انتشار الثقافة العربية الاسلامية فى أجزاء كبيرة

من السودان الشرقى فى ارتبـــاط وجدانها بالثقافة العربيـــة واكتمال انتمائها بالحضارة الاسلامية •

سلطنة تقلى بين الفونج والفور : لقد كان وقوع سلطنة تقلى فى منطقة حساسة بين القوتين الكبيرتين فى ســـودان وادى النيـــل هما سلطنة الفونج فى سنار وسلطنة الفور فى الفاشر قد جعل السلطنة فى منطقة الاحتكاك والصراع العسكرى بين القوتين المتصارعتين ذلك لأن سلاطين ســـنار كانوا يعملون على مد نفوذهم غرب النيـــل الأبيض وصولا الى حدود سلطنة الفور بالاضافة الى أنه على الجانب الآخر فان سلاطين الفور كانوا يعملون من جانبهم على مد نفوذهم وبسط سيطرتهم على منطقة حوض النيل ومن هنا سعوا الى محاولة التقرب الى سلاطين تقلى ومحاولة احتوائهم والتقرب اليهم •

ولكن سلاطين ســـنار كانوا قد عملوا على ضم تقلى لسلطانهم فقام السلطان « بادى أبو دقن » بشن هجوم على جبال تقلى الواقعة غرب النيل الأبيض بنحو مرحلتين وسبب الغـــزوة أنه كان له أحد الأصدقاء قد سافر الى تقلى ومعه تجارة كبيرة فتصدى له سلطان تقلى واستلب ما معه من الأرزاق ، فقيل له ان هذا التاجر الكبير صـــديق لسلطان سنار ، فقال ان سلطان سنار له أن يفعل ما يفعل وبناء على ذلك سار السلطان بادى على رأس جيشه وتقدم حتى وصل الى قصر سلطان تقلى ولكن حسن معاملة سلطان تقلى السلطان (أبو قرون ١٦٤٠ — ١٦٦٨ م) قد جعلت السلطان بادى يقبل الصلح مع سلطان تقلى ويعود أدراجه الى سنار بعد أن فرض عليه جزية سنوية وجعله حليفا لسنار ورجع بسبايا تقلى وأسكنها فى قرى حول ســـنار شرق وغرب النيل الأزرق كل فريق بقرية ويبدو أنهم أصبحوا عماد الجيش النظامى لسلطنة الفونج •

لكن السلطان « رباط بن بادى أبو دقن » الذى خلف أباه فى عرش سلطنة الفونج قد عمل من جانبه على استمالة سلطان تقلى الى صف سنار خوفا من أن يتجاذبه سلطان الفور وذلك للحد من نفـــوذ

الفور فزوج ابنته الى سلطان تقلى ، ولكن هذه المصاهرة والصداقة لم تدم طويلا ، ذلك لأن سلاطين دارفور من ناحيتهم كانوا يعملون على التقارب مع تقلى ، وكان نفوذ دارفور الثقـافى والحضـارى والاقتصادى قـد بدأ يمتد الى تقلى قبل النفوذ السياسى والعسكرى ، ذلك لأن سلاطين دارفور كانوا يساهمون مساهمة فعالة فى ارسـال المساعدات الاقتصادية لسكان تلك الأقاليم لاطعام سكانها اضافة الى العمل على اقامة المساجد ونشر الاسلام وثقافته العربية الاسلامية فى أرجاء تقلى وارسال العلماء من ناحيتهم الى تلك الجهات •

ولقد كان ذلك التقارب والترابط بين سـلاطين تقلى وسلاطين الفور من الأسباب القوية التى دفعت السلطان بادى أبو دقن الى القيام بحملته المشهورة الى تقلى واجبـار سلطانها على دفع الجزية السنوية له • بعد أن أخذ معه العديد من السبايا ، ولكن بسط النفوذ ودفع الجزية لسنار لم يدم طويلا اذ نجد أن سلاطين تقلى سرعان ما انقلبوا على سنار ورفضوا دفع الجزية لا سيما بعد أن علموا أن سنار قد بدأت تواجه المشاكل الداخلية العديدة واشـتداد الصراع بينهم وبين الفور ، اضافة الى ظهور قوة الشايقية الذين كانوا يتحكمون فى طرق القوافل الى البحر الأحمر ، وذلك الصراع الدائر بين العبدلاب وسلاطين الفونج واسـتقلال العبدلاب عن الفونج وانتقال عاصمتهم من مدينة قرى الى خلفاية الملوك •

وقد عمل سلاطين تقلى من جانبهم على تحصين بلادهم ضـد الهجوم الخارجى وتجهيز الجيش بما يلزمه من أدوات التسليح كمـا حصنوا العاصمة « تاس » وغيرها من الأماكن الهامة فى البلاد •

وقد عمل سلاطينهم على انتهاج النهـج الاسـلامى فى الحكم وانتهجوا الكتاب والسـنة فى كل أمور بلادهم وكان السلطان يحكم بما أنزل الله فى كل ما يهم بلاده وكان له مجلس يعاونه فيه الوزير الأول بالاضـافة الى أنه كان يقسم السـلطنة الى قسمين كبيرين قسم فى

الشمال وقسم فى الجنوب • كما أنه كان يتبع السلطان العـديد من رؤساء الأقاليم والمقاطعات الذين كانوا يؤدون الجزية السنوية الى جانب هذا كان قاضى القضاة وهو المسئول الأول فى البلاد عن تطبيق الشريعة الاســلامية نصـــا وروحا فى كل ما يهم السلطنة من أمور الحياة •

ومن هنا فان الطابع الاسلامى قد ساد دائما السلطنة ذلك لأن السلاطين عملوا ما وسعهم العمل على تطبيق الشريعة الاسلامية فى كل الأمور واقامة الحدود الشرعية • كما أن سلاطينها عملوا من جانبهم على ربط بلادهم ببلاد العــالم الاسلامى فاتصلوا بالقوى الاسلامية المعاصرة وارتبطوا بها برباط وثيق فى جميــع النواحى الاقتصـــادية والثقافية والسياسية وشجعوا طلابهم وحجاجهم بالرحيـــل الى مصر حيث الدراسة فى الأزهر الشريف والانتقال الى مكة المكرمة والمدينــة المنورة لتلقى العلوم الاسلامية ودراستها بالاضـــافة الى الاتصـــال بالعديد من العلماء •

فكما رحل العديد من العلماء ورجال الدين والفقهاء الى ســنار والفاشر فمما لا شك فيه أن بعضا من هؤلاء الرجال قد شدوا الرحال الى تقلى لا سيما أثناء عبورهم الى سنار وأبناء ذهابهم الى دارفور حيث كان توسط موقعها من العوامل المساعدة لقدوم رجال الدين اليها عملا على بث الروح الاسلامية فى أنحاء السودان الواسعة • كما أن السلاطين من جانبهم عملوا على دفع حركة النشاط الاسلامى ومن هنا كان عملهم على تنشيط حركة الدعوة الاسلامية ببناء المســاجد حيث المعاقل والمراكز الكبرى لانتشار العقيدة كما أنهم سهلوا كل الوسائل لقدوم رجال الدين الاسلامى الى بلادهم بعد أن قربوهم اليهم وعملوا بنصائحهم وقدموهم فى مجالسهم الخاصة واستعانوا بهم فى كل المصالح التى تهم جوانب الحياة وفى حل مشاكل الشعب التقلى •

ومن ذلك فقد عم الدين الاسلامى البـــلاد على نطاق واســـع وأصبح هو الدين الرسمى للسلطنة ودين الأغلبية العظمى بحيث لم

تعد هناك الا أقليات قليلة جدا لم تعتنق الاسلام وان كان أثرها هذا قد انعدم فيما بعد ، بعد الانتشار الواسع للزوايا والمدارس والمساجد وللدور الذى لعبه رجال الطرق الصوفية فى انتشار الاسلام فى أنحاء السلطنة وما تميز به دور الزوايا من انتشار التعليم الاسلامى على نطاق واسع ودور الكتاتيب فى نمو الحركة الاسلامية وانتشارها على نطاق واسع .

وكما ارتبطت سلطنة تقلى بالعديد من الأقطار العربية والاسلامية المجاورة بعلاقات سياسية واقتصادية وثقافية وطيدة الا أن علاقاتها كانت مع دارفور أكثر مما مع غيرها من الأقطار الأخرى نظرا لحرص سلاطين دارفور على امتداد سلطانهم الى منطقة حوض النيل كما كانت علاقاتهم أيضـا مع الفونج ينتابها أحيـانا بعض الخلافات والتنابذ وأحيانا أخرى تكون العلاقات طيبة نظرا لمـا بينهما من روابط ووشائج المصاهرة والنسب .

وقد ارتبطت تلك السلطنة بعلاقات قوية ووثيقة مع مصر على الرغم من أنها لم تصل الى تلك المكانة التى احتلها سلاطين الفـور والفونج الا أنها سعت الى القاهرة حيث الأزهر الشريف لكى يدرس أبناء تقلى العلوم الاسلامية وعلوم الشرع والدين مع اخوانهم تلاميذ البلاد السودانية الأخرى والأقطار الاسلامية التى كان يفد أبناؤها الى ذلك الحصن الاسلامى الامين ، ومن هنا كان الأزهر هو الملاذ لكل أبناء الشعوب العربية والاسلامية ، لكن العلاقات كانت وثيقة فى العصر المملوكى الأخير وان كان ذلك لا ينفى وجود علاقات قوية فى ظل وقوع مصر تحت سيطرة الاحتلال العثمانى .

ولكن عندما دخلت الجيوش المصرية السودان عام ١٨٢١ م فى عهد محمد على واستطاعت تلك القوات أن تقوض كيان دولة الفونج فى سنار ، فان حاكم مصر فى ذلك الوقت قد أرسل الى سلطان تقلى فى ذلك الوقت وهو السلطان « عمر بن أبو بكر » يدعوه فيها للاعتراف بسلطان مصر على بلاده تقلى ودخوله فى طاعته حرصـا على سلامته وسلامة بلاده وانطوائه تحت الكيان العربى الاسلامى التركى .

ولكن السلطان عمر بن أبو بكر رفض تلك الرسـالة التى كانت تدعو ملاعتراف بالحكم المصرى حيث حافظ على استقلال سلطنته تقلى •

لكن كان ذلك الرفض من جانب سلطان تقلى سببا فى قيام مصر بارسال حملة عسكرية فى عهد حاكم السودان الحكمدار أحمد خورشيد باشا (١٨٢٦ — ١٨٣٧ م) واستطاعت تلك الحملة أن تدخل « تاس » عاصمة تقلى لكن السلطان عمر بن أبو بكر عقد صلحا مع السلطات المصرية واعترف بالسيادة المصرية بمقتضى معاهدة الصداقة •

ولكن بمرور بعض الوقت قد حدثت بعض الأحداث الداخلية فى سلطنة تقلى مما جعـل السلطات المصرية تتدخل بقوة عسكرية كبيرة لكى تدعم نفوذها فى تقلى ، ذلك لأنه فى عام ١٨٤٣ م قد حدث خلاف على تولية عرش السلطنة بين شقيق السلطان عمر بن أبو بكر وبين ابن أخيـه ، استطاع أحد المطالبين بالعرش وهو الأمير « ناصر بن أبو بكر » الفرار من بلاده والالتجاء الى مدينة الخرطوم حيث قابل الحكمدار المصرى للسودان وطلب منه أن يساعده فى توليـة عرش السلطنة وذلك نظير اعترافه بالسيادة المصرية كاملة على تقلى مع تعهده بدفع جزية سنوية اذا نجحت السلطات المصرية ومكنته من توليـة العرش ، وهكذا ساعدته مصر فى الوصول الى العرش ومكنت له عرش البلاد ، لكن السلطان ناصر بن أبو بكر عند ما أحس بالتفاف الشعب حوله ونجاحه فى توطيد أركان حكمه واستقرار الأمور فى البلاد فانه قام من توه بنقض الاتفاق المبرم مع السلطات المصرية كما أنه رفض دفع الجزية السنوية وتمرد على القيادة المصرية •

كما أن السلطان الذى تولى حكم البلاد بعد ناصر بن أبو بكر وهو السلطان « آدم دابلو » (١٨٥٤ — ١٨٨٤ م) قد رفض أيضا الاعتراف بالسـيادة المصرية على بلاده وأصر على ممارسة سلطاته مستقلا عن أى تدخل فى شئون سلطنته الداخلية •

بل أكثر من ذلك فان السلطان اضطر الى ترك العاصمة القديمة « تاس » واتخذ مدينة « كوبية » عاصمة سياسية جديدة للسلطنة ،

وذلك بعد أن اتسعت الحركة التجارية والعمرانية بها وأصبحت سوقا تجاريا هاما فى بلاد السودان ، ومن هنـــا فقد ســاعد ذلك الرخاء الاقتصادى والازدهار العمرانى فى ظل حكم السلطان « آدم دابلو » فى المحافظة على استقلال بلاده وتمتعه بالحكم الذاتى وظل على تلك الحالة من الاستقلال حتى قيام الثورة المهدية فى السودان ، وحتى أثناء قيــام تلك الثورة وسيطرتها على الســودان ، فان ذلك السلطان ظل فترة طويلة مترددا فى قبول سيادة المهدية على اقليمه .

لكن هناك متغيرات تاريخية قد أدت الى انضمامه الى الثــورة المهدية وخضوعه لحكم المهدى ذلك لأن المهدى عنــد ما استطاع أن يستولى على مدينة الأبيض عاصمة اقليم كردفان ، فان سلطان تقلى آدم دابلو ذهب بنفســه الى المهدى ومعــه بعض أفراد أسرته الى الأبيض ليعلن انضمامه للمهدى ، لكن المهدى قبض عليه وسجنه وقتل بعض أتباعه ومات السلطان آدم دابلو فى السجن .

لكن انطواء سلطنته تحت لواء المهدية وموت سلطانها فى السجن لم ينهى حالة الاضطراب والفوضى فى البلاد ذلك لأن الأمور قد ظلت مضطربة وغير مستقرة لا سيما بسبب التنازع بين أبناء السلطان آدم دابلو فى تولى عرش البلاد مما جعل الفتن تشتد وتزداد فى البــلاد وبدأت البلاد تتجه للحرب الداخلية ، ومن ثم فان هذه الحالة كانت من الأسباب التى جعلت عبد الله التعايشى خليفة المهدى يقوم بتجريد حملة قوية الى تقلى عام ١٨٨٧م استطاعت تلك الحملة أن تضع حــدا لهذه الفتنة الداخلية بعد أن أعملت السيف فى رقاب الخارجين على النظام والشريعة .

لكن عندما استردت الحكومة المصرية السودان فان سلطنة تقلى استطاعت أن تسترد مكانتها السياسية فى السودان وأعلن السلطان خضوعه للادارة المصرية الجديدة وذلك بعد أن أصبحت تقلى جزء من مديرية كردفان .

وهكذا نرى كيف ساهمت سلطنة تقلى بكل مقوماتها فى اثراء الحركة الاسلامية وفى نشر الاسلام بين ربوع تلك المنطقة حيث استفادت من الظروف السائدة فى المنطقة مما جعلها تتعاون مع الفونج والفور وغيرهم من الامارات الاسلامية فى نشر الثقافة العربية الاسلامية وفى بروز السودان بدوره العربى الاسلامى فى ذلك الجزء من القارة الافريقية .

ومن هنا قامت تقلى بدورها الاسلامى والعربى فى ذلك الجزء من السودان .

وهكذا بعد أن عرضنا لكل السلطنات الاسلامية العربية السودانية التى ظهرت على أرض السودان بدأ من الامارة العمرية فى القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى وانتهاء بسلطنة تقلى التى قامت فى القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى وكذلك لدور سلطنة الكنور فى النوبة الشمالية « دنقلة » وسلطنة الفور فى دارفور والفونج فى سنار .

فان كل هذه السلطات لعبت الدور الأساسى والأول والهام فى تغيير وجه السودان من حالة الوثنية والمسيحية الى الوجه العربى الاسلامى حيث استطاعت تلك السلطنات بما ملكت من مقومات عربية اسلامية يضاف اليها تلك المقومات المحلية المتوارثة من البيئة السودانية أن تطبع البلاد بذلك الطابع العربى الاسلامى الزاهر الذى ساعد على اثراء الحركة العربية الاسلامية وانتشار الثقافة الاسلامية على نطاق واسع وتعريب السودان جنسيا ولغويا وفكريا ، وهكذا ظهر السودان بوجهه الاسلامى الخالص النقى الذى أصبح طابعه فى وسط القارة الافريقية ومن ثم قدر له أن يلعب ذلك الدور وصولا الى كل تلك المناطق المجاورة له .

ومن هنا كان قيام تلك السلطنات وقيام سلاطينها بحركة الجهاد الاسلامى هو الموقف الاسلامى الذى يدفع بتلك السلطنات لكى لا تقف

بمعزل عن الأحداث الدائرة فى ذلك الجزء من السودان ، اذ استطاعت تلك السلطنات أن تحارب القبائل الوثنية التى لم تستطيع أن تقف طويلا أمام المد الاسلامى الذى استطاع أن ينتشر على نطاق واسع لا سيما فى منطقة نقلى .

كذلك فان تلك السلطنات لم تساهم فى نشر الاسلام بالجهاد فقط ، بل ان الأقوام العربية المهاجرة وسكان تلك السلطنات قد عملوا من جانبهم على الدعوة للاسلام بين القبائل الوثنية ومن هنا ظهرت الدعوة الاسلامية نشطة وظهرت الرغبة الشديدة لدى السكان فى اعتناق ذلك الدين الاسلامى الخالد بعد أن انتشر رجال الدعوة الاسلامية والتجار والفقهاء والأئمة يجاهدون ويتنقلون فى العديد من الأماكن تحقيقا لقوله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وهكذا فان انتشار الاسلام فى ذلك الجزء من السودان على نطاق واسع مقدمة لحركة اسلامية واسعة بدأت تتجه الى الجنوب حيث سكان المناطق الاستوائية من النوير والشلوك والدنكا وغيرهم من القبائل الزنجية التى بدأت تتفتح عقولها على الاسلام بعد أن وجدت فيه الدين الحنيف الذى يلائم طبيعتها الفطرية . لكن القوى الاستعمارية البريطانية قد حالت دون ذلك وخلقت مشكلة الجنوب .

وهكذا حقق الاسلام تقدما فعلا فى بلاد السودان بفضل قيام تلك السلطنات التى غيرت وجه السودان السياسى والحضارى والثقافى وجعلته ركنا هاما من أركان الدعوة الاسلامية فى القارة الأفريقية يمارس نشاطه الفعال الذى استطاعت حملات التبشير بالتعاون مع الاستعمار البريطانى الوقوف أمام تيار المد الاسلامى وخلق مشكلة الجنوب بعد أن نشرت اللغة الانجليزية والديانة المسيحية على نطاق واسع فى المديريات الجنوبية (راجع كتابنا أخطار التبشير فى العالم الاسلامى ، السودان ومشكلة التبشير) .

الباب السادس

« القبائل العربية فى السودان »

لقد مرت هجرة القبائل العربية الى السودان بمراحل تشبه فى بعض النواحى والوجوه نظائرها فى مصر . ذلك لأن الهجرات العربية الخالصة التى أخذت تتدفق على البلاد تدفقا مستمرا وتنتشر فى سهوله الفسيحة فى الشرق وفى الغرب انتشارا واسعا ثم استقر بها المقـام واختلطت بالسكان الأصليين ونشرت فى البلاد السودانية اللغة العربية والدم العربى والدين الاسلامى والثقافة العربيـة الاسلامية ومن ثم طبعت السودان بالطابع العربى الواضـح والمؤثر والفعال على مر الأجيـال .

ولذا شهد انتشار القبائل العربية فى السودان ظاهرتين فريدتين الأولى وهى استقرار العناصر العربية الوافدة من الجهات المتعددة ثم بعد ذلك انتشارها فى ربوع السودان الواسعة ثم عملها بعد ذلك على نشر الاسـلام والثقافة العربية الاسـلامية وتكوينها تلك الامارات والسلطنات السابق الاشارة اليها . والتى كانت هى الظاهرة الثانية فى تاريخ السودان والتى ساعدت على صبغ السودان بالصبغة العربية الاسلامية .

الا أنه قبـل الهجرة العربية الاسلامية الواسـعة النطاق الى بلاد السودان فانه قد كانت هناك مرحلة حدثت فيها هجرات عربية الى السودان فى عصور ما قبـل الاسـلام وهذا ما جعلنا نقول ان تلك المناطق من القارة الافريقية كانت مجتمعات شبه عربية قبل انطلاق نور الدعوة الاسلامية ، الا أن تاريخ تلك الهجرات العربية فى الجزء

الجنوبى (السودان) من الوادى فى تلك المرحلة الممعنة فى القدم لم يكن من الوضوح بحيث يمكن القول أنها جاءت فى أى فترة من التاريخ هل كانت فى عصور قبل الميلاد أو بعد الميلاد .

لكن من الثابت أن الهجرات العربية الى السودان قد تمت منذ عصور ساحقة فى القدم ، وقبل الفتـــح الاسلامى لمصر بفترة طويلة ومن هنا جاءت الهجرات العربية الى السودان كما أشرت الى ذلك فى الفصل الثانى من هذا البحث فى القرن السابع قبل الميلاد أو الخامس .

ومن هنا فانه يمكن القول عند حديثنا عن القبـــائل العربية فى السودان بعد هجرتها من منابعها الأولى فى جزيرة العرب واستقرارها فى بلاد السودان ، فان بعض الباحثين قد درج على تقسيم القبـــائل العربية فى السودان الى أربعة أقسام رئيسية هى :

١ ــ **الجعليون** : وتشمل هذه المجموعة القبائل التى تسكن ضفاف نهر النيل فى المنطقة الواقعة بين دنقلة شمالا والشلال السادس شمال الخرطوم ، وهم مجموعة عدنانية الأصل وهى أكثر القبـــائل العربية نفوذا وكثرة عددية فى السودان وهى تنتسب الى جد كبير واحد اسمه ابراهيم وقد لقب بالجعل وتنسبه الروايات التاريخية الى ســـعد بن فضل بن عبد الله بن العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ولهـــذا يطلق عليهم أحيانا المجموعة العباســـية ولا يستبعد أن يكون هؤلاء الجعليون خليطا من عدة قبائل تنسب الى عدنان حقا ولكنها لا تنتهى الى جد مشترك واحد ، انما تجمعها فى صعيد واحد الغاية والهدف ثم هى قد ترتبط برباط المصـــاهرة ، ولهـــذا فنحن لا نأخذ بفكرة الانتساب الى جد واحد . ذلك لأن مسألة الانتساب الى العرب قد دخلها الانتحال منذ القرن الثانى الهجرى ، ومن هنـــا قد يكون الجد ابراهيم ولكن ليس لكل الفروع والبطون والبدنات ، ذلك لأن هذا الزعيم حتى يكسب قوة وسيطرة ونفوذ قد عمد الى ادخال من ليس من نسبه الى قبيلته اذ يقول لأهل البلاد قد جعلناكم منا .

لقد دخلت تلك المجموعة العربية من الباب الشمالى من مصر حين وردت الى السودان حيث طاب لها المقـام والاستقرار على ضفاف النيل حيث تركزت فيما بين بلاد دنقلة وموقع الخرطوم الحالى ، ثم أخذت تنتشر من مكان التجمع هذا نحو البطانة والنيل الأزرق والنيل الأبيض جنوب الخرطوم وقد تخلف بعضا منهم فى بلاد النوبة وسار فرع منهم فى الاتجاه الغربى من السودان نحو كردفان وجبال النوبا حيث تقلى وكلما زادت أعداد هـذه الجماعة كلما تعـددت بطونها وعشائرها وقبائلها فقد كان الجعليون اذن شعبا عظيما •

والجعليون كما ذكرنا يرجعون نسبهم الى العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وهم جمع كبير لعشائر عربية متعددة ، والراجح أن نسبها الى العباس قد أصبح لقبهم العباسيين وانما أريد به مجرد النسب الشريف الذى يميز هـذه المجموعة عن غيرها من المجموعة العربية الأخرى وخاصة المجموعة الطالبية •

وهذه المجموعة الجعلية تضم الكثرة العظمى من العرب القحطانيين على أن المجموعة الجعلية لا تشتمل على جميع العدنانيين بل أن هناك مجموعات أخرى مثل الكواهلة والرشايدة نسب أحيانا الى الجعليين •

والعباسيون لهم سطوة ونفوذ فى السودان • وقد يكون اتخاذهم لهذا اللقب العباسى أنه لم يرد به أى اتجاه سياسى معين لهذه القبائل العربية المهاجرة ، لكن ربما أريد به مجرد النسب الشريف الذى يميزهم عن الطالبيين خاصة ، ففى تلك المرحلة غدت السـودان تعج بمعظم الهجرات العربية ومن ثم كان اللفظ له فى أوساط العرب ولا سيما أهل البادية منهم دلالة وأكثر اشتهار الى احـدى الطائفتين الشريفتين من بنى هاشم ، الطالبيين ، والعباسيين • ونحن نعلم أنه كانت هنـالك نقابة لهما ، ثم أصبح لكل فريق منهما نقيب خاص فى بغداد •

وليس بالعسير أن ترجع المجموعة الجعلية الى بطونها الأولى فى مصر ولكن موقعها الجغرافى على نهر النيـل ما بين الخرطوم وبلاد

النوبة وانتشارها من هذا المركز فى شعب وفروع نحو البطانة ونحو النيل الأزرق ونحو النيل الأبيض جنوب الخرطوم ونحو الغرب الى كردفان ، كل ذلك يحمل الدليـل على أن هـذه المجموعة قد وصلت السودان من الشمال عن طريق وادى النيل •

وليس فى أقوال الرواة عن أصل تسمية جعل • ما يرشدنا الى معرفة نواة القبيلة أو المجموعة فى شمال الوادى ويختلف النسابون فى أصل التسمية على قولين ؛ القول الشائع أن ابراهيم الهاشم جـد الجعليين كان جوادا كريما وأنه كان يقول للجماعات التى تنضوى تحت لوائه جعلناكم منا ، فسمى لذلك جعلا وفى مخطوط سودانى يرجع الى عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م • أنه لقب جعلا بضم الميم لسمرته الشـديدة ومنظره ، والواقع أنه لم يرد لفظ جعل ومشتقاته فى أسماء قبائل العرب القديمة الا فى قبيلتين احـداهما جعال بن ربيعـة وهم من أقطعهم الرسول صلى الله عليـه وسلم أرض ارم من ديار جذام والأخرى بنو حرام بن جعل وهى بطن من بطون بلى بن قضاعة وهو بنو حرام ابن عمرو بن جشم ، فاللفظ اذن معروف فى الجزء الشمالى الغربى من شبه جزيرة العرب ، أى فى المستودع الأول الذى أمد مصر بموجاته العربية المتلاحقة •

بل ان المصـادر تحدثنا أن من بين الصـحابة الذين نزلوا مصر حرام بن عوف البلوى وكان من بنى جعـل من بلى وهو ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة فى رهط من قومه من بنى جعل فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ضحر ولا جعل أنتم بنو عبد الله ، على أننا لا نستطيع أن نجد صلة بين هؤلاء الجعليون فى السودان • ولاسيما اتفاق جمهور النسابة على أن الجعليين عباسيون وأن جعلا هـذا ليس الا لقب لابراهيم وفى روايات أخرى أن الذى سمى جعلا هو عبد الله جعل حفيد ابراهيم أو الجعلى وقد يخلط بعض الناس فيقول عبد الله جعل وابراهيم جعل فان عبد الله حفيد ابراهيم ومن هنا فلا غرابة ولاداعى للجدال •

كما أنه يلاحظ أن نسب الجعليين المتفق عليه يشتمل على بعض أجداد من أعقاب سبأ مثل يمن الخرزجى وذى اكلاع الحميرى وهو ابن سعد الأنصارى نسبة الى أمه الأنصارية ، الا أنه يستمر بعـد ذلك الى العباس أسعد الأنصارى بن الفضل بن عبد الله بن عباس .

ولقد انقسم من الجعليين العديد من القبائل التى كانت تنطوى تحت لوائهم ومنها :

قبيلة الجوابرة :

وهم نسبة الى جد أكبر يدعى جابر ومركزهم الرئيسى فى جزيرة بادين الواقعة وسط النيل الى الجنوب من الخط الذى يفصل بين المحس ودنقلة جنوبا ويبدو أن وطنهم كان أكثر اتساعا فى عصر بوركهارث فقد ذكر أنه يمتد من الشلالين الأول والثانى .

وقد كانوا محبى العلم والمعرفة ومن ذلك فقد هاجر الى مصر طلبا للعـلم بعض أولاد جابر وهم أربعـة أعلمهم ابراهيم وأصـلحهم عبد الرحمن وأروعهم اسماعيل وأعبدهم عبد الرحمن وهؤلاء يرجعون نسبهم الى غلام الله وقد عادوا للسودان للاسهام فى الحركة الثقافية والفكرية الاسلامية ، فنجد أن أحدهم وهو الشيخ ابراهيم بن جابر المعروف بالبولاد قد سكن قربة ترنج ودرس فيها وهو أول من درس الرسالة ميلاد الفونج وشدت اليـه الرحال ومدرسته فى خليل سبع صفحات وعلم فيها أربعين انسانا صاروا كلهم أولياء وأقطابا باذن الله تعالى ويرجع نسب هؤلاء أولاد جابر الى غلام الله اليمنى .

والجوابرة هم أكثر القبائل عددا هناك وهى تمتد من شلالات حنك الى حلة التيتى وتتضمن ممالك ارجو وجزيرة مقاصر والخناق . وكان أهالى هذا الاقليم خليطا معظمهم فى الجوابرة والنوبة مع أثر من الكنوز والمهاجرين المصريين ويقول (بوركهارت) أما قبيلة الجوابرة والغربية ، فان الأخيرة فرع من قبيلة الزناتية الكبرى التى استوطن البلاد الواقعة من

أسوان الى وادى حلفا وكان من أثر ذلك أن بسطت نفوذها على عدد كبير من القبائل كانوا قد استقروا على ضفتى النهر وكان من بينهم الكنوز وهم قبيلة من نجد والعراق واستوطنت قبيلة الجعافرة الكبرى ضفاف النيل من اسنا الى أسوان واستقر نفر قليل من أسر الأشراف فى بطن الحجر وفرض فرع من قريش نفسه على المحس وكانت النوبة موطن هؤلاء العرب منذ عدة قرون مستمرة مع بعضهم بعضا •

أما الجوابرة فقد تغلبوا على الغربية تقريبا فأرسل الغربية رسلا الى القسطنطينية فى عهد السلطان سليم وطلبوا مساعدتهم على أعدائهم ونجحوا فى اقناع السلطان سليم بامدادهم بقوة تتألف من بضع مئات من جنود البشناق بقيادة من يدعى حسن كردى وبواسطة هؤلاء طرد الجوابرة وأهالى دنقلة من النوبة والى يومنا هذا نجد أغنى سكان دنقلة ينتمون الى الجوابرة ومع ذلك بقيت بعض أسر الجوابرة يعيشون فى مواطنهم فى سلام ولا تزال ذريتهم الذين يسكنون فى معظمهم فى الدر ووادى حلفا معروفين بأسماء أجدادهم والمركز الرئيسى للجوابرة الآن فى جزيرة بادين ويوجد عدد كبير من الزورات حيث يوجد عدد كبير فى جزيرة سميت فى المحس ويطلق على الجوابرة فى اللهجة النوبية اسم جبركى •

كذلك فانه بالاضافة الى قبيلة الجوابرة توجد قبيلة الركابية وهى أكثر مجموعة من قبائل الجعليين تطرفا فى السكنى نحو الشمال من السودان حيث يعيشون وسط الدناقل ويقال أن قرابتهم للجعليين قد جاءت عن طريق المصاهرة الا أنهم كانوا ينضمون تحت لوائهم • وأنهم كانوا يسكنون على وجه التحديد أواسط بلاد المحس الشمالية التى هى أول بلاد النوبة وموطنهم الرئيسى فى مركز دنقلة وهم ينتسبون الى جد من نسل الحسين بن على بن أبى طالب وهو ركاب بن غلام الله ابن عائد •

وان صحت الروايات المتواترة لديهم تكون هجرتهم من الناحية

الشرقيـة من طريق البحر الأحمر وقـد هاجر منهم كثير الى غرب السودان حيث كردفان ودارفور وجبال تقلى ٠

اذن هؤلاء الركابية قد يكون تحالفوا مع الجعليين بحكم المصاهرة الا أنهم لا ينتمون الى فرع الطالبيين والذين ينسبون الى الأشراف الذين ينسبون الى النبى صلى الله عليه وسلم ٠

والذين كان مركزهم الرئيسى فى وادى الكنوز ووادى النوبة الى حدود دنقلة ونحن نعلم أن جيرانهم الكنوز من بقايا بنى كنز بن ربيعة الذين كانوا سندا قويا للدولة الفاطمية ولا يستبعد أن يكون الطالبيون قد اختاروا هذه المنطقة لصلة تربطهم بالكنوز ويبدو أن هذه المنطقة ظلت محل سكن الطالبيين وحدهم حتى وفدت اليهم جماعات أخرى مثل الجوابرة السابق الاشارة اليهم والقريبة فسكنوا بجوارهم ٠

كذلك فانه يمكن القول أن هؤلاء الركابية الطالبيين الأشراف ينتمون الى فرع القرشـيون حيث تتمثل قريش بمختلف فروعهـا فى عرب السودان ففيهم البكريون والعمريون والزبيريون والطالبيون والعباسيون والأمويون ، ويرى أحد نسابة السودان المعاصرين تقسيم العرب فى بالسودان الى ثلاثة أقسام هم جهينة والطالبيون والعباسيون ٠ بينما يرى البعض الآخر تقسيمهم الى أربعة أقسام الجعليون وجهينة ، والأشراف ، والأمويون ، والذين يذكرون أن أسلافهم قد جاءوا الى السودان بعـد أن سـقطت دولتهم على يد العباسيين وانقسمت تلك المجموعات الكبيرة بدورها الى عدة أقسام صغيرة وكل قسم منها يمثل قبيلة من القبائل التى وفدت الى السـودان عن طريق مصر ويبدو أن المجموعة الجعلية ضمت معظم الحضر كما أن المجموعة الجهينية مالت بصورة عامة الى حياة البداوة ٠

وأن نشاط هذه القبائل العربية كان بصعيد مصر وأن تلك القبائل

شقت طريقها الى سودان وادى النيل فبالنسبة لجهينة يذكر المقريزى أنهم أكثر عرب الصعيد .

كما أن الجعليين لا تشتمل على كل العدنانيين ، بل أن هنــاك مجموعات أخرى مثل الكواهلة والرشايدة نسبت أحيانا الى الجعليين ، كذلك فانه الى جانب هذه المجموعات هناك مجموعات أخرى من القبائل العربية استقرت على ضفاف النيــل ومن هؤلاء الكنوز « بنى كنز » وأصلهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وقدموا مصر فى خلافة المتوكل على الله أعوام سبع وأربعين ومائتين فى عدد كثير وانتشروا فى النواحى ونزلت طائفة منهم بأعالى الصعيد وسكنوا بيوت الشعر فى براريهــا الجنوبية وأوديتهــا ، ثم اتصلوا بالبجة وتزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب بالعلاقى فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة واختطوا القرى وحفروا الآبار ، ثم كونوا فيما بعد أرستقراطية عربية بمنطقة أسوان وشمال النوبة .

أما بالنسبة لبنى أمية فقد أورد المقريزى وصفا للمجموعات التى كانوا يتألفون منها منهم ولد ابان بن عثمان بن عفان وولد خالد بن يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان . وبنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان ومنهم المروانية أولاد مروان بن الحكم .

٢ ــ الأشراف :

وأما الأشراف فيبدو أن اسم الأشراف أصبح يطلق على أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم وأحفاد الخليفة على بن أبى طالب وأخيه جعفر الطيار ، ولقد هبط الجعافرة أرض مصر ضمن المجموعة القرشية وكان من هؤلاء الجعافرة بنو جعفر الطيار بن أبى طالب ومنهم أيضا الزيانية أولاد على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وأمه زينب بنت على بن أبى طالب وأن هؤلاء الجعافرة لعبوا دورا كبيرا فى الحيــاة السياسية فى مصر ثم هاجرت مجموعات منهم الى السودان وانتشرت فى أرجاء معينة فيه .

ومن هنا فان الطالبيون أكثرهم فى السودان يجتمعون فى ركاب ابن غلام الله بن عائد والعباسيون تجمعهم قبائل جعل أى الجعليين ويذكر نعوم شنقير أن أهم الأصوال التى يرجع اليها عرب السودان فى انتسابهم هم بنو أمية وبنو العباس وجهينة والزبير بن العوام وجعفر الطيار بن أبى طالب وأن معظمهم ينسب الى جهينة وبنى العباس الا أن المنتسبين الى جهينة أكثر ٠

وليس هناك شك فى أن فئات من القرشيين فى السـودان قـد اندمجت فى مجموعات أخرى بالحلف أو بالمصاهرة وربما كان هذا من أسباب اختلاف النسابين فى نسب المجموعة الواحدة أحيانا فبعضهم ينسبها الى قريش وبعضهم ينسبها الى جهينة أو ربيعة أو مضر من غير قريش ٠

وليس الاختلاف فى رواية هذه الأنساب هو دائما وليد جهل أو خطأ بل ربما يعود ذلك الى نوع الحلف أو الأحلاف التى كانت تتم بين القبائل العربية فى السـودان حيث كان يتألف الحلف من عدة قبائل أو مجموعات كبيرة من القبائل فمثلا فى السودان قبيلة الشكرية ينسبون فى روايات مختلفة الى جهينة ثم فى أخرى الى فزارة ثم الى جعفر ابن أبى طالب وهذا لا يعنى أن كل هـذه الروايات غير صحيحة ، انما ربما يكون مرجع ذلك الى أن هناك مجموعات من هذه الأفرع قد انطوت أو اندمجت فى بعض الفترات التاريخية الى مجموعة قبائل الشكرية ٠

وقد نزحت جماعات من قريش الى السودان فى فترات مختلفة فى مرحلة الأحلاف وربما جاء معظمهم من وادى النيل وقليل منهم جاء من أطراف أخرى كالطريق الشمالى الغربى ، الطريق الليبى ، أو عن الطريق الشرقى « الأوسط » وهو طريق البحر الأحمر ٠

كذلك فان ورود أحفاد أبى بكر الصديق رضى الله عنه قد كانوا فى جملة العـرب الذين اشتركوا فى غزو بلاد النوبة أيام السـلطان

قلاوون • ففى الســودان نجد المسلمية وهى القبيلة الوحيــدة التى تنتسب الى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وكثير منهم يسمون أنفسهم البكرية مبتعدين بنسبهم عن كل من الجعليين والجهينيين •

وهم يعيشون فى الجزيرة حيث سمى أحد المراكز باسمهم وعلى ضفتى النيل الأبيض وأكثرهم مستقرون يمارســون الزراعة ولهم فى البطانة شعبة صغيرة تعيش عيشة البداوة •

كذلك العمريون أولاد عمر ، لعلهم دخلوا السودان على فترات ومنهم طائفة دخلت أرض السودان فى القرن الثالث الهجرى أيام حملة عبد الرحمن بن عبد الله العمرى ، وقد فرت جماعة من العمريين الى الســودان فى أيام الظاهر بيبرس وهم آل عاصم بن عامر بن قصير العمرى من بنى عمر بن الخطاب •

أما قبيلة الجعافرة نسبة الى جعفر بن أبى طالب فقد كانت هناك جماعات منهم تنزل الصعيد الأعلى ومازالت بقاياهم الى اليوم بين قوص واسنا ثم انتشرت طوائف منهم جنوبا الى بلاد المحس ومع ذلك فان لهم شعبة تعيش فى كردفان وتتصل بالجوامعة •

كذلك توجد فى وادى العلاقى فى أرض المعدن من جملة العشائر التى تعمل فى ذلك المكان قبيلة العليقات وقد عاشت فى ذلك المكان ردحا من الزمن وبعد أن أصاب الوادى الخراب ، نزحوا شمالا الى بلاد الصعيد والى سيناء • ويبدو أن سبب تسميتهم بالعليقات يرجع الى هذا المكان وهو وادى العلاقى وهم ربما يكونوا قد أخذوا ذلك الاسم تسمية الى عقيل بن أبى طالب الذين يسكنون هــذا المكان فيما بين المضيق وكرسكو وأيضا من ذرية عقيل بن أبى طالب جماعة الصواردة فى بلاد المحس •

وفى دنقلة عاصمة بلاد المقرة السابقة عاشت أسرة سوار الذهب وهى أسرة الشــيخ سامى محمد ولد عيسى وفى رواياتهم أنه يرجع

نسبه من جهة أبيه الى العباس ومن جهة أمه الى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه •

وفى منطقة بوهين سكنت جماعة من الفادينة ويتصل نسبهم الى محمد بن الحنفية وأول من ذكر منهم فى تلك المنطقة الشريف محمد بن محمد بن سليمان بن جعفر بن عبد الله •

وفى أنحاء السودان تفرقت جماعات أخرى كثيرة تنتسب الى قريش وليس من اليسير احصاءها ولكن يوجد منهم العبابدة وهم يرون أنهم ينسبون الى نسل من الزبير بن العوام ويربطون نسبهم بالكواهلة وان العبابدة والكواهلة كانوا من قبائل أرض المعدن ومنها تفرقوا فى أنحاء وادى النيل •

كذلك فانه من قريش أيضـا قبيلة البطاحين وهم يقـولون ان اسمهم مشتق من بطحاء مكة المكرمة وهم يلتقون فى نسبهم مع أجداد الجعليين وأن هجرتهم كانت عن طريق مصر الى غرب السودان وأن لهم فى كردفان آثار يعرفونها وأنهم صاروا ينتجعون المراعى ومعهم أبناء عمومتهم الفنن فنزلوا بالضـفة الشرقية للنيل فى المكان الواقع شرقى الجريفان الى ما بعد شرق الحلفاية شمالا •

ومن قريش أيضا ملوك الفونج الذين أسسوا سلطتهم فى سنار حيث كانوا أول من أسس سلطنة اسـلامية واسـعة النفوذ فى بلاد السودان وحكموا أكثر من ثلاثمائة سنة • وهؤلاء الفونج ينتسبون الى بنى أميـة وأن لهم صلة بأعقاب بنى أميـة الذين استوطنوا هذه الجهات •

ومن القبائل التى تمت بصلة القربى الى قريش قبيلة كنانة بن خزيمة وأن أول من قدم منهم الى بلاد السودان جماعة كانت بزعامة منصور حيث عبروا طريق النيـل من مصر الى السودان حوالى عام ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م ومن منصور هذا تشعبت بطون كنانة الستة ومنهم

أولاد سوار ، وكانت كنانة ممن سكنوا مدينة سواكن ولكن يبدو أن كنانة هذه التى تمت بصلة القربى الى قريش قد هاجروا بعد ذلك الى دنقلة واستقروا هناك زمنا ثم تفرقوا بعد ذلك فذهبت طائفة منهم الى كرن جنوبى تقلى فى كردفان ولحق قسم منهم بالكبابيش وبقى قسم كبير منهم شرق النيل الأبيض ٠

وقد تدفقت هذه القبائل العربية على السودان واختلطت بأهله وصبغتهم بالصبغة العربية جنسا ولغة وعلى هذا فان السودان شـــهد صورة عربية مشابهة الى حد كبير مع تلك التى شهدت فى مصر ٠

وعلى هذا فان نظرة واحدة على القبائل العربية التى تعيش اليوم فى السودان تجعلنا ندرك مدى الصلات بين تلك القبائل وبين القبائل العربية فى مصر ، فهذه القبائل التى هاجر أكثرها من مصر حملت معها الى السودان عناصر جديدة من وحدة الدم واللغة والعادات والتقاليد والقيم ، ومن هنا فان صورة المجتمع العربى بالسودان تنقسم الى جزئين عربيين رئيسيين جزء بدوى وحضرى ٠ ذلك أن هنـــاك بعض القبائل العربية فضلت حياة البحث وراء الكلأ فأصبحت قبائل رعوية فى جهات معينـــة من السودان وتتكون أكثر هذه المجموعات من قبيلة جهينة وما انتسب اليها من القبائل العربية ٠

٣ ــ جهينة هـــذه من قبائل اليمن وهى : « جهينة بن زيد بن ليث ابن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة » وهى قبيلة عظيمة وبها بطون كثيرة وأنهم نزلوا بصعيد مصر ثم تحركوا بعـــد ذلك الى السودان حيث أصبحت منطقة نفوذهم فيما بين الصعيد الأعلى وبلاد الحبشة وهناك تكاثروا وغلبوا على بلاد النوبة وأن دخولهم بلاد السودان كان على دفعات كبيرة لكنه تم فى أزمان مختلفة وربما تكون متباعدة فقد كانوا يشكلون نسبة كبيرة فى جيش العمرى الذى قام بغزو بلاد النوبة الشمالية وبلاد البجة أيام عصر أحمد بن طولون ، كذلك تكاثروا فى أرض المعدن ثم أخذوا يعملون مع قبيلة ربيعة فى زمن مبكر منذ القرن

الثالث الهجرى وفى عام ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م تنازعت جهينة ورفاعة فى صحراء عيذاب ورفاعه هذه ربما تكون فرع من جهينة وفى عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧م طارد المماليك عرب برية عيذاب حتى بلغوا سواكن ، كذلك فان جهينة انتشروا فى زمن الفاطميين شرق الصعيد الأعلى الى عيذاب أدركنا كذلك أن عرب جهينة كانوا يمثلون فى غرب برية عيذاب هؤلاء بنصيب غير قليل ، ثم جاءت أحداث أخرى أدت الى لجوء كثير منهم الى أطراف بلاد الزنج وبلاد الزنج هذه هى بلاد الصومال فى اصطلاح العرب القديم •

ومن هنـا ندرك أن جهينة قد دخلت بلاد السودان فى موجات متعددة واتجه معظمها من طريق وادى النيـل الى الشرق حيث بلاد البجة وساحل البحر الأحمر واكتظت بهم المنطقة الواسعة التى تأخذ من حلفا الحالية الى شمال غربى الحبشة وكان لهم أثر قوى فى الضغط على مملكة النـوبة المسيحية الشمالية حتى أزالواها ثم تدفقوا الى الغرب ثم الى الجنوب فشغلوا بقاعا مترامية من السودان تمتد من الشرق الى الغرب وأصبح لهم نفوذ كبير فى بلاد السودان حتى أنهم صاروا ومن تحالف معهم يشكلون الكتلة الرئيسية بين القبائل العربية الى هاجرت الى السودان وتركت بصماتها واضحة قوية فى حركة التأثير الحضارى والثقافى العربى والاسلامى •

وجهينـة هذه قبـائل قحطانية وهم يتألفون فى السودان من مجموعتين كبيرتين احداهما مجموعة شرقية ومجموعة غربية فى كردفان ودارفور وعلى هذا الأساس فان المجموعة الشرقية هـذه قد دخلت السـودان من الطـريق الشمالى الشرقى (مصر) على حين دخلت المجموعة الأخرى الغربية السودان من المعبر الشمالى الغربى •

وتنقسم جهينة تلك القبائل العظيمة فى بلاد السودان الى ثلاث مجموعات رئيسية تشكل المجموعة الأولى قبيلة رفاعة ، اللحويون ، العوامرة والخوالد ، الشكرية •

تلك هى المجموعة الأولى والتى منها رفاعة الذين كانوا مجاورين للبجة ولهم أوطان على حدود الحبشة وفى عصر الفونج كانت مواطنهم تمتد على جانبى النيل الأزرق فى السودان من سفوح الحبشة الى المقرن وهم بطن من سليم بن جهينة وهى من القبائل الواسعة الانتشار فى السودان وتصل ديارهم من هضاب الحبشة ملتقى النيلين الأزرق والأبيض بالخرطوم .

وحسب الروايات السائدة فى السودان ، فان رفاعة كانت فى بادىء الأمر تقيم ببلاد البجة وقد دارت حرب طاحنة بين رفاعة وجهينة فى صحراء عيذاب فى عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م الأمر الذى دفع السلطات المملوكية فى مصر الى أن تتدخل لكى تضع حدا لهذا النزاع وتحسمه ، ومن ثم ارتحلت رفاعة من اقليم البجة الى الغرب وهبطت الى النيل الأزرق واحتلت أجزاء كبيرة من بقاعه وكذلك الجزء الجنوبى من أرض بطانة .

ومن هنا فان وجود جهينة فى صحراء عيذاب يدعم الآراء القائلة بأن أغلبية القبائل العربية التى هاجرت الى السودان أواخر العصور الوسطى جاءت اليه من مصر ولا بد أن تلك القبائل كانت تنتقل من مصر الى صحراء عيذاب ثم تنحدر جنوبا الى السودان .

كذلك فان هناك فرعا كبيرا من قبيلة رفاعة الجهنية قد لعب دورا كبيرا فى الاطاحة بمملكة سوبا (علوة) المسيحية فى القرن السادس عشر الميلادى ، وذلك لأن عرب العبدلاب وهم شعبة من مجموعة القواسمة الرفاعية ، قد شاركوا بجهود عظيمة مع رجال الفونج فى القضاء على مملكة علوة وتأسيس مملكة الفونج السنارية حيث كان العبدلاب العضد الأكبر لهذه السلطنة الاسلامية فى الاقليم الشمالى وأن أمراء العبدلاب لم يكونوا مجرد زعامة للشعبة الشمالية من رفاعة أو حتى القواسمة بل كانوا حكام أقاليم لهم السلطة التامة على جميع القبائل التى تعيش فى الشطر الشمالى من سلطنة سنار .

ولعل هذا الدور الذى قام به فرع من قبيلة رفاعة يدل على مدى النفوذ والقـوة التى بلغتها بعض هذه القبـائل العربية المهاجرة الى السودان ٠

أما الشكرية وتعيش أكثر الشكرية فى اقليم البطانة ويتجولون فى سهول البطانة بابلهم شمالا وجنوبا يصلون ملتقى نهر عطبرة بالنيل وجنوبا يصلون الى النيل الأزرق ويضعهم النسابون فى مجموعات جهينة وتذكر الشكرية أنهم من بنى شكر وأن بنى شكر استقروا فى أرض المعدن ردحا من الزمن وأن أحد مواقع المعدن كان يسمى الشكرى وربما أخذ اسمه من ذلك الفرع الذى ينسب لقبيلة ربيعـة ، ثم أن بنى شكر ارتحلوا من أرض المعدن واستقروا فى موطنهم الحالى بأرض البطانة ومن الراجح أن يكون قد صحبهم فى هجرتهم هذه بعض بطون من جهينة ومن المعتقد أن تكون هذه الهجرة قد تمت فى القرن الرابع عشر الميلادى وقد لعبت قبيلة الشكرية دورا كبيرا فى حياة السودان السياسية خاصة فى عهد الحكم التركى (١٨٢٠ — ١٨٨٥ م) ٠

ومن المحتمل أن تكون هنـاك أفرع كثيرة قد انضمت فى أزمان مختلفة الى مجموعة الشكرية ، كما أن موقع الشكرى الذى يقع فى موضع معـادن التبر من المحتمل أن يكون هذا الموضع نسـبة الى رئيس مجموعة عربية سكنت هذا الموضع ردحا من الزمن وربما قد تكون هناك صلة بين موضع الشكرى هذا وقبيلة الشكرية التى تسكن حاليا منطقة البطانة بين النيل الأزرق ونهر عطبرة ٠

وتأتى المجموعة الثانية من جهينة من القبائل الأولى التى شاركت بدورها فى اثراء حركة العروبة والاسلام فى السودان وهم بنو حامد ، وبنو جرار ، والزيادية ، والبرعة ، والشنابلة ، والمعاليا ٠

ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم فزارة ويعيشون فى الجهات الشرقية والوسطى من كردفان ، وبنو فزارة هؤلاء هم فزارة ابن ذبيـان بن بغيض بن ريث بن عطفان بن سـعد بن قيس بن

عيلان وسمى فزارة واسمه عمرو لأن سعد بن ذبيان أخاه فزر ظهره فكانت به فزرة فسمى فزارة ، وفزارة هذه عدة عشائر كبنى شمخ وظالم ومرة ومازن وشكم وسعد ولوذان وغير ذلك .

وفزارة عاشت جماعة منهم بصعيد مصر ثم ارتحلت بعضها الى السودان وهم قبيلة قيسة ويبدو من دراسة المجموعة القزارية هذه فى السودان أن لبعضها على الأقل صلة ببنى هلال ففى روايات دار حامد التى هى فرع من فزارة أن جدهم حامد حين قدم الى غرب السودان لقى أبا زيد الهلالى فاستشاره فى المكان الذى يتخذه مقاما له فأشار عليه بسكنى بقعة معينة فى كردفان ، والزيادية أيضا ينتسبون الى اليوم الى أبى زيد الهلالى .

كذلك يضاف الى هذه القبائل التى تنتمى الى فرع جهينة أيضا قبائل الدويحية السلمية والبقارة والمحاميد ، الكبابيش ، المغاربة والحمر ، وقد أطلق النسابون اسم فزارة على مجموعة من القبائل التى تعيش فى الجهات الشرقية والوسطى من كردفان وتتألف هذه المجموعة من عدة عشائر منها دار حامد وبنى جرار ، الزبادية ، النزعة ، الشنابلة والمعالية .

وبعض هذه العشائر تعنى بتربية الجمال ، واذا نظرنا الى قبيلة فرازة فى السودان حاليا نجد أن عقدها قد انفرط وصارت وحدات منفصلة كل وحدة تحمل اسمها الخاص .

ومن قبائل البقارة قبيلة بنى سليم : وينقسمون الى فرعين هما أم طريف وأولاد محبوب ويعيشون غرب النيل الأبيض فى منطقة تمتد جنوبا حتى كاكا ، شمال منطقة الشلك والدنكا وجنوب الأحامدة وحرفتهم الرئيسية رعى البقر وفى الفصل المطير يتحركون شمالا وشرقا غرب النهر وهربا من أثر الذبابة وقد لجأ بعضهم الى تربية الضأن وأكثروا منه لنزوحهم نحو النهر .

كذلك توجد قبائل الغديات ، وقد أقاموا فى البداية عنــد جبــل كردفان بعد أن طردوا النوبا منه وعند ما استطاع الفونج اخضــاع المناطق بين الأبيض والداير أقاموا عليها حاكما من العــذياب وقد تداخلوا فى قبائل النوبا الشمالية حتى ضاعت كثيرا من الفوارق بينهم وفى عهد المهدية كان لهم قبيلة من أتباعهم اشتركت فى حصار الأبيض يقودهم اسماعيل الدلندوك ودكنونة .

واذا كان البقارة والكبابيش ينتسبون اليوم الى جهينة الا أنهم فى واقع الأمر أحلاف تجمعت على فترات وتألفت من بطون عدة لعل أهمها جذام وجهينة والهوارة وبنو هلال وأحلاف هؤلاء وأولئك من فزارة وسليم وتميم وبلى وغيرهم ، ومن الجائز أن بعض من هــذه البطون قد نزحت من بلاد المغرب من الطريق الليبى عقب الغزوات الهلالية لشمال افريقيا ولكن مما لا شــك فيه أن أكثر هذه الجماعات المتحالفة قد سلكت فى هجرتها الى السودان طريق وادى النيل وهذا ما رجحه ماكمايكل ، والبقارة ليس فى الأصل اسم علم على قبيلة عربية قديمة ولكنه وصف يدل على المهنة فمعناه رعاة البقر ولعلهم رضــوا بذلك لتميزهم فى المهنة عن جيرانهم فى الشمال من رعاة الابل الكبابيش والبقارة يسكنون دارفور وكردفان والكبابيش معظمهم فى كردفان .

وقبائل البقارة من أكثر قبــائل البــدو التى انتشرت فى غرب السودان ومن الواضح أنه بنهاية القرن الرابع عشر الميلادى استطاعت القبائل المتدفقة من مصر أن تتوغل فى السهول الشمالية لكردفان كما تجاوزت هذه الأنحاء غربا الى دارفور حتى بلغت فى توغلها غربا اقليم واداى فى السودان الغربى وكانت هناك مجموعات من هــذه القبائل اتجهت جنوب هذه المنطقــة حيث وجدت نفســها فى بيئة طبيعيــة لا تتناسب مع رعى الجمال والأغنام بل تصلح لتربية الأبقار ولذا أطلق على هذه القبائل المعرغبية التى عنيت بتربية الأبقار اسم البقارة .

ومن فروع البقارة التى يظن أن لها صلة بخذام ولخم بنو هلبة وهم من البقارة وتمتد بطونهم اليه ا وراء السودان الغربى وهــذا

الاسم يذكر ببنى هلية الجذاميين الذين سكنوا الحوف الشرقى من مصر وتضيف بعض المراجع أن بنى هلية يعيشون حاليا فى جنــوب دارفور •

كذلك فانه بالاضافة الى بنى هلبة يوجد فرع آخر من قبــائل البقــارة هم بنو هبانة أو الهبانية ومعظمهم فى دارفور وأن الهبانية أو بنى هبان بطن من لخم كانت مساكنهم بالبر الشرقى فى صعيد مصر وترجح بعض المراجع أن لفظ هبانية قد تحرفت فى السودان الى حبانية ومهما يكن من أمر فان فى السودان العــديد من القبائل التى تنتسب الى لخم •

كذلك فانه يضاف الى البطنين السابقين بنو هلبة وبنو هبانة بطن آخر هم الثعالبة الذين يكونون جزء كبيرا من احدى قبــائل البقارة وتسمى المسيرية والتى تعيش حاليا فى اقليم كردفان بغرب السودان ويذكر بعض النسابة فى السودان أن المسيرية هم أبناء « مسيره بن ثعلبة بن فخذ بن طى » وكانت هناك مجموعة الثعالبة فى صعيد مصر ويشير القلقشندى الى أن مجموعة من الثعالبة كان صلاح الدين الأيوبى قد أسكنهم الحوف • وفيما يبدو فانه بعد فشل الانتفاضات العربية المتكررة فقد هاجر الثعالبة وأبنــاء عمومتهم الى كردفان ويبدو أن الثعالبة كبقية قبائل البقارة امتزجوا بمجموعات عربية أخرى خلال هجرتهم وفيما بعد اختلطوا عن طريق التزاوج مع ســكان كردفان الأصليين وتجدر الاشارة الى أن بعضهم قد احتفظ بعروبته خاصة من ناحية الجنس ، اذ أن هناك نوعين من المســيرية فى كردفان أحدهم المسيرية الزرق كناية عن سواد بشرتهم والمسيرية الحمر كدلالة على بياض بشرتهم •

وينسب البقارة الى جنيد بن أحمد الأجذم أو ابن حمد الأجذم فى رواية أخرى •

البقارة : تعيش قبــائل البقارة فى جنوب كردفان ودارفرو فى اقليم يمتد غربا حتى بحيرة تشاد وجنوباً حتى اقليم الدنيكا والفريت

والبقارة هم المجموعة الوحيدة التى تحتفظ بهذا الاسم كتعريف أصلى لها دون القبائل الأخرى حتى التى تحترف رعى البقر وبسبب هذه الحرفة يضطر البقارة للتنقل جنوبا وشمالا حيث موسم الأمطار خوفا من أثر الذبابة ولكنهم كانوا يقعون فى قبضة الحكومة حيث يضطرون لدفع الضريبة ، وقد ساهموا فى اشعال الثورة فى عهد المهدية واشتركوا مع المهدى فى حصار الأبيض ولكنهم فى عهـد خليفته واجهوا بعض الصعاب عندما رفضوا سياسة تهجيرهم الى الشمال ، وينقسم البقارة فى كردفان الى عدة قبائل أهمها :

المسيرية والحمر : وهما فى الأصـل قبيلة واحدة ذات قسمين هم المسيرية الزرق والحمر والواقع أن المسيرية الحمر قد انفصلت فى الأونة الأخيرة حيث صاروا يشكلون قبيلتين منفصلتين لكل منها دار ، فالمسيرية الزرق موطنهم حول جبل السنط والمفرع ويمر ببلادهم وادى الغلة ومجراه فى الشمال الى الجنوب الغربى وينقسمون فى كردفان الى أولاد سليم والفزايا والديرادى وأولاد أبو نعمات وأولاد هبيان وقد دخلوا فى نزاع مع قبائل كردفان ، والأخرى بغرض التوسع وتنقسم الى فرعين أساسيين الحمر العجابرة والحمر الفلاتية • وموطن الحمر بين البركة وشكا ولا يتجاوز خط عرض ١١° شمالا وأكثرهم الأصية وأبى قلب • وانتقالهم من الغرب الى الشمال والى الجنوب يساعدهم على الانتفاع بجميع المراعى ويجنبهم غائلة الذبابة فى موسم المطر •

الهبانية : ويقع اقليمهم بين بركة الرهد وشريكيله وجنـوبا الى تقلى بين خطوط طوليا ١٥ ، ١٣ ، ٢٢ شرقا وبين خط عرض ١٥ ، ١٢ ــ ١٢٫٤٥ شمالا ويقولون انهم فرع من حبانية دارفور هاجروا فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر وقدر عددهم عام ١٨٧٦ م بنحو ٨ آلاف نسمة وينقسمون الى فرعين هما الطارة والسوط ويلحق كلا من هذين الفرعين فروع أخرى ويعيشون تقريبا على نمط من الحياة التى يعيشها اخوانهم البقارة الآخرين سواء فى تربية الأبقار أو من حيث العادات والتقاليد •

الحوازمة : وتقع منطقتهم الى الشرق من الدلنج وتمتد الى قرب كادوقلى ، جزؤها الشمالى الشمالى فى قاحل اقيزان ، وبقيـــة الأجزاء تصلح للزراعة وخاصة فى جهات النجكاية وأم علوان وغيرها ، كما تكثر بها أشجار الصمغ ، والحوازمة رحل تقريبا اذ أنهم يضطرون للنزوح فى الصيف جنـــوبا حيث المرعى والماء ، أما الذين يعملون فى الزراعة والتجارة فيقيمون بمنطقتهم على مدار السنة وتنقسم القبيلة الى ثلاثة أقسام ، عبد العلى ، حلامة ، الروادمة ، وبسبب توغلهم فى جبـــال النوبا فقد اختلط بعضهم بشعب النوبا حتى أن بعضهم سمى أولاد نوبا وبطون هذه القبيلة التى تعيش فى كردفان هى دارتى ودار شلنقو ودار نجونى ودار بعيلة وأولاد عميوش .

أولاد حميـــد : وموطنهم حول تقلى ويقولون أن جدهم بابكر العباسى من الجعلين الذين نزحوا الى كردفان فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى حيث أقام فى منطقـــة بنى الرهد وثركيله وفى جنوب غرب تقلى ، وفى تلك المنطقة تنازعوا مع الهكبانية وجانب من الحوازمة قبيل المهدية ، وعند اندلاع المهدية حاولوا مقاومتها ولكنهم فقدوا كثيرا من رجالهم المحاربين فاضطروا الى تأييدها والانضمام اليها وفى كردفان اختلطوا ببعض القبائل الأخرى كما تداخلوا فى قبائل النوبا من حيث ساعدوا على تسرب بعض الدماء النوبية اليهم .

وكان قد تدفقت بنو جذام الذين ينسب اليهم البقارة فى الاتجاه الشرقى الى السودان حوالى عام (٧٩٤ هـ / ١٣٩١ م) حتى بلغوا شمال دارفور وقضوا على حكم الزغاوة هناك . وقد أبعدت طوائف من الجذاميين وقرنائهم اللخميين عن مساكنهم فى مصر فى عهود الفاطميين والأيوبيين ولعلهم اتخذوا أطراف مصر موطنا لهم ولا سيما الأطراف القريبة فترة من الزمان وكانت هذه الأطراف منـــذ القرن السادس الهجرى مسرحا لحركات الهلاليين وأحلافهم عقب الغزوات التى شنوها على شمال افريقيا وربما انضم الجذاميون وحماعاتهم الى الهلاليين هؤلاء ، ثم تدفقوا على السودان الغربى ومنه الى دارفور .

على أننا لا نجد اسم جذام فى القبـائل التى تعيش اليوم فى السودان ومن الجائز أن جذاما وأحلافهم لخم وغيرهم اندمجوا فى قبائل البقارة والكبابيش الذين يمثلون الغالبيـة من العرب فى غرب السودان •

الكبابيش : الذين يعيشون فى المنطقة ما بين خط ١٤ — ١٦ شمالا شمال كاجا وكاتول وتمتـد شرقا حتى جيرة فى شمال شرق أم درمان وتبلغ مساحة هذه المنطقة حوالى ٤٨ ألف ميل مربع ، ولكن الكبابيش يسرحون أحيانا فى الصحراء الليبية ويبيعون ابلهم فى وادى النيـل والمناهل المختلفة فى جيرة والصافية وغيرها وقد يصـل بعضهم الى النيل فى دنقلا ، وتنقسم قبيلة الكبابيش الى عدة فروع منها العطوية وأولاد عقب وأولاد عون والتوارب وغيرهم ، وقد عمل بعضهم فى الزراعة كما عملوا فى نقل البضائع فى كردفان الى وادى النيل وكانوا ينقلون الصمغ من الأبيض الى الدبة وهو مازال لينا وفى الطريق يجف ويقل وزنه وحجمه ، ولكن المسئولين الأتراك كانوا يحاسبونهم على الوزن الذى استلموا به فى الأبيض وعليهم دفع الفرق ، فاحتجوا لدى الوالى التركى فزاد لهم أجرة الترحيـل ، وأحيـانا كانت الحكومة لا تدفع لهم استحقاقاتهم نقدا وتضطرهم الى أخذها عينا ولهـذا السبب كانوا كثيرا ما يفضلون نقل بضائع الجلابة رغم أن الأخير أقل مما تدفعه الحكومة •

وقبيلة الكبابيش من قبائل البدو المشهورة فى السودان والكبابيش من أعظم القبائل الآبالة وأكثرهم عـددا وابلها أكثر من الابل لدى أى قبيلة أخرى وأغلب الجمال التى تصدر الى مصر تفد من منطقـة الكبابيش وهذه القبيلة كسائر البدو يتجمعون وراء الكلأ وليس لها فى الشمال حدود واضحة المعالم سوى الصـحراء الليبية ومن الناحيـة الغربية يقترب الكبابيش فى تجوالهم مع حدود دارفور • وفى الشرق قد يصلون الى النيل عنـد منطقـة دنقلة وبعض الكبابيش يستقرون أحيانا ويمارسون زراعة المحاصيل مثل الفول السودانى والسمسم وبلاد

الكبابيش ملائمة كل الملائمة لرعى الابل والضأن والكبابيش مثلهم مثل البقارة ينتسبون الى جهينة ويؤكد أنهم أبناء كبش بن حمد الأفرز بن عيسى بن سفيان بن الأفرز بن ذبيان بن عبد الله الجهنى أو الجهينى.

وتضم قبيلة الكبابيش بعض المجموعات الصغيرة التى تستطيع أن تبين صلتها بالقبائل العربية التى عاشت فى مصر وهذه الفروع لهـا صلتها بخذام ولخم كما يظن بعض الباحثين .

(أ) أولاد سليمان :

وهم فرع كبير من قبيلة الكبابيش بل بطن من بطونها المنتشرة فى السودان ولا سيما فى كردفان ، كما أنه يوجـد فرع من بنو سليمان هؤلاء فى مصر وهم يكونون فرعا من بنى عقبة وقد كانوا فى سيناء أيضا وربما لا تزال بعض بقايا منهم فى سيناء حتى الآن .

(ب) أولاد عقبه :

ويروى أهل كردفان أن أولاد عقبه هؤلاء هم النواة الأولى من الكبابيش وبنو عقبه فى مصر يسكنون الجزء الجنوبى من شبه جزيرة سيناء وبنو عقبه من جذام وهم ينتسبون الى عقبه بن عبيد بن مالك .

ثم يأتى بعد هؤلاء من حيث الكثرة العددية والوجود القوى فى كردفان فرع :

(جـ) بنو واصل :

الذين يشكلون مع البطنين السابقين بطنا آخر من بطون الكبابيش .
ويوجد أيضا بنو واصل فى مصر وهم بطن من بطون عقبه ويبدو أن أولاد عقبه يشكلون الشجرة الكبرى التى تتفرع منها بنو واصل وأولاد سليمان وقد جاء بنو واصل الى سيناء من شمال بلاد العرب ثم عبروا بصعيد مصر الى السودان .

كذلك يوجد بطن رابع هو بنو عطيه أو العطوية وهم أيضا فرع من الكبابيش ينسبون الى بنو عقبه وقد نزلوا حول خليج العقبة فى القرن الرابع عشر الميلادى •

وتلك هى القبائل الرئيسية التى تنتمى الى جهينة والذين كان لهم أثر قوى فى مجرى الأحـداث السياسـية والثقافيـة والحضـارية والاقتصادية على مسرح الأحـداث فى السـودان خلال فترة صبغه بالصبغة العربية الاسلامية •

كما أنه يوجد مجموعات قبائل العركيون الذين يدخلون فى التقسيم الحالى فى السودان مع مجموعة قبـائل جهينـة والعركيون جماعات يسكنون قرى الجزيرة بين النيلين الأبيض والأزرق ومنهم فئات مازالوا فى غرب السودان وأقدم من عرف منهم فى تاريخ السودان كانوا فى أوائل القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى وأول من حمل لواء الزعامة الروحية فى السودان منهم ثلاثة أحدهم الشيخ « دفع الله ابن مقبل بن نافع العركى » الذى عاش فى القرن السادس عشر الميلادى حوالى ١٥٥٠م وهو جد الجماعة العركية أبى حراز بالجزيرة ونسبه معروف فى كتب الطبقات ونسبه مشهور الى العركى نسبة الى قبيلة عرك العربية المعروفة • وقد تفرقت قبيلة العركى فى الصعيد الأعلى وقد نشب نزاع فى عام ٧٤٩هـ بين قبائل عرك وبنو هلال ولكن المماليك فى مصر ساندوا بنو هلال فى هذا النزاع وقتل عدد كبير من المماليك وأمرائهم فى هذا الحادث وقد كان هذا ايذانا ببدء حرب عنيفة بين المماليك والعركيون وأحلافهم والذين اضـطروا الى الهجـرة جنـوبا حيث أرض السودان ، وعرك هذا بطن من بطون جهينة وكانوا فى بلاد العرب فى الشمال الغربى منها ، ثم انتقلوا مع جهينة الى الصـعيد الأعلى واستمرت حركته المقاومة هذه خمس سنوات أو أكثر (٧٤٩–٧٥٤هـ) بزعامة محمد بن واصل العركى •

وقد شن المماليك حملة على العرك وحلفائهم بقيادة محمد بن واصل شيخ عرك واستطاع المماليك بالخداع أن يضعوا السيف ببطنهم ومن ثم

قامت معركة حامية بين الحلف العركى والمماليك وقتل من الجانبين خلق كثير ومن ثم طرد العرب العركيون الى بلاد السودان ولم يبقى بدوى واحد بصعيد مصر ، ويقول ابن اياس ، أن الأمراء المماليك مشو وراء العربان الذين هربوا مسيرة سبعة أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج وأن جهينة فى الفترة (٦٩٨ — ٧٥٤هـ) كان لهـا نصيب فى المقـاومة مما أدى بهم فى نهاية الأمر الى الهجرة الكثيرة الى بلاد السودان •

ولقـد كان لهؤلاء العركيون دور كبير فى نشر الثقافة العربيـة الاسلامية فى السودان ولا سيما فى منطقة الجزيرة بوجه خاص بعـد أن سافر العديد من أبناء العركيون من منطقـة سكناهم حول النيـل الأبيض الى مصر حيث قاموا بتلقى العلم فى الأزهر الشريف وأقاموا بمصر فترة طويلة وكان سلاطين الفونج قد أرسلوا العـديد من أبناء العركيون نظرا لنبوغهم ومن ثم أرسلوا فى طلبهم للمساهمة فى الحركة العلمية الاسلامية فى السـودان واستطاع هؤلاء أن ينشروا العلوم الاسلامية وعلموا الناس مسائل الفقه على مذهب الامام مالك •

وقد أنشأ بعض أبناء العركيون بلدة الفقراء فى الجزيرة بالسودان حيث توارث أحفادهم تعليم العلوم الاسلامية الدينية فى هذه البلدة ، حتى تلك الأيام •

الهلاليون :

سكن الهلاليون وحلفائهم صعيد مصر الأعلى منذ زمن الفاطميين وأن مجاورة تلك المنطقة لبلاد السودان مما يقوى الاحتمال بأن هناك جماعات كثيرة من بنى هلال قد نزح تالى السودان فى أزمان مختلفة ولكن فيما يبدو أن هذه الجماعات كانت جماعات صغيرة فى بادىء الأمر لا سيما تلك الجماعات التى استقرت فى شرق السودان بحيث أنها لم تستطيع أن تحتفظ بكيانهـا القبلى والعرقى فترة طويلة من الزمن مما أدى الى الاندماج أو على الأقل معظم تلك القبـائل المهاجرة فى مجموعات عربية أخرى مهاجرة ان لم يكن قد تم بعض الاندماج مع السكان المحليين •

ومن هنا صار الانساب الى بنى هلال قليل ومحدود الأثر ، أما فى غرب السودان فان التأثير الهلالى العربى والنسبى يظهر بصورة قوية وفعالة بل بصورة واضحة •

وتذكر بعض المصادر أن هناك أثر للهلاليين وسط قبائل البقارة اذ توجد قبيلة من البقارة تعرف باسم بنى سليم تعيش على النيـل الأبيض من جهة الغرب ومن المعروف أن بنى هلال قـد نزحوا الى السودان فى أزمنة مختلفة وأن هناك جماعات كثيرة منهم قد صحبت الحملة المملوكيـة التى جردها السـلطان قلاوون عام ٦٨٥ — ٦٨٦هـ والراجح أن تكون هذه المجموعة الهلالية قد اتجهت من دنقلة الى اقليم كردفان حيث تكونت قبائل البقارة •

كذلك فان ذيوع سيرة الهلاليين وتردد أصـداء قصة أبو زيد الهلالى وسيرة بنى هلال فى المجتمعات العربية فى السودان شرقا وغربا كان له أثر بالغ فى حياة عرب السودان الاجتماعية والثقافية والراجح أن السودان قد عرف الهلاليين بعد أن ذاع صيتهم على أثر الغزوات التى قاموا بها فى شمال أفريقيا واشتهار أبو زيد الهلالى فى البوادى والقرى العربية السودانية •

كذلك فانه اذا نظرنا من وجهة النظرة الاجتماعيـة على مظاهر الحياة لدى قبائل البقارة ندرك تمام الادراك ذلك التماثل بين تلك القبائل وبين تلك الخصائص التى اختصت بها القبائل الهلالية والتى تقابل البقارة وخاصة الرزيقات منها والتى اشتهرت فى السودان بالفروسية بكافة مظاهرها من تربية الخيول الى المهارة فى استعمال السلاح كما اتصفت بالنزعة للقتال •

ومن ذلك ندرك أن تأثير الهلاليين فى السودان لم يكن وليد تغلغل النسب الهلالى وحده بل كان كذلك نسب تعلق عرب السودان بسيرة أبى زيد الهلالى والشخصيات التى لعبت دورا فيها ومن هنا فان التأثير فى السودان له جانبان جانب عرقى سلالى ونسبى وجانب قصصى •

ومن الأقوال التى تتداول فى بلاد السودان والتى تكاد تتفق جميعها على أن الهلاليين وفدوا على الســودان من الطريق الشرقى الأوســط (البحر الأحمر) من بلاد العرب الى كسلا مباشرة ، ثم عبروا النيل الأبيض واتجهوا الى غرب السودان ثم واصلوا رحلتهم غربا وشمالا الى بلاد تونس لمحاربة المغاربة .

كذلك فان تلك القبائل الهلالية مثل الرزيقات نجد فيها أن القتال والفروسية سمات تغلب على حياة تلك المجموعات العربية ، هذه الجماعات الهلاليــة المبنية على عصــبية الدم والنزعة الى التآزر بين أجسادها لمــا يكتنفها من الخطر الشاخص فى الطبيعة وفى الناس يشتد دفعها لروح الجماعة .

كذلك من الواضح لقصة عبور الهلالية من شــبه جزيرة العرب الى سواكن ثم فى الاتجــاه غربا ما هى الا قصة محليــة لكى تنسج تلك الرويات السودانية لكى تجعل السودان طريقا كان يستخدم فى الاتجاه غربا والذى سلكه بنو هلال فى طريقهم الى تونس . ويؤكدون ذلك الى أن معظم الجماعات العربية التى تنسب الى الهلاليين أو الى أبى زيد الهلالى يعشون الآن فى غرب السودان واذا اتجهنا فى الاتجاه الشرقى نجد أن التأثير القصصى أكثر مما هو عن التأثير العرقى النسبى .

ولو أن الهلاليين كما نقول الروايات قد وصلوا جموعهم العربية عن طريق الشرق من كسلا فى الاتجاه الغربى وسلكوا هذا الطريق الذى وصفته الروايات لكان من المنتظر أن نجد لهذه الجموع بقايا استقرت فى شرق السودان حيث يكون قد طاب لها العيش والمقام حيث المناخ المناســب للاســتقرار وتوفر ظروف المعيشة الملائمــة ولكان لازال يوجد الى اليوم فى شرق الســودان من ينتسب الى بنى هلال أو الى بنى زيد ولكن ذلك من النادر وجوده فى اقليم شرق السودان ، ومن الراجح أن الهلاليين دخلوا السودان بعد أن اتخذوا طريق وادى النيل ثم انحرفوا غربا على امتداد وادى الملك الى كردفان ثم الى دارفور .

والمؤكد تاريخيا والثابت كما يذكر المقريزى أن بنى هلال كانوا من بين جملة قبائل العربان فى صــعيد مصر التى شــاركت فى حملة السلطان قلاوون (٦٨٦هـ/١٢٨٧م) ، وأن تلك الحملة قد انقسمت الى قسمين كبيرين قسم سار فى اتجاه البر الغربى للنيل والقسم الآخر سار فى البر الشرقى ، وليس من المستبعد أن يكون عرب بنى هلال قد ساروا مع القسم الذى سار فى غرب النيل مع الفرقة الأولى ثم أنها بعد انهاء أغراض الحمــلة فانهم قــد يكونوا اتجهــوا فى طــريقهم الى غرب السودان .

وربما يكون هناك رأى آخر أن مجموعة الهلاليين بعد أن نجحوا فى شن غاراتهم فى بلاد المغرب قد انخرط قسم منهم الى الجنوب من تونس حيث كانت تلك المسارب والمسالك المتجه الى الجنوب مطروقة ومعروفة ومأهولة مما يجعل حركة التنقل فيها ميسرة ومن هنــا كان وصولهم الى غرب السودان من الطريق الشمالى الغربى وليس من طريق البحر الأحمر .

وفى غرب السودان نجد جماعات عربية كثيرة تنتسب الى الهلاليين أو الى أبى زيد والذين منهم قبائل التنجور والفور والرزيقات وهلالية البرقد والزيادية ، بالاضــافة الى التأثير العــرقى الجنسى فى هــذه الجماعات فاننا نجد التأثير القصصى يتمثل فى رواياتهم ولكن مع كل ذلك التأثير القصصى فانه لا يوجد ما يدعو للشك فى نسبهم الى الهلالية أو الى أبى زيد ومن هنا فان تلك القبائل العربية التى تحركت الى تلك المنطقة هى من سلالةالهلاليين وان اختلفت الروايات فى الطريق الذى سلكوه حتى وصلوا الى تلك المناطق التى يقطنوها هذه الأيام .

الهوارة :

تدفقت قبائل هوارة الى صعيد مصر الأعلى حيث مناطق الغرب الى السودان مع نهاية مرحلة الأحلاف العربية التى ظهرت فى مصر منذ عام ٦٥١هـ بين القبائل العربية ضد سيطرة المماليك ، وبعد انهاء تلك

المرحلة بانتصار المماليك فان هناك مجموعات من قبائل هوارة قد دخلت الى أرض السودان فى موجات بشرية متلاحقة منذ ذلك الوقت وقــد استمرت هجرتها منذ ذلك الحين حتى الى وقت قريب الى السودان •

والهوارة الذين يعيشون فى السودان وبصفة خاصة فى الجزء الشمالى منه هم بقايا هوارة مصر ويرى بعض الذين يدرسون حركة الهجرة العربية وانتشارها فى سودان وادى النيل أن هوارة السودان قد نزحوا الى المناطق التى يقطنونها من منطقة صعيد مصر وبالتحديد من منطقة اسنا وهم فى معظمهم بدو رحل وقليل منهم يستقرون على ضفاف النيل فى دنقلة وفى فصل الأمطار ينتقل الهواوير الرحل بقطعانهم من المــاشية الى الغرب ومن ثم يقومون برعى ابلهم وماشيتهم مــع الكبابيش من منطقة وادى الكاب شرقا الى حدود دارفور غربا وبعد أن يبدأ موسم الجفاف فى تلك المنطقة فانهم يبدأون فى العودة الى الشرق•

ويوجد قسم آخر من قبائل الهوارة يقيمون حاليــا بالقرب من منطقة الأبيض وكردفان وبالتحديد حول ضمى وأم دليكة وغيرهما من الأماكن وأنهم يرون أنهم بطن من بطون قبيلة الهواوير التى يطلقهــا السودانيون على الهوارة ، ويرون أن أجدادهم قد قدموا الى تلك الديار من صعيد مصر بعد أن عاشوا هناك حقبة طويلة من الزمن وأن أجدادهم الذين قدموا الى السودان كانوا بيض اللون ، وأن أول من قدم من الهوارة الى السودان كان رجلا تاجرا جوالا اسمه الحاج عيسى ود محمد ود منصور قدم من منطقة منفلوط احدى مراكز أسيوط وأنه نزل منطقة كردفان حيث ســلك ذلك الرجل درب الأربعين الذى يمر بالقرب من بلدته منفلوط • وكان رحيله الى كردفان مقدمة لكى يتبعه بعض التجار الآخرين من الهوارة والذين سكنوا كردفان وتجمعت طائفة لهم بعد أن تكاثر قدومهم الى كردفان ولهذا أطلق عليهم السودانيين جلابة الهواوير وبدأوا يمارسون تجارتهم فى تلك المنطقة •

ولقد لقى الجيل الأول من هؤلاء الهوارة النازحين الى السودان العــديد من المتاعب والصــعوبات فى كردفان ، مما حفزهم على عزم

الأمر بالرحيل مرة أخرى الى موطنهم الأصلى فى منفلوط بصعيد مصر ، وكان ان تزعم محمد أبو منامة بن الحاج عيسى ود محمد بن ود منصور القافلة التى تحركت شمالا للرحيل من السودان وبعد أن قطعوا شوطا طويلا فى رحلتهم شمالا والتى استغرقت أكثر من يومين ، فانهم بلغوا قرية يقال لها دوم الخاتراب بالقرب من شريم حيث تقابلوا مع أهالى هـذه المنطقـة الذين استضافوهم وأقنعوهم بالبقـاء معهم حيث يشاركونهم معيشتهم وولوا الشيخ محمد أبو منامة فقيها فيهم ولقريتهم يعلمهم العلوم الاسلامية الدينية ويقوم بتحفيظ أبنائهم القرآن الكريم، ولكن الشيخ محمد هذا قد توفى فى قرية دوم الخاتراب فرجع قومه مرة أخرى الى قرية ضمى وام دليكة وهناك استقروا الاستقرار النهائى .

وقد ظهرت بعض الفـوارق فى السحنة بين بدو الهوارة وجلابة الهوارة على مر الزمن فقد كان جلابة الهوارة أكثر امتزاجا ومصاهرة وتناسل مع العناصر الزنجية من أقاربهم بدو الهوارة .

وهكذا سكنت قبائل الهوارة بالقرب من منطقة الأبيض فى كردفان وربما يكون قد قدم بعض الهوارة عبر الطريق الشمالى الغربى الليبى وليس درب الأربعين الى السودان ، وكان يطلق عليهم فى السودان الهواوير وموطنهم فى شمال كردفان فى غرب وادى الملك الى صحراء بيوضة أو صحراء بيوضه فهم يجاورون الكبابيش من ناحيـة الشمال الشرقى ويلتقون سويا فى طلب المرعى وحول مناهل المياه ويوجد منهم كثيرون فى الأبيض والرهد كما أن منهم بيوتا فى الاضية والهنود وهم يعملون فى التجارة وفى نقل البضائع وفى عهد الخليفة عبد الله التعايشى ساهموا فى تقديم المساعدات من الجمال لحصار صالح فضل الله زعيم الكبابيش .

قبائل ربيعة وقبائل أهل المعدن :

تناثرت معادن التبر والزمرد على مراحل فى شرقى النيل من صعيد مصر وبلاد البجة فى شرق السودان حيث كانت كل منطقة معدنية منها بمثابة مركز تجمع للقبائل العربيــة وكذلك الأفراد الذين يعملون فى المعادن وقد ذكر اليعقوبى فى القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى أن تلك المنطقة بها حوالى ثلاثين موقعــا للمعدن يتخذ كل منها مركزا للقبائل العربية المهاجرة الى تلك المناطق ٠

ومن المؤكد والثابت تاريخيا وعلميا أن أرض المعدن هذه بجموعها الهائلة كانت مستودعا بشريا أمد السودان بالعديد من القبائل العربية وقد أخذت هذه الجموع فى الانتشار فى بقــاع السودان شرقا وغربا وجنوبا بعد أن خربت فى مناطق المعادن أو معظمها ٠

ولقد كانت من القبائل التى هاجرت من أرض المعدن الى السودان قبائل الكواهلة والتى كانت نواتهم الأولى وهى بقايا أحلاف ربيعة الذين هاجروا الى أرض المعدن بنسائهم وذريتهم فى آلاف كثيرة وقد انشق من ربيعة وأحلافها فرع بنى كنز الدولة الذى أثر السكنى شمال بلاد النوبة ٠

الكواهلة :

ينتسبون فى أصولهم الى كاهل بن أســد بن خزيمة ٠ والكواهلة يعيشون فى السودان فى المنطقة الواقعة على النيلين الأبيض والأزرق وفى الجزيرة بينهما فى جهتى عبود وود مدنى ومنهم بادية يســكنون غربى الرهد مع الحمدة ومن فروعهم الحسنات والشنابلة ، وأن الكواهلة والعبابدة كانوا من قبائل أرض المعدن ومنها تفرقوا فى أنحاء وادى النيل ٠ وقد كان للكواهلة صلة وثيقة ببنى ربيعة ، ذلك لأن بنى ربيعة من نسل حنيفة بن لجيم الذين كانوا يسكنون فى منطقة اليمامة شرق الجزيرة العربية ، ثم نزحوا منها الى صعيد مصر واخوة بنى حنيفة هم

بنى عجل بن لجيم الذين ربما كان موقع العجلى فى أرض المعدن منسوبا اليهم وأم صفية كما يقول المقريزى وسائر المؤرخين هى صفية بنت كاهل بن أسد بن خزيمة .

والقرائن الدالة على أن الكواهلة كانوا من قبائل أرض المعــدن لا تحتمل الشك فهم أهم قبيلة عربية فى السودان انصلت بالبجة اتصالا وثيقا من ناحيتى الجوار والنسب وتعلمت لسانهم البجاوى .

والكواهلة من القبائل العربية التى نزحت الى السودان فى وقت مبكر واتجه بعضهم الى كردفان قبل الحكم التركى بقليل (فتح محمد على للسوان) وأقاموا حول خط عرض ١٥° شمالا وتقوم ثروتهم على الابل وما يتبعها من المــاشية وقد تضطرهم ظروف المرعى الى التوغل فى أراضى غيرهم كما يحصل فى فصل الجفاف حيث يلجأون الى منطقة الخيرات حول بارة ثم ينزحون شمالا عندما تسقط الأمطار فينزلون أراضى الكبابيش حيث يضطرون الى دفع أجر نظير حصولهم على المياه وقد كثر اختلاط الكواهلة بغيرهم كما انتشر بعضهم بين قبائل النوبا .

واندمج قسم كبــير من قبــائل البجة معهم حتى أصبحت كل مجموعة بجاوية تنسب الى بنى كاهل .

ثم نزل بقية الكواهلة أوطانهم فى أرض البجة واتجهوا الى وسط الســودان وغربه ويكاد أن يكون من المؤكد أن الكواهلة أو معظمهم قد دخلوا السودان من الشرق ووصلوا اليــه من الجزيرة العربية مباشرة وبدأوا حياتهم فيه باحتلال الاقليم الساحلى أو جزء كبــير منه من سواكن شمالا الى عيذاب جنوبا حيث اختلطوا بالبجة وتعلموا لسانهم وصاهروهم وربما كان لهم الأثر الأكبــر فى نشر الاســلام والثقافة العربية بينهم .

وقد نزلت شعبة منهم فى العطبرة والنيل الأزرق وشعبة أخرى حول النيل الأبيض من خط عرض ١٢ الى اقليم جبل الأولياء شمالا

أى مسافة تتراوح ما بين ٣٥٠ و ٤٠٠ كيلو متر وهناك شعبة منهم اتجهت غربا حيث استوطنت كردفان •

هذا التوسع العربى فى مثل هذا النطاق الأرضى الواسع الذى تم فى الفترة الواقعة ما بين القرن الخامس عشر وأواخر القرن الثامن عشر تؤيد الى حد كبير دراسات الرحالة بوركهارت ورحلاته فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وبالتحديد فى عام ١٨١٤ قبل الفتح المصرى بعدة سنوات •

ولكن ليس من اليسير أن نؤكد هجرتهم من الشرق مباشرة ، ذلك لأنه من الجائز أن يكونوا قد شقوا طريقهم نحو طريق الصحراء الشرقية من الشمال ولا سيما اذا علمنا أن الكواهلة هم بقايا ربيعة الذين هاجروا الى مصر ، وكان منهم من سكنوا الحوض الشرقى بالوجه البحرى بمصر ، ومنهم من سكنوا أرض المعدن فى صعيد مصر وبلاد البجة • وعلى ذلك فان أجداد الكواهلة سكنوا أرض المعدن منذ القرن التاسع الميلادى واختلطوا بالقبائل العربية التى كانت تسكن تلك المنطقة كالحدارية وغيرهم من أعقاب سبأ ومضر • وقد شاركت هذه القبائل فى الأحداث السياسية التى شهدها ذلك العصر واضطرت بسبب النزاع الذى نشب بينها حول مواطن الرعى والذى نشب بينها وبين أهل البلاد الأصليين وما صحب ذلك من اختلال الأمن وتدهور الحالة الاقتصادية وتعطل التجارة بين مصر والسودان واختلال سير القوافل فى منطقة النوبة الشمالية وعدم الخضوع لحكومة مركزية تستطيع أن تعزز الأمن وتصون طرق التجارة فاشتركت بعض هذه القبائل فى حلف مع الفونج حين حالف أحد زعمائها عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة سلطان الفونج وتمكن الحليفان من اقامة السلطنة العربية الاسلامية • وذلك بعد تحركها جنوبا وتركها أرض المعدن •

وعلى ذلك فقد أصبح الكواهلة من أهم القبائل التى اتصلت بالبجة اتصالا وثيقا حتى أصبحت كل مجموعة بجاوية تنسب الى بنى كاهل مفضلة النسب العربى الجديد على النسب البجاوى القديم •

وفي زمن الرحالة ابن بطوطة فى الفتـرة (١٣٣٠ — ١٣٤٠ م) كان البجـة قد أقاموا على جزيرة سواكن السلطان الشريف زيد بن أبى نمى وهم أخواله وكان عســاكره من البجة وأولاد كاهل وعرب جهينـة ومن المعروف أن البجـة قد جروا على الاعتراف على نظام الأنساب الى الأم وتوريث الملك عن الأم •

وقد أبرز ابن بطوطة أيضا جانبا من جوانب الاتصال بين البجة والكواهلة حين قال : وصلنا الى حى من العرب يعرفون بأولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم •

وكما سبق أن ذكرت فان الكواهلة قد اتجهوا فى زمن متـأخر نسبيا الى جهات عطبرة وخور القاشى وســنار بعـد أن تركوا أرض المعدن وواصلت فروع منهم الهجرة فبلغت النيل الأبيض ثم كردفان ومنهم مجموعة تعيش اليوم فى جبال النوبة جنوب كردفان « حيث سلطنة تقلى » •

ورغم قولنا أن الكواهلة قدموا الى بلاد السودان من الجزيرة العربية مباشرة ، الا أن هناك آراء تذكر أن الكواهلة رغم ارتيادهم شرق السودان منذ القــدم ، الا أنهم وصلوا السودان من الشمال أساسا وليس عن طريق البحر الأحمر وتضيف تلك المراجع أن الكواهلة ربما كانوا بقايا ربيعة الذين هاجروا فى بادىء الأمر الى مصر وسكنوا صعيد مصر ومن ثم اتجهوا الى جنوب الصعيد وبلاد البجة •

ولقد كان تأسيس سلطان تقلى الاسلامية من الدوافع القوية التى هيأت لقبائل الكواهلة بأن تنتشر الى جهات عطبرة وخور القاشى وسنار حيث تمثلوا أكبر قسم من القبائل العربية وواصلت فروع لهم الهجرة فبلغت النيل الأبيض ثم كردفان وبيوضة وغيرها وهناك جماعات صغيرة تعيش منهم فى جبال النوبا •

وقد اتخذوا لقب « منجل » وأصبحوا حكاما اقليميين لهم السلطة التامة على القبائل التى تنزل الشطر الشمالى من مملكة سنار وتوارثوا

الحكم وجبوا الضرائب وامتـد ملكهم من مصب دندر الى دنقـلة ثم انفصلوا عن الفونج عام ١٧٧٠ م حينما ضعفوا وغلب عليهم الفونج •

وهناك أمثلة على مشاركة هذه القبائل فى الحياة السياسية للبلاد فعرب الشايقية مثلا بعـد أن خضعوا زمنا لنفوذ العبـدلاب انتهزوا فرصة النزاع الداخلى بين العبـدلاب والفونج عام ١٦٩٠ م وثاروا بزعامة قائدهم « عثمان ود حمـاد » وظفروا باستقلالهم وأسسوا امارة عربية لهم •

الجوامعة : يقع اقليم الجوامعة فى كردفان فى اقليم مستطيل شـمال وجنـوب شرق الأبيض وهم قسـمين فى كردفان الحمـراء والجميعية ، وقد تكاثر عددهم وأصبح لهم ثروة بفضل استفادتهم من غابات الصمغ ، وعند ظهور المهدى كانوا من مناصريه واشتركوا فى بعض وقائع المهدية بكردفان كما أن المهدى كلف زعيمهم المنا اسماعيل بحصار بارة حيث تمكن من اخضاعها ، وقد نقص عددهم حتى قيـل أنه لم يبقى من الجوامعة فى ظل المهدية سوى السدس من أصل تعـدادهم بكردفان وكان بدارهم مراكز تجارية معروفة فى المهدية مثل أم صغير وأم دم كما كان بمنطقتهم معاصر للزيوت على عهد الخليفة •

وكان الجوامعة أنصـار الفونج وقد ساعدوهم على التوسع فى منطقة كردفان واشترك الغديات فى جيشهم واتصـل البقارة بسلاطين دارفور ودخلوا فى طاعتهم أحيـانا ودفعوا الجزية أو خرجوا عليهم وفروا بأنفسهم ليعادوا الكرة من جديد • وفى نفس هذا العصر كانت الهجرات العربية تشق طريقها الى السودان منحدرة من الباب الثانى باب البحر الأحمـر وشرق السودان • فقد استطاع فريق العـرب المنتسبين الى كاهل بن أسد بن خزيمة أن ينحدروا من جزيرة العرب وأن ينزلوا بالاقليم الساحلى الممتد من سواكن الى عيـذاب ، وكان نزولهم فى هذا القرن الحادى عشر الميلادى على وجه التقريب ، ثم أقاموا بهـذا المهجر لمدة ثلاثة قرون أو أربعـة اختلطوا فيها بالبجة وتعلموا لسانهم وعملوا على نشر الاسلام والثقافة العربية بين صفوفهم

ولا يزال الى اليوم من ينسبون من البجة الى كاهل بن أسد بن خزيمة ثم حدثت حركة الهجرة الواسعة الى المناطق المشار اليها سابقا حيث عمل تيار الكواهلة القادم من الشرق مع التيار القادم من الشمال على احتلال الجزء الأكبر من المساحة الواقعـة على النيل الأبيض على الضفتين الشرقية والغربية ، ثم لم تطب لبعضهم الاقامة فكان الرحيل الى منطقة كردفان ونهجوا نفس النهج الذى التزمه العرب المندفعون من الشمال من حيث اختلاطهم بالسكان الأصليين أو بغيرهم من القبائل وتسربهم سلميا ومقدرتهم على استيعاب العناصر الغريبة عنهم •

ولا يكان ينتهى هذا الدور حتى يكون السودان قد تعرض بحكم موقعه الجغرافى لتيارات اسلامية أخرى وافدة من الشمال الغربى الى دارفور وكردفان ، ثم تيارات أخرى منبعثة من سنار ومتجهة صوب الشمال • استطاعت هذه التيارات الوافدة أن تسقط الحواجز وأن تفتـح باب السودان على مصرعيه لتلقى الثقافة العربية الاسـلامية ولتقبلها وتهيأه ليلعب دوره الاسلامى الذى لعبته الأوطان الاسلامية الأخرى •

وقد أسس العرب العديد من المشيخات التى منها مشيخة خشم البحر ، شرق النيل الأزرق بين رتقة والروصيرص ثم مشيخة الحمده ، ومشيخة الجموعية ، مملكة الجعليين ومركزها شـندى ، ثم مملكة الميرقاب فى شمال الجعلين بين المفرق ووادى السنقير ، ومملكة الرباطاب المآتدة من وادى السنقير الى الشامخية ، مشيخة المناصير من الشامخية الى الشلال الرابع ، ثم مملكة الشايقية •

غير أن هذه الجماعات العربيـة تركت أثرا أبقى فى الميـدان الاجتماعى والثقافى ، فقد عملت على نشر الدين الاسلامى فى منطقة فسيحة وواسعة تمتد من حدود مصر شمالا حتى خط عرض ١٢ جنوبا ومن ساحل البحر الأحمر شرقا حتى منطقة بحيرة تشاد • ولقد كان للكواهلة قدرة على مخالطة الشعوب الوطنية والاندماج فيها ، واذا كانوا قد تركوا فى أوطان البجة الأثر القوى الذى تركوه فلا بد أنهم حملوا نفس الرسالة الى الأوطان الجديدة التى انحدروا اليها •

ولا يبعد أن يكون الجهنيون قد أدوا نفس الرسالة وقاموا بنفس الدور واستطاعت هذه القبائل أن تكسب السودان الشعب العــربى والدم العربى واللغة العربية وأن تضيف الى عالم الاســلام قطرا فسيحا ليمتد وسط القــارة الافريقية ليساهم فى الحياة الاســلامية مساهمة الأقطار العربية والاسلامية الأخرى .

وكانت هذه القبائل أداة لنشر الثقافة العربية فى أرجاء السودان وأحسن مثل الجهود التى بذلت فى هذه السبل الدور الذى اطلع به الجعليون فى حياة السودان ذلك لأن الجعليون قد لعبوا فى هذا التطور دورا هاما وكانوا من أهم عوامل ذلك الاندماج وقد رأينــا كيف أن كبيرهم ابراهيم الجعلى كان يدخل فى القبيلة من ليس منها ولعل هذا يفسر النمو المطرد لهذه القبائل حتى أصبحت شعبا كبيرا يتألف من عدة قبائل كثيرة العدد .

ولقد كانت عشيرة المجذوبين التى تنتسب الى الجعليين دورها فى حياة السودان لا سيما دور الفقيه حامد بن محمد المجذوب حيث أنشأت هذه العشيرة مدينة الدامر فأصبحت حاضرة روحيــة للجعليين بل للسودان كله وقد زارها الرحالة بوركهارت عام ١٨١٤ ورأى فيها جوا من التقوى والصــلاح والعــلم . والسبب فى ذلك أن الامامة والسيادة فى الدامر كانت لرجال الدين من الجعليين .

فكما رحل أبناء عشيرة المجذوبين الى القاهرة ومكة المكرمة طلبا للعلم كان أبناء قبيلة الجعليين لا سيما قبيلة الركابية فقد كان أبناءها أيضا يرحلون الى مصر فى طلب العلم حيث كانت لهم شهرة واسعة فى الفقه والدين حيثما نزلوا وتولى كثيرون منهم منصب القضــاء وكانوا من أشهر العاملين على نشر الاسلام والثقافة الاسلامية فى جنوب كردفان وكذلك كان شــأن الغذيات حيث نشروا الاســلام والثقافة العربيــة الاسلامية فى النصف الشمالى من دار النوبا .

واضافة الى عشيرة المجذوبين الركابية ، الغـدياب الذين ينتمون الى الجعليين فانه توجد قبائل عربية كبيرة وكثيرة ليست من الجعليين .

منها الشايقية : الذين ينتمون الى شايق الذى « هو شقيق غانم جد الجعليين » كما يذكر ذلك النسابون وتمتد أوطانهم على ضفتى النيل من نهاية الشلال الرابع الى مصب وادى الملوك فى مسافة تزيد عن مائتى كيلو متر .

وفى النصف الثـانى من القرن العـاشر الهجرى قدم الى دار الشايقية الشيخ « ابراهيم البولاد » من مصر ودرس فيها العـلم وخليل والرسالة وانتشر علم الفقه فى الجزيرة ، كما أن المساجد التى أنشأها الشيخ عبد الرحمن بن جابر فى دار الشايقية كان لها دور فى تفقه رجال تلك العشيرة كما كثر حفـاظ القرآن الكريم بينهم كذلك يوجد بطن آخر من بطون الجعلية هم المناصير والذين تمتد ديارهم من أبى حمد الى آخر الشلال الرابع وقد هاجر فريق منهم فى القرن الثامن عشر الميلادى فاتخذوا طريقا منحدرا نحو الغرب الى دارفور وكردفان .

والشايقية : هم من أهم قبائل السودان الشمالى من وجهة النظر التاريخية وترتبط هذه القبيلة بتاريخ السودان الشمالى ارتباطا وثيقا من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر ولا يعزى هذا الارتباط الى الموقع الجغرافى وحده بل لما يتصف به أفرادها من نزعات حربية واقدام ومهارة واستبسال فى الفنون العسكرية ، والشايقية هم أبنـاء شايق بن حمدان بن صـبح أبو مريحة وهو الذى تزعم رواياتهم أنه هاجر بالقبيلة من بلاد العرب الى السودان وهو ذو قرابة وثيقـة بقبائل الجميعات والجوامعة وفروعها ويتصلون بالبديرية بنوع الاتصال ولكنهم ينتمون الى المجموعة الجعلية .

دخلت هذه القبائل السودان عن طريق سواكن ومصوع واتجهت غربا وجنوبا صوب نهر النيل وتمسك البـدو منهم بحياة البـداوة

فتنقلوا فى البـلاد الفسيحة الواقعة بين العطبرة والنيـل الأزرق ، أما القبائل الأكثر استقرارا فقد استوطنت البلاد الممتدة على ضفتى النيل بين الشلالين الرابع والخامس حيث شـغلوا جزءا فاصلا بين المملكتين المسيحيتين فى ذلك الحين مملكة علوة الجنوبية ومملكة مقرة الشمالية •

وقد التأمت روابط العرب فى هذه المنطقة بحكم صلات القربى التى تجمع بينهم وبحكم روابط الدين المشترك • وفى نهاية القـرن الخامس عشر الميلادى انطوت هذه القبائل تحت لواء قائد واحد هو عبد الله جماع من عرب القواسمة وشيخ قبيلة العبدلاب ومؤسسها •

وتمتد دار الشايقية على طول ضفتى النهر من جبـل الداجر الى نهاية مسقط الشلال الرابع وتشمل ممالك أربع وهى حنك وكجين ، ومروى وعمرى ، والمقاطعة كلها يسكنها عرب الشايقية وقليـل من النـوبة يعيشون بينهم عيشـة خضوع واذعان وأهم دار الشايقية يختلفون عن أهالى سائر الدور فى أنهم عند ما يتهددهم عدو مشترك يهبون صفا واحدا لمحاربته وقد طرحوا جنبا كل ما بينهم من أحقاد وخصومات وبادروا جميعا الى النطواء تحت قيادة موحدة ، هـذا بالرغم من أن دارهم مقسمة الى أربع ممالك منفصـلة وأن ملوكها الأربعة طالما تنازعوا فيما بينهم •

ولقد أصـبح الشايقية فى غضون القرن السابع عشر قبيلة قوية ذات نفوذ وسلطان والحق أنهم صاروا من القوة بحيث استطاعوا فى خلال النصف الأخير من هذا القرن أن يشقوا عصا الطاعة على سلطنة سنار وأن يتحدوا العبدلاب والفونج جميعا وحانت لحظة الثورة على بلاط سنار عند ما ثارت المتاعب والخلافات الداخلية فى سنار •

ففى عهد الملك « بادى الأحمر » سلطان سنار كان هذا أول ملك من ملوك الفونج تخرج عن طاعته القبائل التابعة لحكمه فثـار عليه الشيخ « ارداب ودعجب » وسار اليه على رأس ألف رجل من الفونج

وغيرهم ونصـبوا ملكا آخر عليهم اسمه أوكل ونادوا بعزل بادى الأحمر •

لكن ظهر فى الشايقية أمرأة اسمها عديلة كانت فارسة شهيرة فى تاريخ الشايقية فقد فاقت فى الفروسية وفنون القتـال جميع نظرائها من الرجال وكان وجودها مع المحاربين وبسالتها فى الحرب أكبر مشجع لهم على الاستماتة فى القتال ولقد أحرزت لقبيلتها كثيرا من المعارك التى كان النضال فيها شديدا عنيفا •

وقد استطاع الشايقية هزيمة جيش العبدلاب بعد أن لاذ هؤلاء بالفرار ، ومن هنـا استطاع الشايقية الحصول على اسـتقلالهم من العبدلاب وقد تكون هذه الأحداث قد حدثت فى عام ١٦٩٠ م

ومن هنـا لم يأتى القرن الثامن عشر حتى نجـد الشايقية قد نفضوا عن كواهلهم الولاء والتبعية لسلطنة سنار واستجمعوا قوتهم وتطلعوا الى الشـهرة وكان ذلك أحد العـوامل الحاسمة فى تاريخ السودان الشمالى فى حين ظلت بقية ولاية دنقلة تابعة للفونج ، فى ذلك الوقت انصرف أمراء الفونج الى متاعب داخلية فكانت شغلهم الشاغل فى ذلك الحين أى عام (١١٣٧ — ١٧١٣ م) تولى بعد بادى الأحمر ابنه أونسة فاتبع هواه واستسلم للهو واللعب وأفرط فى ذلك حتى انتهى خبره الى الفونج فى النوبة فعزموا على عزله وذهب عنه سلطانه وكان ذلك فى عام ١١٣٠ هـ وذهبت معه سلطة الفونج وانتزعت من أيديهم ، وفى عام ١١٣٥ هـ تولى العرش السلطان بادى أبو شلوخ وكان آخر سلاطين الصولة والشوكة فلم تكد تنتهى مدة حكمه حتى سـيطر مشايخ الهمج على الحكم حيث كانوا هم أصحاب السـلطة والنفوذ فقد جمعوا كل سلطات السلاطين فى أيديهم •

ففى الفترة من ١١٧٥ — ١٧٦٢م أصبحت السيادة فى أيدى الهمج وكان الشيخ محمد أبو الكيلك الأقوى من السلطان حيث قتل عددا كبيرا

ولما انصرف أمراز سنار الى متاعبهم وهزم الشايقية شيخ العبدلاب انصرم ذلك النفوذ الذى كان يفرضه الفونج على دنقلة .

وقد كان عرب الشايقية بعد أن كان لهم نصيب من اليراد يأخذون عن الأرض التى ترويها السواقى أربعة موريات « وهى نوع من أنواع المكاييل القديمة » من الذرة عن كل ساقية ورأسين أو ثلاثة من الأغنام وثوبا من الكتان ، وبذلك فلم يعزل الشايقية أمراءهم الوطنيين بل عينوا عمالا فى كل بلاط كانت مهمتهم أن يجبوا من كل أمير نصف ايراده وأخذت جموع من فرسان الشايقية يطوفون البلاد من كورتى الى حنك بقصد الاغارة والسلب فنهبوا وخربوا وأثاروا الرعب والفزع فى نفوس الأهالى ، وكان من جراء التخريب الذى أحدثته هذه الجموع أن هاجرت جماعات هائلة من السكان الى كردفان ودارفور وبربرة .

وأنه قبل أن يصل المماليك الى دنقلة عام ١٨١١م كان الملك نمر ملك شندى فى حروب متواصلة مع عرب الشايقية الذين كانوا قد قتلوا كثيرا من أقربائه فى المعارك كما أنهم أغاروا على بلاده عدة مرات فى جموع كثيرة من الفرسان وبينما كان الشايقية منصرفين الى تلك الحروب والحملات كان العبيد والأسرى من النوبيين يتعهدون أراضى الشايقية بالرى والزراعة ومع نهاية القرن الثامن عشر أصبح الشايقية أقوى قبيلة فى السودان من الشمال تثير الرعب فى جميع أنحاء البلاد الممتدة من حلفاية الى حدود المحس ، ذلك لأنه بعد زوال سلطنة سنار أصبح الشايقية جبابرة فى نظر جيرانهم وقد عانى أهالى دنقلة وبربر وحلفاية ما عانوه على أيدى هؤلاء القوم من الشايقية .

كما توجد فى السودان قبائل عديدة فى كردفان منها ما كان يعرف بقبيلة فزاره وقد كانت خليطا من المجموعات العربية التى تضم أكبر مجموعة من رعاة الابل فى كردفان ومن هذه المجموعات قبائل دار حامد وأهم مراكزهم بارة ومن فروعهم الجليدات والمجاتين والمدامرة والفراضنة والهباين وهم يرعون الابل والبقر ويزرعون فى بعض الأماكن ذات التربة الطينية التى تحتفظ بالماء ، وأكبر هذه المناطق هى دار

هبابين وهنا تروى جميع دار حامد أبقارها أما الابل فتروى من مشروع العاديك والبشيرى بأرض الفراضنة وأيضا فى أم بادر بدار الكبابيش ، وهناك أيضا بنى جرار فى جنوب خورس وقد لعبوا دورا فى فترة المهدية ومن أقسامها المحابيب والجبارات ، أما النبرعة فهى قبيلة قليلة العــدد لهم صلة ببنى جرار ويعملون فى اقليم الصمغ بشرق كردفان وفى جنوب أم دم وقليل منهم يرعى الابل فى غرب كردفان وهناك الشنابلة وأكثرهم فى كردفان رعاة ابل وليس لهم شــأن سواء من الناحيــة السياسية أو الاقتصادية وفى كردفان أيضا تعيش شعبة من المعاليا الى القرب من دار حامد ومن الهنود والأبيض والدلنج وأم رواية وهم يعملون فى حرف مختلفة منها رعى البقر ورعى الابل ، أما الزيادية فهم قبيلة صــغيرة هاجرت حديثا الى كردفان وليس لها وزن وسط القبائل الكبيرة سوى أنها تقيم ويعمل بعضهم برعى الابل بالقرب من دار حامد •

ثم بطن الرباطاب : وهم قبيلة جعلية أيضا ولو أنهم انطووا تحت لواء الجعليين وتقوم مساكنها فى المنطقة الواقعة على ضفتى النيل من شمال بلدة عبيدية حيث بين الشــلال الخامس وتستمر مسيرتهم فى الامتداد حتى تصل الى أبى حمد ثم الى امتداد النهر غرب أبى حمد بنحو يزيد عن كيلو متر مربع •

ثم قبيلة الميرفاب والذين يسكنون فى المنطقة الواقعة فيما بين مصب نهر العطبرة الى بلدة عبيدية حيث يبدأ الشلال الخامس وعاصمتهم مدينة بربر • وهم فى شمال الجعليين بين المقرن ووادى السنقير •

وكذلك من يطلق عليهم الجعليون الخلص وربما تكون كلمة خلص هذه دليل على أنهم هم الذين كانوا أساس قبيلة الجعليين وهناك العديد من القبائل الأخرى التى انطوت تحت لوائهم زمن جدهم الأكبر ابراهيم الجعلى وهؤلاء تمتــد منطقة سكنهم ومعيشتهم فيما بين منطقة خانق سبلوقة الى العطبرة حيث يقطنون على الضفتين الشرقيــة والغربيــة النيل •

والى الجنوب من هؤلاء الجعليين الخلص توجـد بطن أو عشيرة الجموعية والذين يقطنون جنوب خانق سلبوقة على الضفة الغربية للنيل الأعظم شمال أم درمان وجنوبها ، بل تمتد أوطانهم الى نحو يزيد عن خمسين كيلو متر جنوب أم درمان الحالية وأغلبهم يعيش على الضفة الغربية للنيل الأبيض والنيل الأعظم لنهر النيل •

كذلك يوجد بطن صغير من بطون الجعليين هم **الجمعة** أو الجمعية الذين يسكنون فى منطقة غرب النيـل الأبيض الى الجنوب من منطقة سكنى قبائل الكواهلة الذين ينتمون الى جهينة •

كذلك توجد قبيلة **البديرية** وقد انحدرت شعبة كبيرة منهم حيث تعيش على النيل بينما فرع آخر منهم اتخذ طريقه فى الاتجاه الغربى الى منطقة كردفان حيث طاب لهم المقام هناك ويبدو أن انحدارهم الى تلك المناطق الغربية من السودان لم يتم الا فى القرن الرابع عشر الميلادى الثامن الهجرى وذلك فى الوقت الذى استطاع منه العرب القضاء على مملكة المقرة فى دنقلة ومن ثم يستمر سعيهم فى حركة التنقل والترحال •

والبديرية : كما يقول بوركهارت بين مدينة دنقلة ومروى يوجد دار للعرب يسمى بدير ورؤسائه الى الوقت القريب كانوا خاضعين للشايقية وتمتد ديار البديرية من ثيتى الى حدود دار الشايقية عند جبل الدجر وكان لها أمراء يحكمون فى الخندق ونقلة العجوز وجزيرة تنقس وايكور ودفر وكانت دنقلة العجوز أكبر ممالكهم وكانت سـائر الممالك بمثابة امرارات تابعة لها • واستوطنت هذه البلاد البديرية والنوبة وسكنت مقاطعات كورتى قبيلة الطريفية التى تمت بصـلة قرابة وثيقـة الى البديرية •

والبديرية موطنهم الأصلى على النيل شمال أرض الشايقية وجنوب الجوابرة وفى أوائل القرن الرابع عشر هاجر بعضهم الى كردفان وأقاموا حول الأبيض ومارسوا الزراعة والرعى والتجارة •

كذلك توجد قبيلة أخرى اتخذت نفس المجرى المنطلق فى الترحال غربا جنوب كردفان ودارفور وان كانوا قد استقروا جنوبا على ضفاف

النيل جنوب أم درمان حيث طاب لهم المقام وشهد القرن التاسع عشر الميلادى انطلاقتهم الكبرى الى كردفان ودارفور تلك هى قبيلة الجوامعة العربية الذين ينسبون الى جدهم الأكبر جامع ٠

كذلك من القبـائل التى لعبت دورا كبيرا فى مساعدة الفونج فى تأسيس دولتهم ومساعدتهم فى حروبهم قبيلة العـديات التى اشتركت أيضا فى الحملة المشهورة التى قادها الفونج على سلاطين تقلى جنوب كردفان حيث كان توسع نفوذ الفـونج منطلقا لهم للتحرك الى تلك الجهات ٠

اضافة الى قبيلة البطاحين التى تسكن فى سهل البطانة الشمالى ٠

ولقد كانت السياسة المعادية للعرب فى مصر من الأسباب القوية الى ازديار التيار العربى الاسـلامى فى السودان حيث دفع ذلك التيار بموجات عربية كبيرة نحو السودان اضافة الى الباب الشرقى (البحر الأحمر) والباب الشمالى الغربى الطريق الليبى (تونس) ليس هذا فحسب بل ان المجموعة العربيـة التى هبطت أرض السودان فى ذلك العهد لتكون الى حد بعيد النواة العربية الكبيرة والواسعة التى أثمرت معظم المجموعات العربيـة القائمة اليـوم فى السـودان انما كانت حركتها من صـعيد مصر ، كمـا أن حركة الهجـرة الواسـعة التى تمت بها تلك الهجرات تحت الظروف السياسية والاجتماعية والسياسية كان لها أثر كبير فى شكل وفحوى عروبة السودان وطبعه بالطابع العربى الاسلامى حيث وجدت تلك القبـائل العربية مناخا اجتماعيا وسياسيا وطبيعيا واقتصاديا استطاعت أن تتلاءم معه فى ظل كل هذه الظروف ومما لا شك فيه أن طبيعة تلك الهجرة العربية أثرت الى حد كبير فى عروبة السودان وثقافته العربية والاسلامية الحالية ، ذلك لأن العديد من القبائل العربية قد اندمجت فى السكان المحليين والذين كانوا ينتمون الى أجناس متعددة أبرزها الحاميون وفى نفس الوقت نجد مجموعات عربية احتفظت بنقاوتها الجنسية واللغوية ٠

ورغم الحديث عن القبـائل العربية هذه التى يشـكل ما ذكرناه الجزء اليسير منها الا أنه رغم ذلك فان السودان يحتل مركزه فى الأسرة العربية الاسلامية ، لا لأن تاريخه القومى يحفظ لنا الكثير عن انتشار القبائل العربية وتوطنها فى أرجاء ذلك الوطن ، ولكن لأن الصفة العربية الاسلامية هى الطابع والسمة الغالبة التى طبع بها السودان العربى منذ قرون عديدة قبل الميلاد .

ولقد استمرت حركة الهجرة العربية من الجزيرة العربية وغيرها من المناطق الأخرى المجاورة للسودان منطلقا الى ذلك المكان الواسع الفسيح حيث يطيب المقام لهذه الحركة المهاجرة حتى الوقت الحديث ، فلم تنقطع الهجرة منذ العهود القديمة من سيناء ومصر والحجاز وجنوب الجزيرة حتى العصر الحديث رغم ظروف الحكم فى مصر وبلاد المغرب العربى بأقسامه المختلفة ، ذلك لأن السودان كان المعقل الآمن المستقر الذى تلجأ اليه الهجرات العربية فى ساعة العسرة التى كان يضيق فيها الحكام فى الأقطار المجاورة الخناق على تلك القبائل ومن هنا كانت تجد تجد طريقها الى ذلك المتسع العربى الاسلامى ومن تلك الهجرات العربية الواسعة الحديثة هجرة قبيلة الرشايدة .

الرشايدة : حدثت هجرة هؤلاء الرشايدة الى السودان فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى وبالتحديد فى الفترة ما بين أعوام (١٨٤٦ — ١٨٧٧ م) وانهم انتشروا فى منطقة ساحل البحر الأحمر الغربى فى المنطقة الواقعة بالقرب من فرورة وأن هجرتهم كانت بطيئة وتتضح من روايات الرشايدة أنفسهم أنهم هاجروا من الحجاز الى السودان ابان العهد التركى المصرى ، وأن هجرتهم كانت لقتال وقع بينهم وبين قبائل الحجاز فعبروا البحر الأحمر فى نحو ألف رجل ومعهم أسرهم وابلهم وعتادهم من جدة الى أرض الحباب فى عام ١٨٧١ م . وأن الرشايدة هؤلاء كانوا ينتشرون فى الجزيرة العربية من نجد الى برزان وحول مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والغصن ، وأن هجرتهم كانت بسبب خلاف بينهم وبين حكامهم من أشراف مكة المكرمة حيث كان حاكمها هو الشريف عون باشا وكان نزوحهم الى السودان فى وقت كان فيه علاء الدين باشا حاكم سواكن ، وأن الرشايدة هؤلاء كانوا أصحاب ابل وغنم .

وان تاريخ هجرتهم الى السودان يكتنفها الكثير من الغموض كتاريخ معظم القبائل العربية التى هاجرت الى السودان ولكن هجرة الرشايدة كانت أحدث الهجرات العربيــة التى هاجرت الى السودان حيث وفدت من جزيرة العرب الى الساحل الغربى من البحر المتوسط فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى •

وقد عرفت تلك القبيلة المهاجرة باسمين فى السودان الاسم الأول وهو الأغلب والشائع وهو الرشايدة ، أما الاسم الثانى فهو الزبيدة ، ويفسر بعض كبار هذه القبيلة ممن تجاوز سنهم السبعين عاما أن السر فى ازدواجية هذا الاسم (الرشايدة والزبيدة) هو أنهم من نســل الخليفة هارون الرشيد العباسى وزوجته زبيدة ، صاحبة بئر زبيدة فى عرفة ، فمن الرشيد اشتقوا اسمهم الأول ومن زبيدة اشتقوا اسمهم الثانى وهم ينقسمون الى ثلاثة بطون رئيسية هى البراعصة فى الشرق والبراطيخ والزنيمات ، وأن بينهم وبين الجد الأكبر الذى قدم السودان سبعة عشر جدا حتى يصل الى اسم هارون الرشيد •

والذين زاروا الجزيرة العربية فى القرن التاسع عشر يعدونهم من القبائل العربية الأصيلة وفى الجزيرة العربية يوجد لهم فروع رئيسية هم الشررات أقر بيسى وبنو رشيد ، وأن جد الهتيم الذين يسكنون المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية هو الرشيد وربما كان هناك صلة بين الرشايدة وآل الرشيد الذين نازعوا الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل ســعود الحكم والنفــوذ فى الرياض ، ويوجد منهم الهيثم الذين يعيشون على ســاحل البحر الأحمر بالقرب من ميناء الوجه (الوش) فيدعون قريبس وقد يكون هؤلاء الذين هاجرت النسبة العظمى منهم الى السودان • ويسكن بعض الهيتم فى تهامة شمال مكة المكرمة ومما يقوى حجة وجود صلة بين الرشايدة والهيتم أن العوازم أو العوازمة الذين هاجروا الى السودان مع الرشايدة وصاروا تحت امرة الزنيمات هم فى الأصل جزء من الهيتم •

ورشايدة السودان يصـفون جدهم الأول برشيد الزول حفيـد هارون الرشيد وأنهم يعرفون فى بلاد الحجاز ببنى رشيد وأن الرشايدة فى الجزيرة العربية يسكنون حاليا فى المنطقة الواقعة فيما بين نجد شرق المدينة المنورة غربا وأنهم هم الذين قاوموا عبد العزيز آل سعود عند ما كان آل الرشيد يسيطرون على الرياض ، وكانت مدينتهم « حائل » بل أكثر من ذلك فان بطون القبيلة المعروفة لديهم فى الجزيرة العربية من نفس الفروع الموجودة فى السودان وشم ابلهم يطابق وشم ابل رشايدة السودان •

ومن هنا فان بنى رشيد الذين ينتمون الى هارون الرشيد ومن ذريته قد اختلطوا ببعض القبائل العربية الحجازية التى تسكن أرض الحجاز وأن أساسها من أصول قحطانية وربما تكون بعض القبـائل العربية المجهولة الأصل قد انضمت اليهم •

ومن أسباب هجرتهم الى السودان هناك من يروى أن سنوات الشدة والجدب هى التى اضطرتهم للهجرة الى السودان وأنهم تقابلوا مع أصحاب المراكب (السفن) فى البحر الأحمر والذين كانوا يصلون الى جدة من موانى سواكن وبور سودان ومصوع وقروزة وانهم سهلوا لهم الهجرة الى السودان حيث المناطق الممطرة فهاجر بعض من الرشايدة الى قروزة والبعض الآخر هاجر الى كل من مصوع وجنوب مصر وانهم اجتمعوا فى موضـع يقال له فرســأن وفى هـذا الموضع تعـاونوا فيما بينهم على العبور للوصول الى السودان بعد أن استعملوا السنابك فى عبور البحر الأحمر ومن ثم دخلوا منطقة حلابيب ومنها اتجهوا الى مصوع واتجه بعضهم الى دَرشوط وسوهاج فى مصر •

وربما تكون ظروف الجدب الشـديد الذى طال ســبع سنوات والخلاف مع الشريف عون باشا حاكم مكة المكرمة وغيرها من الأسباب كانت من الدوافع القـوية للانتقال الى السودان والهجرة عبر البحر الأحمر •

وكانت أقوال لا زالت تذكر أن أغلبية قبيلة الرشايدة لا زالت تسكن حتى عصرنا الحاضر الجزيرة العربية حيث أن الرشايدة فى الأصل جزء من قبيلة كبيرة من قبائل الحجاز لا زالت تسكن شمال المدينة المنورة وأن الذين هاجروا منهم الى السودان هم نسبة صغيرة نظرا للظروف السابق الاشارة اليها •

ولكن هناك من يدعونهم بالزبيدة فى السودان وذلك نسبة الى قبيلة زبيد القبيلة اليمنية وليس الى زبيدة زوجة هارون الرشيد ، وان كانت هناك بعض الآراء تذكر أن قبيلة الرشايدة والزبيدة قبيلتان مختلفتان وأن ظروف الهجرة قد جمعت بينهما وقارب بينها تشابه الشكل واللون ، كما أن الرشايدة أنفسهم يؤكدون أن بعض فروعهم كالعوازمة والغزايزة والعوينات ليست جزء منهم أصلا وانما انتمت اليهم بعد اكتمال هجرتهم الى السودان حيث صاروا جزء من احدى اداراتهم الثلاث وهى الزنيمات والبراعصة والبراطيخ • وأن التسمية بالزبيدية تعود الى قبيلة زبيد العربية التى كانت تتردد على السودان بسفنها بقصد التجارة وعند ما يسألهم الهوندوة والبشاريون من قبائل البجة عن اسمهم يقولون انهم زبيدية فلما وفد الرشايدة الى نفس المنطقة أطلقوا عليهم اللفظ السابق ، وأن قبائل بنى عامر احدى قبائل البجة عند ما شاهدوا الرشايدة الذين ربما تكون سفن الزبيدية هى التى نقلتهم الى السودان مع هؤلاء سموهم الزبيدية وأن التشـــابه فيما بينهم دفع البجاة الى مناداة الرشـــايدة بالزبيـــدية حيث أنه الاسم المتعارف لديهم ، ونظرا لأن الرشـــايدة لا يألفون اسم الزبيدية فان عمدة الرشايدة كان يفرض غرامة على كل رشيدى يقول انه زبيدى •

وهناك آراء كثيرة تتفق على أن بنى زبيداد الزبيدية الذين يحترفون مهنة الملاحة كانوا يترددون على مينـــاء سواكن قبل مجىء الرشيدة بفترة طويلة •

كما أنه يوجد أولاد راشد أو بنى راشد الذين يسكنون فى وادای وبلاد برنو ودارفور وكردفان ويكون الزبيدية بطن من بطونهم الرئيسية الثلاثة •

ومن هنا فانه يكون هناك تداخل فى تاريخ قبيلة الرشايدة والزبيدية منذ القدم بسبب طول جيرتها فى الجزيرة العربية وفى منطقة الحجاز بوجه خاص وأن رجوع القبيلتين الى أصول قديمة الى كنانة بن عذرة ابن قضاعة بن قحطان يقوى أثر فى هذا التداخل •

ومهما يكون من أقوال فى الأصول العربية لهـذه القبيلة العربية المهاجر فى العصر الحديث إلى السودان فان ذلك يعطى الدليل القوى على أن تيار الهجرة العربية الى السودان لم يتوقف لحظة حيث كانت سبل الحياة الميسرة دافعا قويا على التحرك من الشاطىء الشرقى الى الشاطىء الغربى ومن هنا كانت هجرة الرشايدة الذين قدموا من الباب الشرقى الأوسط من أرض الحجاز واستوطنوا منطقة السودان الشرقى وأخذت هجرتهم فى التوسع حتى وصلوا الى أرتريا والى تخومها وأن هجرتهم كانت خوفا من بطش المهدى بهم وأنهم انتشروا فى المنطقـة الساحلية بالقرب من مصوع •

وخلاصة القول أن النـواة العربية المهاجرة الى السودان والتى التفت حولها المجموعات التى تعيش اليوم على أرض السودان انما كانت تتألف من هجرات عربية متعاقبة وفى فترات زمنية متلاحقة وأن معظمها كان يتم عن طريق وادى النيل حيث مصر المصـدر الأساسى للهجرة العربيـة الى السودان وهى بقـايا الأحلاف العربيـة التى كانت بقيـادة جذام وجهينة والعركيين والهـلاليين والهـوارة والقرشيين وربيعة وغيرهم من القبائل العربية الأخرى التى دخلت فى دائرة هذه القبائل العربية •

ان محاولة ذكر القبائل العربية الكثيرة المنتشرة فى السودان حاليا سواء الأصـول الكبيرة أو البطون أو فروع البطون أمر يحتاج الى دراسة مفصلة ومستفيضة لا يتسع لها المجال هنا ، ذلك لأن ذكر كافة القبائل العربية سواء تلك البدوية أو الحضارية وتتبع تاريخ هجراتها وفروعها وأصولها يحتاج الى جهد كبير ، لكن اكتفيت هنـا بذكر تلك المجموعات العربية البارزة فى تاريخ عروبة السودان والتى كان لها شأن كبير فى سير الحوادث التاريخية وفى اقامة الامارات والسلطنات العربية

الاسلامية وفى صبغ الحياة بالصبغة العربية والاسلامية وتلك هى صورة عامة وليست متخصصة لحركة القبائل العربية ، والتى هاجرت الى السودان من جميع المعابر الرئيسية حتى وصلت الى السودان خلال عصور تكوين المجتمع السودانى العربى المسلم ، والتى لعبت تلك القبائل السابق الشارة اليها دورها الأساسى فى أن يكون السودان حصن من حصون العروبة والاسلام فى القارة الافريقية .

وبعد هذا العرض لمجموع القبائل الرئيسية التى هاجرت الى السودان فانه توجد مجموعات صغيرة كالرشايدة هؤلاء وأيضا الكواهل فهما ليسوا من جهينة ولا من الجعليين بل لهم نسبهم الخاص ، اضافة الى أن المجموعة الجعلية لا تشتمل على جميع العدنانية كما أنه توجد قبائل قليلة مثل الأحامد على النيل الأبيض تارة تنسب الى بنى كاهل وتارة أخرى الى الجعليين .

ولقبيلة الجعليين مكانها على النيل الذى يمتد من دنقلة شمالا تقريبا فى الاتجاه الجنوبى حتى مدينة الخرطوم الحالية ويعتبر هذا الجزء من حوض النيل المركز الرئيسى الذى انتشرت منه مجموعة قبائل وأفرع وبطون الجعليين فى شعب وفروع نحو البطانة والنيل الأزرق والنيل الأبيض جنوب الخرطوم وفى الاتجاه الغربى نحو دارفور وكردفان بل ان هناك مجموعات من الجعليين قد طاب لهم المقام والاستقرار حيث استقرت فى المديريات الجنوبية من السودان مثلما حدث ذلك الاستقرار فى المديرية الاستوائية ومديرية بحر الغزال وهذا يثبت عمق العروبة فى جنوب السودان .

والمجموعة الجعلية هذه تشتمل على عدد كبير جدا من البطون والعشائر والبدنات والبيوت فهناك الجعليون الأصليون الذين نسميهم الجعليون الخلص والذين ليس لهم اسم آخر غير هذا الاسم فهم يعيشون فى المنطقة التى تمتد من الشلال السادس الى عطبرة .

ولا يتسع النطاق فى تلك الدراسة لذكر كل فروع وبطون وعشائر وبدنات الجعليين ، ذلك لأنه يوجد ما يزيد عن خمسة عشر عشيرة

رئيسية أخرى تنتمى للمجموعة الجعليــة والتى أشرنا اليها ســابقا بالمجموعة العباسية اضــافة الى العديد من الأفرع والبطون والبدنات الكثيرة لهــذه المجموعة الجعلية التى ساهمت كل المساهمة فى صــبغ السودان بالصبغة العربية الاســلامية بالمشاركة مع المجموعة الجهنية وغيرها من الأشراف الطالبين والأمويين وكل القبائل العربية الاسلامية التى انصهرت فى بوتقة الســودان لكى يخرج لنا السودان العــربى الاسلامى الافريقى الذى يعتبر جسر العروبة والاسلام الى قلب القارة الافريقية •

ومنطقة الجعليين هذه الواسعة والممتدة تتمثل فيها الثقافة الاسلامية العميقة سواء فى اللغة العربية الفصحى أو فى القيم العربية الأصيلة الأخرى حيث تمثــل منطقة سكناهم لونا من ألوان الحياة العربيــة والحضارة العربية الاسلامية المستقرة من خلال تفضيلهم البقاء بجوار النيل لكى يمارسوا الزراعة كما أنهم نشروا لواء العروبة والاسلام فى تلك الربوع ، وأن ذلك لا ينفى البتة أن هناك مجموعات أخرى من الجعليين قد تفرقوا فى أنحاء عديدة من السودان لكى يمارسوا دورهم فى نشر العروبة والاسلام وفى الدعوة للاسلام وفى ممارسة التجارة التى كان لها دورها فى نشر العروبة والاسلام وانتشار القبائل العربية فى أنحاء عديدة من سودان وادى النيل حيث حمل العرب لواء التجارة فى أجزاء عديدة من السودان وكان لهذا اللون من الاتصال أثر كبير فى تعميق الثقافة العربية الاسلامية فى تلك البلاد وذلك بعد أن وجدت القبائل العربية فى البيئة السودانية ما يذكرهم ببيئتهم الأولى فى شبه الجزيرة العربية وهى تلك البيئة التى تساعد على الرعى بكافة مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية ومن هنا طاب المقام والاستقرار حيث لم تكن تلك الهجرات العربية عبارة عن انتقال مجموعات بشرية من مكان الى آخر ولكنها فى المقام الأول كانت تفاعل بين ثقافات متباينة حيث شمل ذلك التفــاعل اللغة والجنس والعقيدة الاسلامية وكافة مظاهر النشاط الانسانى ومن هنا اختلطت تلك القبائل بالعناصر المحلية وكانت درجة ذلك الاختلاط من القوة والمنعة بحيث صار العرب يتخذون من القبائل التى يعاشرونها عونا وحليفا لهم على من يعاديهم من القبائل الأخرى •

ومن هنا فانه يمكن القول أن مصر لم تكن هى الطريق الوحيـد انما هى الطريق الأساسى الذى دخل العرب منه الى السودان ، فقد توغلت جماعات أخرى منذ السنوات الأولى للدول الاسلامية عن طريق البحر الأحمر ، فقد ذكر المؤرخ الطبرى أن الصحابى أبا محجن الثقفى قد هرب الى ميناء باضع بالقرب من عقيق عام ٢٦ هـ / ٦٣٧ م وذكر أن الخليفة أبا بكر الصـديق قد نفى جماعة من الأعراب الى منطقة عيذاب ، وفى ذلك العصر المبكر حدثت اشتباكات بين القراصنة الأحباش والمسلمين ، كما أن الأمويون ومن بعدهم العباسيون قد اتخذوا جزر دملك هذه منفى للعناصر العربية غير المرغوب فيها ، وقد ساعد ذلك على سرعة الاتصال ومن هنا كانت دملك ومصوع ميناء الجزء الشمالى من الحبشة وباضع وعيذاب مدخلان رئيسيان لأرض البجة وفوق هذا كان التجار العرب يمارسون نشاطهم التجارى فى تلك البقاع .

ومن هنا قويت العروبة بتلاحمهم مع سكان السودان بتلك الصورة التى ربما تدل على أن العرب استطاعوا حمل لواء العروبة فى تلك المناطق التى نزلوا بها ، ولقد كان استقرار العرب بهذه الصورة فى تلك المناطق التى نزلوا بها يدل على مدى النجاح الذى حققوه لا سيما بعد أن قامت تلك الامارات والسلطنات العربية الاسـلامية بدورها فى اثراء حركة الهجرة العربية وما قام به العرب فى سودان وادى النيل فى تلك المساهمة الفعالة ، حيث سهل ذلك على تحركات القبائل العربية داخل الأقاليم السودانية المختلفة واتساع حركة الهجرة الى الجنوب حيث المديريات الجنوبية كالمديرية الاستوائية ومديرية بحر الغزال وما أدى الى ذلك من احتكاك بين ثقافات العروبة والاسلام وغيرها من الثقافات المحلية التى ذابت فى الوجود العربى والاسلامى وان كانت لا تزال تحتفظ ببعض مظاهرها المحلية ، ومن هنا تطلب على العرب أن يدخلوا الى المناطق الداخلية فى السودان لا سيما تلك المناطق الجنوبية حيث الكثرة السكانية وصالحية تلك الأقاليم للدعوة الاسلامية ونشر العروبة والاسلام ومن هنـا شق المسلمون والعرب طريقهم الى قلب السودان حيث المناطق الاستوائية ومناطق الغابات الجنوبية .

ولقد ساهمت البيئة الاجتماعية خير اسهام فى تعميق حركة الهجرة العربية الى أنحاء عديدة من سودان وادى النيل ، ذلك لأن أبرز هذه الحقائق الاجتماعية التى ساعدت على التحام العنصر العربى بالعنصر السودانى هو نظام الأمومة الذى تقضى بتوريث ابن الأخت بدلا من الابن ولعل هذا النظام هو الذى أفاد القبــائل العربية وشجعها على الانتشار وصولا الى المناطق الجنوبية حيث أن ذلك النظام الاجتماعى قد ساعد على سرعة امتزاج العناصر العربية بالسودان وجعل العرب يملكون ناصية الأمور السياسية فى تلك البلاد بعد أن اختلطوا بقبائل الشلك والدنكا والنوير وغيرهم من قبائل الجنوب •

ثم ان انتشار الاسلام على نطاق واسع كان من أهم العوامل التى مهدت الطريق أمام العرب فى تعريب السودان وفى انتشار الثقــافة العربية الاسلامية التى سوف نعرض لها فى الفصل القادم •

الباب السابع

مآثر الثقافة العربيــة الاســلامية

لقد ظهرت الثقافة العربية فى السودان بصفة عامة وفى بيئة البادية بصفة خاصة على أثر الهجرات العربيـــة التى نزحت من شـــبه الجزيرة العربية فى عهود مختلفة ، وجمع كثير من المؤرخين أن السودان عرف العروبة منذ أزمان بعيدة ترجع الى ما قبل ظهور الاسلام فى شبه الجزيرة العربية بعــدة قرون طويلة ، وفى ذلك يقول ماكما يكل أنه منذ الأيام الغابرة دخل العرب مصر فى أعــداد كبيرة عن طريق الساحل الأرتيرى وأقاموا هناك ومن المحتمل أن كثيرا منهم أقاموا منازلهم قريبا من الحدود الجنوبية لمصر فى السودان •

وكما سبق أن عرضنا فان العلاقة بين شاطىء البحر الأحمر كانت وثيقة الصلة منذ فخر التاريخ المبكر ، ومن هنا فانه من الخطأ القول أن السودان لم يعرف العروبة وانتشار الثقافات العربية الا فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، السابع عشر الميلادى ، أى أن انتشار العروبة فى السودان لم يبدأ بصفة جدية الا بعد اتمام فتح دنقلة ، ومن هنا كان خطأ القول أن انتشار العروبة فى السودان لم يتم الا بعد تأسيس دولة عربية ومن هنا وقع هؤلاء فى خلط بين السياسة والعروبة •

وعلى هذا فانه لا جدال فى أن كل القرائن تشير الى أن العرب قد أتيحت لهم الهجرة الى السودان منذ أزمان غابرة فى القدم ترجع الى ما قبل ظهور الاسلام بعدة قرون طويلة وبالتحديد بعد سقوط سد مأرب ولا شك فى أنهم قد حملوا معهم ثقافتهم العربية الى تلك المناطق التى هاجروا اليها ، كذلك فانه من الواضح أن هذه الثقافة التى حملها أولئك

العرب للسودان أنها كانت فى بادىء الأمر ثقافة عربية جاهلية ، وأن آثار هذه الثقافة العربية الجاهلية فى السودان قد ظهرت فى عدة وجوه مختلفة فى العديد من مظاهر الحياة حيث نقل عرب حمير وسبأ والحضارمة تلك الثقافات المختلفة الى تلك الأوطان التى استقروا فيها وقد كان ذلك فيما بين القرن السابع والخامس قبل الميلاد .

الا أن تلك الهجرات العربية التى حدثت قبل الاسلام قد اندثرت بظهور نور الاسلام وبانتشار الاسلام بين العرب وذلك سبب انتشار الدين الاسلامى بين الجماعات العربية التى هاجرت الى السودان عقب ظهوره .

ولقد كان للهجرة العربية الواسعة للسودان التى حدثت بانتشار الاسلام فى الجزيرة العربية وفى المناطق المحيطة بالسودان أثره المباشر فى نشر الثقافة العربية الاسلامية التى لا تزال آثارها خالدة حتى اليوم حيث بدأت تلك المرحلة الراسخة عقب هجرة القبائل العربية من شبه جزيرة العرب مع الفتوح الاسلامية حاملة معها ثقافتها العربية وعقيدتها الاسلامية الخالدة التى تركت أثارها واضحة وقوية وجلية فى البنية السودانية حتى اليوم .

ولقد كان سكان الجزيرة العربية منذ ظهور الاسلام سواء أكانوا من العرب العاربة أو العرب المستعربة والذين وفدوا الى أرض السودان واختلطوا بالسكان المحليين اختلاطا كاملا اكتسبوا من خلاله العروبة بالثقافة أو بالاختلاط ، هذا الاختلاط هو الذى وسع من مفهوم العروبة على أرض السودان وساعد على انتشارها ، وكان أن انتشرت العروبة بين النوبة وتفهموا ثقافتها وشعروا أنهم جزء من حضارتها ومن هنا أصبح هذا يؤهلهم لكى يصبحوا جزءا منها وينتموا اليها .

ومع أن الاسلام والثقافة العربية قد ساعد كل المساعدة فى صبغ السودان الشمالى بدرجة كبيرة من التجانس الثقافى والاجتماعى الوجدانى، فان المنطقة الوسطى منه وهى تمثل مركز الثقل الحضارى والثقافى فى

السودان تعرضت الى حد كبير جدا لحركة الهجرة العربية وذلك فيما نراه ممثلا فى استقرار العديد من المجموعات العربية الكبيرة من العرب البدو حيث تمت لهذه العناصر العربية الاسلامية الغلبة على أوجه الحياة الشاملة بحيث صارت العادات والتقاليد والأعراف العربية هى السائدة كل السيادة فى تلك المناطق من السودان اضافة الى أن اللغة العربية لغة العروبة والاسلام والقرآن الكريم قد صارت لغة التخاطب بين كل الأقوام اضافة الى أنها صارت لغة الثقافة والحضارة والأدب والعمران ومن هنا كانت اللغة العربية خير شاهد لغلبة ثقافة القرآن الكريم على كل ما يمكن القول عليه ان كانت هنـاك لغات مثل النوبية والبجاوية والفوراراوية والكردفانية والزنجية النيلية وغيرها من اللهجات المحليـة الأخرى التى دخلت فيها العديد من الألفاظ والمترادفات العربية مما يعكس قوة وحيوية اللغة العربية وقدرتها على التفاعل فى وسط تلك الشعوب التى أصبحت فيما بعد جزء من المجتمع السودانى العربى الاسلامى • وان كانت تلك اللهجات السودانية غير مكتوبة ولا يوجد لها تأثير ثقافى فى البنية الثقافية السودانية بوجه عام •

ولقد لعبت تلك القبائل التى عرضنا لها فى الفصل السابق دورا كبير فى نشر الاسلام والنفوذ العربى فى أرض السودان ، اذ أنه بمرور الزمن بدأت الصبغة العربية تأخذ مجراها فى صبغ السودان بتلك الصبغة الثقافية الاسلامية التى يعتز بها أبناء السودان جنوبه مع شماله نظرا لعمق الحضارة والثقافة الروحية التى تستمد قيمها من مصـدر روحى هو القرآن الكريم •

اضافة الى أن مظاهر النشاط العربى الاقتصادى هذه كانت بمثابة المراحل التى مهدت الطريق لانتشار هذه الثقافة الباقية الخالدة فى أرض السودان ، فقد كان كل عامل من العوامل الاقتصادية المختلفة قد ساعد بطريقته الخاصة فى فتح البلاد للتيار الثقافى وشجع الطريق على الهجرة العربية التى أصبحت حقيقة ملموسة فى الحياة السودانية •

وقد كان تدفع تيار الهجرة العربية دون رقيب من الأسباب التى ساعدت تلك الهجرات على اللحاق بالكثير من أبناء جلدتهم الذين سبقوهم

الى تلك البقاع حيث نشروا فيها سمات الثقافة العربية الاسلامية ومن ثم تركوا بعضا منهم لكى يرسخ هذه الثقافة العربية الاسلامية فى تلك البقاع وتابع البعض الآخر مسيرتهم فى أرض البطانة والجزيرة ، ثم عبروا النيل الى كردفان ودارفور حيث التقوا هنالك بمجموعات عربية أخرى كانت قد تابعت الشاطىء الغربى للنيل حيث استقر هؤلاء فى سهول أواسط السودان الغنية ، حيث أن هناك آراء تذكر أن القبائل العربية الوافدة الى السودان لم تكن فى بادىء الأمر تهتم بنشر الاسلام ربما لانشغالها بمشاكل المرعى فى وطنها الجديد ولجهلها بأصول الاسلام العميقة خاصة بعد مصاهرتها للسكان المحليين الا فى حدود ضيقة حيث عكف بعض الرواد المسلمين الأوائل ينشرون العقيدة الاسلامية فى بساطتها وسماحتها واتسع نشاط الدعاة المسلمين بعد ذلك ، ذلك لأن انتشار الدعوة الاسلامية والثقافة العربية الاسلامية لا يعدوا أن يكون اسميا وفى مرحلته الأولى ، فقد اهتم رجال القبائل العربية وكلهم من البدو والتجار وهم ممن تنقصهم الثقافة الدينية الاسلامية العميقة وعدم الفهم بالعلوم الاسلامية ، ومن هنا كان كسبهم للوثنيين والمسيحيين هو الشغل الشاغل حيث أنهم كانوا مركزين على السمات العامة للدين الاسلامى دون الدخول فى التفاصيل العميقة للعقيدة الاسلامية .

لكنه على الرغم من نشاط رجال القبائل البدوية والتجار ، الا أن ذلك لم يمنع من مشاركة بعض العلماء المسلمين لهاتين الفئتين والذين أسهموا فى بث تعاليم الدين الاسلامى وتعميق مفاهيمه .

ومن هنا اختلطت المؤثرات الاسلامية بالمؤثرات المحلية وظهر طابع محلى من ألوان الحضارة الاسلامية حيث كان انتشار الاسلام بين هذه الشعوب ايذانا ببروزها فجأة فى دنيا الاسلام وايذانا باتخاذها مظهرا اسلاميا واضحا ، وذلك بعد أن ازداد انتشار هذه الهجرات العربية الخالصة التى أخذت تتدفق على البلاد تدفقا مستمر وتنتشر فى سهوله الفسيحة فى الشرق والغرب انتشارا واسعا حيث استقر بها المقام وطابت لها العيشة الرغدة ، واختلطت بالسكان الأصليين ونشرت فى السودان اللغة العربية والدم العربى والدين الاسلامى والثقافة العربية وطبعت السودان بالطابع العربى الواضح والمؤثر والفعال . وان كانت المؤثرات المحلية

لا تشكل فى البنية الثقافية السودانية أى مدلول ومن هنا ظهرت الثقافة العربية الاسلامية ثقافة خالصة لا يداخلها أدنى تأثير بأى صورة من الصور المتعارف عليها فى المؤثرات المحلية كما كان فى بلاد الشام والعراق ومصر قبل الفتح الاسلامى •

وقد كان هذا التطور لا يقل عن نظيره فى البلاد الاسلامية الأخرى حيث انتشرت الدماء العربية والثقافة العربية ولقد كان هذا الدور لظهور ملامح الحضارة الاسلامية دورا تم فيه الامتزاج الكامل بين التقاليد الاسلامية الوافدة بكل ما تملك من مؤثرات روحية وقيم انسانية وتقاليد وعادات أصيلة • مع التقاليد المحلية السائدة فى جميع النواحى وفى نظم الحكم وفى الحياة الاجتماعية وفى الثقافة الاسلامية ومما يعجب هذا من نشأة لون من الحضارة الاسلامية حيث كان على السودان أن يستجيب لهذا التطور بعد أن سادته المؤثرات الاسلامية على نطاق واسع •

ذلك لأن مما لا شك فيه أن ذلك الامتزاج قد ترك آثاره الى حـــد كبير فى عروبة السودان وثقافته الحالية ذلك أننا نجد اليوم بنيانا واضحا فى الثقافة العربية فى السودان من حيث اللغة والجنس فبعض المناطق تغلب عليها الصبغة العربية والبعض الآخر يتسم بطابع أفريقى وفريقا ثالث يجمع بين الثقافتين وبالنظر الى ذلك يمكن القول أن ذلك التباين الثقافى والأنثروبولوجى يرجع الى طبيعة الهجرة العربية الى السودان ، اذ كانت بعض القبائل تندمج وتذوب فى السكان المحليين والذين كانوا ينتمون الى أجناس متعددة أبرزها الحاميون وفى نفس الوقت نجد مجموعة عربية احتفظت بنقاوتها الجنسية واللغوية على أننا لا نستطيع أن نغفل أثر الظروف المحلية فى تكييف عروبة السودان فالبنية بطبيعتها أثرت بدورها فى طبيعـــة واستقرار واســـتيطان تلك القبائل كمـــا أن بعض العوامل الاجتماعية قد ساعد على انصهار بعض تلك القبائل فى البوتقة المحلية •

وعلى هذا لم تكن القبائل العربية وحدها هى الرائد الأول فى نشر الثقافة العربية الاسلامية فى السودان ، بل كان قد وفد الى البلاد قوم من العرب أو من بقايا الجيوش المحاربة الهاربين من الضغط السياسى أو من الدعاة الذين كان لهم الفضل فى نشر التعاليم الاسلامية التى ذاعت شمال السودان بل ووصلت حتى المديريات الجنوبية حيث مديريات خط

الاستواء وبحر الغزال وعلى هذا فانه لم يكد الســودان يزداد معرفة بالثقافة العربية الاسلامية حتى جاء الدعاة على نطاق واسع لكى ينشروا أصول الدعوة الاسلامية على نطاق واسع وفق عقائد الجماعة والسنة حيث انتشر مذهب أبى حنيفة على نطاق واســع كمــا انتشر المذهب الشافعى وان كان انتشار المذهب المــالكى قد سبق كلاهما فى الانتشار فى ربوع السودان حيث كانت له الغلبة بين أبنــاء الشعب السودانى ، وأنه اذا كان هنــاك الثقاء بين التقاليــد الاسلامية والتقاليــد المحلية قد وضحت آثارها فى بعض أوجه الحيــاة الاجتماعيــة أو فى بعض نظم الحكم أو العادات والتقاليد الموروثة الا أن كل هذه المظاهر لم يكن لها أدنى وضوح فى ميدان الثقافة العربية الاسلامية ، حيث أن الثقافة التى شهدها السودان كانت ثقافة عربية اسلامية خالصــة فى جوهرها ومظهرها لم تدخلها مظاهر سودانية على الاطلاق حيث كانت ثقافة عربية لا تكاد تختلف من جميع جوانبها عن تلك الثقافة العربية التى جاءت بها من الجزيرة العربية قبل هبوطها أرض مصر والبلاد المجاورة السودان .

وذاك لأن أرض السودان لم تشهد ثقافة قديمة وحضارة قــديمة الا فيما ندر كتلك الحضارات العريقة التى شهدتها أرض مصر والشام فالثقافة المغلوبة اذا كانت ذات جذور حضارية عميقة فمما لا شك فيه أنها تؤثر فى الثقافة العربية الغالبــة ، وينشأ من ه ذاالالتقاء نمط حضارى جديد فى الثقافة العربية أداته فى التعبير والثقافات الموروثة وأدواته فى التفكير ، ومن هنــا لم تجد الثقافة العربية الوافدة الى السودان ثقافة قديمة من النوع الذى أشرنا اليه ومن هنا لم تتأثر بأية تقاليد محلية انما بدت عربية خالصة .

ومن هنا لا يوجد أدنى أثر لعمق سودانى أو أفريقى فى الثقافة العربية الاسلامية فى السودان ، وان كانت هناك بعض الآراء تذكر أن اللغة العربية قد دخلت فيها وتأثرت ببعض اللغــات المحليــة كالنوبية والبجاوية والنيلية والزنجية والكردفانية والفواردية ، ويستدلون على عمق الأثر الأفريقى فى اللهجة السودانية التى صارت ذات طابع مميز لها عن باقى اللهجات العربية ، بل أن هناك العديد من الكلمات المتناثرة فى اللغة العربية فى السودان (اللهجة السودانية) تؤكد على أن غلبة الثقافة

العربية على شمال السودان وصلتها الحميمة بالبداوة أو شبه البداوة لا تنفى أثر التيارات الأخرى •

هذا من الناحية اللغوية حيث صــارت اللهجات العربيــة جزء من مجموعة اللغات السودانية ومجموعة اللغات الحبشية السامية ولهجاتها وعلى نحو ما تغلبت هذه القبائل العربية وامتصت فى داخلها مجموعة السكان المحليين وأكسبتهم الصبغة العربية كما نرى الآن فى السودان المعاصر ، كذلك تغلبت هذه الثقافة العربية الجديدة على بعض تلك الثقافات المحلية التى خضعت خضوعا مباشرا لضغط هذه الثقافة العربية العميقة الجذور • ولقد كانت هى العملية اللغوية والثقافية من النتائج ذات التأثير الفعال بحيث بدأت نتائجها فى اتخاذ الأهالى للغة العربية لغة لهم وبعض التطورات العربية بحيث أصبحوا متضلعين بالنظام القبلى العربى •

صحيح أنه قد ظهر هناك بعض التطور فى الثقافة العربية الا أنه بشكل عام قد حافظت على جوهرها ، ذلك لأن التنوع فى الاختلافات الشكلية بين اللهجات المحلية فى السودان ، قد بدا واضحا فى أن هــذه اللهجات وان تعددت أشكالها ألا أنها ترجعبأصولها الى لهجات أقدم منها عاشت فى شبه الجزيرة العربية كما أنها قد دخلتها فى السودان بعض الألفاظ الغربية التى ترجع الى لهجات محلية ، نجد أن هــذه الألفاظ الغربية لاتعدو أن تؤلف نسبة قليلة جداً من الصيغ المحلية •

كذلك فان هذه القبائل العربية المهاجرة لم تكتفى بادخال الاسلام الى تلك المناطق ، بل أنها طبعت بطابع عربى خالص بسبب انتشار اللغة العربية لغة القرآن الكريم فى تلك البقاع ، وعلى هذا فان ظهور الاسلام واللغة العربية بنجاح كبير فى ذلك الاقليم بين لنا الدور العظيم الذى قام به هذا الدين ولغته الغراء فى تلك البلاد وتطورها فقد أصبحت عن طريق الاسلام والعلوم الاسلامية العربية عظيمة الحضارة والتقدم اذ سرعان ما شكل الاسلام عادات السكان وطور حياتهم حتى صار مستوى التفكير والثقافة يقارن بنظائره فى الدول المعاصرة الاسلامية فى ذلك الوقت سواء فى الشرق الاسلامى أو بلاد المغرب العربى •

ولقد كان الاسلام والعلوم العربية الاسلامية وانتشارها الواسع سببا فى أن سارت تلك السلطنات الاسلامية التى قامت فى السودان بتلك

النهضة الاسلامية حيث انتشار اللغة العربية فى شتى أنحاء السودان ومن ثم أصبح المذهب الغالب فى تلك البلاد هو مذهب الامام مالك ، على أن سيادة هذا المذهب لا ينفى وجود بعض الشافعية والحنفية فى البلاد •

ذلك لأنه ليس من شك فى أن التآلف الروحى الذى ولدته وحدة الشعائر الاسلامية بين جميع هذه الشعوب التى سكنت تلك الأماكن كان لها أثر بعيد فى حياة شعب السودان ، لأن كل ذلك كان من غير شك بمثابة دفعة قوية أثارت فى شعب السـودان شـعور عظيم بأنهم قوة متماسكة من ناحية وبأنهم جزء من كيان اسلامى عالمى أوسع بكثير من حدود بلادهم الضيقة من ناحية أخرى •

ولقد تأثرت الثقافة العربية الاسلامية فى السودان فى ذلك العهد الذى شهد قيام تلك السلطنات الاسـلامية بعاملين بارزين فى تاريخ الحركة الثقافية الاسلامية •

فلقد خطت تلك الثقافة الاسلامية العربية خطوتها الأولى منذ أن وطأت أقدام القبائل العربية المهاجرة أرض السودان منذ القرن الثالث الهجرى ، السادس الميـلادى حيث تركت تلك الغزوة التى قام بها عبد الله بن عبد الرحمن العمرى عام ٢٥٥ هـ بصماتها الأولى فى انتشار الثقافة العربية الاسلامية حيث ازداد النشاط الثقافى الاسلامى ولو قدر لهذه الامارة العربية أن تمارس دورها فى شمال السـودان لتغير وجه الحياة الثقافية الاسلامية فى ذلك البلد العربى الاسلامى منذ فترة بعيدة الا أن هناك بعض الآراء تتصور أن الحياة الثقافية لم تتبلور بصورة واضحة الا فى خلال القرن الخامس عشر الميلادى ، التاسع الهجرى ، بل انها لم تظهر بصورة اسلامية واضحة المعالم الا فى القرن السادس عشر حيث بدأت معالم الحياة الاسلامية تظهر وتتنوع مع بزوغ فجر القرن السابع عشر الميلادى •

كذلك تأثرت الحركة الثقافية الاسـلامية بذلك الموقع الجغرافى للسودان الذى جعله يقع بين بيئات اسلامية توطدت فيها أصول الثقافة

الاسلامية منذ عهد بعيد وكذلك اتصاله بالعديد من الأقطار والأوطان مثل مصر والحجاز واليمن والحبشة مع ارتباطه مع بلاد المغرب العربى وغرب القارة الأفريقية •

ومن هنا كان هذان العاملان من العوامل الفعالة فى اثراء الثقافة العربية فى السودان وطبعه بطابع سودانى خالص حيث كان هذا العاملان يشكلان البنية الآساسية التى قامت عليها حركة الثقافة العربية الاسلامية وعلى هذا فانه يمكن القول أن الثقافة الاسلامية العربية قد دخلت الى السودان فى عصركانت فيه مصر قد اكتمل نضجها الثقافى والحضارى حيث شهد القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى حركة ثقافية وفكرية وعلمية وحضارية كانت فيه مصر فى ذلك القرن هى الموجه الأول لحركة التيار الفكرى الاسلامى على مستوى العالم الاسلامى أجمع ومن هنـــا كان على السودان أن يستفيد من كل هذه الظروف المعاصرة والسائدة ولا سيما من جارته فى الشمال والتى أمدته بالجزء الأكبر والأعظم من مؤثرات الحضارة والثقافة العربية الاسلامية ، حيث كان العصر المملوكى الذى شهد بزوغ السلطنات الاسلامية فى وسط وغرب السودان قــد ساهم فى رفع شأن الثقافة العربية فى السودان وايصالها الى المستوى الذى وصلت اليه من التقدم والازدهار لكن خضوع مصر للنفوذ العثمانى فى الربع الآول من القرن السادس عشر الميلادى كان ايذانا باتجاه حركة الفكر والثقافة والحضارة والعلوم الى الطريقة النقلية وليس معنى ذلك عزوفها عن العلوم العقلية ، لأن تلك العلوم العقلية كانت ولازالت تدرس فى العصر التركى العثمانى لكنها كانت تدرس بصورة آلية •

وعلى هذا لم يكن حال الثقافة العربية الاسلامية فى مصر بخير منها فى البلاد الاسلامية المجاورة للسودان حيث كانت الثقافة الاسلامية فى بلاد المغرب العربى تصب فى نفس المجارى التى تجرى فيهـــا الحركة الثقافية فى مصر • وكانت مدارس غرب القارة الأفريقية التى ساهمت بشكل قريب أو بعيد فى تغير وجه الحياة الثقافية فى غرب السودان قــد خضعت للسيطرة المغربية منذ ١٥٩٣م عندما سيطر المغاربة على سلطنة سنغاى الاسلامية فى عصر الخليفة أحمد المنصور الســعدى سلطان المغرب •

ولقد سادت المؤثرات الاسلامية السودان على نطــاق واســع استجابة لظهور السلطنات الاسلامية والامارات الاســلامية السابق الاشارة اليها والتى كان لها الدور الأساسى فى ذلك الأثر العلمى والفكر الاسلامى فى السودان ذلك لأن سلاطين الفونج فى السودان لم يهملوا التعاليم الاسلامية وما كان لهم أن يفعلوا ذلك وهم مسلمون ، بل اننا نجد أنهم عملوا الحكم بالكتاب والسنة وسعى سلاطين تلك السلطنة فى سنار الى تطبيق الشرعية الاسلامية مما وسعهم العمل وذلك فى شئون الحكم وفى الأموال وفى جمع الزكاة والعشور واقامة الحدود الشرعية على الجناة ، فقد كان علماء الفونج يقيمون حد السرقة والقذف وغيرها من الحدود الاسلامية .

كما أن الحياة الاسلامية فى سلطنة دارفور الاسلامية قد خضعت لنفس هذا التطور الاسلامى واستجابت لمثل هذه المؤثرات الاسلامية حيث عمل سلاطينها على التمسك بالكتاب والسنة وطبقوا الشريعة الاسلامية تطبيقا تاما وشــاملا فى جميع أوجه الحياة السياســية والاقتصادية والاجتماعية فى طول البلاد وعرضها ومن ذلك ما نشهده فى عصر السلطان محمد الفضل الذى شهد عصره تطبيق أحكام الدين على الوجه الأمثل فى كل أمور الحكم وهذا يبين مدى تمسكهم بالتقاليد الاسلامية التى ساعدت على انتشار الثقافة العربية الاسلامية ، حيث أن انتشار الثقافة العربية لا يزدهر الا فى جو اسلامى صميم خصوصا فى تلك الظروف التى نعرض لها لمآثر الحياة الثقافية والعلمية الاسلامية فى السودان فى عصر تلك السلطنات الاسلامية التى ساهمت كل سلطنة فيها بجهدها الخاص فى اثراء الحركة الثقافية بما بذلته من جهود جبارة فى فتح المجال لانتشار ذلك التيار العربى الاسلامى الوافد من جميع الجهات المحيطة القريبة جغرافيا وسياسيا بالسودان أو البعيدة عنه نوعا ما من ناحية الاتصال الجغرافى .

الدور المصرى الاسلامى :

ولقد كان اتصال سلاطين الفونج فى سنار بالنبع المصرى الاسلامى يشكل حجر الزاوية فى حركة التطور الثقافى الاسلامى من ذلك أننا نجد

أن سلاطين الفونج ومشايخ العبدلاب كانوا على صـلة وثيقة بمصدر العلوم الاسلامية والثقافة العربية حيث كانوا على اتصال بالأزهر الشريف ورجاله وعلمائه حيث كان يصل العلماء المصريين الى سنار ، ومن ذلك ما نجده فى اتصال السـلطان بادى المعروف بسيد القوم (١٦١١ — ١٦١٦م) بالعلماء المصريين فى الأزهر الشريف حيث كان يرسل لهم واليهم الهدايا كما أن الأزهر الشريف أفرد رواقا خاصا بالطلبـة السناريين أطلق عليـه « رواق سـنار » وقد سـاعد ذلك على هجرة الطـلاب السودانيين الى مصر للدراسـة فى الأزهر الشريف ثم العـودة الى السودان مرة أخرى ونشرهم العلوم والمعارف الاسلامية بين ذويهم وطلابهم والقاء تلك الدروس فى المساجد مما يساعد على اثراء الحركة الثقافية الاسلامية فى السودان كذلك فقد هاجر العديد من علماء مصر ورجال الدين الى السودان حيث طاب لهم المقام والاستقرار بعد أن تزوجوا من السودانيات ومن ثم أخذوا ينشرون الثقـافة الدينيـة الاسلامية فى ربوع السودان •

وقد كان اتصـال السودان بمصر اتصالا وثيقا أملتـه الظروف الطبيعية حيث كان موقع السودان واتصاله الطبيعى بالأمم الاسلامية المجاورة والتى منها مصر كان يحتم عليها تبـادل الثقافة الاسـلامية العربية ، ومن هنا كانت قوافل السودان ولا زالت تنحدر الى مصر انحدارا متصلا من سـنار ودارفور عن طريق درب الأربعين وطريق النيل وغيره من الطرق الأخرى التى كانت تربط مصر بالسودان حيث تحمل الى مصر وأسواقها سلع السودان ومحاصيله وكانت مثل هذه القوافل تعود بحاصلات مصر وحاصلات آسيا وأوربا •

هذه القوافل كانت تصل الى شندى ثم يصل بعضا منها الى سنار وكسلا أو الفاشر وما جاورها غربا ومن هنا كانت مصر أوثق الأقطار الاسلامية اتصالا بالسودان فكانت المصدر الأساسى للثقافة الاسلامية التى بدأت تظهر فى هذه البلاد منذ القرن العاشر الميلادى فصاعدا ، بل نستطيع القول أن مصر هى التى غرست البـذرة الأولى للثقافة العربية الاسلامية التى وفدت من شمال الوادى الى جنوبه حيث كانت

حملة العمرى بداية هذا الاتصال ثم تمثل بعـد ذلك فى رحلة العلماء المصريين الى بلاد السودان واقامتهم به مشتغلين بالتعليم أو رحلة طلبة السودان والاقامة بالأروقة الأزهرية مثل رواق السنارية وتلقى العلم بالأزهر الشريف والتأثير بالاعتبارات الفكرية فى القسم الشمالى من الوادى زم العودة الى السودان لمتابعة الدرس والتحصيل .

وكتب الطبقات هى أفضل ما يصور لنا هذه الرحلات المتبادلة ، اذ تصور لنا أن أول من قدم الى مصر ونزح اليها هو الشيخ محمود العركى حيث هاجر الى مصر وتلقى فيها العلم وتعلم فى الأزهر على شيخين من أعلام شيوخ المالكية هما شمس الدين اللقانى وأخيـه ناصر الدين اللقانى ، والظاهر أن قدومه الى السودان كان فى العقد الرابع من القرن العاشر الهجرى ، لأن أستاذه شمس الدين اللقـانى الذى تتلمذ على يديه توفى عام ٩٣٥ هـ ويعتبر الشيخ محمود العركى أول من نشر علوم الدين الاسلامى والثقافة العربية فى السودان حيث انطلق هذا الشـيخ الى منطقة النيل الأبيض حيث لم يجد فىمنطقة النيل الأبيض عند قدومه الى تلك البلاد مدرسة علوم ولا قرآن كريم يدرس فيها العلوم الاسلامية يقول ود ضيف الله عند ما تسلم الفونج زمام الأمر فى سنار أعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة وتغلبت عليها فى أول القرن العاشر الهجرى ولم يشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن ، ويقال أن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى سنارة من غير عدة حتى قدم الشيخ محمود العركى من مصر وعلم الناس العدة وسكى البحر الأبيض وبنى له قصرا يعرف الآن بقصر محمود ثم أقام بجزيرة سنار وأسس نحوا من سبع عشرة مدرسة بين الحسانية واليس واشتغل بتعليم الفقه ، كذلك أنشـأ الخلاوى لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علوم الدين وكان له ما بين الخرطوم واليس والكوه ، ما يزيد عن ثلاثة عشرة مدرسة .

ثم اشتد وفود العلماء من مصر فى النصف الثانى من القرن العاشر بعد أن توطدت دولة الفونج وبسطت ظلها على السودان وظهرت مكانة سنار بين عواصم العـالم الاسلامى ، وتعـدد كتب الطبقات أسماء

الوافدين وتعرض لانتاجهم وتتحدث عن آرائهم فى ميدان الثقافة ، فقد هاجر الى مصر أولاد جابر وهم أربعة أعلمهم ابراهيم جابر المعروف « بالبولاد » وأصلحهم عبـد الرحمن وأروعهم اسماعيل وأعبـدهم عبد الرحمن وهؤلاء يرجعون نسبهم الى غلام الله بن عائد اليمنى ، ويبدو أن قدومهم كان بعد قدوم الشيخ محمود العركى لانهم درسوا فى الأزهر على يد الشيخ محمد البنوفرى ، وهو على يد الشـيخ عبـد الرحمن الأجهورى وهو أخذ على ناصر الدين وشمس الدين اللقانى .

وقد سكن أحدهم وهو الشيخ ابراهيم بن جابر المعروف بالبولاد قرية « نرنج » حيث اشتغل بتدريس الفقه المالكى وتدريس مختصر خليل وأقام بديار الشايقية أول الأمر ثم انطلق الى أرض الفـونج متابعا رسالته ، حيث كان أول من درس رسالة خليل لبـلاد الفونج وشدت اليه الرحال ومدرسته فى خليل سبعة ختمات وعلم فيها أربعين انسانا صاروا كلهم أولياء وأقطابا .

ويعد أولاد جابر من الذين أسهموا اسهاما فعالا فى نشر علوم الدين اذ تتلمذ عليهم كما سبق أن أشرنا أربعون عالمـا . وعمل هؤلاء الطلاب على نشر علوم الدين ووجدوا اقبـالا شديدا ، وقد كان من تلاميذ هؤلاء الجابريون الشيخ الزين ولد صفيرون ، الذى بلغت حلقته ألف طالب وصار طلابه شيوخ الاسلام ، وبالجملة فالبلاد كلها الى دار حليج نجد فقهاءها طلاب ذلك الشيخ وطلاب طلابه ، وأيضا كان لطلاب الشيخ الزين ولد صفيرون ، دور بارز فى نشر علوم الدين .

كذلك من الطلاب السودانيين الذين وفدوا الى مصر وكان لهم شأن كبير فى نشر علوم الدين والثقافة العربية الاسلامية الشـيخ حمد المجذوب ، وهو ينتمى الى عشيرة المجاذيب التى كانت ذات أثر واضح فى نشر الثقافة الدينية فى البلاد وكان الكثير من أبنائها يرحلون الى القاهرة ، ثم يعودون الى السودان لمتابعة رسالتهم حيث تنشأ الزوايا

لتصبح مدارس ومعاهد للتعليم يفد اليها الطلاب من كافة الأقطار وكذلك عملوا على بناء المساجد لتساهم بدورها فى اثراء الحياة الثقافية .

وقد ذكر (ود ضيف الله) فى طبقاته العديد من الشيوخ الذين دخلوا مصر وأخذوا العلم من شيوخ الأزهر ومن الواضح أن هذه الهجرة لم تقتصر على زمن الفونج بل هى ما زالت مستمرة الى يومنا هذا حيث ازداد قدوم هؤلاء الذين تعلموا فى مصر ثم عادوا الى بلادهم ولو أن ظروف هذه الهجرة الى مصر كانت تخضع للظروف السياسية السائدة فى البلدين والتى تحكمت فى هذه الهجرة فمثلا نرى أن هجرة الطلاب الى مصر قد ضعفت فى أواخر عصر أسرة سلاطين الفونج بسبب الكوارث والمجاعات وفترة الانحلال التى أصابت المجتمع السودانى ، زد على ذلك حالة العزلة التى فرضها حكام الفونج الأواخر على البلاد وبذلك انقطعت صلتهم بالعالم الخارجى .

كذلك كان المظهر الثانى من مظاهر الدور المصرى فى اثراء الحركة الاسلامية والثقافية العربية فى السودان ، ذلك لأن فريقا من علماء مصر ورجال دينها المطلعين قد هاجروا الى السودان وكان من طلائع الهجرة العلمية الاسلامية الى السودان فى عصر أسرة سلاطين الفونج الشيخ محمد القناوى وهو من شيوخ المالكية حيث كان قد تتلمذ وتلقى علومه على أيدى العلماء الأفاضل الشيخ سالم السنهورى والشيخ يوسف الزرقانى اللذين كانا من أكابر علماء المالكية فى مصر وقد تنقل الشيخ القناوى فى السودان من المنطقة الواقعة بين سنار وأربجى حيث نزل فى أول أمره فى بربر حيث هى مكان وسط بين ديار الشايقية محل أولاد جابر وجزيرة سنار التى كان فيها الشيخ محمود العركى ، وكان قدومه فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى زمن الشيخ عجيب المانجلك ودخل بربر وبنى بها مسجدا لتدريس الرسالة والعقائد والنحو وسائر العلوم وولى القضاء فباشره بعفة ونزاهة وبذلك انتشر علم الفقه فى الجزيرة .

ومن ذرية الشيخ محمد القناوى المصرى نبغ حفيده الشيخ محمد اكدواى الذى شرع فى تدريس الرســالة والنحو وعلم الكلام وعلم الأصول والمنطق واجتمع عليه حلق كثير . كذلك وفد الى السودان من مصر فى عصر الفونج الشــيخ محمد بن على بن قدم الكيمانى تلميــذ الخطيب الشربينى ودخل بلاد البر فى أول بلاد الفونج ثم توطن بعد ذلك فى بربر الى أن توفى فيها وقد أخذت عنه جميع الشيوخ التى ظهرت فى السودان ، أخذت عنه علم الفرائض وكان له دور لا يقل عن دور الشيخ عبد الله العركى والقاضى دشين الشافعى والشيخ عبد الرحمن ولد حمدتو ، والشيخ ابراهيم الفرضى والشيخ جودة صاحب المنظومة وأيضا وفد الى مصر الشيخ جاد الله الشكرى وكان ورعا تقيا عابدا زاهدا متواضعا .

وكان من الذين تتلمذوا على يد الشيخ القناوى من أبناء السودان الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب ، ثم الشيخ قرم الذى استقر بمدينة بربر يعلم فقه الشافعية ثم ارتحل بعد ذلك الى مدينة اربجى وتتلمذ عليه القاضى وشينى قاضى مدينة اربجى .

كما أن اختلاف طلاب السودان الى مصر حقيقة ليست فى حاجة الى توضيح ويكفى أن تذكر ما سبق أن وضحت فى انشاء الأزهر رواق السنارية لطلبة سلطنة الفونج ورواق لطلبة دارفور التى كانت عاصمتها الفاشر واستمرت هذه العلاقة متصلة غير منقطعة حتى اشتدت بعد الفتح المصرى . والأثر المصرى فى ثقافة السودان واضح كل الوضوح يتمثل فى الطابع المصرى لهذه الثقافة فى تدريس الفقه والمنطق والتوحيد ونشر المذهب المالكى والمذهب الشافعى .

وقد يكون من أســباب قلة عدد العلماء المصريين الوافدين الى السودان فى عصر الفــونج وربما يرجع ذلك الى صعوبة المواصــلات وخطورة الطريق لعدم استتباب أحوال الأمن فضلا عن مشقة هذه الطرق وأخطارها الطبيعية لكن دور العلماء المصريين كان واضح كل الوضوح فى عهد الوحدة المصرية السودانية فى عهد محمد على ، ذلك لأن سياسة

محمد على كانت تهدف الى توثيق العلاقات الدينية أولا وقبل كل شيء بين البلدين لذلك نراه يرسل مع الحملة التى وجهها الى السودان بقيادة ابنه اسماعيل ثلاثة من نخبة العلماء المصريين وهم القاضى محمد الأسيوطى الحنفى المذهب ، والسيد أحمد أحمد البقلى الشافعى المذهب والشيخ أحمد السلاوى المالكى المذهب حتى يكون لكل مذهب من المذاهب الشائعة شيخ يشرف على شئونه وحتى لا يجبر مقتفى مذهب على أن يلجأ فى الفتاوى والأحكام الى شيخ فى غير مذهبه •

ولم يكتفى محمد على بارسال العلماء بل حاول تشجيع الطرق الصوفية على النزوح الى السودان حتى تتوثق تلك الصلة الدينية بين مصر والسودان وتشجيع الطريقة السعدية وهى فرع من الرفاعية والطريقة الرحمانية وهى نوع من الورقاوية والطريقة البدوية نسبة الى أحمد البدوى والى طنطا والبرهمانية والدسوقية نسبة الى ابراهيم الدسوقى •

كما وفد الى السودان فى أول هذه المرحلة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى (١٢٦٧هـ) وتولى نظارة مدرسة بالخرطوم وقدم معه مجموعة من القراء الذين علموا فقهاء الخرطوم لتجويد القرآن الكريم وعلم القراءات حتى صاروا ماهرين فى ذلك ، كما أنشئت بعض المساجد التى لعبت دورا ملحوظا فى نشر علوم الدين الاسلامى ومن هذه المساجد الجامع العتيق بالخرطوم وكان موئلا للعلم ومقاما للذكر وذلك لأنه فى هذا العصر الذى برز فيه السودان الاسلامى فى سماء الحياة الاسلامية العامة كانت المذاهب الصوفية قد سادت وسيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامتزجت بالدراسات الاسلامية وصار كثيرون من العلماء يعتقدون أن علم الظاهر لا يتم الا بعلم الباطن ، بل اعتبر بعضهم هذا العلم الباطنى هو الذى لا علم غيره وكانت الأمم الاسلامية غارقة فى لجة الصوفية بطرقها المختلفة وآدابها ونظمها وتقاليدها واذاكرها وكرامتها بحيث لم يعد أهل العلم والفقهاء يحتلون المرتبة الأولى فى نفوس المسلمين انما هذه المرتبة احتلها رجال الطرق الصوفية الذين ارتفعوا الى مكانة التقديس أحياء وأمواتا •

هـذا الى جانب دور مصر فى اثراء الحركة الاسلامية الثقافيـة ومساهمتها مساهمـة فعالة فى نشر بذور الثقافة العربيـة الاسلامية ومتابعـة نموها واشتداد عودها حتى استطاعت أن تصبغ السـودان بالصبغة العربية الاسلامية ليساهم السودان بدوره الاسلامى فى بلاد القارة الأفريقية المجاورة .

دور الحجاز فى اثراء الثقافة العربية الاسلامية :

وكما اتصل السودان بمصر فان اتصاله بالحجاز كان أوثق نظرا لأن السودانيون كانوا يرحلون الى هذه البلاد المقدسة فى الحجاز حيث مكة المكرمة والمدينـة المنورة وذلك للحج والزيارة وكذلك للعـلاقات الاقتصادية التى أملتها مصلحة التكامل الاقتصادى بين البلدين ومن هنا وفد على السودان الكثير من علماء الحجاز للاقامة والتدريس وبث روح الثقافة العربية الاسلامية ، حيث ساعد ذلك على ازدياد الروابط العلمية والثقافية ، أما هذه العلاقة الدينية والثقافية والتجارية فانها لم تنقطع طوال العصر الاسلامى قبل الفتح المصرى ، بل ان تيارها كان يشتد بمضى الزمن وتطور الأيام ، واتصال السودان بالحجاز حمل الى سودان وادى النيل مبادىء الصوفية الاسلامية فى الحجاز فى هذا العصر ، حمل الى هذه البلاد مبادىء الصوفية والطابع الصوفى للثقافة الاسلامية وغذى الحجاز السودان من الناحية الصوفية والعلمية فى الوقت الذى كانت فيه مصر تغذى الناحية العلمية وتنميها .

ذلك لأن الحجاز يعد من أهم مجارى الثقافة الاسلامية الدينية تأثيرا فى السودان ، وقد كان للدور الحجازى فى عهد الفونج أبعد الأثر وأشدها خطرا فى الحياة الثقافية الدينية وخاصة الصوفية ، وقد ساهمت الموانىء السودانية المطلة على البحر الأحمر والمقابلة لموانىء الحجاز بأن تكون تلك المنافذ البحرية منفذا هاما للأراضى المقدسة ، لا للسودانيين فحسب بل لكل الحجاج القادمين من أفريقيا الغربية وقديما كانت عيذاب (١٠٠ — ١٤٢٦م) تعد ميناءا رئيسيا لحجاج أفريقيا وخاصة بعـد أن استولى الصلبيون على ميناء العقبة وبلاد الشام فى القرن الحادى عشر الميلادى.

أما فى عصر الفونج فقد احتلت سواكن هذا المركز ولعل بورسودان تحتل اليوم نفس المركز الذى كان يحتله كل من عيذاب وسواكن قديما وقد كان لهؤلاء الحجاج دور ملحوظ فى تشجيع هـذه الصلات الثقافية بين السودان والحجاز ، ذلك لأن بعضهم كان يقوم بدعوة علماء الحجاز الى السودان ، ومن ذلك فقد قدم من الحجاز شيخ من شيوخ الصوفيـــة يسمى « تاج الدين البهارى » من خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلانى ، قدم من الحجاز مع (داود بن عبد الجليل) أحد التجار الذين كانوا يسافرون الى الحجاز كثيرا ، وذلك بعد أن نجح هذا فى اقناع الشيخ البهارى فى القدوم معه الى السودان وكان بعض هؤلاء الحجاج وهم فى طريق عودتهم الى بلادهم ينشرون تعاليمهم التى أخذوها من الحجاز مثل ما فعل الشيخ عثمان دن فوديو الذى قاد الحركة الاصلاحية فى غرب أفريقيا وأسس امبراطورية التكرور الاسلامية فى عاصمة سوكوتوت فى شمال نيجيريا •

ومن ذلك تذكر طبقات ود ضيف الله مجموعة من العلماء السودانيين الذين دخلوا الحجاز لأداء فريضة الحج بالاضافة الى عملهم على تلقى العلم ، ومن هؤلاء الشيخ السودانى محمد بن عدلان الشايقى الذى أخذ العلم فى بلاد الحجاز وفى المدينة المنورة وبالذات على يد الشيخ عبد الله المغربى عالم المدينة المنورة فى ذلك الوقت ، ثم عاد بعد أن تزود فى العلوم الاسلامية وخاصة علم الكلام الى السودان حيث استقر فى أرض الجزيرة وعكف على تدريس ونشر علم الكلام على كبرى السنوسية ووســطاه والصغرى وهى أم البراهين وصغرى الصغرى ، ولم يكن تدريس هذه الكتب معهودا فى جزيرة الفونج ومن هنـا اشتهر علم الكلام فى دار الجزيرة وكثر طلبته وطلبه طلبته •

ولم يقتصر دور الحجاز فى اثراء الحركة الثقافية الاسلامية فى السودان على أداء الوظيفة التعليمية التى كانت تقتصر على التدريس واتخاذه وسيلة أساسية لنشر المعرفة الدينية وذلك لمـا يتحصله أبناء السودان الذين يذهبون لأداء فريضة الحج ثم يقومون بتلقى العلوم فى مكة المكرمة أو المدينة المنورة ثم يقومون بعد ذلك بالتدريس فى بلادهم السودانية بعد عودتهم •

بل انه كان للحجاز دوره الهام أيضا فى طريق الدعوة الاسلامية وذلك حيث سلك الدعاة الذين دعوا الى اتخاذ الطرق الصوفيـة التى ينتمون اليها أسلوبا لنشر الدعوة الاسلامية التى يتبعها نشر الثقافة العربية الاسلامية ، حيث اتخذوها أساسا لنشر تعاليمهم الدينية ولا شك أن هذا الأسلوب يمتاز بالسرعة والشمول أكثر من الطريقة التقليدية التى تعتمد على التدريس فى المدارس والمساجد والخلاوى ٠

وتفيض المصادر التاريخية بذكر العديد من أبناء السودان وشيوخه الذين ارتحلوا الى الحجاز قاصدين أداء فريضة الحج وتلقى مبادىء الطرق الصوفية ، حيث تتلمذوا هناك على رجال الصوفية الذين كان يزخر بهم الحجاز فى ذلك الوقت ، فنجد الشيخ حمد بن محمد المجذوب يعود من الحجاز ومن مكة المكرمة حيث يؤسس فى السودان وفى بلده الدامر التى اتخذها مقرا له للطريقة الشاذلية والتى سميت طريقته فى ذلك الوقت طريقة المجاذيب ٠

كما أنه فى الوقت نفسه قدم الى السودان جماعة من أهل الحجاز أنفسهم الذين قدموا صحبة الحجاج أو مع التجار الحجازيين أو السودانيين أو قدموا بأنفسهم ابتغاء الجهاد فى سبيل الله فى أرض السودان ومن ثم طاب لهم المقام والاستقرار وقاموا فى القوم داعين الى ما اعتنقوه من طرق صوفية ، ومن أقدم تلك الحركات الصوفية التى يعزى قيامها فى السودان الى سى محمد أحمد بن ادريس الذى كان يتمتع بشهرة واسعة كمعلم دينى فى مكة المكرمة فى الفترة من ١٧٩٧ الى ١٨٣٣م حيث كان الزعيم الروحى لجماعة الخضرية حيث أرسل قبل موته أحد أتباعه ويدعى محمد عثمان المرغنى فى رحلة الى أفريقية لنشر تعاليم الاسلام حيث نجحت رحلته من أسوان حتى دنقلة نجاحا تاما وقد أسرع النوبيون الى الدخول فى الطائفة التى ينسب اليها الشيخ محمد عثمان المرغنى التى عرفت بالطريقة الختمية وكانت هذه الطريقة الختمية قد دخلت الى السودان على يد مؤسسها السيد محمد عثمان المرغنى عام ١٨١٨م ، حيث انتشرت تلك الطريقة فى دنقلة بسبب ترك الشيخ المرغنى لوادى النيل وذهابه الى كردفان حيث مكث هناك زمنا طويلا وهنا عمل على نشر الدعوة

الاسلامية بين قبائل تلك المناطق وكانت قبائل كثيرة فى هذه البلاد وحول سنار لا تزال على الوثنية ولم تعرف طريقها الى الاسلام بعد حيث لاقت دعوة الشيخ محمد عثمان المرغنى نجاحا كبيرا بين هؤلاء القوم الذين بدا طابع الاسلام يأخذ العديد من مظاهره فى تلك المناطق حيث ساهمت الطرق الصوفية ولازالت تساهم بدور فعال فى نشر الاسلام فى العديد من مناطق الجنوب ، حيث تأثر هؤلاء الجنوبيون الذين يزورون الخرطوم ويشاهدون حلقات الذكر التى تترك تأثيرها النفسى فى تلك الشعوب ومن ثم يتم اعتناقهم للدين الاسلامى •

ومن هنا فان الطرق الصوفية ساهمت بدورها فى نشر الاسلام على نطاق واسع بمقدار ما ساهمت طرق التدريس الاسلامى فى اثراء الحركة العلمية الاسلامية •

دور المغرب وغرب أفريقيا (البرنو) فى اثراء الحركة الثقافية :

لقـد قامت المغرب بدور تشارك فيـه مصر والحجاز فى اثراء الحركة الثقافية العربية الاسلامية فى تلك البلاد ، ذلك لأن صلة السودان بالمغرب الاسلامى قد كانت صلة مستمرة لا سيما بعد أن رحل العديد من العلماء المغاربة الى تلك الديار ، حيث كان المغرب العربى يشكل منبعا من منابع الثقافة الدينية فى السودان ، لا سيما بعد أن هاجر العديد من علماء المغرب العربى والذين كانت هجرتهم الى بلاد السودان قد تركت أثرا فى ازدهار الثقافة الاسلامية ، فقد كان أهل المغرب مالكى المذهب ومن ثم نراهم يسهمون فى تدريس فقه مالك الذى تخصص فيه أهـل المغرب وفيه تعددت مؤلفاتهم وعزز انتاجهم العلمى حول ذلك المذهب ، كما حمل المغاربة الى السودان التأثير الصوفى كما حمله أهل الحجاز •

ومن العلماء المغاربة الذين وصلوا الى السودان الشيخ التلمسانى المغربى الذى وصل فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى والذى كان قدومه على الشيخ السودانى محمد بن عيسى سوار الذهب وقد اشتغل بتدريس القرآن الكريم وعلم الكلام والتجويد والرويات ونحوها ومن ثم ساعدت على نشر علم التوحيد والتجويد فى الجزيرة •

وقد تتلمذ على يد الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب ، مجموعة من العلمــاء الذين عملوا على نشر علوم القــرآن والتجويد ويتحدث ود ضيف الله الى أبعد من ذلك حيث يتحدث عن بعض العلماء المغاربة الذين وصلوا الى بلاد الفونج ويرجع أصلهم الى الأندلس أو بلاد المغرب نفســها ويضرب لذلك أمثلة كثيرة مثل عبــد الكافى المغربى وحسن ود حسونة ودفع الله بن مقبل وسعد ود شوشاى والشيخ على اللبدى ، ولقد عمل هؤلاء العلماء المغاربة على نشر مؤثراتهم المغربية والتى ظهرت فى نشر المذهب المــالكى والتمسك بآراء هذا المذهب فى الفروع .

وهذه الظاهرة لا يمكن أن نفردها لتلك المجهودات الشخصية التى قام بها علماء المغرب فى بيئة السودان ذلك لأننا لا نجد لهم باستثناء الشيخ التلمسانى فى الطبقات مجهودات علمية بارزة كما لا نجدهم بتلك الكثرة التى تكفل نشر المذهب المــالكى على مستوى القطر كله .

ولعل تفسير تلك الظاهرة يرجع الى السلطة الحاكمة فى السودان نفسها قد تأثرت بالثقافة الاسلامية البرنوية الى حد كبير والتى كان من أهم مظاهرها التمسك بمذهب الامام مالك فى الفروع الى أبعد حد .

ومن ذلك فانهؤلاء العلماء الذين هاجروا من المغرب الى السودان قد استقروا بعض الوقت فى برنو ثم رحلوا الى السودان الشرقى وأن الفونج قد حملوا معهم المذهب المــالكى من غرب أفريقيا وكانوا من أوائل الذين نشروه فى منطقة الجزيرة لأن أهل الفونج والبرنو يأخذون المذهب المــالكى مذهبا دينيا لهم وقد شهدت سلطنة الفور فى دارفور هجرة الكثير من القبائل العربية فى المنطقة الواقعة شمال شرق دارفور وانتشار كثير من مظاهر الثقافة الاسلامية من الشمال ومن الغرب كذلك فان طلابا مندارفور وكردفان وسنار قد اختلطوا بزملاء لهم فى بلاد المغرب والبرنو ووادای وهم يدرسون فى الجامع الأزهر .

ولا شك أن هذا الاختلاط قد ترك أثرا قويا فى كليهما ، وأنه من بلاد البرنو نشطت حركة الجهاد السلمى لنشر الاسلام فى الشرق وأن نفوذ

برنو الثقافى قد وصل حتى حدود بلاد النوبة ومن هنـا فان كان لابد للاسلام والثقافة الاسلامية أن تسربت الى منطقة دارفور من برنو بفضل المؤثرات الاسلامية القادمة من الغرب •

وكما نعلم فقد كان السودان طريقا هاما للتجارة بين البحر الأحمر وغرب افريقيا وهكذا انتشر الاســلام والثقافة العربية فى السودان وقد كان التجار القادمين من الغرب خير دعاة للاســلام فى السودان وذلك لتقارب المسافات بين بلاد برنو والسودان وقد خلق ذلك تقاربا حضاريا وثقافيا وعقائديا حتى تلاشت معظم الأبعاد وذلك بسبب قدوم وفود اسلامية من بلاد المغرب العربى والسودان الغربى وعمل هذه الوفود كان له تأثير فى اثراء الحركة الثقافيــة الاسلامية على أرض السودان •

ويرجح أن انتشار الاسلام والثقافة العربية فى كردفان ودارفور قد جاء نتيجة اندفاع تيار الهجرة من المغرب ثم جنوبا الى برنو وكانم وباجرمى ووادای ثم الى تلك المناطق •

كما أن هناك طلابا من كردفان ودارفور (طلاب السودان) قـد رحلوا غربا للدراسة فى جامعة تمبكتو فى سنغاى ولا شــك أن هؤلاء الطلاب وهم فى طريقهم الى تمبكتو قد مروا بسلطنة برنو واستقروا بها فترة من الزمن ونالوا قسطا من الثقافة العربية الاسلامية الموجودة فى برنو فى ذلك الوقت •

وهكذا استمر تأثير الحضارة الاسلامية بكل مقاوماتها فى كردفان ودارفور ووادای وبرنو وامارات الهوسا وشواطىء النيجر وفولتـا العليا وانتشرت اللغــة العربية والحضارة الاسلامية وثقافتها الزاهرة على نطاق واسع بين سكان تلك الأقطار مثل العرب لأنها لغــة الدين والقرآن الكريم •

ويضاف الى ذلك أن استيعاب شعب السودان للاســلام وتمثلهم للثقافة العربية اللاسلامية قد أدى الى خلق نوع من التفاهم والتماسك

والترابط بين تلك الجماعات المختلفة كما أسهم فى بذر بذور بعض المقومات الأساسية لوحدة وطنية وسياسية أبقى وأشمل بين السلطنات الاسلامية كالفونج والفور وتقلى والعبدلاب وغيرها من السلطنات الاسلامية التى عاصرت بعضها البعض فى السودان الشرقى .

وهكذا أدت الاتصالات الحضارية والاحتكاكات الثقافية والهجرات العربية من القبائل والعلماء ورجال الدين والدعاة والحجاج من بلاد المغرب العربى بعد نكسة الأندلس وسقوط ذلك الفردوس الاسلامى المفقود تحت ضربات المسيحية ، ثم الى بلاد السودان الغربى والأوسط ثم نزوحها بعد ذلك الى بلاد السودان الشرقى حيث دارفور وكردفان وتقلى الى ايجاد نوع من التوافق والانصهار بين شعوب تلك المناطق التى استقرت بها تلك القبائل العربية .

ولقد كان ازدياد نشاط حركة الدعوة الاسلامية الى مذهب الامام مالك مع تلك الموجات الاسلامية القادمة من الغرب من منطقة بحيرة تشاد الى تلك المناطق السودانية قد ساعد على انتشاره بين الناس وأصبح منذ ذلك الحين هو المذهب السائد الى اليوم .

وهكذا ساعدت الموجة المغربية القادمة عبر بلاد وسط وغرب القارة الافريقية فى اثراء الحركة الثقافية الاسلامية بما بذله علماء تلك المناطق فى مشاركة التيار العربى الأساسى فى تلك المؤثرات الاسلامية اضافة لما لعبه الدور الحجازى أيضا من دور مؤثر وفعال نظرا للرباط الروحى الذى شد أبناء السودان الى تلك المناطق ومن ثم ساعد على رحيل علماء الحجاز لا سيما من المدينة المنورة ومكة المكرمة الى السودان ، الى تلك المناطق طلبا للعلم والاستزادة من مناهله فى تلك المدن ثم العودة الى السودان للقيام بتعميق المفاهيم والعلوم الاسلامية .

دور جنوب الجزيرة العربية فى اثراء الحركة الثقافية الاسلامية :

لقد شارك أبناء وعلماء جنوب الجزيرة العربية من اليمن وحضرموت اخوانهم علماء مصر والحجاز والمغرب وغرب افريقيا فى اثراء الحركة الثقافية العربية الاسلامية وفى صبغ السودان بالصبغة الاسلامية وتهيئته للقيام بدوره فى الحركة الاسلامية فى قلب القارة الافريقية .

وقد كانت اليمن من المصادر الأولى للثقافة الاسلامية والصوفية فى البيئة السودانية ، وذلك لأننا نجد أنه منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، الثامن الهجرى قد وفد من اليمن الى أرض الجزيرة بالسودان ذلك الشيخ اليمنى « غلام الله بن عائد » الذى سكن أول قدومه جزيرة ساكيه ثم رحل الى دنقلة وسكن بها ، وبعد أن توطن تلك المدينة شرع فى القيام بدوره الاسلامى فقام ببناء المساجد لتأدية الصلاة وتحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الشرعية والعلوم المباشرة كالقراءة والكتابة وذلك لأطفال المسلمين والقاء الدروس فى المسجد بعد صلاة العصر للكبار وجعل طلابه يتحلقون فى حلقات حوله ، بعد أن درس لهم علوم التفسير والفقه والحديث والتجويد وعلوم القراءات .

وقد خرجت من ذرية ذلك العالم الزاهد « غلام الله بن عائد » ذرية كبيرة من علماء الدين نشروا الثقافة العربية الاسلامية ، حيث حرص ذلك الشيخ على أن يجعل أطفاله بين أطفال المسلمين الذين كان يقوم بالتدريس لهم ، وقد عمل هؤلاء فى المدى البعيد على نشر الثقافة العربية الاسلامية فى أرجاء السودان حيث نزل نفر من أبنائه وطلابه الى جهات عديدة فى السودان منها الجزيرة والنيل الأزرق ، حيث كان أحد أبنائه المسمى الضرير قاضيه فى فترة حكم الفنج ، بل ان منهم من قام بدوره الاسلامى قبل قيام دولة الفونج فى سنار .

كما أن ود ضيف الله أورد فى طبقاته أسماء بعض الفقهاء ورجال الدين والعلماء الذين وفدوا من حضرموت بأرض اليمن الى السودان

والذين كان قدومهم الى تلك الديار بعد فترة طويلة تزيد عن قرن من الزمان بعد قدوم « غلام الله بن عائد » ويمكن أن نعتبر قدومهم فى أواخر القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى ومنهم الشـــيخ « حمد ولد زروق » والذى قدم ومعه الشـــيخ الحضرمى جار النبى حيث سكنا قرية الصبانى التى تقع على شاطىء النيل الشرقى والتى تشكل الآن جزء من مدينة الخرطوم بحرى ، كما قدم معــه أخوه « النتيدارى » •

وان كان ود ضيف الله المصدر الرئيسى والوحيد للتأريخ لهؤلاء العلماء والفقهاء والمشايخ والصوفية لا يذكر لنا شيئا عن جار الله سوى قوله انه كان من عباد الله الصالحين ، كما أنه لم يذكر لنا شــيئا عن تلاميذه ، الا أنه يمكن القول أن الشيخ حمــد ولد زروق والشــيخ جار النبى وأخيــه البندارى قد ساهموا مساهمة تقــدر فى التعليم الاسلامى وتدرس تلك العلوم والقائها فى المساجد ولا شك أنه كان لهم تلاميذ وطلاب ومريدين وانه مهما يكن من ذلك الدور فانهم من علماء الاســلام بوجه عام مهما قلت غزارة عملهم فانهم لا بد أن يتــركوا بصماتهم القوية فى الأماكن التى يحلوا بها ويستقروا فيها حيث يطيب لهم المقام والاستقرار ، ولا شك أن كل عباد الله الصالحين الحافظين لكتابه قد ساهموا فى السودان كما فى غيره من الأقطار حتى ظهور أثر بارز فى الحركة الثقافية الاسلامية •

كما قدم من جنوب الجزيرة العربية الشيخ جبارة وقد كان قدومه وقدوم الشيخ جار النبى والشيخ حمد ولد زروق فى زمن واحد •

قد يكون الأثر الذى تركه علماء جنوب الجزيرة العربية فى السودان كان له دور محدود لا يصل الى أثر أى دور من الأدوار السابق الاشارة اليها سابقا ، الا أنه لا يمكن انكار الدور الذى قام به أحفاد « علام الله ابن عائد » فى اثراء ونشر الثقافة الاسلامية العربية فى السودان ولكن للحقيقة العلمية فانهم لم يكونوا مدينين لهــذا الثراء الثقافى العلمى الاسلامى للأماكن التى قدم منها جدهم غلام الله حيث جنوب الجزيرة

ولكنهم كانوا يدينون فى ذلك للأزهر الشريف فى القـاهرة حيث تلقوا تعليمهم وأتموا دراستهم على رواد الحركة الاسـلامية المصرية التى تركت بصماتها بها ولا تزال تؤثر فى مجريات الحركة الثقافية فى السودان حتى وقتنا الحاضر •

واذا كان الحديث عن كل هذه المصـادر الثقافية الاسلامية التى أثرت على المسيرة الثقافية الاسلامية فى السودان قد تضافرت جميعها فى ابراز ذلك الدور ، الا أنه يبقى دور آخر فى نهاية الأدوار القطرية الاسلامية المؤثرة فى تلك الثقافة وهو :

دور علماء الخلافة العباسية فى بغداد :

لقد كان المصدر العراقى ممثلا فى قدوم علماء الخلافة العباسية فى بغداد من أقدم المصادر الاسلامية العلمية فى السودان باستثناء المصدر المصرى الذى ساهم فيه الشيخ عبد الله بن عبد الحميد العمرى الذى قدم الى السودان فى القـرن الثالث الهجرى ، لتأسيس امارة اسلامية فى شمال السودان ، الا أن دور العلماء البغداديين قد يصل الى القرن الثالث الهجرى أيضا ، القرن التاسع الميلادى حيث وفد الى دنقلة عاصمة دولة مقرة مجموعة من العلماء البغداديين فى ذلك الوقت المبكر وذلك لتعليم الناس أمور دينهم الاسلامى ومحاولة تعميق تلك المفاهيم الاسلامية وترسيخها فى أذهان القوم •

الا أن قدوم هذه الجماعة البغدادية المبكرة لم تكتمل مسيرتها فى القدوم الى السودان اذ لا نكاد نعلم عن رحيل رجال الدين والفقهاء والأئمة والصالحين العراقيين الى السودان ، الا منذ حلول القـرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى وبالتحديد فى النصف الثانى من ذلك القرن الهجرى ، اذ تصادف بعض الحجاج السودانيين أن التقوا فى مكة المكرمة مع بعض علماء الاسلام البغداديين والذين تصادقوا معه واستطاعوا اقناعه بعد عدة محاولات بحاجة السودان الى جهود مثل هذا العالم الذى هو الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى الذى قدم بصحبة هؤلاء الحجاج الى السودان •

وقد كان الشيخ البهارى من خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلانى (٤٧١ — ٥٦١ هـ) مؤسس الطريقة الصوفية الجيلانية التى لعبت دورا هاما فى نشر الاسلام فى ربوع القارة الافريقية ، وقد لعب الشـــيخ تاج الدين البهارى « البغدادى » دورا فعالا ومؤثرا وبارزا فى تاريخ الثقافة العربية الاسلامية فى سودان وادى النيل ، حيث أن دوره قد اتضح فى ادخاله الطريقة الصوفية الى مملكة الفونج فى سنار ، حيث لقيت دعوته الى التصوف رواجا شديدا فى السودان وخاصة فى أرض الجزيرة التى أقام بها فترة من الزمن تزيد على سبع سنوات متواصلة حيث اجتمع اليه القوم طوال تلك الفترة الزمنية حيث انطوى العديد من القوم فى طريقته الصوفية التى لعبت دورها فى نشر الاســـلام فى صفوف السودانيين • وقد تكاثر عدد الذين أخذوا عنه معالم الطريقة الصوفية القادرية والذين كان من بين تلاميذه ومريديه (الشيخ محمد الهميم ولد عبد الصادق) الذى سلك طريقة أستاذه فى الدعوة لهـذه الطريقة ومارس دوره بنشاط وفعالية مما أكسب الطريقة أنصارا جدد من السودانيين الذين شدتهم هذه الطرق الصوفية والطوائف الدينية الاسلامية كذلك من الذين أخذوا عن الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى (بان النقا الضرير) بل أن تلاميذ الشيخ البهارى البـارزين قد كانوا أربعين من الأقطاب البارزين الذين لعبوا دورا هاما فى الحركة الاسلامية فى السودان والذين كان منهم العديد من الفقهاء الذين ذكرهم كتاب الشونة المخطوطة التى حققها الشاطر بصيلى عام ١٩٦١م حيث ورد ذكر تلاميذه ومنهم الفقيه حمد النجيفى صاحب مسجد اسلانج والفقيه رحمة جد الملاوينى والمعتمد اشنان ولد عبد الصادق وبان النقا ، الذى قيه أنه سافر الى سلطنة تقلى وسلك فيها مسلك عبد الله الحمال جد الشيخ حمد ولد الترابى مع جماعة ، ومهما يكن من أمر فقد توافر تلاميذ الشيخ تاج الدين البهارى فى آرجاء السودان وصار لهم مريدين وأتباع عديدين فى العديد من المدن والقرى حيث اقترن دخول الطريقة القادرية أكثر الطرق الصوفية انتشارا فى السودان بذلك الشيخ البهارى الذى كان قدومه بالتحديد عام ٩٨٥ هـ / ١٥٧٧ م من بغداد عن طريق الحجاز أثر دعوة التاجر السودانى داود بن عبد الجليل ، حيث أدى دوره فى انتشار تلك الطريقة الصوفية والتى يذكر أنه أثناء اقامته طلب من الشيخ

عبد الله بن دفع الله العركى تلميذ الشيخ عبد الرحمن بن جابر أحد أبناءه الأربعة الذين تلقوا تعليمهم فى الأزهر الشريف وهو ممن ولاهم الشيخ عجيب القضاء أن سلك طريق القــوم فى الدخول فى الطريقة القادرية ، الا أن الشيخ عبد الله رفض ذلك المطلب لأنه كان فقيها يعطى كل الفقه اهتمامه ، ولكنه لـما رأى المكانة الرفيعة التى تبوأها أنصار وأقطاب ومريدى الشــيخ تاج الدين البهارى بين الفونج والعــرب وما اشتهروا به من كرامات بين عامة الناس آثر أن ينخرط فى هــذه الطريقة ولحق بالشيخ تاج الدين البهارى بالحجاز بعد أن كان قد ترك السودان .

وكان الشيخ البهارى قد سافر الى الحجاز للعمل على نشر طريقته هناك والتى لاقت اقبالا شديدا ويذكر ود ضيف الله بن محمد الجعلى صاحب كتاب الطبقات ابان الشــيخ السودانى بان النقا لازم خدمة الشيخ البهارى الى أن سافر الى الحجاز فأعطاه العهد وجميع حالاته وأدخله فى مقامات الرجال ويكفى تربيته لابنه الشيخ يعقوب وبتول ابنته ويعقوب ربى ولديه موسى ومرزوق وهجو بن بتول وعبد الرازق وعبد الرافع فتفرعت طريقة تاج الدين من هؤلاء المذكورين .

وهكذا شارك التيار العراقى كل من التيــار المصرى والحجازى والمغربى والسودانى الغربى وغرب افريقا وجنوب الجزيرة فى اثراء الحركة الاسلامية التى لعبت دورها فى السودان وجعلته مؤهلا للقيام بدوره الفعال فى قلب القارة الافريقية بما أمدته تلك الروافد بمغريات ثقافية تشابكت جميعها على أرض السودان فتكون تلك الملامح الثقافية الاسلامية .

ولقد كانت الصلة مستمرة بين السودان والأقطار المجاورة التى ساهمت فى اثراء الحركة الثقافيــة العلمية فكما اتصــل أهل دارفور بتونس وذهب كثير منهم الى كانو وتمبكتو طلبا للعلم ، وعلى ذلك فقد اتصلت كل من ســـنار مركز سلطنة الفونج والفاشر مركز سلطنة الفور بمراكز العلم فى العالم الاسلامى كما أنه على هذا النحو فقد اتصلت

مدارس السودان بعضها ببعض بتبادل الأساتذة والطلاب ، فكثرت الرحلة من دنقلة وبربر الى سنار واربجى وكذلك تأثرت دارفور بالحركة العلمية المزدهرة فى سنار كما رحل كثيرون من علماء الفونج الى دارفور وأقاموا بها واستقلوا بالحياة العلمية كما رحل طلبة دارفور الى سنار لاستكمال الدراسـة وتلقى العلم على العلماء الذين وفدوا من أنحاء العالم الاسلامى الى سنار ٠

كل هذه العوامل قد أثرت فى طبيعة الحياة الثقافية فى السودان وهنالك عوامل أخرى انبعثت من الحياة السودانية نفسها ، كان لها أثر عظيم فى نمو الحركة الفكرية والأخذ بكل هذه المعايير الثقافية والعمل على دفعها الى الأمام حيث عملت السلطنات الاسلامية التى قامت فى السودان بفكرة دفع الحركة الفكرية العلمية الاسلامية ومحاولة نشر الثقافة الاسـلامية الى الأمام بتشجيعها بكافة السبل ، ثم مساهمة شـعب السودان نفسـه فى هذا التشجيع واقبالهم على هذه الثقافة اقبـالا عظيما ٠

واذا كان قد قدر للثقافة الاسلامية فى السودان أن تنمو وتزدهر فان الفضل فى ذلك يرجع الى قيام سلطان الفونج ودارفور لأن القبائل البدوية التى انحدرت الى السودان وراء المرعى والموطن كانت تمارس نفس الحياة التى مارستها فى بيئاتها القديمة ولم تعنى كثيرا بالأمور الدينية والثقافية ٠

كما أن ظهور سنار فى عهد الفونج وتدفق التجارة اليها وارتفاع مستواها الاقتصادى ، ثم ما حققه الفونج أنفسهم من سلام وطمأنينة كان من الأسباب التى بعثت الثقافة الاسلامية من مراقدها ٠

فقد كان ملوك الفونج يشجعون العلماء على القدوم الى سـنار والاقامة فيها وكانوا يقدرونهم ويبسطون عليهم ظل الطمأنينة والحماية ويمنحونهم الأعطيات ويعفونهم من الضرائب وييسرون لهم أسـباب الراحة هذا الى جانب بناء المدارس والمساجد والانفاق عليها وتشجيع

الطلاب على القدوم الى سنار أو تيسير أسباب السفر لمن يريد منهم الرحيل الى الأقطار الاسلامية المجاورة •

ولقد كانت المشيخات الداخلة فى نطاق سلطنة الفونج تحذو حذوها والشيخ عجيب المانجلك مثلا كان يقطع الاقطاعات الواسعة للعلماء والصالحين ويحببهم فى الاقامة •

وكذلك مما ساعد على تطور وازدهار مظاهر الثقافة العربية الاسلامية وظهور معالم الحضارة العربية الاسلامية ذلك الدور الذى لعبه سلاطين الامارات الاسلامية كما سبق الاشارة بما قام به سلاطين سنار ، ومن ذلك نرى أن سلاطين دارفور لم يكونوا أقل من سلاطين الفونج احتراما للعلماء وتشجيعا للعلم ، اذ تمتع المشتغلون بالثقافة بمكانة ممتازة فى حياة دارفور ، وهذا بعض مما ذكره الرحالة « براون » فى كتابه رحلات افريقيا وكذلك مما ذكره الرحالة محمد بن السيد عمر التونسى •

فقد رأى « براون » ما كان للعلماء من مركز مرموق وضرب مثلا بالفقيه سراج الدين وحظوته عند السلطان عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور ، وقد ذكر التونسى فى كتابه تشحيذ الأذهان بأن الفقيه فى دارفور كانت له أعلا منزلة بعد رجال السلطان •

وذكر التونسى أسماء بعض العلماء الذين اجتذبهم الى سلطان دارفور حسن معاملة وضيافة وكرم السلطان عبد الرحمن الرشيد الذى كان له اتصال مع الخليفة العثمانى فى اسطنبول ، والذين ازداد قدومهم الى تلك الديار والذين كان منهم الشيخ التمرى والفولانى والشيخ حسين عمارى الأزهرى والشريف مساعد الذى وصل من مكة المكرمة بالحجاز والشيخ الفولانى الذى جاء من غرب أفريقيا •

ولم يكن هذا التشجيع وقفا على السلاطين انما شارك فيه الشعب فقد كان سكان الحى الذى به المسجد أو الخلوة يستضيفون الطلبة الغرباء فى بيوتهم كأنهم أبناءهم أو ذو قرباهم •

ويشير بوركهارت فى كتابه رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ، والذى كان قد زار السودان قبل الفتح المصرى عام ١٨٢١ م بفترة قصيرة ، حيث يقول ، كلما أرسلت الجهات المجاورة صبيانها وأطفالها دون العاشرة الى قبيلة الشايقية لكى يتلقوا علوم حفظ القرآن ودراسته فى مساجد القبيلة وخلواتها ، فان كبير الفقهاء كان يقوم بتوزيع هؤلاء الصبيان الصغار بين الاخوان والأصدقاء لكى يقيموا فى بيوتهم طاعمين كاسين ويقيموا معهم فى ضيافتهم كأنهم أبنائهم كما يشاءون حتى يتموا حفظ القرآن الكريم ويقرروا العودة الى ديارهم •

ثم يضيف فى موضع آخر أن كثيرا من أولاد السكون والمحس يرسلون الى مدارس عرب الشايقية حيث يقيمون بين ظهر انيهم اقامة طويلة تطول الى عشر سنوات أو أكثر يعلمهم فقهاء القبيلة •

وكانت للحياة الثقافية مراكز فى السودان ينبعث منها هذا الاشعاع الثقافى ، ومن أقدم هذه المراكز التى لعبت دورها فى اثراء الحركة الثقافية الاسلامية فى السودان مدينة دنقلة التى دخلها الاسلام فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، الثامن الهجرى ، ومن ثم ارتفعت مكانتها الاسلامية بعد سقوط مملكة علوة المسيحية وقيام سلطنة الفونج حيث انتشرت بها المساجد والمدارس ، وقد رأينا كيف أن الشيخ « غلام الله بن عابد اليمنى » الذى قدم من جنوب الجزيرة العربية فى القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى يقيم فى تلك المدينة حيث ينشىء بها مدارس لتعليم القرآن الكريم وتحفيظه للصغار ثم يقوم بتدريس علوم التفسير والفقه والحديث ثم انتشرت تلك المراكز فى المنطقة الممتدة من دنقلة فى الشمال الى اربجى فى الجنوب •

ومن ثم ظهرت ديار الشايقية واشتهرت كديار لتدريس العلوم الاسلامية والثقافة العربية منذ القرن الثانى عشر الهجرى ، الثامن عشر الميلادى ، وقد ذكر الرحالة بوركهارت أيضا ، أن تلك الديار كانت مصدرا من مصادر نشر العلوم الاسلامية فى السودان ، حيث أنه وجد بمنطقة استقرار قبائل الشايقية الكثير من المدارس والمساجد التى تدرس

فيها علوم الدين الاسـلامى وكذلك مدينـة كورتى وبربر وغيرها من الأماكن الأخرى ٠

اضافة الى الدور الذى قام به الشايقية فان الجعليين قاموا بدور أعظم من تلك الأدوار الثقافيـة التى لعبها الشايقية وذلك فى المراكز الشمالية حيث أصبح نفوذ الجعليين أكثر انتشارا وأبعد أثرا مما جعل مدينـة الدامر من المراكز الثقافية والحضارية ، بل هى كعبة الجعليين الثقافية فى السودان ٠

وقد تحدث بوركهارت فى كتابه رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان عن مدينة الدامر حيث كانت من الأماكن التى زارها وتحدث عنها طويلا مشيرا الى مكانتها العلمية واحترام الناس وتبركهم بقضاء فترة من الزمن فى تلك الديار وانتشار نفوذهم فى جميع أرجاء السودان ، حيث وصـفلنا مسجد المدينـة وتحدث عن أهميته العلمية فقال : وفى الدامر مسجد كبير حسن البناء له عقود من القوالب وأرضية مغطاة بالرمل النظيف يلجأ اليه أبناء السبيل والغرباء ، ولهذا المسجد صحن يحيط به عدد من الخلوات لتعليم الأطفال العلوم الاسلامية وتحفيظ القرآن الكريم ، كما أن للفقهاء مساجد صغيرة قرب منازلهم ٠

ومن هنـا فقد ظهرت تلك الثقافة الاسلامية العربية وازدهرت وبدأت تؤتى ثمارها فى عصر أسرة الفونج فى عام ١٥٠٤م ، القـرن الثامن الهجرى ، حيث تعتبر هذه الفترة من أهم الفترات الثقافيـة الاسلامية فى السودان ٠

وقد لقيت العلوم الاسلامية عناية شديدة حيث أقبل الشعب على دراسة علوم القرآن الكريم والفقه وعلومه مثل علم المواريث والفرائض والتوحيد والتصوف الذى ظهر فى السودان جنبـا الى جنب مع هذه العلوم النقلية ٠

وبذلك أخذت مظاهر حفظ القرآن الكريم تنتشر الى جانب علوم التجويد والقراءات حيث نبغ فى هذه العلوم بعض العلماء مثل الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب ، كما اهتم العلماء بدراسة العلوم الفقهية فوجهوا عناية شديدة الى علم المواريث وعلوم الفرائض كما ازدهرت دراسة علم التوحيد ويسمونه علم العقائد حيث أن السودانيون منذ أن دخلوا الاسلام يدينون بمذهب الامام الأشعرى فى العقائد التوحيدية وهو مذهب وسط بين المعتزلة وأهل السنة .

كما أنه الى جانب علوم القرآن والتفسـير والفقـه والمواريث والتوحيـد يتردد ذكر علوم أخرى فى الطبقات مثل علوم الحـديث ومصطلحاتها .

وتحدث بوركهارت عن الحركة العلمية المزدهرة فى المدارس الكثيرة وعن الطلاب الوافدين من دارفور وكردفان وسنار الى مدينة الدامر كعبة الجعليين الثقافية ، وتحدث عن الكتب الكثيرة الاسـلامية التى تدرس والتى يتم شرائها من أسواق الكتب فى القاهرة ، وعن معاهد العلم التى تعلم التجويد والتفسير والتوحيد والفقهاء لهم مكانة سـامية فى نفوس أهل السودان كلهم ترقى الى مرتبة التقديس حيث تنسب اليهم الخوارق والمعجزات وتنسب اليهم الأعاجيب يخافهم أهل السودان كلهم حتى البشاريين لا يجرءون على ايذاء أحد من فقهاء الدامر .

وقد توافد العلماء على الدامر والذين شجعهم حسن كرم ومعاملة الجعليين لهم لا سيما زعمائهم الذين أغدقوا عليهم الهبات وأجزلوا لهم العطايا ، فأخذ رجال الدين يشرحون للناس أصول دينهم مبينين لهم ما يتعارض مع ما ورثوه من عادات وثنية وتقاليد قديمة وثنية أيضا .

ولقد كان هؤلاء الدعاة ورجال الدين والفقهاء الذين قدموا من مصر والحجاز والمغرب خليطا من الفقهاء والمتصوفة ، الا أن الطابع العلمى

كان أغلب على الذين وفدوا من مصر بينما تميز الأثر الحجازى بغلبة المبادىء الصوفية وساعد المغرب فى اثراء كل من الأثرين السابقين •

وقد تحدث بوركهارت عن رحلته من الدامر الى شندى فى أبريل ١٨١٤م وكان فى قافلته فقيهان ليحرسا القافلة وكان وجودهم كافيا لأن يبعث فى قلوب الناس الهيبة والرهبة لا سيما فى قطاع الطرق حيث كان وجود الفقهاء فى القوافل يجعل الناس يفدون الى القافلة لتقبل أيدى هؤلاء الفقهاء وكما لعبت الدامر ودنقلة أدوارهما فى اثراء الحركة الثقافية الاسلامية ، فان سنار كانت أعظم المراكز الثقافية فى ديار الفونج حيث كانت مركزا تجاريا قبل كل شىء وعرفت بغناها الوافر وتجارتها الرابحة وكان التجار يجلبون اليهـا البضائع من مصر والحجاز عن طريق النيــل والبحر الأحمر وكان قدوم التجار الذين كان منهم العديد من الفقهاء من العوامل المساعدة التى تساعد على ازدهار الحركة الثقافية اضافة الى قدوم الفقهاء ورجال الدين اليها من البلاد الاسلامية المجاورة حيث أنها كانت مقر السلطنة ومركز حركتها الثقافية ونهضتها العلمية حيث أصبحت مركزا علميا تتطلع اليها جميع المناطق السودانية شرقا وغربا •

ويحدثنا ود ضيف الله محمد الجعلى فى طبقاته عن العديد من العلماء الذين رحلوا الى سنار للقيام بدورهم العلمى والاسلامى وكذلك عن العلماء الذين تحركوا منها الى مناطق سودانية أخرى كانت فى أمس الحاجة الى نشاطهم الاسلامى العلمى والثقافى •

كذلك شاركت مدينة الفاشر بعد أن أصبحت العاصمة والمركز الثقافى الاسلامى فى غرب السودان المدن السابقة بحيث أصبحت لا تقل شأنا عن سنار ودنقلة والدامر ، الا أن التونسى فىكتابه تشحيز الأذهان يحدثنا عن انخفاض المستوى العلمى فى هذه المدينة فقراءة القرآن وحفظه متأخرة نوعا ما عن المدن السابق الاشارة اليها ، وكذلك شأن العلوم الاسلامية الأخرى ، ولكن أكثر قراءتهم فى علوم الفقه والتوحيد والعلوم العقلية وعلم الكلام قليلة جدا ، وان كان يدرس بهـا القليل من علوم النحو والمعانى والبيان والعروض والبديع والمنطق •

وقد ساهم المسجد والكتاب والمدرسة والخلوة ، باعتبار أن هذه هى المراكز الاسلامية العلمية الثقافيـة التى لعبت دورها فى اثراء الحركة العلمية ، حيث كانت المساجد هى قلاع ومعاهد العلم الاسلامى والتى انتشرت فى جميع أرجاء السودان ، كما أن الخلوة شاركت المسجد فى أداء بعض الأدوار حيث كانت تتخذ كأماكن لتحفيظ القرآن الكريم وعلومه وهذه الخلاوى منتشرة على نطاق واسع فى جميع قرى السودان ، وقد يكون استعمال لفظ مدرسـة هنـا على اعتبـار أن بعض الحجرات أو الأركان فى المسجد التى كان تدرس فيها العلوم الاسلامية .

وكان التعليم فى كل هذه المراكز التعليمية يتم أولا عن طريق تحفيظ القرآن الكريم حيث كان ذلك مقدمة المراحل التى تبدأ بها الأطفال الصغار وكانت المصاحف ترد اليهم مخطوطة من مصر والحجاز وفى أحيانا كثيرة لم يكن كل المشايخ يملكون المصاحف كاملة ، بل أن بعضا منهم كان يملىء على طلابه من الذاكرة ثم يقوم الطالب بكتابة لوح بعد آخر بعد أن يتم حفظ اللوح ثم الذى يليه الى أن يتم حفظ القرآن الكريم كاملا مع تفسير آياته العظيمة .

وكان الفقه هو المـادة التى تلى القرآن الكريم فى الأهمية ، ثم يلى علم الفقه علم الفرائض أو علم التوحيد أو علم العقائد .

وبحلول النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، نجد بعض المستندات والوثائق تذهب الى أن الأقطار السودانية فى تلك الفترة كانت تفتقر الى المسلك الدينى والتقدم الفقهى لانعدامه فيها ، كما أنه لا يوجد فيها طلبة علم يليقون لوظائف القضاة والنيابة والامامة ونشأ من عدم الالتفات الى هذا المسلك فيما مضى ومن عدم اعارته الاهتمام الواجب أن أكثر أهالى السودان لم يتمكنوا من تصحيح عقائدهم وشرائعهم .

وعلى الرغم مما جاء فى هذا الزعم من مغالاة وصفة التعميم الا أنه يعطينا فكرة واضحة عما آلت اليه الحركة العلمية الفقهية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى .

ويتحدث محمد عوض محمد فى كتابه السـودان الشمالى سكانه وقبائله عن بعض الظواهر التى سادت الحياة الدينية فى السودان مثل ظاهرة الطرق الصوفية فهو يلمح فى انتشارها وذيوعها فى السودان أكثر من أى قطر اسلامى آخر وما اتسمت به من شعائر أثرا أفريقيا حيث يتسأل أليس من الممكن أن تكون هذه الزعامات الروحية ، التى لا تعرف لها نظير فى مصر أيضا أثرا من الزعامات الروحية التى تعرف لها كيانا قويا فى القارة الإفريقية .

حيث كان التصوف شائعا علمـا وعمـلا فى السودان وكان معظم العلماء صوفية وللصوفية أدب خاص وأوراد وأذكار تحفظ وتردد ، ومن أجل ذلك كانت دروس الصوفيـة تعلم وتلقن مـع العلوم الأخرى فى المساجد والخلاوى ، فقد انتشرت الطرق الصوفية فى السودان كله من ذلك العهد ، حيث عملت تلك الطرق على التقريب بين القبائل والأجناس اذ دخل الناس فى مختلف أنحاء السودان الى الربط والزوايا للاتصال بالشيوخ وتلقى العلم عنهم ، ولعل هذا الانتشار الواسع يعزى الى الفونج الذين شجعوا رجال التصوف وأعانوهم ونالوا من رعايتهم الشىء الكثير .

وقد اتخذت الصوفية طابعا محببا الى عامة الناس ولعل هذا يفسر لنا انقسام تلك الثقافة الصوفية فى السودان الى جانبين ، الجانب النظرى وهو الانتاج العلمى الصوفى الذى امتازت به طبقة كبار المتصوفة والجانب العلمى وهو الجانب الذى امتازت به طبقة الأتباع .

وكان لشيوع هذه الثقافة الصوفية وغلبتها أبعد الآثار فى مستقبل الثقافة الدينية فى السودان ، ذلك لأن هؤلاء المتصوفة قد أولوا عناية شديدة لمـا يسمى بعلم الباطن وكانوا يعتقدون أنه هو العلم الحقيقى وفى نفس الوقت فان عنايتهم بعلم الظاهر لم تكن شديدة .

وفى واقع الأمر أن الثقافة الدينية قد استهوت قلة من السودانيين وأن الأغلبية قد انخرطت فى سلك الصوفية حيث المريدين والأتباع لرجال

الطرق الصوفية وسهلت من تعاليمهما بل فضلها على الطابع الفقهى وفى تاريخ الحركة الاسلامية الثقافية فى السودان نجد أن عددا كبيرا من الفقهاء قد جمعوا بين علمى الظاهر والباطن وصاروا من مؤيدى الطرق الصوفية وبهـذا التلاقح بين المنهجين الفقهى والصـوفى وضـعت النواة الأولى للخصائص المميزة للثقافة الدينية فى السودان وقد أخضع انتشار الاسلام فى السودان خضوعا تاما للجو الصوفى السائد والمنتشر فى العالم الاسلامى بعد أن كتب له النصر فى طريقه الطويل مع أهل السنة فى القرن الثامن الهجرى ، الثانى عشر الميلادى ، وذلك بعد أن أدرك الصوفية أن الدين قد أصبح فى عرف الفقهاء جملة رسوم وأوضاع لا حياة ولا روحانية فيها وهذه الرسوم وان أرضت ظاهر الشرع وأشبعت عقول الشرعيين المفتونة بعقيدة القواعد وتعميم القوانين ، لم تكن لترضى باطن الشرع ولا تشبع العاطفة الدينية عند الصوفية ، واتسعت شقة الخلاف بين الطرفين من ناحية الدين والأحكام الشرعية وطريقة الاستنباط وقد حسم هذا الخلاف الامام أبو حامد الغزالى (الذى توفى ١١١١م) بعد تجربة فكرية روحية رائدة فى التوفيق بين الشريعة والحقيقة أو شرح التصوف وتعاليم الدين جاعلا الأخيرة أساسه ٠

وقد لاقى هذا التوفيق قبولا عند جمهور المتصوفة كما رضى عنه كثير من أهل السنة ، وقد تبوأت الحركة الصوفية المعدلة مكانها فى اطار العقيدة الاسلامية ٠

وبعد أن كان التصوف مقصد الصفوة من المسلمين صـار مقصـدا للجميع فانتشرت الطرق الصوفية حتى عمت كل أرجاء العالم الاسلامى وقوى سلطانها على الخاصة والعامة ، بل أصبحت قوة كبرى فى نشر تعاليم الدين الاسلامى فى أجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا كما زادت هيبتها الروحية على الجيوش المقاتلة حتى ثغور الامبراطورية العثمانية فلما نقلت الطرق الصوفية الى مملكة الفونج وجدت التربة الصالحة والجو المهيأ فكتبت لها الغلبة ٠

كذلك بجانب الدراسات الاسلامية وانتشار الطرق الصوفية : نشطت حركة الدراسات العربية فى ركاب الحركة الدينية ذلك لأنه أينما سارت

الدعوة الاسلامية سارت معها اللغة العربية ، حيث كان علماء الدراسات العربية اللغوية هم أنفسهم علماء الدين الذين كان لهم شأنهم فى نشر الدراسات الدينية ، حيث ظلت مصر والحجاز والمغرب منبعا زاخرا لهذه الدراسات العربية اللغوية فى السودان منذ عصر ظهور سلطنة الفونج وسلطنة الفور وسلطنة تقلى وقبلهما سلطنة الكنوز ، فقد كان سلاطين تلك الامارات والسلطنات على علاقة طيبة مع علماء مصر وغيرها فى البلاد العربية .

وبالاضافة الى هذه العلاقات الطيبة التى أقامها البلاط السنارى مع العلماء فى مصر وغيرها من البلاد الاسلامية ، نجد مجموعة من العلماء الذين وفدوا من شتى الأقطار العربية يقومون بتدريس علوم اللغـة العربية كالنحو والصرف والبلاغة والعروض وعلوم البيان والمنطق ، فنجد أن أغلبية العلماء الذين قاموا بتدريس هذه المواد اللغوية كانوا قد وفدوا من مصر مثل الشيخ محمد المصرى والشيخ محمد القناوى اللذين كانا يدرسان الى جانب العلوم الاسلامية أيضا العلوم اللغوية كالنحو والصرف والعروض والبيان وغيرها من العلوم ذات الصلة الوثيقة باللغة العربية كذلك نجد بعض الطلاب الذين درسوا فى مصر وتعلموا فيها مثل الشيخ عمار بن عبد الحفيظ الذى درس وتعلم فى الأزهر الشريف كان يقوم بتدريس علوم النحو وكل ما يتعلق بعلوم اللغة العربية والمنطق ، وقد أخذ على الشيخ عمار هذا جماعة كبيرة من الطلاب السودانيين الذين كان لهم شأن فى نشر علوم اللغة العربية مثل الشيخ عبد الله بن صابون الذى برع فى علوم النحو والصرف واللغة والمعانى والبديع وعلوم العروض وغيرها بل كان شاعرا باهرا وماهرا .

كما تتلمذ على الشيخ عمار بن عبد الحفيظ الشيخ على ولد شافعى الذى كان شاعرا ماهرا أيضا وكذلك ذهب جماعة من أبناء السودان الى الحجاز لأداء فريضة الحج ولطلب العلم على أيدى علماء تلك الديار فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وأخذوا علوم اللغة العربية من مشايخ هاتين المدينتين أمثال الشيخ محمد بن عدلان الشافعى الذى قرأ علم العربية

على عبد الله المغربى عالم المدينة المنورة ، والشيخ عمار بن شافعى الذى قرأ فى مكة المكرمة علوم اللغة العربية .

وقد كانت الدراسات اللغوية والأدبية وثيقـة الصلة بالدراسات الاسلامية وعلوم الدين الاسلامى مما ساعد على تهيئة المناخ الملائم لانتشار الثقافة العربية الاسلامية فى شتى الفروع والعلوم المختلفة ، ولذا فاننا نجد أن دراسة علوم الأدب واللغة والتاريخ نشأت فى السودان كما نشأت فى البلاد الاسلامية الأخرى بالدرجة الأولى على أيدى رجال الدين حيث بفضلهم انتشرت هذه العلوم .

وما تحدثنا فيه سابقا عن انتشار مظاهر الثقافة العربية الاسلامية فى السودان ليس المقصود به شمال السودان فقط حيث الانتشار الاسلامى والعربى الواسع انما نعنى به السودان كله من شماله الى جنوبه ، ذلك لأنه مما لا شك فيه أن بيئة الغابات الاستوائية فى جنوب السودان قـد عرفت العرب والعلوم العربية الاسلامية منذ فترة بعيدة وذلك من خلال صلاتهم المستمرة مع شمال السودان ونعنى بها الصلات الاجتماعية ، لأن الوسيلة الاجتماعيـة والتسرب السلمى كانتا فى ذلك الوقت تعـد من الوسائل الفعالة لنشر الثقافة بين تلك الشعوب ، وبهذا فانه يمكننا القول أن الجنس العربى عرف السكان الزنوج حول البحيرات الكبرى وأعالى الكونغو منذ وقت طويل وقاموا بنشر حضارتهم وثقافتهم العربية وأسسوا مدنهم حول جنوبى السودان .

ومنذ أوائل القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى فى عصر الفونج تثبت المراجع لنا أن الشلك وهم احدى القبائل النيلية الكبرى قد اتصلوا اتصالا مباشرا مع العناصر العربية من سنار حيث كانت فى ذلك الوقت تعد من أكبر الحواضر الاسلامية فى السودان ، بل أن هناك بعضا من الباحثين قد ذهب الى حد القول أن الشلك هم الذين أسسوا سلطنة سنار وبصرف النظر عن صحة هذا الزعم أو خطئه فانه يعطينا فكرة عامة عن مدى اختلاط هؤلاء الشلك وتأثرهم بالثقافة العربية الاسلامية حول سنار ، كما اتصلوا بالنوير والدنكا بالاضافة الى ذلك كان للصلة

الطبيعية التى فرضتها ظروف بعض القبائل العربية مثل البقارة الذين يتصلون اتصالا وثيقا بالقبائل النيلية أثرها فى تثبيت بعض المؤثرات العربية فى داخل بيئة الغابة ومثال ذلك اتصال قبيلة بنى سليم بالشلك وخاصة عند مدينة كاكا ، اذ كان لهم فضل نشر الثقافة العربية الاسلامية غربى النيل الأبيض الى مدى أبعد مما بلغته شرق ذلك النهر ، كذلك اتصال عرب الرزيقات بقبائل الدنيكا عند بحر العرب وخاصة فى فصـــل الجفاف •

بالاضافة الى كل هذه الأدوار نجد تلك الآثار الثقافية والاسلامية التى تركها التجار العرب فى جنوبى السودان بحيث أتيح لهؤلاء التجار العرب وأبناء السودان الشماليين فرصة الاختلاط المباشر بهذه العناصر الزنجية بل الاستقرار والتوطن والانصهار بالزواج من الزنجيات •

مثال ذلك ما حدث من انصهار بعض العناصر العربيـــة التجارية والمهاجرة فى منطقة غربى بحر الغزال ، اذ نجحوا عن طريق الاختلاط المباشر مع الزنوج فى صـــبغ مجموعات قبلية كبيرة بالصبغة العربيـــة وخاصة تلك الجماعات المعروفة باسم الفرتيت فى غربى بحر الغزال ، فبعض المجموعات مثل كرش وفروغى والباندا التى تعيش فى المرتفعات جنوبى دارفور ، قد اعتنقت الاسلام ومازال زعمائها يعتنقون هـــذا الدين السمح ويتكلمون لهجة قريبة من اللهجة العربية الدارجة •

ولعل خير مثال على مجهودات أولئك التجار فى بث المؤثرات الثقافية العربية ذلك المجهود الذى قام به الزبير باشا ، حيث أتيح له أن يؤسس مملكة عربية فى بلاد القولو • واتخذ عاصمة له فى (ديم الزبير) التى سميت باسمه ويقول الزبير باشا وصارت الناس تتقاطر الى من كل الجهـــات للانتظام فى خدمتى وحكمت البلاد بالكتاب والسنة وشرعت فى تمدنها وعمارتها •

بجانب ذلك كان التجار الذين دخلوا جنوبى السودان للتجارة فى منتجات تلك الأقاليم أثرهم البالغ فى بث المؤثرات الثقافية العربية بين

الزنوج اذ أن الاسلام والتجارة ربطت بينهما برباط تحالف وثيق ، ولما كان من السهل على التاجر أن يقوم بالدعوة والهداية للاسلام عمليا فى الأسواق والقرى وهناك مارس الاسلام دوره الطبيعى على أيدى هؤلاء التجار بين الزنوج فى الجنوب •

ولقد كان اعلان الحكومة البريطانية الاستعمارية عزمها على محاربة انتشار الثقافة العربية الاسلامية فى تلك البيئات من هنا تمت عملية استئصال هذه الثقافة العربية عن تلك البيئات ، فقد ذهبت الادارة الانجليزية بعدا آخر فى منع دخول معالم الثقافة العربية الاسلامية الى كل أرجاء السودان الواسعة •

ولقد تركت الحياة الثقافية الاسلامية بصماتها الواضحة فى كل أنحاء السودان فمثلا فى منطقة الجبال انتشرت المدارس فى جبال النوبا حيث يختلط العرب بالنوبا وخاصة بجانب المدارس العديد من الخلاوى والمساجد التى تحفظ الأطفال القرآن الكريم ، حيث أصبح أهلها مسلمون ولكن أهلها يتحدثون اللغة العربية بلهجة عربية بدرجة عربية محدودة ومن هنا نشأت فى منطقة شمال الجبال وحدها مجموعة من الخلاوى فى النتيل والدلنج ودبيكر والحمادى ورأس الفيل وحى حقوص وأم حيطان وكرمتى وزيادة على هذه الخلاوى التى تساهم مساهمة كبيرة فى نشر الاسلام وثقافته العربية الاسلامية ، فانه توجد مجموعة من المساجد المبنية من الحجر فى جبل النتل ودلاس وسلارا ووالى ، وهذه المساجد يقوم بها بعض المشايخ بتدريس وتحفيظ القرآن الكريم وعلوم الفقه •

والى جانب هذه المساجد توجد مجموعة من المساجد المبنية بالقش منتشرة فى منطقة شمال الجبال تقريبا وهذه الأخيرة تؤدى فيها الصلوات فقط وخاصة صلاة الجمعة •

اضافة الى ذلك فقد كانت بعض الجماعات النوباوية فى تلك الجبال قد استعربت بفضل انتشار الثقافة العربية الاسلامية وتلك هى الجماعات التى عاشت وتحركت فى منطقة تقلى الاسلامية ، والتى كانت تعتبر قلعة

اسلامية عربية فى داخل المحيط النوباوى الواسع ، وفى تلك المنطقة ترك الأهالى أنسابهم النوباوية وأدعوا النسب العربى القرشى حيث قال شيوخهم أنهم عباسيون ، ويرجعون بهذه النسبة الى أحد الزعماء الجعليين ممن ذكرتهم الروايات التاريخية والذى أسس امارة تقلى الاسلامية وساهمت تلك الامارة فى نشر الاسلام والثقافة العربية فى تلك الأرجاء بدور فعال ، بحيث أصبح أهالى تلك المناطق يتحدثون اللغة العربيـة بطلاقة ، بل أن حياتهم العربية الاسلامية وانتشار العلوم الاسلامية والثقافة العربية أصبحت صورة مماثلة للقوى الاسلامية الثقافية فى شمال السودان .

وعلى هذا الأساس فقد عمت العلوم الاسلامية والعربية كل أرجاء السودان الواسعة فى كل الشمال ومناطق الغابات الاستوائية ومناطق الجبال ، بحيث صبغت كل هذه الأرجاء بتلك الثقافة العربية الاسلامية التى تركت بصماتها على كل فروع الحياة العلمية والدينية والصوفية ، ومن ثم ظهر الاهتمام بالدراسات العربية الاسلامية ، وقد صاحب هـذا الاهتمام بالدراسات العربية والاسلامية شغف كبير بجميع كتب المعارف الاسلامية والعربية التى كانت منتشرة فى مصر وبلاد العالم الاسلامى ولا سيما من جانب هؤلاء الطـلاب الراحلين فى طلب العلم الى شتى الأقطار ، حيث كانت مصر من أولى الأقطار التى هبط اليها الكثير من الطلاب السودانيين ، حيث كانت مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى التاسع الهجرى مهبط العلم والفكر والثقافة والحياة العلمية الراسخة فى العالم الاسلامى ، بل كانت كعبة العلم والثقافة والدراسات الاسلامية اليها يحج طلاب العالم الاسلامى وكان أبناء السودان يجدون بغيتهم فى ذلك الحصن الاسلامى حيث الأزهر الشريف ، حيث كان الأزهر مهبط للرواد والعلماء من جميع أنحاء العالم الاسلامى الذين وضعوا الأساس الثقافى والاسلامى العميق لهذه البلاد السودانية التى طبعت بالطابع العربى الاسلامى وممارسته على نطاق واسع وقد تمكنت فئات المتعلمين من أبناء الشعب السودانى فى تمثل جوانب العلوم الاسلامية المختلفة ومن ثم انصرف نشاطهم ليدور حولها اختصارا وشرحا أو نسجا على منوالها .

وقد كانت القرون الثـلاثة الأولى (القرن التاسـع الهجرى ـــ الحـادى عشر الهجرى) هى قرون بداية انتشـار الثقافة العربيـة

الاسلامية فى السودان بشكل مكثف وعميق الجذور فى بيئات السودان المختلفة التى أخذت تنهل فى هذه الثقافة الاسلامية ، ولقد كان طابع انتشار الطرق الصوفية على الحياة الاسلامية على نطاق واسع وغلبة هذه الروح على الحياة الدينية وميل العلماء منهم الى الانخراط فى سلك الطرق الصوفية وتشبعهم بروح التقاليد بالاضافة الى نماذج وظيفتى الفقيه والصوفى فى أكثر من مظهر •

كما أن البلاد لم تشهد تقدما ملموسا فى الحياة العمرانية أو ترفا ماديا يهيىء الأسباب لازدهار الأدب والعلوم ومهما تكن العوامل التى أسهمت فى قلة المحصول الفكرى فى مرحلة التقليد هذه فتبدو لى أن غلبة روح التدين بين العلماء كانت مسئولة عن روح التهيب والاحجام عن التأليف خوفا من الزلل •

ولقد كان بودى أن نصل الى مؤلفات أو مخطوطات عن الانتاج العلمى السودانى قبل القرن الثالث عشر الهجرى ، التاسع عشر الميلادى وذلك مما ألفه علماء السودان قبل تلك الفترة ، وحقيقة الأمر أن ما ألفه العلماء والمشايخ ورجال الدين الاسلامى السودانيين لا يرقى الى مرتبة الانتاج العلمى الأصيل مثلما نشهده فى مصر أو الحجاز أو بلاد المغرب العربى أو بلاد الشام والعراق •

بل أن هناك بعض الآراء تذكر أن الانتاج العلمى السودانى لم يصل الى انتاج علماء السودان الغربى فى تمبكتو ودولة مالى وسنغاى حيث وصلت الى أيدينا مؤلفات علماء كثيرين من هؤلاء العلماء الأفريقيين مثلما نشهد فى مؤلفات أحمد بابا التمبكتى ، أحمد بن فرطو ، عبد الرحمن السعدى ، محمود كعت وغيرهم العديد من أبناء وعلماء جنى وتمبكتو وجاو وغيرها من المراكز العلمية الاسلامية فى غرب أفريقيا على الرغم من اشارة العديد من المصادر الى رحيل العديد من طلاب هذه البلاد الى واداى وباجرمى وكانم وبرنو وسلطنة البولالا وامارات الهوسا ومالى وسنغى والتكرور لتلقى العلم على أيدى علماء السودان فى سنار ودارفور وكردفان وغيرهم الكثير فى الدامر وبعض المدن السودانية الأخرى ، مما يدل على وجود حياة علمية اسلامية سودانية راقية •

ومهما يكن من مستوى هذه المؤلفات الاسلامية الدينية وندر مؤلفيها فان طبقة العلماء هذه التى سعى اليها طلاب غرب أفريقيا هذه كانت هى التى أنجبت خير ما يمثل ذلك العصر روحا وثقافة وهو عصر السلطنات والامارات الاسلامية التى عرضنا لها فى فصل سابق .

وقد أثرى مشايخ الطرق الصوفية المكتبة السودانية بالعديد من المؤلفات فى ذلك المجال الدينى الذى ساد الحياة الاسلامية فى السودان دون غيرها من الأقطار ، حيث شهدت السنوات الأخيرة من تاريخ مملكة الفونج وسلطنة الفور وتقلى والعقود الأولى فى العهد المصرى التركى ازديادا فى نفوذ بعض الطرق الصوفية وتجديدا فى تعاليمها انعكس فى ظهور العديد من المؤلفات التى أثرت تلك المكتبة السودانية والتى كانت بأقلام مشايخ تلك الطرق الصوفية وتجديدا فى تعاليمها انعكس فى ظهور تلك المؤلفات .

وقد شهد السودان فى ذلك العصر ميلاد طراز آخر من الزعامة كان جديرا بأن يوحد السودان وأن يلم الشمل بعد أن أصاب هذه السلطنات الاسلامية المتعددة الضعف والانهيار ، حيث ظهرت الزعامات الدينية زعامات الفقهاء ورجال الطرق الصوفية حيث كان من الممكن أن تعيد تلك الزعامات الدينية الى المجتمع السودانى توازنه وأن توفر للوطن استقرارا ثقافيا اسلاميا وانتاجا علميا أو صوفيا ، وأن تحفظ تلك الزعامات الفقهية والصوفية ذات الكرامات والأعمال المجيدة التوازن بين المشايخ والسلاطين ولكن على العكس من ذلك فقـد تفرقت تلك الزعامات الدينية الفقهيـة والصوفية كما تفرقت الزعامات السياسية ، بل أن العلاقات الروحيـة والدينية الطيبة قد انعدمت بين الفقهاء أنفسهم ، بل أكثر من ذلك فانهم عملوا على اشاعة جو من روح التعصب والتنافس .

ومن هنا فقد سادت الحياة الاسلامية الثقافية العلمية والفقهية العاطفة والخرافة وهما الصفتان اللتين كانتا تخيمان على فكر رجال الطرق الصوفية ، بحيث بدأت الناس العامة ينسبون الى الفقهاء العـديد من الخوارق التى لا يصدقها العقل البشرى ولا الفكر المتدين والعامل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

بل وصل الأمر فى بعض مناطق السودان النائية أن كان عامة الناس يقدسون العلماء والفقهـاء ورجال وأقطاب الطـرق الصـوفية أكثر مما يقدسون الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى الوقت الذى انحدر فيه مستواهم العلمى حيث خيم على القـوم روح من الاستسلام لأقوال المشـايخ والفقهاء بحيث لم يكن فى مقدورهم أن يميزوا بين الخرافة والايمان .

ولم يكن السودان هو وحده القطر الاسـلامى الوحيـد الذى سيطرت على وجدان شعبه تلك الروح الاسلامية فكما تعرض السودان لتلك الأخطار فان بقية أقطار العالم الاسلامى المعـاصر قد تعرضت لنفس تلك الأخطار لا سيما منها الأقطار التى خضعت للنفوذ العثمانى .

ولقد كان السودان فى ظل هذا الجو الثقافى الاسلامى الذى وصل الى حد لم يكن فيه من الممكن التمييز بين الخرافة والايمان أن تحدث به انتفاضة اسلامية قوية تحاول أن تعيد اليه توازنه الاسلامى وتبعث فيه حركة اسلامية نشطة تعمل على بث الروح الاسلامية القوية من جديد بعد ذلك التدهور السياسى الذى صاحبه تدهور فى جميع أمور الحياة الثقافية والعلمية الاسلامية .

ولقـد كان من الممكن أن تأتى تلك الصحوة الاسـلامية الثقافية والانتفاضة العلمية الاسلامية من أبناء السودان أنفسهم أو تحمل اليهم مبادىء الاصـلاح قوة أخرى ترتبط بهم بروابط ثقافية وحضـارية واسلامية وثيقة ، بحيث لم يكن السودان فى ظل ظروف التفكك والانهيار السياسى وما يتبعه من انهيار ثقافى حضارى واقتصادى واجتماعى قادرا على الخروج من ذلك المـأزق الخطير ومن ثم بدأت تلك الصحوة الاسلامية والثقافية فى السودان بذلك الفتح المصرى الذى تم عام ١٨٢٠م .

والذى تكون بداية الفتح المصرى هى نهاية المطاف فى ذلك البحث ، الذى عالجت فى فصوله المختلفة عوامل انتشار الاسلام والعروبة فى ذلك

الجزء الغالى من الوطن العربى الاســلامى الذى يعتبر جسر العروبة والاسلام الى افريقيا ، ومن هنا كانت اصالة السودان تقع فى قدرته على استقطاب العديد من الأجناس وصهرها فى بوتقة اللغــة العربية الواحدة ، فيما عدا بعض اللغات المحلية فى الجنوب بل قدرته فى صهر هذه الأجناس فى وحدة الثقافة العربية الاسلامية التى عمت كل أركانه كما سبقت الاشارة الى ذلك ، بعد أن استطاع أن يجعل تلك النواة الثقافية محور الوحدة الكبرى فى السودان ، وذلك بعد أن حاولت القوى الاستعمارية والتبشيرية أن تحول بين أبناء الجنوب ووحدتهم الثقافية العربية الاسلامية • ومن هنا ارتفعت الآراء مطالبة الى اعطاء اللغــة العربية وثقافتها العربية الاسلامية دورها فى وحدة السودان الشاملة ، وفى ذلك يقول أحد رجال الفكر والثقافة فى السودان أن اللغة العربية ودراستها واحيائها فى كل أنحاء السودان ، بعد أن تعمقت فى وجدان ونفوس السودانيين هى الخطوة الأولى لاحياء ذلك الكيان السودانى الواحد ، اذ أنه لا يمكن أن يحيا الفكر والأدب والثقافة فى هذه البلاد بأقاليمها المتعددة الا باحياء اللغــة العربيــة ، ولن يكون ذلك الاحياء الا بالتوفر على دراستها ، كما أنه لا يعتبر ذلك الاحياء وحده من جانب الشعب الا اذا لقيت تلك الحركة تشجيع رجال الدولة والحاكم ، وأن ذلك من خلال اللغة العربية لغة الثقافة والحضارة والتاريخ والتى يمكن عن طريقها القضاء على كل مخلفات الاستعمار والتبشير فى الجنوب وعلاج مسألة الجنوب فى ظل الوحدة الثقافية العربية الاسلامية •

اذ أنه من خلال التزود بتلك اللغة صاحبة الثقافة العربية الاسلامية الواسعة ، فانه يمكن من خلالها دراسة تاريخ البلاد ومن ذلك يتمكن الشعب ومثقفيه من دراسة تاريخ بلادهم مكونة المادة الأساسية لكى يجوب أرجاء السودان ويعرف عاداته وتقاليده وأعرافه وما يتغلغل فى نفسية ووجدان ذلك الشعب الذى كانت الثقافة العربية الاسلامية هى ملجأه الأول والأخير والتى مهـدت له طريقه ليمارس دوره مع اخوة العروبة والاسلام فى شتى أقطار العالم العربى والاسلامى وفى قدرته فى القضاء على ما غرسه الاستعمار فى أبناء الجنوب ، عن طريق وحدة الثقافة •

وتلك هى لمحة موجزة عن تاريخ الثقافة العربية والاسلامية وملامح تطورها على أرض السودان والظروف التى مرت بها والعوامل التى ساعدت على انتشارها وصبغها السودان بصبغة عربية اسلامية دائمة خالدة خلود الزمن وقاهرة لكل محاولات الوقيعة والايقاف والاستبعاد عن أداء الدور العربى الاسلامى وسط القارة الأفريقية وجمع وحدته السياسية الشمالية والجنوبية فى اطار الوحدة الفكرية العربية الاسلامية حلا لمشكلة الجنوب الذى استعصى حلها ولن يكون لها حل الا من خلال وحدة الفكر العربى الاسلامى الذى من خلال الوجدان الفكرى والثقافى والاجتماعى المشترك يستطيع السودان أن يواصل مسيرته هادما كل ذلك البناء الزائف الذى أقامه الاستعمار والتبشير من لغة أوربية دخيلة وعقيدة بعيدة عن فكر أبناء الجنوب قبل الاستعمار ٠



«الخاتمـــة»

من خلال هذه الدراسة عن الاسلام والعروبة فى سودان وادى النيل قبل الفتح المصرى للسودان فى عام ١٨٢٠ م فانه يبين لنا أن الصلات الثقافية والتجارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية مع ذلك الوطن العربى الاسلامى علاقات قديمة ، بل عريقة فى القدم ترجع الى قرون عديدة قبل ظهور أنوار الدعوة الاسلامية ، التى كان ظهورها بوحى الهى على مسرح الأحداث الدينية والسياسية فى العــالم ، من العوامل الأساسية لصبغ البلاد بتلك الصبغة العربية الاسلامية التى نشهد السودان المعاصر عليها اليوم والذى يحاول القيام بدوره الاسلامى فى قلب القارة الافريقية باعتباره جسر العروبة والاسلام الى أواسط القارة بأقطارها المتعددة •

ولقد اندفع الاسلام الى السودان عبر قنوات طبيعية كانت هى المعبار أو المسارب التى تسربت عن طريقها تلك التيارات العربيـــة الى السودان ومن هنا كانت العروبة أصيلة كل الاصالة فى أرض السودان ولم تكن طارئة أو وافدة أو مؤقتة كما حاول أن يصور للأذهان بعض الكتاب ، انما هى عميقة وقديمة قدم التاريخ السودانى بل قدم الانسان فى تلك الديار ، ذلك لأن السودان بأقسامه المختلفة وبصفة خاصة ذلك الجزء الشرقى والجنوب الشرقى القريب من البحر الأحمر كانت فيــه شبه عروبة متوطنة قبل انتشار الاسلام •

ذلك لأن الهجرات العربية الى ذلك الجزء قد شهدت بعدا تاريخيا يمتد الى سبعة قرون قبل الميلاد • ومن هنا ساهم استقرار الانسان العــربى فى تلك الفترات القديمة على وجود العنصر العــربى بجانب العناصر الأخرى ان لم يكن قد سبقها فى الاستقرار والتوطن والتمدين واقامة معالم حضارية قبل تلك الأقوام التى كانت تسكن المناطق الجنوبية فى السودان حول منطقة البحيرات وحوض الكونغو •

ولقد تتابعت الموجات البشرية فى حركة هجرة متواصلة أو متقطعة من الجزيرة العربية عبر مداخل متعددة ، حيث استخدمت الهجرات هذه المنافذ وصولا الى قلب السودان •

وكان برزخ السويس وشبه جزيرة سيناء من أهم هذه المعـابر التى انطلقت منها الهجرات العربية فى الجزء الشمالى من الجزيرة العربية عبورا الى مصر ثم منها الى السودان وبقية الأقطار الافريقية بحيث ظل برزخ السويس هو الطريق الرئيسى الذى تدفقت عبره القبائل العربية نحو وادى النيل ، غير أن دخول العرب الى السودان عبر مصر قبـل الاسلام لم تترتب عليه آثار عميقة الجذور ، اذ انحصر وجودهم أغلب الظن فى الجزء الشرقى من البلاد وهى المنطقة الغربية من شبه جزيرة سيناء حيث لم يكن قد تم حفر قناة السويس بعد •

ومن هنا كان برزخ السويس أهم طريق سلكته الجماعات البشرية المتتالية كما ورد ذلك فى القرآن الكريم وسفر التكوين حيث سلكته هذه الموجات البشرية فى فترات متقاربة •

كذلك ساهم البحر الأحمر باعتباره معبرا من معابر الاتصال بين الجزيرة العربية وسودان وادى النيل حيث أن عبـور ذلك البحر من موانى البحر الأحمر الشرقى لم يكن يقف أمامه عوائق على مر الأيام •

كما كان باب المندب ولازال يمثل تيار هجرة بشرية منـذ أقدم العصور حيث انتشر سكان الجنوب العـربى على السواحل الشرقية للقارة الافريقية ثم اتجهوا شمالا وغربا بحيث استقرت منهم جماعات عربية فى بلاد الحبشة والسودان وتسربت بعـد ذلك أعداد منهم الى الغرب ومن ثم ظهر أثرهم الحضارى والثقافى قبل الميلاد بفترة طويلة حيث نشروا فيها ثقافتهم العربية ، بل ان أقدم آثارهم العربية المخطوطة ترجع الى القرن الرابع قبل الميـلاد فى حين أن الهجرات العربية قد تسربت عبر باب المندب منذ القرن السابع قبل الميلاد •

وقد ازدادت حركة الهجرة العربية قبل الاسـلام الى الاقاليم الشرقية فى السودان والحبشة فى عهد دول معين وسبأ وحمير حيث توغل العرب غربا الى وادى النيل واستقرت جماعات منهم فى حوض النيل ، بل ان بعض الآراء ترى أن كلمة سوبا عاصمة مملكة علوة هى تحريف لكلمة سبأ وبهذا يمكن القول أن عرب الجنوب كانوا هم العنصر الغالب على عرب السودان فيما قبل الاسلام •

ثم يأتى بعد ذلك دور مصر كمعبر من معابر الهجرات العربية الى السودان حيث كانت تتوغل القوافل العربية فى مصر اتجاها الى الجنوب وبذلك ارتبط السودان بالهجرات العربية من مصر منذ عصور قديمة ومن هنا كانت مصر من الطرق الرئيسية بل هى الطريق الأكثر عبورا الى السودان وذلك نتيجة حتمية للعلاقات التى تربط بينهما حيث كانت مصر مقرا لوصول الموجات البشرية العربية المتلاحقة •

كذلك فقد ساهم المعبر الشمالى الغربى حيث بلاد المغرب العربى بدوره فى الهجرة العربية القادمة من تلك الأقطار المغربية التى تتجه الى الجنوب الغربى حيث دارفور وكردفان وبذلك ساهم ذلك المعبر الشمالى الغربى سواء أكان منطلقا من طرابلس ليبيا أو بقية بلاد المغرب العربى فى اتجاه الجنوب بل ان هناك آراء تذكر أن دارفور ترجع فى الأصل الى العرب الذين قدموا من بلاد المغرب العربى بعـد هجرتهم الى بلاد غرب القارة بعد انهيار الوجود الاسلامى فى الأندلس (أسبانيا) •

وهكذا كانت هذه المعابر هى البوابات الكبرى التى طرقتها وعبرتها القبائل العربية انطلاقا من الجزيرة العربية وصولا الى السودان وذلك فى الفترات السابقة والقديمة قبل ظهور أنوار الاسلام •

ولقد كانت العديد من المناطق فى القرن الافريقى ووادى النيـل والشمال الافريقى مناطق شبه عربية قبل ظهور الاسلام ، بل ان هذه المنـاطق كانت قد قطعت المراحل الطويلة فى طريق عروبتها عبر آلاف السنين ، بل انها تعربت لغة وجنسا ولقد كان العامل الحاسم فى عروبة هذه المناطق بدء ظهور نور الاسلام وانتشاره •

ولقد تدفقت القبائل العربية نحو افريقيا وأحدثت تغيرات هامة فى وادى النيل وشمال افريقيا على وجه الخصوص مما أدى الى ارتباط تاريخ تلك البقاع السياسى والفكرى والاجتماعى منذ ذلك الوقت ببقية الوطن العربى ، ومن هنـا كانت مصر جسر العروبة والاسـلام الى السودان بعـد أن عبرتها القبـائل العربية من الجزيرة العربية الى افريقيا .

بل انها لم تكن موجات جزئية متقطعة كمـا هو حال الهجرات العربية الأولى قبل الاسلام ، بل انهـا كانت هجرات عربيـة متصلة ومتواصلة وعلى هذا فان سودان وادى النيل كان لاتصاله الوثيق بمصر أثرا كبيرا اذ دخلت المؤشرات الاسلامية عبر بلاد النوبة وتركت بصماتها واضحة جلية فى تاريخ السودان وتطور ثقافتها العربية الاسلامية .

فمن المعلوم أن هناك جماعات من سـبأ قد نزحت منذ القـرن الخامس قبل الميلاد ، ثم تحركت الى الداخل حيث أرض السودان ، بالاضافة الى أنه يقال أن هناك قبائل عربية من بلى قد نزحت الى بلاد البجة قبل انتشار الاسلام كما أن القرن السادس قبل الميلاد قد شهد هجرة عربية واسعة الى أرض البجاة وقد تصاهر هؤلاء الأقوام مع من سبقوهم من قبائل بلى .

ومهما يكن من أمر الهجرة العربية الى السودان فانه يمكن القول بأن العنصر السبىء وأعقابهم الذين جاءوا من بعدهم كانوا هم العنصر الغالب والأكثر من العرب فى السودان فى العصور الجاهلية وقبل انطلاق حركة الهجرة العربية على نطاق واسع .

ولقد تكاثر الوجود العربى من ربيعة ومضر وأعقاب سبأ فى أرض المعدن بالنوبة ، ثم بدأت مرحلة خطيرة فى حركة الهجرة العربية الواسعة الى بلاد السودان اثر ظهور مرحلة الأحلاف العربية بين القبائل العربية فى مصر ، بل ان تلك الأحلاف العربية التى لجأت الى السودان كانت هى العمود الفقرى والأساسى الذى التفت حوله المجموعات العربية التى بذرت بذور العروبة والاسلام فى السودان .

ولقد كان عدم قدرة القبائل العربية وأحلافها على مقاومة الوجود التركى فى مصر من الأسباب التى جعلتهم يولون وجهتهم للهجرة العربية الجماعية الى السودان ، ومن ثم استطاعوا الوصول الى أرض السودان على دفعات كبيرة ومن ثم تفرقوا فى أنحاء السودان الواسعة واندمجوا مع جماعات عربية سبقتهم الى تلك الأماكن واندمجوا مع السكان المحليين وكونوا أحلافا جديدة مع اخوانهم العرب .

ولعل حركة الهجرة العربية من الباب الشمالى الى السودان قد استمدت القوة والحيوية من تيار العروبة المندفع من ينابيعه الدافعة فى مصر ، ذلك لأن تيار الاسلام والعروبة فى مصر لم ينقطع عن السودان بل ان حركة الدفع العربى استمرت تتغلغل فى السودان حتى أصبح جزءا كبيرا منه عربيا جنسا ولغة وهكذا كان المنفذ الشمالى له الدور الأكبر فى اكتساب السودان لعروبته واسلامه .

وهكذا فان المسلمين الذين اجتازوا شبه جزيرة سيناء الى مصر للمرة الأولى كونوا المـادة الأساسية أو العمود الفقرى الأساسى الذى صاغ ذلك المجتمع العربى سواء كان فى مصر أو السودان ، وقد انعكست تلك الآثار على المجتمع السودانى .

ولقد كان الفتح الاسلامى لمصر عام ٢٠ هـ/٦٤١ م فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من الأسباب القوية فى فتح الأبواب على مصراعيها لتدفق العـديد من القبائل العربية التى أحدثت أثرا بالغا فى وادى النيل ، ذلك لأنه فى عام ٢١ هـ / ٦٤٢ م أرسل عمرو بن العاص عقبة بن نافع الفهرى الى بلاد النـوبة على رأس جيش اسلامى ، حيث كانت تلك المناطق تعرف بشمال السودان فى العصور الوسطى وذلك لفتحها باسم الاسلام ولتأمين حدود مصر الجنوبية ، ومن هنا كانت حملة عقبة بن نافع الفهرى بداية أول اتصال بالسودان .

ثم جاء عبد الله بن سعد بن أبى سرح عام ٣١ هـ / ٦٥٢ م ليعاود الكرة على بلاد النوبة ثانية ، ومن هنـا فانه يبدو أن ممالك النـوبة

المسيحية لم تعد تملك القدرة على الوقوف فى وجه التيار الاسلامى الذى بدأ يتدفق من مصر عبر النوبة ، ويبدو أن هذا الباب قد بدأ يفتح على مصراعيه ليتدفق التيار الاسلامى طليقا من كل قيد بعد أن كان المسلمين قد عرفوا بلاد النوبة أو المقـرة فى الشمال وأرض علوة فى الجنـوب أو (حاكم الأبواب) أول أقاليم مملكة علوة وكانت حملة عبد الله بن سعد أبى سرج قد توغلت فى النوبة حتى العاصمة دنقلة وحاصرتها حصارا عنيفا حيث ضربت قلاعهم بالمنجاديق التى لم تكن قـد عرفها النوبيين من قبل ، ومن ثم طلب ملكهم « قليدوث » الصلح ، بعد أن أملى المسلمون شروطهم ومن ثم توقف الزحف الاسلامى الى هـذا الحد واقتنع المسلمون بالمصالحة ، وقد اشترط عليهم الأمان وألا يحاربهم المسلمين وأن يدخل النوبة بلاد المسلمين مجتازين غير مقيمين فيها وعلى النوبةحفظ من نزل ببلادهم من المسلمين ، وهذا يعنى أن الاسلام قد تسرب الى السودان منذ الفتح الاسلامى لمصر وكذلك العديد من البنود والشروط والتى منها أن يحفظ النوبيون المسجد الذى ابتناه المسـلمين بدنقلة وكنسه واسراجه وتكرمته وهذا يعطى الدليل القـوى على أن الاسلام قد تسرب طوال العشرة سنوات التى مرت من عام ٢١ هـ / ٦٤١ م الى ٣١ هـ / ٦٥٢ م وكذلك حماية التجار وغيرهم من المسلمين الذين يطرقون بلادهم •

وكذلك كان النوبيون بدورهم ليسوا أقل من العرب رغبة فى الاتفاق فقد كانت الكنيسة الأم لهم فى مصر فى قبضة المسلمين وكذلك مسارب التجارة ومسالكها ومن ثم تبلورت كل هذه الرغبات المتبادلة فى معاهدة البقط وكما تعهد النوبيون بالمحافظة على المسجد الذى ابتناه المسلمون فى دنقلة لا يهدموه •

ولقد كانت تلك المعاهدة بمثابة وضع الأسس لبناء المجتمع العربى الاسلامى فى النوبة ، ذلك لأنها ألزمت النوبيين بفتح بلادهم لكل وافد اسلامى على ألا يقيم وكان ذلك ايذانا بانطلاق رجال الدعوة الاسلامية للدعوة لدينهم بين النوبيين أثناء مرورهم بالنوبة انطلاقا الى الجنوب حيث مملكة علوة •

كما أن بعض مسلمى أسوان قد اشتروا ضـياعا داخل أراضى النوبة ومن هنا فان الأمر لم يعد فى حاجة لاحتلالها وضمها للأراضى الاسلامية ، وفى القرن الثالث الهجرى ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م أغار البجة على مدينة قفط ولكن الخليفة العباسى المأمون جرد عليهم حملة وعقد معهم عهدا جعلت فيه الأراضى الواقعة بين أسوان ومصوع وباضع ملكا للخليفة على أن يكون (كنون بن عبد العزيز) زعيم البجاة (وهذا الاسم دليل على انتشار الاسـلام بين البجاة) هو وأهل بلده تابعـين لأمير المؤمنين ، ويتضح من هذا أن الاسلام شق طريقه الى أرض البجاة كما شقها الى بلاد النوبة ، لأن وجود المساجد والمسلمين الذين يدخل عمال المسلمين الى بلاد البجاة بجمع صدقات من أسلم وهذا دليل واضح على انتشار الاسلام على نطاق واسع سواء أكانوا عربا من الذين أقاموا هناك أم من البجاة الذين اعتنقوا الدين الاسـلامى نتيجة اختلاطهم بالعرب .

وقد توطدت أركان العروبة والاسلام فى بلاد النوبة بعـد مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى بوصير بصعيد مصر حيث اتجه ابناه عبد الله وعبيد الله ومعهما أربعة آلاف من أتباعهما الى بلاد النوبة بقصد الاقامة ، الا أن ملك النوبة طلب منهم الخروج ومن ثم قرر جزء منهم العودة الى الجزيرة العربيـة والبعض الآخر سلك طريقا آخر للهجرة جنوابا وشرقا ومن بدأ الاسلام يتدفق نحو السودان بأعداد كبيرة ، كما يظهر أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر فى تلك الانحاء حيث بنـوا مساجد لهم وهذه ظروف مهدت كلها للعرب للاختلاط بأهل النوبة والبجاة وكانت من العـوامل التى ساعدت على تعريب هاتين المنطقتين وكان لزواج العرب من النوبيين أثر فى أسلام الأخيرين .

وهكذا كان الاستقرار العربى الاسلامى دافعـا للانتشار جنوبا فى السودان الأوسط أو ما يعرف باسم مملكة علوة ومن هنا أصـبح السودان مفتوحا للاسلام والثقافة العربية الاسلامية للتوغل فى وسط

السودان وحتى حدود الحبشة دون انتظار لسقوط مملكة المقرة المسيحية •

ولقد كان قرار الخليفة العباسى المعتصم بالله باسقاط العطاء عن العرب بمصر من العوامل الأساسية لتشجيع الهجرة جنوبا نحو السودان بل ان تلك السياسة أدت الى هجرة بعضهم جنوبا فى الصحراء مبتعدين عن الجو المعادى للعرب والعروبة ، ومن هنا شهد القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، حركة هجرة اسلامية عربية واسعة النطاق فى اتجاه الجنوب ، كما أن هذا القرن شهد قيام الدولة الطولونية فى مصر حيث شهدت قيام أحمد بن طولون بتجهيز حملة الى بلاد النوبة والبجاة ، حيث قام بها (أبو عبد الرحمن عبد الله العمرى) الذى كان يهدف الى اقامة امارة مستقلة عن ابن طولون فى تلك المنطقة الواسعة فى جنوب أسوان ، بعد أن استقر فى منطقة بالقرب من قبيلة مضر وانتصر على النوبة والبجاة فى وقت واحد ، ولا نبالغ اذا قلنا أن العمرى قد قارب النجاح عند ما أنشأ أول امارة عربية فى شمال السودان وضرب بنجاحه هذا مثلا للعرب للهجرة الى الجنوب •

ومن كل هذا يتضح أن هذه الهجرات العربية الى السودان قد تمت فى ظروف مختلفة لم يكن طابعها العام يتسم بالعمل السريع بل انه كان تسرب سلمى اجتماعى فرضته دوافع اجتماعية كالزواج والمصاهرة والاندماج ودوافع سياسية واقتصادية ، وقد تم ذلك فى بطء وسهولة على مدى أجيال متعاقبة وكانت هذه الهجرات ينتهى بها الأمر فى نهاية المطاف الى الاندماج فى حياة السكان المحليين الذين كانوا ينتمون الى عناصر متعددة كالحامية والزنجية ومثل هذا ينطبق على تلك الثقافة العربية الاسلامية التى حملوها معهم الى مهاجرهم الجديدة •

ولقد تتابعت الهجرات أيام الطولونيين والأخشيديين والفاطميين حيث كان هؤلاء المهاجرين من اللاجئين من علية القوم والأمراء والحكام الذين يشكلون عنصرا من عناصر نشر الاسلام بين أهل تلك البلاد • ومن ثم بدأ التحرك جنوبا والاختلاط بأهل البلاد المحليين حيث خالطوهم

الدماء العربية واعتنقوا الاسلام وتعلموا اللغة العربية • وهذا الاختلاط كان له عظيم الأثر فى تاريخ البلاد •

وفى العهد الفاطمى قام أحمد بن سليم الأسوانى برحلة الى ملك النوبة جورج الثانى (٣٥٨ — ٣٩٣ هـ / ٩٦٩ — ١٠٠٠ م) وذلك لدعوة الملك ورعيته الى الدخول فى الاسلام ولكن الملك رفض ، ومن ثم فان ابن سليم الأسوانى توغل جنوبا فى النوبة العليا فوصل الى سوبا عاصمة مملكة علوة ووجد بالعاصمة سوبا جماعة من المسلمين فاطمأن عليهم وشاركهم احتفالات العيد بعد أن رفعوا الأعلام الفاطمية أثناء احتفالهم •

كذلك من المعالم البارزة فى علاقة الفاطميين بالنوبة قيام امارة الكنوز العربية الاسلامية فى أسوان حيث اعترفت بها الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، ويعتبر عصر الفاطميين فى مصر (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ — ١١٧١ م) عصر ود ومصالحة مع بلاد النوبة بصفة عامة ، بحيث أصبحت بلاد النوبة فى أواخر العصر الفاطمى ملجأ وملاذا لكبار رجال الدولة الفاطمية فرارا اليها من الأخطار التى تتهددهم •

ثم كان استخدام ميناء عيذاب لانتقال الحجاج فى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله الفاطمى فرصة طيبة لانتشار الاسلام جنوبا حيث كان بعض الحجاج يفضل الاقامة فى عيذاب عند عودته ومن ثم يتجه جنوبا الى أرض البجاة أو النوبة وقد ساعد استخدام الميناء على انتشار الاسلام فى السودان الشمالى وتسهيل حركة الانتقال فى تلك الأقاليم السودانية •

ولقد تأثرت الجماعات النوبية التى أسلمت بالتقاليد العربية وان كانت قد احتفظت ببعض تقاليدها القديمة وأضافت اليها بعض التأثيرات الجديدة ، وقد كانت بلاد النوبة متسع كبير تمتص هذه العناصر العربية الاسلامية الزائدة وتتشربها ولا يظهر نفوذ العرب ولا تعلو كلمتهم

الا حيث تكثر أعدادهم وتضعف رقابة السـلطة الحاكمة وتعجـز عن كبح جماحهم .

وشهد العصر الأيوبى ارسال صلاح الدين أخاه « شمس الدين توران شاه » فى حملة لبسط نفوذ مصر السياسى على النوبة وقد اضطر ملك النوبة الى طلب الصلح ولكن رغبة صلاح الدين كانت افساح المجال للهجرات العربية حتى يتم طبع هذه البلاد بالطابع العربى الاسلامى ، بحيث كانت الهجرات العربية متصلة الى النوبة ، بل انها كانت تزداد فى فترات عند ما يظهر الحكام عداوتهم للعرب ، وعند ما انتهت الدولة الأيوبية فى مصر فانه وضح كل الوضوح أن علاقة مصر ببلاد النوبة لم يطرأ عليها أدنى تغيير جذرى ، ذلك لأن بنى كنز سيطروا على الجبهة الجنوبية ، وهكذا فانه يمكن القـول أنه رغم النـزاع الذى قام بين بنى كنز والدولة الأيوبيـة الا أن الأيوبيين فى مصر عملوا من جانبهم سواء بطريق مباشر أو غير مباشر على تقوية النفوذ الاسلامى فى بلاد النوبة بل تدعيمه بكل الوسائل وتقديم المساعدات لبعض القبائل العربية المهاجرة .

بل ان النشاط الاسلامى قد زاد خلال فترة الحكم الأيوبى لمصر وانتشر الاسلام وطبعت المنطقة بالطبعة العربية الاسلامية ، بل ان أبلغ دليل على انتشار الاسلام فى تلك المنطقة أنه عند ما أرسل السلطان المملوكى الظاهر بيبرس حملته الى بلاد النوبة عام ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م فان حاكم اقليم المريس كان يحمل اسما عربيا اسلاميا هو (قمر الدولة) وهذا دليل على أن نور الاسلام قد غير معالم هذه المنطقة الممتدة من جنوب أسوان حتى حدود النـوبة العليا والتى كانت عاصمتها سوبا وبذلك فان كل السياسات الحكومية فى القـاهرة سواء أرادت بطريق مباشر أو غير مباشر كانت تخدم قضـية الاسلام والعروبة فى أقاليم النوبة سواء بهروب الولاة أو فرار المضطهدين ونزوح القبائل العربية أو احكام الحصار على النـوبة المسيحية بحيث أصبحت النـوبة دار اسلامية تشع بنور الاسلام .

ولقد كان قيام الدولة المملوكية فى مصر ايذانا بتغيير السـياسة السلبية القديمة للنوبة وبداية عهد جديد من الاهتمام الايجابى ، بحيث أدرك المماليك فى مصر ذلك الخطـر الصليبى الكامن فى الجنوب حيث النـوبة ، أدركوا احتمال طعن النوبيين لمصر من الخلف والظهر وهى منصرفة الى دك ما تبقى من قلاع بقايا الصليبيين فى الشام لذا نجد الحملات المصرية المملوكية تتتابع فى عنف الى النوبة •

فنجد السلطان الظاهر بيبرس يغرم بانتهاز فرصة الصراع على عرش النوبة لكى يرسل حملته السابق الاشارة اليها لكى تنصب الأمير الذى طلب حمـاية الدولة المملوكية ، وقد كانت هـذه بداية الحماية المملوكية الاسـلامية المصرية على مملكة مقرة بأن يكون الجالس على العرش من اختيـارهم ومرتبط بيمين الطاعة والولاء لسلطان المماليك ونائبا عنه •

وللحقيقة التاريخيـة فان الحملة المملوكية المصرية التى صاحبت الأمير شكنده قد حققت فتح بلاد النوبة فتحا حقيقيا وأن بلاد النوبة بعد تلك الحملة لم تعد مستقلة ومن ثم نجحت السياسة المصرية فى جعل بلاد النوبة تابعة للحكم المصرى ولقد ساعدت هذه السياسة على انتشار الاسلام على نطاق واسع ، بل ظهرت حركة التعريب فى كل أنحاء البلاد بصورة ظاهرة وراسخة •

وفى عصر السلطان قلاوون ، أرسل الملك « ادور » ملك الأبواب التى هى الجزء الشمالى من علوة سـفراءه الى مصر حاملين للسلطان قلاوون شكوى من سوء معـاملة « سماسون » ملك دنقلة ويحكمه فى النزاع وقام « سماسون » بارسال سفارة وهدايا الى القاهرة ومن ثم عمل السلطان قلاوون على بحث أسباب الشكوى وكان أن تولى عرش السلطنة فى مصر السلطان « خليل بن قلاوون » الذى أرسـل حملة توغلت لمسـيرة ثلاثة وثلاثين يوما جنـوبى دنقلة ، وقد تسببت هذه الحملات المملوكية المتكررة فى رضوخ النوبيين لمشيئة السيادة المصرية ولاخضاع ملوك النوبة واعترافهم بالسيادة المصرية فى ذلك العصر •

ولقـد وجد ملوك النـوبة أنفسهم بين خطرين ، عدوان المماليك المستمر والدائم والخطر الذى لم ينقطع عن استمرار حملات المماليك المستمرة ثم هجوم القبائل العربية من الداخل والتى انصهرت فى المجتمع وصاهرت أغلب الأسرات صاحبة النفوذ والحظوة فانهـا خلعت رداء المسالمة وبدأت تتطلع فى ضرورة بسط نفوذها على البلاد .

وهكذا استمر النفوذ العربى الاسلامى فى بلاد النوبة بمساعدة المماليك ، حتى أن مملكة علوة فى سوبا قد أصبحت تدرك هذه الحقيقة الثابتة ومن هنا بذل محاولات للتقرب من بلاط السلطنة فى القاهرة بعد أن رأى ملوكها بينهم النفوذ العربى الاسلامى يزداد داخل بلادهم .

وشهد عهد الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٦ هـ/١٣١٦ م تنصيب أول أمير نوبى مسلم هو سيف الله عبد الله برشنمو وكان هذا أول سلطان مسلم يتوج ملكا على عرش البلاد ، ولكن عهد سيف الله عبد الله لم يظل اذ ثار عليـه النوبيين بايعاز من كنز الدولة ، الذى نصب نفسه سلطانا على البلاد ولكن السلطان المملوكى رفض الاعتراف بكنز الدولة لأنه حاكم عربى وقد يشكل خطرا على النفوذ المملوكى فى النوبة ومن ثم تستطيع هذه القبائل العربية المعادية للمماليك أن تمارس نشاطا معاديا للسلطنة فى القاهرة .

وبعد عدة محاولات استطاع كنز الدولة أن يتولى حكم النوبة عام ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م بعد حروب طويلة بينه وبين المماليك ، حيث ضم اليه العرب واستعان بهم .

ومن هنا فقد أصبح الاسلام هو الدين الرسمى للدولة وتم اعفاء النوبة من الجزية وبذلك صارت بلاد النوبة جزءا من الكيـان المصرى وليس أدل على ذلك من أن السلطان المنصور قلاوون اعتبر بلاد النوبة من الأقاليم المصرية ولقد تعاون ملوك النوبة مع السلطنة فى القاهرة ضد خصومها وأعدائها .

وهكذا كان القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى هو قرن الصبغة الاسلامية البحتة لاقليم النوبة العليا (المقرة) وهكذا بين لنا الدور الذى لعبته القبائل العربية المهاجرة وحكام مصر طوال عصورها المختلفة فى نشر الاسلام والعروبة والثقافة الاسلامية جنوب مصر حتى تم صبغ البلاد بالصبغة الاسلامية العربية .

ومن ثم فانه لا بد من الحديث عن هاتين المملكتين المسيحيتين (مقرة ، علوة) فى عصرها المسيحى وكيف تم صبغ تلك الديار بالصبغة المسيحية وذلك لكى تلقى بها الظلال على دور السلطنات الاسلامية التى ظهرت فى سماء السودان العربى المسلم وكيف أعطى ذلك الطابع العربى والوجه المشرف للبلاد .

ويرى المؤرخون أن المسيحية دخلت الى بلاد النوبة بأقسامها مقرة وعلوة من مصر منذ القرن الأول الميلادى وكان ذلك بسبب هجرة بعض المهاجرين الذين فروا بدينهم الى بلاد النوبة .

وانه لم يأتى القرن الثالث الميلادى الا وكان بعض الأفراد من النوبة قد اعتنقوا المسيحية ، الا أن القرن الخامس الميلادى قد شهد التحول فى عقيدة النوبة والبجاة بعد أن شهدت البلاد الأديرة والكنائس التى كان لها أثرها فى دخول بعض النوبيين فى المسيحية بل وعن التحاق بعضهم بالأديرة المصرية التى نشأت فى بلادهم ، الا أن النصف الثانى من القرن السادس الميلادى قد شهد بعدا آخر اذ أرسلت الامبراطورية الرومانية بعثات الى بلاد النوبة وهى بعثات دخلت الى مملكة النوبة السفلى (علوة) بينما أرسلت البعثة الملكانية الى مملكة مقرة ، ومن هنا جاءت المسيحية الى النوبة لكى تجد هناك مملكتين احداهما علوة فى الجنوب وعاصمتها سوبا والثانية مقرة فى الشمال وعاصمتها دنقلة .

وهكذا لم ينتهى القرن السادس الميلادى الا وكان الجزء الواقع بين الشلال الأول من النوبة قد تحول للمسيحية ولقد اعتنق النوبيون المذهب اليعقوبى والملكانى ، الا أن الغلبة صارت فيمابعد للمذهب اليعقوبى

ومهما يكن من أمر فقد ارتبطت المسيحية فى النوبة بالكنيسة المصرية ، ويبدو أن الكنيسة النوبية قد استخدمت فى بداية الأمر اللغة اليونانية فى أداء الطقوس الدينية ، ثم أخذت اللغة القبطية تنتشر وتستخدم فى الكنائس ثم ترجمت الطقوس الدينيةفيما بعد الى اللغة النوبية •

ولقـــد كانت فترة ازدهار المسيحيـــة فى النوبة فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر ، وذلك لأن القرن الرابع عشر الميلادى ، الثانى الهجرى قد شهد انهيار المملكتين النوبتين علوة ومقرة ، ولقد كانت مملكة علوة أغنى من مقرة نظـرا لاتساع أراضـيها وخصوبتها وكثرة أقاليمها التى كانت تصل الى حوالى تسعة أقاليم وعنـد زيارة أحمـد ابن سليم الأسوانى فى العصر الفاطمى مملكة علوة وجد أن بها رباطا للمسلمين مما يدل على انتشار الاسلام فى تلك الفترة من القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، وقد أشار ابن سليم الأسوانى الى أنه حتى نهاية القرن العاشر الميلادى فان المسيحية لم تكن قد ضربت بجذورها فى مجتمع النوبة الجنوبية ، ولقد كان اتساع رقعة مملكة علوة وتوافر المراعى والزراعة مجالا حيويا لحشود القبائل العربية المتدفقة من الشمال وكان ذلك فرصة لكى لا يقاوم الحكام الزحف العربى الاسلامى المتدفق الذى بدأ يزحف على بلادهم بصورة واسعة •

وقد كانت القبائل العربية المستقرة بتلك النواحى الواسعة بحكم عاداتها وتقاليدها خير من يجير سكان النوبة حيث كانت قـد حدثت مصاهرات كثيرة بين العرب والنوبيين الذين كانوا يرحبون بهذه المصاهرات التى تضمن لهم سندا قويا وحماية وسط عوامل الضعف والفوضى التى اجتاحت البلاد ومن هنا لم يكن لدى سكان النوبة أى سبب يدعوهم لمنع هذه الهجرات العربيـــة أو التدخل فى شئونهـا لا سيما أن هؤلاء الوافدين من هذه القبائل العربية لم يثيروا لدى الدولة والسكان أدنى متاعب أو أية اضطرابات • ولا سيما أنهم عملوا على نشر الاسلام على نطاق واسع •

كما أن انتشار القبائل العربية فى السودان الأوسط وسقوط مملكة مقرة وقيام دولة اسلامية فى مقرة ودنقلة عام ١٣٢٣م/٧٢٣هـ ، قد قطع الاتصال بين الكنيسة المسيحية فى العاصمة سوبا وكل الكنائس المنتشرة فى بلاد علوة وبين كنيسة الاسكندرية ومن هنا حدث اهمال للطقوس الدينية وخربت الكنائس بحيث لم يتمكنوا من الحصول على قساوسة لهم من الاسكندرية ومن هنا فانهم بعثوا فى عام ١٥٢٢م الى نجاشى الحبشة لكى يرسل لهم بعض القساوسة ولكن نجاشى الحبشة لم يتمكن من ارسال ما طلبوه ، وقد تهدمت الكنائس بحيث كان منها فى بعض الفترات التاريخية حوالى مائة وخمسين كنيسة خربت جميعها بسبب النزاع المستمر بين علوة وجيرانها فى دنقلة والحبشة والزعاوة كذلك كان للحروب القبلية التى وقعت فى المنطقة المحيطة بها أثرا كبيرا فى انهيار تلك المملكة بحيث أصبح الشعب يعانى من حالة الانفصام الدينى فأصبحوا لا هم من الاسلام أو المسيحية أو اليهودية أو الوثنية.

ولقد كان تكاثر وجود العرب فى مملكة علوة وكثرة المهاجرين منهم سببا فى سقوط مملكة علوة ، حيث اعتنق شعب علوة الاسلام ، ولقد كانت قبيلة العبدلاب التى هى من عر بالقواسمة قد ساعدت على سقوط مملكة علوة ، ذلك لأن استقرار العرب وتأسيسهم للمدن العامة واستقرارهم على نطاق واسع وخاصة خلال القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى يعطى الدليل القوى على أن سقوط مملكة علوة قد تم على أيدى القبائل العربية سواء كان عرب القواسمة الذين منهم العبدلاب أو القبائل العربية الأخرى التى لابد أنها شاركت فى انهاء الوجود المسيحى للأسرة الحاكمة وطبع البلاد بالطابع العربى الاسلامى وسواء شاركت فى ذلك قبائل الفونج أو غيرها .

وبذلك تكون القبائل العربية قد نجحت فى وقت لم تحدده المصادر فى تأسيس عدة سلطنات ومشيخات اسلامية فى حوض النيل الأوسط من الشلال الثالث حتى مدينة أربجى وما بعدها بقليل الى الجنوب .

وهكذا كما سقطت مملكة مقرة الشمالية (دنقلة) على أيدى القوات المصرية الاسلامية المملوكية التى نصبت أول ملك مسلم هو سيف الله عبـد الله برشمنو ثم جاء بنو كنز ليتولوا الحكم فى دائرة الشريعة الاسلامية ، فان مملكة علوة قد لحقت بها فى الدخول فى العقيدة الاسلامية وانتشار الاســلام وقيـام السلطنات والامارات الاسلامية فى شمال السودان ٠

والتى لابد من القاء الضوء عليها حيث أن قيامها بتلك الصورة التى ظهرت بها قد ساهمت بدور فعال فى صبغ السودان بالصبغة العربيـة الاسلامية ولقد كانت أولى هذه الامارات والسلطنات الامارة العمرية بزعامة شنقير وتستمد هـذه الامارة اسـمها من المجاهد الاسـلامى عبد الرحمن العمرى الذى ينتمى نسبه الى الخليفة عمر بن الخطاب ، وقد خرج ذلك المجاهد الى أرض النوبة والبجاة للجهاد بعـد أن أغار البجاة على المسلمين فى مصر أثناء صلاة العيد ، فخرج العمرى مجاهد فى طلب أعداء الله وأعداء الاسلام ٠

ولقد كان لحملة العمرى عدة أغراض متعددة فلم يكن المقصود بها قبائل البجاة فى الصحراء الشرقية فقط بل انها شملت أيضـا المناطق النيلية وكذلك للدعوة للاسلام ونشره بين البجاة والنوبيين ، لكن نشر الاسلام كان هو الهدف الأساسى وكذلك لتأسيس امارة عربية اشترك معه فى تأسيسها أعداد كثيرة من العرب معظمهم من ربيعة وجهينة ٠

ويشير المقريزى الى تلك الأحداث التى دارت بين جورج الأول ملك النوبة وبين العمرى والقوات العربية من أجل بسط النفوذ العربى الاسلامى فى تلك المناطق ، ولكن ازدياد النفوذ العمرى وتوطيد دعائم حكمه وزعامته قد جعل أحمد بن طولون يتوجس به خيفة من الانفصال والاستقلال عن مصر فبادر بارسال حملة الى العمرى بعد أن سمع عن عظمة سلطانه ونفوذه ولكن العمرى هزم هذه القوات بمساعدة القوات العربية والتى نجحت الدسائس بينه وبين العرب والانقلاب عليـه بعد أن تم قتله على أيدى بعض خصومه ٠

ومن هنا فان تلك الامارة العمرية لم يكتب لهـا الدوام طويلا ، اذ انفصم عرى القبائل العربية ، ولكن تأسيس امارة عربية اسلامية فى منطقة شنقير بالقرب من الشلال الرابع قد فتحت أبواب الهجرة الى بلاد النوبة على مصراعيها ، ولكى تكون نواة أول امارة عربية تطول فترة حكمها فى تلك المنطقة .

وكان العمرى قد بسط نفوذه على قبائل جهينة وربيعة وســعد العشيرة ونظم نفوذه واتسعت سلطته حتى ذكر أن سبعين ألف جمل كانت تعمل فى حمل المؤن من أسوان لحلفائه من القبائل عدا البعير التى تأتى من ميناء عيذاب ، والواقع يثبت أن نجاح العمرى الوقتى فى تحقيق قيام الامارة العربية قد خلق الفرصة لقيام امارات عربية مستقلة ، ومن ثم كانت رحلة العمرى واستقراره فى منطقة شنقير وقيـام ما يعرف بالامارةالعربية الاسلامية هى الفاتحة لكى تحذو حذوه القبائل العربية وتتحرك فى اتجاه نشر الاسلام جنوبا توطئة لانتشار الاسلام والعروبة على نطاق واسع .

ولقد ظهرت بعد ذلك امارة بنى كنز التى أسسها عرب ربيعة بزعامة أبو مروان بشر بن اسحاق والتى ظهرت عربية اسلامية امتد نفوذها من أسوان شمالا الى منطقة المريس فى بلاد النوبة جنوبا وشرق الصحراء والبحر الأحمر ، ولقد كان انتقال الزعامة اليهم عن طريق الوراثة عن الأم، وبهذا استطاعت ربيعة أن تضع نواة أول امارة عربية اسلامية فى تلك البلاد وقد ظلت هذه الامارة التى شملت جزءا من أعالى مصر وبلاد النوبة والبجة تزدهر الى أن كانت الدولة الفاطمية فى مصر ومن هنا دخلت فى طورها الذهبى ، ذلك لأن الفاطميين لمـا فتحوا مصر وجدوا هذه الامارة العربية الاسلامية المزدهرة قائمة على الحدود المصرية النوبية .

وقد كان اعتراف الخلافة الفاطمية بدويلة بنى كنز بعد القبض على أبو ركوة الذى ثار ضد الدولة وكذلك كانت تلك الدولة بمثابة خط فاصل بين مصر الاسلامية وبين مملكة النوبة المسيحية ، بل أنهـا بمثابة خط دفاعهم الأول ، اضافة الى أن هذه الامارة حدث من غارات البجاة على

مصر منذ قيامها ، وقدأطلق على هذه الامارة امارة أرض المعدن أو امارة منطقة العلاقى حيث تحتل هـذه الامارة المنطقة الواسـعة من جنوب وادى حلفا الى الجنوب فانها لم تكن معلومة ، وقد بقيت عشيرة كنز الدولة فى منطقة المعدن الشمالية وانتشرت فى أرض البجاة •

ويقول ابن سليم الأسوانى لقد غلب أولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها وبنو بدنقلة جامع يأوى اليه الغرباء وقد حدثت خلافات بين الفاطميين وبنى كنز استطاع بعدها الفاطميون استعادة نفوذهم على صعيد مصر واخضاع مدينة أسوان عاصمة بنى كنز وربما لأول مرة تدخل فيها المدينة فى حوزة الفاطميين •

وعندما علم آل كنز بنبأ سقوط الدولة الفاطمية فانهم وجدوا الثقة فى أنفسهم للمشاركة فى الأحداث الأخيرة لتثبيت أركان امارته فقـد وقف أول الأمر بجانب صلاح الدين الأيوبى ضد الدولة الفاطمية وعاونه فى القضاء على فلول النوبيين الفارين الى صعيد مصر على أثر هزيمتهم من صلاح الدين ، لكنه عاد وانقلب على صـلاح الدين ، لكن الدولة الأيوبية لم تسكت على عدوان بنى كنز وحلفائهم ، اذ بعد زمن ليس بطويل حاول صـلاح الدين القضـاء على زعامة بنى كنز ، فأرسـل صلاح الدين أخاه لقمع حركة كنز الدولة فهزمت جنود كنز الدولة وأسر زعيمها وقتل •

وفى العصر المملوكى ثار بنو كنز على أول والى مسلم يتولى حكم النوبة وهو سيف الله عبد الله برشمبو واستطاع أن يتوج بنى كنز على البلاد النوبية ، وبذلك يكون كنز الدولة أول حاكم عربى يحكم النوبة ودنقلة وهو الذى كان ينحدر من قبيلة ربيعة العربيـة ويقوى نفوذه بمساندة القبائل العربية فى هذه البلاد ومن ثم تستطيع هـذه القبائل العربية الناقمة على سلطنة المماليك فى القاهرة أن تمارس نشاطا ضدها •

ومن هنا فان الدور الذى أخذت تقوم به القبائل العغربية بزعامة

ربيعة فى ذلك الاقليم يعـد ظاهرة لها أهميتها فى مجرى الأحداث فى تلك المنطقة ومحاولة صبغ البلاد بالصبغة العربية الاسلامية .

وهكذا استطاعت هذه السلطنة الاسلامية العربية أن تصبح منارة عربية اسلامية للاسلام والثقافة العربية الاسلامية التى أخذت تمتد الى الجنوب لطبع السودان بالطابع العربى الاسلامى ، ذلك لأنه بانتشار العرب فى السودان اكتسب السودان النسب العربى والدم العربى واللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية فقد كانت هذه القبائل العربيـة أداة لنشر الاسلام وثقافته فى أرجاء السودان فيما بين البحر الأحمر شرقا وبحيرة تشاد غربا ومن حدود مصر شمالا حتى خط عرض ١٣ شمال خط الاستواء .

ولقد كان قيام الامارات العربية الاسلامية فى السودان يمثل ظاهرة ازدهار للاسلام وانتشار حضارى اسلامى عربى وأن البلاد قـد بدأت تتجه للحياة الاسلامية العربية ، ولقد كان ظهور الحركة الاسلامية التى انبعثت فى سنار والتى أدت الى ظهور امارة الفونج والتى تعتبر حدثا بارزا فى تاريخ السودان فى مستهل القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى ومن المحتمل أن يكون الفونج قد عقدوا اتفاقا سابقا مع زعيم عرب العبدلاب هذا الزعيم العربى زعيم بلدة قرى الواقعة شمال خانق السبلوقة مباشرة بين الخرطوم وشندى .

وقد حقق التحالف الذى تم بين العبـدلاب والفونج القضـاء على مملكة علوة المسيحية قضاءا تاما واعلاء كلمة الاسلام وقد كانت دولة الفونج فى أوائل القرن السادس عشر ١٥٠٤م قوة نامية شاركت فى ازالة دولة علوة وشاركت العرب فى هذا الحدث البارز فى تاريخ السودان ، ومن هنا فان ظهور الفونج كقوة سياسية وعسكرية قد حدث قبـل ذلك التاريخ بوقت طويل .

وقد كان الفونج حكام سنار من أصول عربية أموية مع الاعتراف باختلاط أنسابهم عبر القرون بالأفريقيين وكان عرب العبدلاب القواسمة

قد نجحوا قبل القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى فى تأسيس عدة سلطنات ومشيخات عربية اسلامية فى حوض النيل الأوسط ، ومن هنا فان الشيخ عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة قام بدور كبير فى قيام مشيخة العبدلاب وسقوط علوة ٠

وأن الفونج كانوا أرستقراطية عربيــة ذات نسب أموى نزلت المنطقة الشرقية ونشرت الاسلام وتألفت حولها القلوب بحكم النسب الأموى العربى القرشى ثم اختلطت هذه الأرستقراطية بالعناصر المحلية عن طريق المصاهرة ، وقــد مضى نفوذ سلطان الفونج فى طريقه نحو الامتداد ، فمد الفونج نفوذهم الى فازوغلى على النيــل الأزرق بل أخضعوا الشلك وانفسح نفوذهم ممتدا الى جبال تقلى وجنوب كردفان، وقد شهد القرن الثانى عشر الهجرى ، الثامن عشر الميلادى امتداد رقعة السلطنة الفونجية على هذه الرقعة الواسعة من أرض السودان من البحر الأحمر حتى كردفان غربا ومن الشلال الثالث حتى فازوغلى جنوبا وخضع لها كل سكان تلك المنطقة الواقعة تحت نفوذهم ٠

ويعتبر عمارة دونقس مؤسس البيت الفونجى فى عاصمته سنار فى حوض النيل الأزرق ، وقد اتخذ السلطان عمارة عميد البيت السنارى لنفسه لقب دونقس وقد اتخذ غيره من السلاطين من بعده هذا اللقب ٠

وقد تتابع تولى أسرة عمارة على السلطنة من عام ١٥٠٤حتى١٧١٩م أى أكثر من قرنين من الزمان ثم جاء بعدها فى حكم سنار بيت عين الشمس من ١٧٢٠ الى ١٨٢١ عند قدوم القوات المصرية ٠

ولقد كان لقيام السلطنة الفونجية فى ســنار وتحالفهم مع عرب القواسمة أثره البعيد المدى فى النشاط الاسلامى فى السودان وتعميق الشعور الاسلامى ، ولقد كان لظهور سلطنة الفونج الاسلامية وغيرها من السلطنات الاسلامية أثره الكبير فى اتاحة الفرصة للعلماء وأصــحاب الدعوة الاسلامية للتوافد عليها ، ومن هنا ظهرت سلطنة الفونج منذ

فجر قيامها الأول قبل انتقالها الى سنار عام ١٥٣٤م فى مظهر اسلامى عميق • وقد ساهموا قبل وصولهم الى سنار فى حركة الجهاد الاسلامى فى شرق أفريقيا ، كما شاركوا فى الحركة الاسلامية فى الحبشة •

ومن هنا نرى أن الفونج ومن حالفهم من العرب قد أسهموا بنشاط كبير وواسع فى نشر الاسلام متوسلين بالجهاد المسلح فى نشر الاسلام بين الوثنيين واستعانوا كذلك بالوسائل السلمية حيث رغبوا فى الدين الاسلامى ونشروا تعاليمه وشجعوا قدوم العلماء من البلاد الاسلامية وارسال البعثات الى الأزهر ونشر الكتاتيب ومن هنا فانهم ساهموا فى اثراء تلك الحركة الاسلامية الكبيرة ، وكانت الوحدة السياسية بين الفونج والعبدلاب عرب القواسمه وغيرهم من القبائل العربية من الأسباب الجوهرية التى مهدت الطريق لنشر الدين الاسلامى والثقافة العربية الاسلامية •

ومن هنا كان قيام سلطنة الفونج فى السودان الشمالى وامتداده جنوبا حتى خط ١٣ جنوبا بداية حقيقية وطفرة قوية فى حركة الجهاد الاسلامى على نطاق واسع ، ذلك لأن بذور الدعوة الاسلامية قد وصلت الى السودان فى عهد مبكر •

كما شاركت فى ذلك البناء الاسلامى القوى الراسخ دولة الفور التى اتخذت من دارفور سلطنة لها ومن الفاشر عاصمة لها لكى تمارس نشاطها الدينى الواسع فى أطراف السودان الغربى للمشاركة فى اثراء الحركة الاسلامية التى بدأت تتخذ من السودان معقلا اسلاميا تنطلق منه الدعوة الاسلامية بين القبائل الوثنية جنوب وغرب السودان حيث الأقاليم الاستوائية •

وقد كانت منطقة دارفور ميدانا تقابلت فيه الهجرة العربية وغيرها كما تقابلت طرق القوافل التى كانت تلتقى فى أماكن عديدة من القارة الأفريقية ، ويبدو أن الهجرات التى جاءت الى دارفور من الشمال

والشمال الغربى قد شملت مجموعات كبيرة فى حوض وادى النيل الأدنى حيث يكون قد خرجت قبائل عربية من وطنها فى شمال أسوان ثم هاجروا الى دارفور ، حيث استطاعت هذه القبائل العربية أن تتغلب على القبائل التى كانت تسكن تلك المناطق ونشروا نفوذهم عليها بعـد أن تحالفوا فيما بينهم وامتزجوا بها وانشأوا دول الفور التى كان الاســلام قد تسرب اليها منذ فترة طويلة حيث ساهم الاسلام فى انصهار تلك القبائل التى كانت تسكن تلك الديار •

وقد كان السلطان أحمد المعقور هو ثمرة الاختلاط بين الجنسين ، وكان هذا السلطان أول سلاطين دارفور من المسلمين ، وكان الاسلام قــد دخل على نطاق واسع الى دارفور لأن ذلك السلطان كان أول سلطان مسلم يحكم البلاد وكان حكام الفور ، قد ادعوا النسب العربى القرشى حيث نسبوا أنفسهم الى العباس بن عبد المطلب ، وعندما وصل الى عرش البلاد السلطان سلميان سولون نجد أنه يذكر النسب العربى صراحة حيث كان هذا هو المؤسس الحقيقى لسلطنة دارفور •

وقد استطاع هذا السلطان العربى أن يحدث نقلة هامة فى تاريخ السودان حيث كان توليه عرش البلاد نقطة هامة فى كثرة الهجرات العربية الى دارفور والذين قدموا اليها منحدرين من وادى النيل وهى نفس الموجات العربية التى اندفعت نحو الجنوب وأسهمت فى تأسيس دولة الفونج ، فاننا نجد أن هناك موجات عربية أخرى اندفعت نحو الغرب فى اتجاه دارفور تحمل الدماء العربية والدين الاسلامى ، وقــد عملت تلك الأسرة على تدعيم ورسوخ الاسلام وتنشيط الحركة الاسلامية ومن هنا فان الدور الاسلامى الكبير الذى قام به سليمان سولون ، فى تشجيع وصول الفقهاء من الشرق ومصر وبلاد المغرب العربى والأندلس الى بلاده والدعوة لنشر الاسلام بين القبائل الوثنية وذلك للعمل على تعميق المفاهيم الاسلامية وقد حكم سليمان سولون فى الفترة من (٨٤٨ — ٨٨٠هـ) ١٤٤٠ — ١٤٧٦م •

ويذكر أرنولد توماس فى كتابه (الدعوة الى الاسلام) أن الاسلام لم ترسخ أقدامه ولم ينتشر على نطاق واسع وتصبح هناك رعية اسلامية كثيفة فى البلاد الواقعة بين كردفان شرقا وبحيرة تشاد غربا مثل دارفور ووداى وباجرمى الا فى القرن الثامن الهجرى ، السادس عشر الميلادى. وربما لا تكون تلك الأقوال تمثل الحقيقة التاريخية لما للأوربيين من نظرة الى الاسلام .

وقد ظهرت سلطنة الفور بهـذا المظهر الاسلامى ومن ثم بدأت تؤكد ذاتها كقوة دينية اسلامية وسياسية كبرى فى السودان وذلك منذ القرن الحادى عشر الهجرى ، السابع عشر الميلادى ، ومن هنا بدأت تمارس نفوذها وسيادتها على الأقاليم الغربيـة منها وكان أن بسطت نفوذها على كردفان حيث ضمت الى السلطنة الفورية .

وقد بلغت دارفور أقصى اتساع لها فى عهـد السلطان (محمد تيراب بن أحمد) ١١٨٠ ــ ١٢٠٢ هـ / ١٧٦٨ ــ ١٧٨٧ م ، اذ استطاع ذلك السلطان أن يوقع هزيمة قاسية بجيش العبدلاب ، وقد بلغت حدود الدولة أقصى اتساع لها فقد كان حدها من الشمال بئر النطـرون فى الصحراء الكبرى وفى الجنوب بحر الغزال وفى الشرق نهر النيل وفى الغرب واداى .

كما أن مكانتها الاســلامية قد ازدادت كقوة سياسية فى عهـد السلطان عبد الرحمن الرشيد بن أحمد ١٢٠٢ ــ ١٢١٧ هـ / ١٧٨٧ ــ ١٨٠٢ هـ فقد انتقل الى عاصمته الفاشر واتصـل بالسلطان العثمانى فى القسطنطينية واعترف بسيادته ومنحه لقب الرشيد ، ومن ثم خلصت البلاد من كل آثار العزلة وبدأت تمارس علاقاتها التجارية والسياسية والثقافية مع العديد من البلاد الاسلامية وقد كان هذا الاتصال اتصالا وثيقا ولذا فقد امتد نفوذ السلطنة الى واداى فى عهد السلطان محمد الفضل الذى هزم سلطان واداى وحمله أسيرا الى الفاشر . ولو قدر لهذه السلطنة أن تمارس نفوذها السياسى لتوسعت أكثر ولاستطاعت أن تنتزع كردفان وغيرها من المناطق المجاورة حيث كانت تملك جيشا استخدم الأسلحة الحديثة ولكن التوسع المصرى فى السودان وانتزاعه

دارفور فى آخر عام ١٨٧٥ م فى عهــد السلطان ابراهيم بن محمد بن حسن بن الفضل الذى قتله الزبير باشا قد ساعد على القضاء على البقية الباقية من نفوذ هذه السلطنة •

وقد شجع سلاطين هذه البــلاد الحركة العلمية الاسلامية بكافة السبل وأنشأوا المساجد واستقدموا العلماء والاغداق عليهم واحاطتهم بنوع من الرعاية والتكريم ، حيث كان النهج الاسلامى هو طريقهم منذ تولى عرش السلطنة السلطان « سليمان سولون » حتى عصر السلطان ابراهيم بن محمد بن حسن الفضل آخر سلاطين دارفور •

ومن هنا ساهمت سلطنة دارفور كما ساهمت سلطنة الفونج وامارة الكنوز وامارة العمرى فى اثراء الحركة العربية الاسلامية وفى طبع البلاد بالطابع العربى وفى نقل السودان تلك النقلة الاسلامية العربية بانتشار العقيدة الاسلامية واللسان العربى وبذلك قدر للسودان أن يقوم بدوره العربى الاسلامى فى القارة الافريقية •

كما شاركت كل هذه الامارات والسلطنات امارة تقلى الاسلامية التى كانت تقع فى المنطقة الواقعة غرب النيل الأبيض وجنوب كردفان وهى منطقة جبلية تتخللها الوديان ، وتشير الروايات الى أنه منذ القرن الثالث عشر الهجرى ، الثامن عشر الميلادى شهدت منطقة تقلى وفود بعض القبائل العربية التى كانت من قبائل الجعليين العربية والتى تنسب الى جد كبير اسمه ابراهيم الذى لقب بالجعل وتنسبه الروايات الى العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد استطاع أحد أبناء الأسرة الجعلية الذى تطلق عليه المراجع محمد الجعلى الوصول الى تقلى وتزوج ابنة زعيم تقلى حيث أنجب ابنا أطلقت عليه المصادر أبو جريدة وقد ورث هذا عرش تقلى ولذا يعتبر هو المؤسس لأسرة الجعليين فى تقلى بتولى (أبو جريدة بن محمد الجعلى) عرش السلطنة حيث عمل على نشر الدين الاسلامى على نطاق واسع نظرا للاستقرار المكثف للقبــائل العربية المهاجرة من الشمال ومن الغرب ومن الشرق حيث كانت تلك المنطقة منطقة التقاء القبــائل المهاجرة من الأطراف المختلفة وقد لعبت

سلطنة تقلى دورا كبيرا فى الميدان الاجتماعى والثقافى فى السودان ، ذلك لأن وسيلتها الى نشر الاســلام لم تكن بالدعوة والترحال ودعوة الناس الى الدخول فى دين الله أفواجا ، بل كان انتشار الاســلام يتم بالوسيلة الاجتماعية والتسرب السلمى عن طريق المصاهرة مع الشعوب المحلية ثم ادماج هذه الشعوب فى الدماء العربية الوافدة ، ثم اندماج هذه القبائل فى الحياة القبلية الجديدة ولقد كانت النتيجة الحتمية لهذا الاندماج الاجتماعى اعتناق جيــل المولدين دين الأمهات ودين القبيلة صاحبة النفوذ ، ثم ازداد التيار الاسلامى عمقا بمضى الزمن •

وكان اهتمام زعماء تقلى بنشر الاسلام سببا فى وصول العديد من الفقهاء والمتصوفة الى بلادهم ، وقد كانت هذه الزعامة التقلية فى موقع هام بالنسبة لسلطنة سنار وسلطنة الفور ، بعد أن بدأت سلطنة الفور فى ذلك الوقت فى الدخول فى منافسة سلطنة سنار فى التحكم فى الطرق التجارية ومحاولة اجتذاب التجارة الى الفاشر وقد خضعت تقلى لنفوذ سنار ، لكن بالرغم من ذلك دخلوا فى صلات ودية مع سلاطين دارفور ، وقد صارت تقلى تمارس أعمالها كدولة مستقلة فكانت تشارك فى ارسال المحمل الى الحجاز ولم تعارض سنار فى ذلك •

ويعتبر السلطان محمد بن قيلى أبو قرون (١٠٧٣ ــ ١١١٧ هـ / ١٦٦٨ ــ ١٧٠٢ م) من أقوى سلاطين البيت الحاكم اذ استطاع أن يؤسس عاصمته فى مدينة « نسى » التى بقيت عاصمة البيت الحاكم فترة طويلة من الزمن ومن هنا فان الطابع الاسلامى قد ساد أنحاء السلطنة لأن السلاطين عملوا على تطبيق الشريعة الاســلامية فى كل الأمور ، فكان أن شــد العــديد من العلماء والفقهاء والمتصوفة رحالهم الى تقلى ، كما أن السلاطين عملوا على دفع حركة المد الاسلامى •

وارتبطت تقلى بالعديد من الأقطار العربية والاسلامية المجاورة بعلاقات سياسية وثقافية واقتصادية وطيدة الا أن علاقاتها مع دارفور كانت أكثر مما مع غيرها من الدول والأقطار الأخرى نظــرا لحرص سلاطين دارفور على امتداد سلطانهم الى منطقة حوض النيل •

كما ارتبطت بعلاقات وثيقة مع مصر حيث الأزهر الشريف لكى يدرس أبناء تقلى العلوم الاسلامية ، الا أن أمرائها لم يصلوا الى المكانة التى احتلها سلاطين الفور والفونج •

وعند ما دخلت جيوش مصر الى السودان عام ١٨٢١ م استطاعت تلك القوات أن تقوض سلطان الفونج ومن ثم أرسل محمد على رسالة الى سلطان تقلى وهو السلطان « عمر بن أبو بكر » يدعوه فيها للاعتراف بسلطان مصر على بلاده تقلى ودخوله فى طاعتــه حرصا على سلامته وسلامة بلاده ، لكن السلطان رفض فأرسلت اليه حملة فى عام ١٨٢٧ م استطاعت أن تدخل العاصمة مما اضطر السلطان الى عقــد صلح مع السلطات المصرية واعترف بالسيادة المصرية بمقتضى معاهدة الصداقة •

وهكذ اشاركت سلطنة تقلى وغيرها من السلطنات الاسلامية الأخرى فى أن تجعل الاسلام والثقافة العربية فى بلاد السودان يحققان تقدما فعالا بفضل تلك الأدوار التى لعبتها هذه السلطنة بالمشاركة مع السلطنات الاسلامية الأخرى التى سبق أن عرضنا لها ، لأنها غيرت وجه السودان من الوثنية وشبه الوثنية الى الوجه العربى الاسلامى ، ومن هنا ظهر السودان بوجهه الاسلامى الخالص النقى الذى أصبح طابعه فى وسط القارة الافريقية •

ومن هنا فانه لا بد من الحديث عن القبائل العربية التى كونت البنية الأساسية للحياة العربية الاسلامية فى السودان ونقول لقد مرت هجرة القبائل العربية الى السودان بمراحل تشــبه فى بعض النواحى والوجوه نظائرها فى مصر ، وذلك لأن الهجرات العربية الخالصة أخذت تتدفق بصــفة مستمرة فى سهول السودان الواســعة ومن الثابت أن الهجرات العربية قد تمت منــذ عصور ساحقة فى القدم وقبل الفتــح الاسلامى لمصر بفترة طويلة •

ولقد كانت القبائل العربية الجعلية وفروعها وبطونها وعشائرها وقبائلها المتعددة قد انتشرت على ضفاف النيل فى المنطقة الواقعة بين

دنقلة شمالا والشلال السادس شمال الخرطوم جنوبا وهم مجموعة عدنانية الأصل وهى أكثر القبائل العربية نفوذا وكثرة عددية فى السودان يتصل نسبها الى سعد بن فضل بن عبد الله بن العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد دخلت هذه المجموعة العربية من الباب الشمالى حيث طاب لها المقام فى تلك المنطقة فيما بين دنقلة شمالا والخرطوم جنوبا •

وقد تفرعت منهم فروع منها الجوابرة ، والركابية الذين ينسبون الى نسل الحسين بن على بن أبى طالب وهم طالبيون كما أن هناك قبائل أخرى مثل الكواهلة والرشايدة تنسب أحيانا الى الجعليين •

كذلك توجد قبـائل الأشراف حيث الجعافرة وأيضـا الزيانية ، والطالبيون الذين يجتمعون الى ركاب بن غلام الله بن عائد ، والعباسيون تجمعهم قبائل الجعليين •

كما توجد قبيـلة السلمية التى تنسب الى أبى بكر الصديق حيث هى القبيلة الوحيدة الذين يسمون أنفسهم أحيـانا بالبكريين ، كذلك العمريون الذين دخلوا أيام عبد الرحمن بن عبد الله العمرى ، كما توجد أسرة سوار الذهب وهى أسرة ترجع نسبها من جهة أبيه الى العباس ومن جهة أمه الى الحسين بن على بن أبى طالب •

كما يوجد فى منطقة بوهين جمـاعة الفادنيـة ونسبهم الى محمد ابن الحنفية ، كذلك من قبائل قريش البطاحين ويلتقون فى نسبهم مـع الجعليين ومن القبائل التى تمت الى قريش قبيلة كنانة بن خزيمة •

كذلك توجد جهينة وفروعها فى البطون والعشائر والقبائل ، حيث كانوا يشكلون نسبة كبيرة فى جيش العمرى الذى قدم السودان فى القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، ثم تكاثروا وتحالفوا مع ربيعة ثم تنازعوا مع رفاعة • وجهينة قبائل قحطانية يشكلون ثلاث مجموعات فى السودان هى قبيلة رفاعة واللحويون والعوامرة والخوالد والشكرية •

وقد لعب فرع من رفاعة هم القواسمة الذين منهم عرب العبدلاب دورا فى السودان حيث هم الذين شاركوا بجهد عظيم مع الفونج فى القضاء على مملكة علوة •

وكذلك توجد مجموعة ثانية من جهينة شاركت بدور هام فى اثراء حركة العروبة والاســـلام فى السودان هم بنو حامد وبنو جرار ، الزيادية ، البرعة والشنابلة ، المعالية •

كذلك وجدت قبائل فزاره وهم فروع وبطون كثيرة منهم بنى شمخ وظالم ومسرة ومازن ، وشـــكم وســـعد ولوذان وغير ذلك وهم قبيلة قسيسية وربما لهم صلة ببنى هلال •

كما أن هناك بعض القبائل والفروع الأخرى التى تنتمى لجهينة وهى قبائل الدويحية ، السلمية والبقارة والمحاميد ، الكبابيش ، المغاربة ، والحمر •

ومن البقارة بنى سليم وقـد تآلف البقـــارة والكبابيش فى أحلاف تجمعت على فترات وتآلفت فى بطون عدة أهمها جذام وجهينة والهوارة وبنو هلال وأحلاف هؤلاء وأولئك بنى فزارة وسليم ولخم وبلى وغيرهم وبنو هلبة وكذلك بنو هبانة أو الهبانية والحيانية أو بنى حيان كذلك يضاف الى كل هذه البطون بطن آخر هم الثعالبة الذين يكونون جزء كبيرا من قبائل البقارة وكذلك المسيرية الذين هم أبناء بيت بنى ثعلبة بن فخد ابن طى •

والمسيرية هم المسيرية الزرق والمسيرية الحمر وكذلك أولاد حميـــد والخوازمة •

والكبابيش هم أبناء كبش بن حمـــد الأفزر بن عيسى بن شـــعبان ابن الأفزر بن ذبيان بن عبد الله الجهينى ومنها فروع وبطون وعشائر كثيرة منها أولاد سليمان وأولاد عقبة وكذلك بنو واصل وكذلك يوجد من الكبابيش بطن رابع هو بنو عطية أو العطوية •

كذلك تضم قبائل السودان قبائل العركيون الذين يسكنون فرع الجزيرة بين النيلين الأزرق والأبيض وعرك هذا بطن من بطون جهينة وأحلافهم ، ولقـد كان للعركيون دور كبير فى نشر الثقافة العربيـة الاسلامية فى السودان •

ثم اضافة الى هذه القبائل العربية يوجد الهلاليون الذين تفرعت منهم فروع وبطون وعشائر وقبائل ويظهر هؤلاء أكثر فى غرب السودان وهناك آراء تذكر أن الهلالين لهم أثر وسط قبائل البقارة •

وتوجد العديد من الجماعات العربية فى غرب السودان تنتسب الى الهلالين أو الى أبو زيد والذين منهم قبائل التنجور ، الفور ، الرزيقات ، وهلالية البرق ، الزيادية ، وغيرها من القبائل الأخرى التى تنتسب الى ذلك النسب الهلالى •

كذلك لعبت قبائل هواره دورها فى السودان أيضا بمشاركة القبائل السابقة وهوارة يطلق عليهم فى السودان الهواوير ، ويعيش جزء منهم فى الجزء الشمالى من السودان وكذلك فى شمال كردفان فى غرب وادى الملك الى صحراء بيوضة ، ومنهم نفر يعيش بالقرب من دنقلة ، وقسم آخر يقيم حاليا فى منطقة الأبيض فى كردفان حول خمس وأم دليكة وغيرها من الأماكن •

ولقد لعبت قبائل ربيعة أقدم الأدوار العربية فى تاريخ السودان حيث سكنوا أرض المعدن وكانوا ضمن من قدم فى القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى مع حملة عبد الرحمن بن عبد الله العمرى •

وقد انشق من ربيعة فرع بنى كنز الدولة الذى سكن شمال النوبة وكذلك الكواهلة ومن فروعهم الشنابلة والحسنات ، والكواهلة والعبابدة وكانوا من قبائل أرض المعدن وقد اخلطوا منذ القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى بالقبائل العربية التى كانت فى تلك المنطقة كالحدارية وغيرهم من أعقاب سبأ ومضر • وقد اتجهوا فى زمن متأخر نسبيا الى

جهات عطبرة وخور الفاشر وسنار وواصلت فروع منهم الهجرة فبلغت النيل الأبيض ثم كردفان ومنهم مجموعة تعيش فى جبال النوبة •

ويذكر أن قبائل الشايقية نسبت الى شايق الذى هو شقيق غانم جد الجعليين •

وتوجد قبائل الجوامعة والفديات حيث شاركوا الفونج فى توسعهم نحو كردفان •

ويعيش الشايقية على ضفتى النيل فى نهاية الشلال الرابع الى مصب وادى الملوك ، وقد دخلت السودان عن طريق سواكن ومصوع واتجهت غربا وجنوبا فى حوض نهو النيل وقد أصبح الشايقية قبيلة قوية ذات نفوذ وسلطان حيث استطاعوا أن يتحدوا سلطنة سنار وكذلك الفونج والعبدلاب وأنه لم يأتى القرن الثانى عشر الهجرى ، الثامن الميلادى الا وكان الشايقية قد تمردوا على التبعية لسلطنة سنار وتطلعوا للشهرة وكان ذلك أحد العوامل الحاسمة فى تاريخ السودان •

كذلك يضم السودان مجموعة من القبائل الموزعة بين فزارة والجعليين والذين منهم الرباطاب والجمعية والبديرية والعديات والبطاحين ، اضافة الى الهجرة الحديثة التى قام بها الرشايدة فى القرن التاسع عشر الميلادى الثالث عشر الهجرى والذين هاجروا من الحجاز وانتشروا فى منطقة ساحل البحر الأحمر الغربى •

وعلى هذا فانه يمكن القول أن القبائل العربية الكثيرة المنتشرة فى السودان حاليا سواء الأصول الكبيرة أو البطون أو الفروع والعشائر والقبيلة الصغيرة أمر لا يمكن حصره أو الالمام به بدقة وافية الا من خلال المهتمين بعلم الأجناس ودراسة الأنساب وذلك الأمر يحتاج الى دراسة مفصلة وواسعة قد لا يتسع لها هذا المجال نظرا لأن المجموعات التى ذكرناها ربما تكون قد لعبت دورا بارزا فى تاريخ الاسلام وانتشاره على نطاق واسع فى السودان وكذلك فى سبيل تعريب ذلك الوطن لكى

يكون السـودان حصن من حصون العروبة والاسـلام فى القـارة الأفريقية .

ولم يتسع النطاق فى تلك الدراسة لدارسة كل فرع وبطون وعشائر وبدنات كل قبيلة ، حيث أنه يوجـد مثـلا لقبيلة الجعليين ما يزيد عن خمسة عشر عشيرة رئيسية أخرى تنتمى للمجموعة الجعلية لم يرد ذكرها وهى التى تندرج تحت اسم القبائل العباسية .

اضافة الى العديد من الفروع والبطون للقبائل الأخرى كجهينة وربيعة والهلالية والأشراف القرشيون ولقد اختلطت كل هـذه القبائل العربية بالعناصر المحلية وكانت درجة الاختلاط من القوة والمتعة بحيث صار العرب يتخذون من القبائل التى يعاشرونها عونا وحليفا لهم على من يعاديهم من القبائل الأخرى ومن هنا قويت العروبة بتلاحمهم مع سكان السودان بتلك الصورة التى تدل على أن العرب استطاعوا حمل لواء العروبة والاسلام فى كل هذه المناطن التى انتشروا فيها .

ولقد ساهمت البيئة الاجتماعية خير اسهام فى تعميق حركة الهجرة العربية الى أنحاء عديدة فى السودان ولعل تغير البيئة الاجتماعيـة من خلال المصاهرة هو الذى أفاد القبائل العربية وشجعها على الانتشار وصولا الى المنـاطق الجنوبية حيث اختلطوا بالشلك والنوير والدنيكا والقبائل النيلية وسكان الغابات الاستوائية كما خالطوا سكان الجبال فى النوبة ، حيث كان النظام الاجتماعى قد ساعد على سرعة امتزاج العناصر العربية بالسودان وجعل العرب يملكون ناصية الأمور السياسية فى تلك البلاد .

وقد مكنهم ذلك التحكم السياسى والتفوق الاجتماعى أن يعملوا على انتشار الاسلام وانتشار الثقافة العربية الاسلامية الذى سـاهم الاسلام وحضارته وثقافته واللسان العربى وعلومه المختلفة على ظهور تلك الملامح الثقافية العربية التى شـاركت فيهـا كل العوامل لصبغ السودان بالصبغة العربية الاسلامية .

ومن هنا ظهرت الثقافة العربية الاسلامية بصفة عامة على أثر تلك الهجرات العربية وحركة القبائل العربية المختلفة خلال العصور التاريخية المتلاحقة ، ولا جدال فى أن الهجرات العربية التى حدثت قبل الاسلام لم تكن بتلك الصورة والفاعليـة التى حدثت بعـد ظهور أنوار الدعوة الاسلامية ، ذلك لأن تلك التأثيرات الحضارية والثقافية العربية الى أرض السودان قبل الاسلام قد اندثرت بظهور الاسلام •

ولقد كان الهجرة الواسعة التى لا تزال أثارها الثقافية العربيـة الاسلامية خالدة فى الســودان قـد نتجت عن اختلاط العرب بالسكان المحليين اختلاطا كاملا اكتسبوا من خلاله العروبة والثقافة ذلك لأن هذا الاختلاط هو الذى وسع من مفهوم العروبة على أرض السودان وساعد على انتشارها فى المناطق الجنوبية والذين تفهموا ثقافتها وشعروا أنهم جزء من حضارتها لولا الأعمال التبشيرية والاستعمارية التى حالت دون ذلك الاندماج والتفهم والانصهار لا سيما فى منطقة الجنوب التى حالت القوى الاستعمارية دون نشر الاسلام واللغة العربية بها •

ولقد لعبت تلك القبائل التى عرضنا لها فى الفصل السادس دورا كبيرا فى نشر الاسلام والنفوذ فى أرض السودان الا أنه بمرور الزمن بدأت الصبغة العربية تأخـذ مجراها فى صبغ السودان بتلك الصبغة الثقافية الاسلامية •

ومن هنا اختلطت المؤثرات الاسلامية بالمؤثرات المحلية وظهر طابع محلى من ألوان الحضارة الاسلامية حيث كان انتشار الاسلام بين هذه الشعوب ايذانا ببروزها فجأة فى دنيا الاسلام وايذانا باتخاذها مظهرا اسلاميا واضحا وذلك بعد انتشار هذه الهجرات العربية الخالصة • التى اختلطت بالسكان المحليين ونشرت فى السودان اللغة العربيـة والدم العربى والدين الاسلامى والثقافة العربية وطبعت الســودان بالطابع العربى الواضح والمؤثر والفعال •

وقد كان لهـذا الدور أثره فى ظهور مآثر الحضارة الاسلامية ، على أنه لم تكن القبائل العربية الاسلامية وحدها هى الرائدة فى نشر الثقافة العربية الاسلامية فى السودان ، بل كان قد وفد الى البلاد قوم من العرب من بقايا الجيوش المحاربة الهاربين من الضغط السياسى أو من الدعاة الذين كان لهم الفضل فى نشر التعاليم الاسلامية التى ذاعت فى السودان ، بل وصلت حتى المديريات الجنوبية الاستوائية ، وفى تعميق مفاهيمها الاسلامية •

وقد كانت هذه الثقافة التى يشهدها السودان ثقافة عربية اسلامية خالصة فى جوهرها ومظهرها ومقوماتها الأساسية لأنه لم تداخلها أية مظاهر سودانية على الاطلاق ، ذلك لأن أرض السودان لم تشهد ثقافة قديمة ذات جذور حضارية عميقة تستطيع أن تؤثر فى الثقافة الوافدة •

ومن هنا فان الثقافة العربية الاسلامية لم تتأثر بأية تقاليد محلية انما بدأت اسلامية عربية خالصة لم تخالطها أدنى ثقافة الا بعض العادات والتقاليد والأعراف التى هذبها الاسلام وتخلص مما فيها مما لا يمت للاسلام بصلة حيث كانت ذات أبعاد وثنية وشبه وثنية •

وان كانت هناك بعض الآراء تذكر أن اللغة العربية قد دخلتها بعض المؤثرات من اللغات المحلية من النوبنية والكردفانية والفورية والبجاوية والنيلية الا أن ذلك كان من القلة وليس من الكثرة بحيث ضاع أثره •

وليس هناك شك فى أن التآلف الروحى الذى ولدته وحدة الشعائر الاسلامية بين جميع هذه الشعوب التى سكنت تلك الأماكن لها أثر بعيد فى حياة الشعب السودانى •

وقد ساهمت مصر بدور فعال فى الحركة الثقافية العربية الاسلامية حيث كان لمصر قد اكتمل نضجها الثقافى والحضارى حيث شهد القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى حركة ثقافية وفكرية وعلمية وحضارية كانت مصر فى ذلك القرن هى الموجه لحركة التيار الفكرى الاسلامى على مستوى العالم الاسلامى أجمع ومن هنا كان على السودان

أن يستفيد من كل هذه الظروف المعاصرة والسائدة من جارته فى الشمال والتى أمدته بالجزء الأعظم من مؤثرات الحضارة العربية الاسلامية ٠

ولقد سادت المؤثرات العربية الاسلامية السودان على نطاق واسع استجابة لظهور السلطنات الاسلامية والامارات التى ظهرت فى السودان والتى أشرنا اليها فى الباب الخامس من ذلك البحث ٠

وقد كان اتصال سلاطين وأمراء تلك السلطنات المختلفة فى العالم العربى الاسلامى وبصفة خاصة بمصر حيث الأزهر الشريف من العوامل الهامة التى ساعدت على ظهور الملامح الثقافية العربية الاسلامية وكانت هناك عدة مصادر أو مغذيات غذت السودان بتلك المؤثرات العلميـــة والفقهية والصوفية الاسلامية والتى تفاعلت جميعها بكل عطائاتها لكى يكون ذلك التراث الاسلامى المؤثر فى الحركة الثقافية والاسلامية ٠

ولقد كان النبع المصرى الاسلامى يشكل حجر الزاوية فى حركة التطور الاسلامى ، ان لم يكن العمود الفقرى لهذا التطور الاسلامى والثقافى والحضارى ، اذ نجد سلاطين الفونج والفور ومشايخ العبدلاب وتقلى قد اتصلوا برجال الأزهر وعلمائه وأرسلوا طلابهم للتزود من ذلك الزاد الفكرى والعلمى الذى يعب منه طلاب العالم الاسلامى ، ثم عاد هؤلاء الطلاب بعد أن نالوا درجة الاجازة كل فى تخصصه لكى يغير هذا وجه التعليم والثقافة على أسس علمية صحيحة وكذلك رحل العديد من العلماء المصريين الى السودان حيث طاب لهم المقام بين اخوانهم فى جنوب السودان وبذلك يمكن القول أن مصر وعلمائها ومعاهدها هى التى غرست البذرة الأولى للثقافة العربية الاسلامية حيث كان القسم الشمالى من الوادى له كل المؤثرات الفكرية الاسلامية حيث ساهم الأزهر بدور لا ينكره أحد حيث أفرد أروقة لأبناء السودان كرواق سنار ودارفور ، ومن هنا استمرت هـــذه الصلات متصلة غير منقطعة طوال العصـــور التاريخية منذ العصر الاسلامى حتى عصرنا الحاضر ٠

ومن هنا فقد ساهمت مصر فى اثراء الحركة الاسلامية الثقافيـــة مساهمة فعالة فى بذر بذور هذه الثقافة ومتابعة نموها واشتداد عودها

حتى استطاعت أن تصبغ السودان بالصبغة العربية الاسلامية ليساهم السودان بدوره فى القارة الافريقية .

وكما اتصل السودان بمصر فان اتصاله بالحجاز كان أوثق من الناحية الدينية نظرا لوجود الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينـة المنورة حيث كان السـودانين يرحلون الى هـذه الأماكن وذلك للحج والزيارة وكذلك للعلاقات الاقتصادية ، حيث ساعد ذلك على ازدياد الروابط العلمية والثقافية ، ذلك لأن الحجاز يعد من أهم مجارى الثقافة العربية الدينية فى السودان .

وقد كان لدور الحجاز فى عصر الفونج والفور وتقلى أبعد الأثر وأشدها خطرا فى الحياة الدينية الثقافية وخاصة الطرق الصوفية ، كذلك رحل العديد من علماء السودان الى الحجاز لأداء فريضة الحج بالاضافة الى عملهم على تلقى العلم على يد رجال الدين والفقهاء فى مكة والمدينة ثم العودة الى السودان ،بل أن العديد من علماء الاسلام الحجازين ومختلف الجنسيا تالاسلامية قد رحلوا الى السودان صحبة بعض حجاج السودان الذين كانوا يحاولون اقناع هؤلاء العلماء الذين يتواجدون فى مكة المكرمة أو المدينة المنورة بالرحيل الى السودان وذلك عملا على نشر الدعوة الاسلامية بين قبائل تلك المناطق حيث كانت قبائل كثيرة لا تزال على الوثنية ولم تعرف طريقها للاسلام اضافة الى تعميق المفاهيم الاسلامية والقا ءالدروس فى العلوم الاسلامية والقيام بتحفيظ القرآن الكريم .

ولقد وفد رجال الطرق الصوفية من الحجاز الى السودان حيث اتخذوا هذه الطرق أسلوبا لنشر الدعوة الاسلامية حيث ساهمت بدورها فى نشر الاسلام على نطاق واسع .

كذلك ساهمت بلاد المغرب العربى وبلاد غرب القارة الأفريقيـة (برنور كانم ــ مال سنغى) بدور مشارك مع مصر والحجاز فى اثراء الحركة الثقافية فى السودان لا سيما بعد رحيل العديد من العلماء المغاربة

والأندلسيين من غرب افريقيا لا سيما فى الجزء الغربى من السودان حيث كردفان ودارفور وهكذا أدت الاتصالات والاحتكاكات الثقافية الى رحيل العلماء ورجال الدين والدعاة والحجاج من بلاد المغرب العربى بعد نكسة الأندلس الى دارفور وكردفان •

وهكذا ساهمت الموجة الجنوبية القادمة عبر بلاد وسط وغرب القارة الأفريقية فى اثراء الحركة الاسلامية ، اضافة الى ما لعبه الدور الحجازى نظرا للرباط الروحى الذى شد أبناء السودان الى تلك المناطق وكل ذلك ساعد على تعميق المفاهيم والعلوم الاسلامية •

كذلك لعب جنوب الجزيرة العربية حيث اليمن وحضرموت بما شارك فيه بعض العلماء فى ذلك الجزء من الوطن الاسلامى فى اثراء الحركة الثقافية فى السودان ، حيث قدم من اليمن فى القرن الثامن الهجرى • الرابع عشر الميلادى الشيخ (غلام الله بن عائد اليمنى) الذى قام بتدريس العلوم الاسلامية وتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علوم اللغة العربية وبناء المساجد التى كانت تتخذ كأماكن للعبادة ونشر العلوم الاسلامية وتحفيظ القرآن الكريم ، حيث طاب الاستقرار له ولبعض العلماء العديدين الذين قدموا فيما بعد من حضرموت صحبة بعضهم البعض أو بعض القوافل التجارية أو الحجاج وقد يكون الدور الذى تركه علماء جنوب الجزيرة العربية فى السودان دور محدود لا يصل الى نفس الأدوار الذى لعبته المصادر والمنابع الأخرى التى غذت السودان بالغذاء الروحى والفكرى الاسلامى •

وان كان ذلك لا ينكر دور القبائل العربية المهاجرة لأن المنابع العلمية والفقهية والصوفية كانت تأتى دائما من خارج السودان أو على الأقل قبل أن تتكون الطبقة العلمية السودانية •

كذلك شارك علماء الخلافة العباسية أو ما يمكن أن يطلق عليهم تجاوزا علماء الطرق البغدادين تلك المنابع السابقة فى اثراء الحركة العلمية والفكرية والصوفية فى السودان نظرا لقدوم بعض العلماء من

تلك الديار لا سيما الشيخ تاج الدين البهارى البغـدادى الذى أدخل الطريقة الصوفية القادرية الى السودان وكان لهذه الطريقة دورها فى نشر الاسلام فى السودان حيث تكاثر عدد مريديها وأقطابها وازداد عدد من أخذو تعاليم الطريقة القادرية .

وكما ساهمت تلك المنابع فى ظهور الحركة الاسلامية الثقافية ، فان أهل دارفور اتصلوا بتونس وذهب كثيرا من طلابها الى كانو فى بلاد الهوسا وتمبكتو فى سنغاى .

واتصلت كل السلطنات والامارات الاسلامية بمراكز العلم فى العالم الاسلامى . ومن هنا فان كل هذه العوامل قد أثرت فى طبيعـة الحياة الثقافية والعلمية والصوفية فى السودان .

واذا كان قد قدر للثقافة الاسلامية فى السودان أن تنمو وتزدهر فان الفضل فى ذلك يرجع الى قيام العلماء الذين دخلوا الى السودان والى طلاب السودان الذين رحلوا الى مصادر العلم والثقافة فى العالم الاسلامى حيث قامت على أكتافهم معالم تلك الحضارة والثقافة العربية الاسلامية .

كما قامت كل من سنار والدامر والفاشر وديار الشايقية وغيرها من القبائل المنتشرة فى السودان بدور فى تدريس العلوم الاسلامية والثقافة العربية ، كما شارك الجعليين ، الشايقية فى القيام بدور عظيم فى تلك الأدوار الثقافية حيث ظهرت المراكز الاسلامية الثقافية السودانية مما جعل مدينة مكدينة الدامر مثـلا تكون هى كعبة الجعليين للثقـافة العربية الاسلامية .

ومن هنا ظهرت تلك الثقافة العربية الاسلامية وازدهرت ومن ثم بدأت تؤتى ثمارها فى عصر أسرة الفونج والفور وتقلى ، حيث تعتبر هذه السلطنات من أهم الفترات الثقافية الاسلامية فى السودان .

ومن ثم أخذت دراسة العلوم الاسلامية والعربية تأخذ طابعها العلمى فى أرض السودان حيث أقبل الشعب السودانى على دراسة علوم القرآن الكريم والتفسير والفقه والحديث والتصوف الذى ظهر فى السودان الى جانب العلوم النقلية والعقلية •

وهكذا ظهرت الحركة العلمية المزدهرة وظهرت المعاهد العلمية السودانية والكتاتيب وازدادت سمعة العلماء السودانيين حيث وفد الطلاب مثلا من غرب افريقيا ودارفور وكردفان وسنار الى مدينة الدامر ، وكيف توافد العلماء ورجال الدين الى تلك المدينة ، حيث أخذ رجال الدين يشرحون للناس أمور دينهم وأصولها مبينين لهم ما يتعارض مع الشريعة الاسلامية بما ورثوه من عادات وتقاليد وثنية وشبه وثنية •

ولقد كان هؤلاء الدعاة ورجال الدين والفقهاء والذين قدموا من مصر والحجاز والمغرب والعراق وبلاد غرب افريقيا خليطا من الفقهاء والمتصوفة ، الا أن الطابع العلمى كان هو الغالب على الوافدين من مصر، بينما طابع الحجاز كان يغلب عليه طابع الصوفية وقد ساعد المغرب فى اثراء كل من الأثرين السابقين •

كذلك شاركت مدينة الفاشر بعد أن أصبحت العاصمة والمركز الثقافى الاسلامى فى غرب السودان المدن السابقة بحيث لا يقل دورها عن دور سنار ودنقلة والدامر •

وكان المسجد والكتاب والمدرسة والخلوة من المراكز الاسلامية العلمية والثقافية التى لعبت دورها فى اثراء الحركة العلمية الاسلامية ، حيث كان التعليم فى هذه المراكز التعليمية يتم أولا عن طريق تحفيظ القرآن الكريم وكان الفقه وعلومه هى المادة التى تلى القرآن الكريم فى الأهمية ثم يلى الفقه علم الفرائض أو علم التوحيد •

وقد كان التصوف شائعا علما وعملا فى السودان وكان معظم العلماء صوفية وللصوفية أدب خاص وأوراد ومن أجل ذلك كانت دروس

الصوفية تعلم وتلقن مع العلوم الأخرى فى المساجد والخلاوى فقد انتشرت الطرق الصوفية فى السودان كله من ذلك العهد حيث عملت تلك الطرق على التقرب بين القبائل والأجناس .

ولقد كان لشيوع هذه الثقافة الصوفية وغلبتها على كل العلوم أبعد الأثر فى مستقبل الثقافة الدينة فى السودان ، ذلك لأن هؤلاء المتصوفة قد أولوا عناية شديدة لما يسمى بعلم الباطن وكانوا يعتقدون أنه هو العلم الحقيقى وفى نفس الوقت فان عنايتهم بعلم الظاهر لم تكن شديدة .

وفى واقع الأمر فان الثقافة الدينية العلمية قد استهوت قلة من السودانيين ، بل ان الأغلبية قد انخرط فى سلك الصوفية .

وفى تاريخ الحركة الاسلامية الثقافية فى السودان نجد أن عدد كبير من الفقهاء قد جمعوا بين علمى الظاهر والباطن وصاروا من مؤيدى الطرق الصوفية وبهذا التلاقح وضعت النواة الأولى للخصائص المميزة للثقافة الدينية فى السودان وقد خضع انتشار الاسلام فى السودان خضوعا كاملا للجو الصوفى والمنتشر فى العالم الاسلامى بعد أن كتب له النصر فى صراعه الطويل مع أهل السنة .

كذلك بجانب الدراسات الاسلامية العلمية وانتشار الطرق الصوفية نشطت حركة الدراسات العربية والأدبية ، حيث ظهر علماء الدراسات العربية اللغوية ، الذين كان لهم شأن كبير فى نشر علوم اللغة كالنحو والصرف والبلاغة والعروض وعلوم البيان والمنطق والذينكانوا يدرسون هذه العلوم اللغوية وغيرها من العلوم ذات الصلة الوثيقة باللغة العربية بجانب العلوم الاسلامية ومن هنا كانت الدراسات اللغوية والأدبية وثيقة الصلة بالدراسات الاسلامية وعلوم الدين مما ساعد على تهيئة المناخ المناسب والملائم لانتشار الثقافة العربية الاسلامية فى شتى الفروع والعلوم المختلفة .

لذا فاننا نجد أن دراسة علوم الأدب واللغة والتاريخ نشأت فى السودان كما نشأت فى البلاد الاسلامية الأخرى بالدرجة الأولى على أيدى رجال الدين حيث بفضلهم انتشرت هذه العلوم .

كذلك فان الثقافة العربية الاسلامية قد وصلت الى جنوب السودان ذلك لأن الصلة الطبيعية التى فرضتها ظروف بعض القبائل مثل البقارة الذين يتصلون اتصالا وثيقا بالقبائل النيلية أثرها فى بث بعض المؤثرات العربية فى داخل بيئة الغابة وكذلك اتصال قبائل بنى سـليم بالشلك خاصة عند مدينة كاكا اذ لهم الفضل فى نشر الثقافة العربية الاسلامية غربى النيل الأبيض الى مدى أبعد مما بلغته شرق ذلك النهر كذلك اتصال عرب الرزيقات بقبائل الدنكا عند بحر العرب .

كذلك ترك التجار العرب آثارهم الثقافيـة الاسـلامية فى جنوبى السودان بحيث أتيح لهؤلاء التجار العرب وأبنـاء السودان الشمالى الاختلاط المباشر بهذه العناصر الزنجية بل والاستقرار والتوطن والانصهار بالزواج من الزنجيات .

وقد نتج عن ذلك الاختلاط صبغ بعض المجموعات بالصبغة العربية الاسلامية وكذلك تم التأثير الاسلامى الثقافى فى المرتفعات جنوبى دارفور .

ومن هنا فقد تركت الحياة الثقافية العربيـة الاسلامية بصماتها الواضحة فى كل أنحاء السودان فى الجبال والوديان والغابات الاستوائية وكل المناطق كان التأثير الاسلامى الثقافى واضحا كل الوضوح بحيث أصبح أهالى تلك المناطق يتحدثون اللغة العربية بطلاقة ، بل أن حياتهم تأثرت بالحياة العربية الاسلامية فى انتشار الثقافة والعلوم الاسلامية واللغة العربية بحيث أصبحت صورة مماثلة للقوى الاسلامية الثقافية فى شمال السودان .

وعلى هذا الأساس فقد عمت العلوم العربية الاسلامية كل أرجاء السودان الواسعة وذلك للدور الهام الذى قامت به فئات المتعلمين من

أبناء الشعب السودانى حيث تمثلت جوانب العلوم العربية الاسلامية وذلك دليل قوى على وجود حياة علمية اسلامية سودانية راقية •

وأنه لولا أعمال القوى الاستعمارية والتبشيرية فى جنوب السودان لكانت الثقافة العربية الاسلامية قد تركت مؤثراتها القوية والفعالة فى تلك الربوع الجنوبية •

ولكن المخططات الاستعمارية والتبشيرية حالت دون المد الاسلامى ولغته العربية بحيث كان له الغلبة فى ذلك المضمار •

ومن ذلك ارتفعت صيحة تنادى بنشر اللغة العربية صاحبة الثقافة العربية الاسلامية فى جنوب السودان لكى يكون لها دورها فى وحـدة السودان الشاملة وللقضاء على كل مخلفات الآثار الاستعمارية ، ذلك لأن تعميق تلك المفاهيم العربية صاحبة الثقافة الاسلامية انما يعود بالدرجة الأولى فى تأثيره على أن يحيا الفكر والأدب والثقافة فى هـذه البلاد بأقاليمها المتعددة ، الا من خلال احياء اللغة العربية لغة القرآن الكريم • ونشر هذه اللغة يؤدى الى دراسة القرآن الكريم ومن ثم انتشار المفاهيم والمعايير العربية الاسلامية التى تكسب السودان جميعه ذلك الوجه العربى الاسلامى فى قلب القارة الأفريقية •

المصـــادر والمراجـــع



المصادر والمراجع

(١) المصـــــادر :

١ — النويرى ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب الكنـــدى المصرى ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م.

نهاية الارب فى فنون الأدب ، مخطوط مصور ، بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

٢ — ابن بطوطة ، ابو عبد الله محمد عبد الله : تحفة النظـــار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ٢ جزء ، القاهرة ، ١٩٣٨ .

٣ — ابن جبير ، ابو الحسن محمد بن جبير الكنانى ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م : رحلة ابن جبير ، بيروت ، ١٩٥٩ .

٤ — ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : العبرودبوان المبتدا والخبر ، القاهرة ، ١٢٨٤ هـ .

٥ — ابن شداد ، القاضى بهـــاء الدين ت : ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م النــوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة ، ١٣١٧ هـ .

٦ — اليلوى ، ابو محمد عبد الله اليلوى : سيرة احمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، دمشق ، ١٩٣٩ م .

٧ — ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ٤ اجزاء ، القاهرة ، ١٣١٤ هـ .

٨ — ابن عبد الظاهر : محيى الدين ابو محمد بن عبد الظاهر ، ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م ، الألطاف الخفية فى السيرة الشريفة السلطانية الملكيـــة الأشرفية ، ليبزج ، ١٩٠٢م .

٩ ــ ابو شامة : شهاب الدين بن اسماعيل الشافعى ، ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٨م كتــاب الروضين فى اخبــار الدولتين ، تحقيق محمد حلمى محمد ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

١٠ــ المسعودى : ابو الحسن بن على ت ٣٤٦هـ ، التنبيه والشراف ، ليدن ، ١٨٩٤ م .

١١ــ محمد ود ضيف الله محمد الجعلى : كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء الصالحين والشعراء فى السودان ، القاهرة ، ١٢٢٤ هـ .

١٢ــ المقريزى : تقى الدين بن على المقريزى ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، القاهرة ، ١٢٧ .

١٣ــ المقريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

١٤ــ المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ م .

١٥ــ كاتب الشونة ، احمد بن الحاج ابو على : مخطوط كاتب الشونة فى السلطنة والادارة المصرية ، تحقيق الشاطر بصيلى عبد الجليل .

١٦ــ ابن عبد الحكم : كتاب فتوح مصر واخبارها ، ليدن ، ١٩٢٠ م .

١٧ــ البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٣٨ م .

١٨ــ ابن تعرى بردى ، ابو المحاسن يوسف : النجوم الزاهرة فى تاريخ ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٣٠ م .

١٩ــ التونسى ، محمد بن عمــر : تشحيذ الأذهان بســـيرة بلاد العرب والسودان ، تحقيق خليل عساكر ، مصطفى مسعد ، القــاهرة ، ١٩٥٦ م .

٢٠ــ السيوطى : حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ٢ جزء ، القاهرة ١٩٥٩ م .

٢١— ابن حوقل : صورة الأرض ، ليدن ، ١٩٣٨ م .

٢٢— الادريسى : المغرب واض السودان ومصر والأندلس ، ليدن ، ١٨٩٦ م

٢٣— اليعقوبى ، احمد : كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩٢م .

(٢) المراجع العربية :

١ — احمد لطفى السيد : قبائل العرب فى مصر ، القاهرة ، ١٩٣٥م .

٢ — احمد سويلم العمرى : الافريقيون والعرب ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

٣ — احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ ٦ ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .

٤ — أبو العلا عفيفى : التصوف الثورة الروحية فى الاسلام ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

٥ — احمد عبد الرحيم نصر : تاريخ العبدلاب ، الخرطوم ، ١٩٦٩ م .

٦ — ابراهيم صالح بن يونس : تاريخ الاسلام وحياة العرب فى امبراطورية كانم — بونو — الخرطوم ، ١٩٧٠ م .

٧ — ابراهيم النعمة : الاسلام فى افريقيا الوسطى ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .

٨ — انعام الله خان : تقويم العالم الاسلامى ، كراتشى ، ١٩٦٤ م .

٩ — السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى افريقيا ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

١٠— جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

١١— جمال الدين الرمادى : دراسات فى الأدب السودانى ، القاهرة ، د.ت

١٢— جميل عبيد : المديرية الاستوائية ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

١٣ـ حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ، القاهرة ، ١٩٨٤ م .

١٤ـ حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

١٥ـ الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

١٦ـ الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ السودان ووادى النيل ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .

١٧ـ شوقى عطا الله الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل ، ٢ جزء ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .

١٨ـ شوقى عطا الله الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .

١٩ـ عباس مصطفى عمار : المدخل الشرقى لمصر ، القاهرة ، ١٩٤٦ م .

٢٠ـ عباس مصطفى عمار : وحدة وادى النيل ، القاهرة ١٩٤٧ م .

٢١ـ عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق افريقيا ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

٢٢ـ عبد العزيز عبز المجيد : التربية فى السودان ، القاهرة ، ١٩٤٩ م .

٢٣ـ عبد الحميد يونس : الهلالية فى الأدب الشعبى والتاريخ ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .

٢٤ـ عبد المجيد عابدين : قبائل من السودان الأوسط والسودان الغربى ، الخرطوم ، ١٩٧٢ م .

٢٥ـ عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .

٢٦– عبد المجيد عابدين : صور من وحدة الفكر فى افريقيا ، القـاهرة ، ١٩٧٠ م .

٢٧– عبده بدوى : مدن افريقية ، القاهرة ، د.ت .

٢٨– عبده بدوى : السود والحضـارة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

٢٩– عبد الله حسين : السودان فى التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٥ م .

٣٠– عوض عبد الهادى العطا : تاريخ كردفان السياسى فى المهـدية ، الخرطوم ، ١٩٧٣ م .

٣١– سعيد عبد الفتـاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سـلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

٣٢– محمد ابراهيم ابو سليم : تاريخ الخرطوم ، بيروت ، ١٩٧٩ م .

٣٣– محمد سليمان : دور الأزهر فى السودان ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .

٣٤– محمد عبد العزيز اسحق : نهضة افريقيا ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

٣٥– محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، سكانه وقبائله ، القاهرة ، ١٩٥١ م .

٣٦– محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات البشرية ، القـاهرة ، ١٩٦٥ م

٣٧– محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

٣٨– محمد عبد الغنى سعودى : الاتصالات العربية الافريقية فى العصور القديمة (فصل) معهد البحوث العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ م .

٣٩– محمد فوزى مصطفى عبد الرحمن : الثقافة العربية وأثرها فى تماسك الوحدة القومية فى السودان المعاصر ، الخرطوم ، ١٩٧٢ م .

٤٠ــ محمد محمد امين : تطور العلاقات العربية الافريقيـــة فى العصور الوسطى (فصل) معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨ م ٠

٤١ــ محمد محمود الصياد ، محمد عبد الغنى سعودى : السودان ، دراسة فى الوضع الكيانى البشرى والبناء الاقتصـــادى ، القاهرة ، ١٩٦٦م٠

٤٢ــ زاهر رياض : مصر وافريقيا ، القاهرة ، ١٩٧٦ م ٠

٤٣ــ مصطفى محمد سعد : الاســـلام والنـــوبة فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٠ م ٠

٤٤ــ مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ٠

٤٥ــ مكى شبيكة : مملكة الفونج الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م ٠

٤٦ــ مكى شبيكة : السودان عبر قرن ، الخرطوم ، ١٩٦٤ م ٠

٤٧ــ زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى افريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ٠

٤٨ــ نعوم شعير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، القاهرة ، ١٩٥٦ م ٠

٤٩ــ يوسف فضل حسن : مقدمة فى تاريخ الممالك الاسلامية فى السودان ، القاهرة ، ١٩٧١ م ٠

(٣) المراجع العربية (المترجمة) :

١ — ارنولد ، توماس : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

٢ — بوركهـــارت : جون لويس : رحـــلات بوركهارت فى بلاد النـــوبة والسودان ، ترجمة فؤاد اندراوس ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .

٣ — ديشان هوبير : الديانات فى افريقيا السوداء ، ترجمة أحمد صادق حمدى ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .

٤ — ستودارد ، لوشروب ، حاضر العالم الاسلامى ، تعليق شكيب ارسلان ترجمة ، عجاج بويهص ، القاهرة ، ١٩٤٣م .

٥ — رولاند ، اوليفر ، جون فيـــج : موجز تاريخ افريقيا ، ترجمة دولت صادق ، ١٩٦٥ م .

٦ — جوليان ، شارل اندريه : تاريخ افريقيـــا ، ترجمة طلعت اباظة ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

٧ — ترمنجهام ، س.ج : الاسلام فى شرق افريقيا : ترجمة محمد عاطف النواوى ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

٨ — الحسن الوزان : وصف افريقيا ، ترجمـــة عبد الرحمن حميـــدة ، الرياض ، ١٣٩٨ هـ .

٩ — محمد عمر بشير : جنوب السودان ، ترجمة اسعد حليم ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

(٤) الدوريات :

١ — زاهر رياض : اتجاهات مصر الافريقية فى العصور الوسطى ، مجلة كلية آداب القاهرة ، مايو ١٩٥٨ م ٠

٢ — شريف محمد شريف : توطن العناصر الافريقية الغربية فى السودان ، مجلة كلية آداب القاهرة ، ديسمبر ١٩٦٢ م ٠

٣ — شريف محمد شريف : مدينـــة عطبرة بالسودان ، مجلة الدراسات الافريقية ، القاهرة ١٩٧٨ م ٠

٤ — محمد محمد أمين : العبدلاب وسقوط مملكة علوة ، مجلة الدراسات الافريقية ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ٠

٥ — مصطفى محمد سعد : البجة والعرب فى العصور الوسطى ، مجلة آداب القاهرة ، ١٩٦٧ ، عدد ١٣ ٠

٦ — مصطفى محمد سعد : سلطنة دارفور ، المجلة التاريخية المصرية ، عدد ٢١ ، القاهرة ١٩٦٣ م ٠

٧ — يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية للهجرة العربية الى السودان ، المجلة التاريخية المصرية ، عدد ١٣ ، القاهرة ١٩٦٧ م ٠

٨ — عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الهجرات العربية حول بحيرة تشاد ، مجلة العرب ، الرياض ، شوال ١٣٩٨ هـ ٠

(٥) **الرسائل الجامعية :**

١ — حسن محمد الفاتح قريب الله : التصوف فى السودان الى نهاية عصر الفونج ، ماجستير ، كلية الآداب جامعة الخرطوم ، ١٩٦٥ م .

٢ — راجية محمد عفت : الثقافة العربية فى شرق افريقيا : دكتوراه ، معهد الدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، د.ت .

٣ — زين العابدين السراج : دولة كانم الاسلامية ، ماجستير ، كلية آداب القاهرة ، ١٩٧٥ م .

٤ — أبو بكر على : الثقافة العربية فى نيجيريا ، دكتوراه ، كلية الآداب — جامعة القاهرة ، ١٩٦٨ م .

٥ — سر الختم عثمان : العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى ، ماجستير ، كلية آداب جامعة القاهرة ، ١٩٦٩ م .

٦ — شوقى عبـــد القوى حبيب : العـــلاقات التجارية بين مصر والدول الافريقية فى العصر المملوكى ، ماجستير ، معهد الدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م .

٧ ــ عبد الرازق عبد المجيد سليم : العلاقات بين مصر والنوبة فى العصر الفاطمى ، ماجستير ، معهد الدراسات الافريقية ، ١٩٧٨ م .

٨ ــ عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة البرنو الاسلامية ، ماجستير ، معهد الدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م .

٩ ــ عطية القوصى : بنو كنز ، ماجستير ، كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ، ١٩٧٠ م .

١٠ــ محمود محمـــد على الحويرى : اســـوان فى العصور الوسطى ، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٢ م .

١١ــ محيى الدين خليل : لغة البقارة فى غرب السودان ، دكتوراه ، آداب القاهرة ، د.ت .

١٢ــ نوال على محمد عبد العزيز : العرب فى شرق افريقيا فى القرن الثامن الميلادى حتى تدخل البرتغاليين فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ماجستير ، معهد الدراسات الافريقية ــ جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ م .

المراجـــع الاجنبيـــة

1 — Arkell, A. J., History of the Sudan. London, 1961.

2 — BarBour, K. M., The Republic of the Sudan. 1961.

3 — Cooley W. D. The Negro Land of the Arabs. Landon, 1891.

4 — Gesse, R., Seven Years in the Sudan. London, 1882.

5 — GrawFord, G. S., The Fung Kingdom of Senner. 1951.

6 — Greenberg, J., The Influence of Islam on Sudan Religion, N. Y., 1946.

7 — Lonepool, : A History of Egypt in the Middle Ages. Longon, 1901.

8 — Lewis, I. M., : Islam in Tropical Africa. London, 1969.

9 — Halt, P. M. : History of Islam. 2 vol.Cambridge. 1970.

10 — Hamilton, J. A., The Anglo Egyptian Sudan. London, 1935.

11 — Hogdkin, T. : The Kingdoms of Western Sudan. London, 1963.

12 — Macmichael, H A. : History of the Arbs in the Suan London, 1967.

13 — Macmichael, H. A. : The tribes of Northern and central Kordofan. Cambridge, 1917.

14 — Macmichael, H. A., The Coming of the Arabs in the Sudan 1935.

15 — Mandour El Mahadi, : A short History of the Sudan. London, 1965.

16 — Nadler, L. : Funy origins S. N. R. vol. 14.

17 — Poul, A. : A History of the Bija Tribes of the Sudan, London, 1971.

18 — Pollme, R. Travels in Kordofan, London, 1844.

19 — Shinnie, P. L., Medieval Nubia. ,Khartoum, 1954

20 — Toynbee, A. J., Between Niger and Nile, New York, 1466.

21 — Trimingham, J. S, : Islam in the Sudan. London, 1949.

22 — Trimingham, J. S. : A History of Islam in West Africa. London, 1462.

23 — Yusuf Fadel Hassan. : The Arbs and Eastern Sudan. Edinbourgh, 1967.

فهرس المحتويات

الصفحة

الباب الأول

البــاب الثانى

الصفحة

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

الصفحة

البـاب السادس

البـاب السابع

الصفحة

رقم الايــداع بــدار الكتب القوميه

٨٥/٥٥٨٥

شركة دار الاشعاع للطباعة

١٤ ش عبد الحميد السيدة زينب القاهرة